كيف تقرأ كتاباً

تأليف: مورتيمر آدلر و تشارلز ڤان دورن

ترجمة: طلال الحمصي

ض ل ع Q G F ج ب ا N

prince myshkin

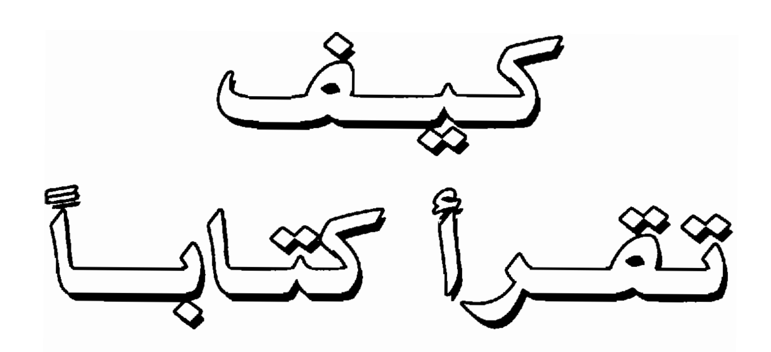

تأليف

موريتمر آدلر و تشارلز ڤان دورن

ترجمة

طلال الحمصي

الطبعة الأولى

1416 هـ ـ 1995 م

الدار العربية للعلوم

Arab Scientific Publishers

بناية الريم ـ شارع ساقية الجنزير ـ عين التينة
هاتف 811385 - 860138 - 861311
ص ب 13/5574 بيروت ـ لبنان
هاتف وفاكس دولي 4782486 (212) 001

المحتويات

القسم الأول 15
الفصل الأول ـ فعالية وفن القراءة 16
نشاط القراءة 17
أهداف القراءة 21
القراءة للتعلم (الفرق بين التعلم من خلال عملية التعليم والتعلم بالاكتشاف) 25
حضور أو غياب المدرّس 28
الفصل الثاني ـ مستويات القراءة 30
الفصل الثالث ـ المستوى الأول للقراءة (القراءة الابتدائية) 36
مراحل تعلم القراءة 39
المراحل والمستويات 42
المستويات الأعلى من القراءة والتعليم العالي 44
القراءة والمثال الديمقراطي في التعليم 46
الفصل الرابع ـ المستوى الثاني من القراءة 47
القراءة التفحصية I 48
القراءة التفحصية II (القراءة السطحية) 53
حول سرعة القراءة 55
التثبيت والإنكفاء 57
ملخص القراءة التفحصية 60
القسم الثاني 63
الفصل الخامس ـ كيف تكون قارئاً مجداً 64
كيف تجعل الكتاب ملكك 68
تكوين عادة القراءة 72

الفصل السادس ـ تصنيف الكتاب 77
ما الذي يمكن أن تتعلّمه من عنوان الكتاب 80
الكتب العلمية مقابل الكتب النظرية 84
أنواع الكتب النظرية 90
الفصل السابع ـ تصوير الكتاب شعاعياً 95
اكتشاف وحدة الكتاب 98
إتقان التعددية (فن تلخيص الكتاب) 104
الفنون المتبادلة بين القراءة والكتابة 109
اكتشاف قصد الكاتب 111
المرحلة الأولى من القراءة التحليلية 113
الفصل الثامن ـ التوصل إلى تفاهم مع الكاتب 116
إيجاد الكلمات الرئيسية 121
الكلمات الفنية والتعابير الخاصة 123
إيجاد المعاني 127
الفصل التاسع ـ تحديد رسالة الكاتب 135
إيجاد الجمل الهامة 142
إيجاد المناقشات 150
المرحلة الثانية من القراءة التحليلية 158
الفصل العاشر ـ نقد الكتاب بشكل ملائم 160
قابلية التعلم كميزة 162
دور البلاغة 163
الفصل الحادي عشر ـ الاتفاق والإختلاف مع الكاتب 176
الحكم على آراء الكاتب 180
المرحلة الثالثة من القراءة التحليلية 187
الفصل الثاني عشر ـ مساعدات القراءة الخارجية 192
كيف تستعمل التعليقات والمستخلصات 198

كيف تستخدم كتب المراجع 200
كيف تستعمل القاموس 203
كيف تستعمل الموسوعات 207
القسم الثالث 215
الفصل الثالث عشر ـ كيف تقرأ الكتب التطبيقية 216
نوعين من الكتب التطبيقية 218
وظيفة الإقناع 222
الفصل الرابع عشر ـ كيف تقرأ الأدب التخيلي 228
قواعد عامة لقراءة الأدب التخيلي 234
الفصل الخامس عشر ـ اقتراحات من أجل قراءة القصص والمسرحيات والقصائد 241
كيف تقرأ القصص 244
ملاحظة عن الملاحم 249
كيف تقرأ المسرحية 250
ملاحظة عن التراجيديا 253
كيف تقرأ القصائد الغنائية 255
الفصل السادس عشر ـ كيف تقرأ التاريخ 260
نظريات التاريخ 263
الشمول في التاريخ 265
أسئلة عليك أن تسألها لكل كتاب تاريخي 268
كيف تقرأ التراجم والسيَر الذاتية 270
كيف تقرأ عن الأحداث الجارية 275
ملاحظة حول المختارات 280
الفصل السابع عشر ـ كيف تقرأ العلوم والرياضيات 283
اقتراحات من أجل قراءة الكتب العلمية الكلاسيكية . . 286
مواجهة مشكلة الرياضيات 288

معالجة الرياضيات في الكتب العلمية 293
ملاحظة عن شعبية العلوم 295
الفصل الثامن عشر ـ كيف تقرأ الفلسفة 299
الفلسفة المعاصرة وتقاليدنا العريقة 305
الشكل الفلسفي 309
تلميحات لقراءة الفلسفة 315
اتخاذ قرارك الشخصي 320
الفصل التاسع عشر ـ كيف تقرأ العلوم الاجتماعية 322
السهولة الواضحة في قراءة العلوم الاجتماعية 325
صعوبة قراءة العلوم الاجتماعية 327
قراءة أدبيات العلوم الاجتماعية 330
القسم الرابع 333
الفصل العشرون ـ القراءات المتزامنة الموجهة لموضوع واحد
(قراءة المراجع SYNTOPICAL READING) 334
وظيفة القراءة التفحصية في القراءات الموجهة
لموضوع واحد 338
الخطوات الخمس في القراءات الموجهة لموضوع
واحد 341
ملخص القراءات الموجهة لموضوع واحد 362
الفصل الحادي والعشرون ـ القراءة والنمو العقلي 365
أهرام من الكتب 369

مقدمة

طُبعَ كيف نقرأ كتاباً للمرة الأولى في أوائل 1940. وأعترف أنه قد فاجأني وسرني أنه قد أصبح من الكتب الأكثر مبيعاً حالما صدر وبقي على رأس قائمة الكتب الأكثر مبيعاً لأكثر من سنة. وقد استمر منذ 1940 ليكون من الكتب الأوسع توزيعاً بأشكال متعددة، ككتاب مجلد تجليداً فاخراً إلى الكتب الشعبية. وترجم إلى لغات أخرى (الفرنسية والسويدية والألمانية والإسبانية والإيطالية) فلماذا إذاً لا أحاول أن أعيد كتابته للجيل الحالي من القراء.

والسبب في ذلك يكمن في التغيرات التي أخذت مكانها في كل من المجتمع والموضوع بحد ذاته خلال الثلاثين سنة الأخيرة. في أيامنا هذه يوجد العديد من الشباب والشابات الذين أكملوا دراستهم الثانوية ودخلوا الكليات لمدة 4 سنوات. حيث أن قسماً أكبر من السكان أصبحوا غير أميين بالرغم من أنَّ الراديو والتلفزيون قد أصبحا وسائل تثقيف أكثر شعبية. حيث يوجد تحول في الاهتمام بالقراءة من كتب الأدب التخيلي إلى قراءة الكتب غير الأدبية. وقد اعترف المعلمون في هذه البلاد أن تعليم النشء كيف يقرأ بالمعنى الابتدائي للكلمة هو الهدف الأسمى للمشكلة التعليمية. والوزير الحالي للصحة والتربية والرفاه قد سمّى عقد السبعينات بأنه عقد القراءة وقد خصص جزءاً دعماً من الموازنة الاتحادية للجهود المتنوعة لانجاز الفعالية العالية للمهارات الأساسية للقراءة، والعديد من هذه الجهود انصبت لإنجاح هذه العملية على المستوى الذي يستحقه الأطفال في فن القراءة. وبالإضافة إلى ذلك فإن عدداً كبيراً من الراشدين قد أُخذوا بتألق الوعود التي أطلقت من خلال دورات القراءة السريعة، هذه الوعود التي تعني زيادة فهم ما يقرؤونه بالإضافة إلى سرعة القراءة.

هناك بعض الأمور التي لم تتغير خلال هذه السنين الثلاثين، وهي الرغبة

بإمكانية احراز أهداف قراءة مواد مختلفة بسرعات ـ ملائمة ـ ومختلفة، وليس قراءة كل شيء بأكبر سرعة ممكنة.

لقد لاحظ باسكال منذ ثلاثمائة سنة «أننا» عندما نقرأ بسرعة كبيرة أو ببطء شديد فإننا لا نفهم شيئاً. وحيث أن سرعة القراءة قد أصبحت شكلاً مألوفاً فإن هذه الطبعة الجديدة من كتاب «كيف تقرأ كتاباً» تبحث في مشكلة وأهداف القراءة بسرعات متعددة كحل لها، والهدف من ذلك أن تقرأ بشكل أفضل ودائماً بشكل أفضل، لكن ببطء في بعض الأحيان وبسرعة في أحيان أخرى.

وهناك أمر آخر لم يتغيّر، وهو الإخفاق في تعليم القراءة أبعد من المستوى الابتدائي. إن معظم إبداعنا التعليمي والمال المنفق والجهد الذي يبذل هو على تعليم القراءة خلال الصفوف الستة للمرحلة الابتدائية. وبعد هذه المرحلة لا يوجد سوى تدريب رسمي قليل لحمل التلاميذ إلى مستويات ومهارات أعلى من ذلك. وكان هذا صحيحاً في عام 1939 عندما كتب البروفيسور جيمس مارسل من كلية المعلمين بجامعة كولومبيا مقالة في مجلة «اتلانتيك الشهرية» بعنوان «الإخفاق في المدارس». إن ما قاله في ذلك الحين في فقرتين هو ما سأقتبسه هنا لأنه ما زال صحيحاً.

«هل يتعلم تلاميذ المدارس لغتهم الأم بشكل فعّال؟ نعم ولا. إنه حتى الصف الخامس أو السادس الابتدائي تكون القراءة بمجملها قد عُلِّمت بشكل فعّال. وحتى ذلك المستوى نجد تطوراً عاماً وثابتاً ولكنه ينحدر ليصل إلى المحور الأفقي. وليس ذلك لأن الشخص قد وصل إلى الحدود الطبيعية من الكفاءة عندما يصل إلى السادس الابتدائي، بل لأنه قد ظهر تكراراً أنه بتعليم خاص يتعلّم الصغار والراشدون أيضاً أن يحدثوا تطورات هامة في قدراتهم. ولا يعني ذلك أن طلاب السادس الابتدائي يقرؤون بشكل حسن وكافٍ في كل الأهداف العملية. إن تلاميذ عديدين يؤدون القراءة على نحو رديء في المدارس الثانوية لأنهم لا يستطيعون أن يحصلوا على المعنى المطلوب من الصفحة المطبوعة. فهم بحاجة إلى التحسن لكنهم لا يقومون بذلك.

إن متوسط خريجي المدارس الثانوية قد قاموا بقراءة مواد كثيرة وإذا دخلوا الجامعات فإن عليهم أن يقوموا بقراءات أكثر، ولكنهم على الأرجح يكونون قراءً رديئين وغير كفوئين. (لاحظ أن هذا ينطبق على الطالب المتوسط وليس على الشخص الذي تلقى تدريباً علاجياً خاصاً لتخطي هذه الحالة). يمكنه أن يقرأ قطعة بسيطة من الأدب وأن يستمتع بها. لكن ضعه أمام قطعة من أي عمل تفسيري أو مناقشات اقتصادية متأنية أو مقطع يتطلب دراسة نقدية فإنه سيضيع. لقد ظهر على سبيل المثال أن الطالب الثانوي المتوسط يفشل بشكل مذهل إذ وضع الفكرة الرئيسية لمقطع، أو مستويات التركيز على مناقشة ما أو موضوع تفسيري. وإنه سيبقى قارئاً لمستوى الصف السادس الابتدائي حتى حينما يقطع شوطاً في دراسته الجامعية».

إذا كان هناك حاجة لكتاب «كيف نقرأ كتاباً» منذ ثلاثين سنة، كما أشارت إليه الطبعة الأولى من هذا الكتاب، فإن الحاجة له هي أكثر في يومنا هذا. ولكن الاستجابة لمثل هذا الكتاب ليست فقط أكبر ولا كما يبينه الموضوع في إعادة كتابة هذا الكتاب. لقد ظهرت أضواء جديدة على مشكلة تعلم كيفية القراءة من خلال تحليل شامل ومنظّم لمشكلة فن القراءة. إن التطبيقات المرنة للقواعد الأساسية للأشكال المختلفة للقراءة، خلقت حقيقة وهي أن كل موضوعات القراءة هي هدف لاكتشاف صياغات لقواعد جديدة للقراءة، إن مفهوم أهرام الكتب الواجب قراءتها عريضة عند القاعدة وضيقة عند القمة. لذا فكل هذه الأمور لم تُعالج بشكل ملائم، أو لم تُعالج على الاطلاق في الكتاب الذي كُتب منذ ثلاثين عاماً مضت، دعت لتفسير الحاجة لإعادة كتابته وهو الآن قد أُنجز وطُبع.

إن السنة التي تلت طباعة كتاب «كيف تقرأ كتاباً» في الطبعة الأولى، ظهر كتاب يحاكيه تحت عنوان «كيف تقرأ كتابين». وقام البروفيسور أي إيه ريتشاردز بكتابة دراسة مطوّلة بعنوان «كيف تقرأ صفحة» لقد ذكرت كلاً من هاتين النتيجتين كي أشير إلى أن مشكلة القراءة تفترض من خلال هذين العنوانين المازح منهما والجاد قد عولجت كلياً أثناء إعادة كتابة الكتاب، خصوصاً فيما يتعلق بمشكلة قراءة عدة كتب ترتبط فيما بينها وقراءتها بطريقة تظهر التوافق والتعارض فيما

بينها وتظهر أيضاً أن الموضوع قد تم تناوله بوضوح.

ومن بين الأسباب التي دعت لإعادة كتابة كتاب «كيف تقرأ كتاباً» أني ركزت على الأشياء التي يجب أن تُقال في فن القراءة والنقاط التي يجب أن توضّح عند الحاجة لاكتساب مستويات أعلى من المهارات في هذا الفن والتي لم يتم تناولها أو تطويرها في النسخة الأصلية من هذا الكتاب. وكل من يريد أن يكتشف ماذا أضيف إلى هذه الطبعة ما عليه سوى مقارنة جدول محتويات هذا الكتاب مع جدول محتويات الطبعة الأولى. فالقسم الثاني الذي يتناول قواعد القراءة التحليلية هو الذي بقي فقط من النسخة الأولى مع بعض التعديل. أما القسم الأول والذي يتناول التفريق بين المستويات الأربعة من القراءة؛ القراءة الابتدائية والقراءة التفحصية والقراءة التحليلية والقراءة المتزامنة الموجهة لموضوع واحد هو التغير الأساسي الموجه لتنظيم الكتاب ومحتوياته. ويفسر القسم الثالث الذي يتناول مفاهيم مختلفة للأنواع المختلفة من مواد القراءة ـ الكتب العملية والكتب النظرية وكتب الأدب التخيلي (الملاحم والشعر والقصائد الغنائية والروايات والمسرحيات) ثم التاريخ والعلوم والرياضيات والعلوم الاجتماعية والفلسفة ـ بالإضافة إلى قراءة الكتب المرجعية والمواد الصحفية حتى الإعلانات. كل هذه قد أضيف لها إضافات جمّة. وأخيراً مناقشة القراءات المتزامنة الموجهة لموضوع واحد هو جديد كلياً بالنسبة للكتاب الأصلي.

في العمل الذي تم من أجل تحديث وإعادة كتابة هذا الكتاب فقد اشتركت مع تشارلز ڤان دورن الذي عمل معي لعدة سنوات في «معهد البحوث الفلسفية». وقد عملنا معاً في كتب أخرى ومنها المجلدات العشرون «لحوليات أمريكا» وقد نشرت بواسطة الموسوعة البريطانية في عام 1969. والشيء الوثيق الصلة بالموضوع هو الجهد المشترك الذي شاركني فيه ككاتب مساعد خلال السنوات الثماني الأخيرة حيث عملنا في عقد اجتماعات مناقشة للكتب العظيمة في ندوات في شيكاغو وسان فرانسيسكو وأسبن. ومن خلال هذه التجربة فقد

اكتسبنا رؤى جديدة أخذت مكانها أثناء إعادة كتابة هذا الكتاب.

أنا ممتن للسيد ڤان دورن لمساهمته في هذا الجهد المشترك، وأود أن أعبر عن امتناني العميق للنقد البناء والإرشاد والمساعدة التي تلقيناها من صديقنا آرثر روبن الذي أقنعنا بتقديم التغيرات الهامة التي ميّزت هذا الكتاب عن سابقه وجعلته كما نأمل أكثر فائدة.

مورتيمرج آدلر

القسم الأول

فعالية وفن القراءة

إن هذا الكتاب للقراء وللذين يرغبون في أن يصبحوا قراءً وعلى وجه التحديد لقراء الكتب بشكل خاص، وبشكل أخص للذين يكون هدفهم الأساسي من قراءة الكتب أن يجنوا فهماً متزايداً من خلال القراءة.

ونقصد بالقراء الأشخاص الذين اعتادوا - مثلما اعتاد كل الأشخاص المتعلمين الأذكياء - أن يكتسبوا قدراً كبيراً من المعلومات، وفهماً أوسع للعالم من خلال الكلمة المكتوبة، وبالطبع ليست كل معلوماتهم من خلال الكلمة المكتوبة، ففي تلك الأيام قبل استخدام الراديو والتلفزيون، كان المقدار المعين من المعلومات والفهم قد اكتسب من خلال الكلمة المحكية ومن خلال الملاحظة. ولكن بالنسبة للأذكياء ومحبي التعلم لم يكن ذلك كافياً. لقد أدركوا أن عليهم أن يقرؤوا وقد فعلوا ذلك.

وهناك شعور سائد في أن القراءة لم تعد ضرورية في هذه الأيام كما كانت من قبل. لأن الراديو وبشكل أخص التلفزيون قد أديا مهام عديدة كانت تُغطى سابقاً من خلال الطباعة مثلما أدى التصوير الفوتوغرافي مهام كانت تُغطى سابقاً من خلال الرسم والفنون التصويرية الأخرى. ونحن نقر بأن التلفزيون يؤدي بعض الوظائف بشكل جيد جداً، لأن النقل المرئي للوقائع الاخبارية مثلاً كان له تأثير أوسع. وأن قدرة الراديو في أن يعطينا بعض المعلومات بينما نحن منخرطون في أعمال أخرى (قيادة السيارة - وسماع الراديو) هي قدرة كبيرة وتوفير كبير للوقت. ولكن التساؤل الجاد عما إذا كانت وسائل الاتصال الحديثة قد عززت من فهمنا للعالم الذي نعيش فيه.

قد تكون معرفتنا للعالم أكبر عما كانت عليه سابقاً وإن المعرفة شرط أساسي للفهم ولكنها ليست شرطاً للفهم بذلك القدر كما هو مفترض عموماً. ولا يتوجب علينا أن نعرف كل شيء عن شيء ما، كي نفهمه. وغالباً ما تقف الحقائق الكثيرة عن هذا الشيء عائقاً عن فهمه، تماماً مثل الحقائق القليلة عنه. وهناك اتجاه يقول إننا ـ نحن المعاصرين ـ قد غمرنا بحقائق شكلت ضرراً لفهمنا.

إن أحد الأسباب التي سببت هذه الحالة، هي أن وسائل الاتصال التي ذكرناها قد صممت كي تظهر أن التفكير غير ضروري، وإن جميع الآراء والمواقف الفكرية هو أحد أكثر المغامرات فعالية لبعض أفضل العقول في أيامنا. وإن مشاهد التلفزيون ومستمع الراديو وقارىء المجلة يتلقى مركّباً كاملاً من العناصر ـ من البلاغة اللغوية البارعة إلى البيانات والاحصاءات المنتقاة بعناية ـ لتجعل من السهل عليه أن يقرر رأيه بأدنى حد من الجهد والصعوبة. ولكن هذا الجمع غالباً ما يكون فعالاً حتى أن المشاهد أو المستمع أو القارىء لا يقرر رأيه أبداً. وعوضاً عن ذلك فإن المتلقي يدخل هذه الآراء مجتمعة في رأسه، كما يدخل شريط الكاسيت في آلة التسجيل. وبعد ذلك يضغط المفتاح المناسب ليكرر الآراء حيثما وجد أن ذلك مناسباً. وبذلك يكون قد قام بأداء مقبول دون الحاجة إلى أن يفكر.

نشاط القراءة

كما نوهنا منذ البداية، إن اهتمامنا الأساسي في هذه الصفحات هو تنمية مهارات قراءة الكتب، ولكن قواعد القراءة إذا اتبعت وموربست لتنمية هذه المهارة يمكن أن تطبق على أية مواد طباعية بشكل عام وعلى أي نوع من المواضيع المعدة للقراءة ـ صحف مجلات كتيبات مقالات وكراسات وحتى الإعلانات.

وبما أن أي نوع من القراءة هي نشاط إيجابي، فإن كل القراءات هي إلى

حد ما إيجابية. ولا يمكن مطلقاً تصور القراءة كنشاط سلبي، فمن المستحيل أن نقرأ وعيوننا جامدة على كلمة واحدة وذهننا في حالة نوم. وهكذا فحينما نقارن بين القراءة السلبية والإيجابية فإن هدفنا هو:

أولاً: أن نوجه الاهتمام إلى حقيقة هي أن القراءة يمكن أن تكون إيجابية لمدى أكثر أو أقل.

ثانياً: لنشير إلى أنه كلما كانت القراءة فعالة أكثر كانت أفضل.

ومن هنا فإن قارئاً أفضل من الآخر بمقدار ما يكون قادراً على تحقيق نشاط أوسع في القراءة وبذل جهد أكبر. وهو أفضل بمقدار ما يتطلبه من نفسه ومن النص الذي أمامه.

ورغم أنه لا يوجد قراءة سلبية مطلقة بالمعنى الدقيق، فإن هناك أشخاصاً كثيرين يرون أن القراءة والاستماع هي أفعال سلبية وذلك بالمقارنة مع الكتابة والتحدث اللذين هما أفعال إيجابية. لأن الكاتب أو المتحدث يقوم بجهد ما هو غير موجود في حالة القراءة أو الاستماع.

إن القراءة والاستماع يعتقد أنهما استقبال للاتصال الذي يرسله شخص منخرط بفعالية إعطاء أو إرسال هذا الاتصال. والخطأ هنا هو افتراض أن المتلقي هو كمن يتلقى ضربه أو ميراثاً أو حكماً من المحكمة. وعلى النقيض من ذلك، فإن القارىء أو المستمع هو أكثر شبهاً بمن يتلقى الكرة في لعبة البيسبول. إن التقاط الكرة هو فعالية مثله مثل قذف الكرة وضربها. وإن القاذف أو من الأفضل أن ندعوه المرسل يقوم بفعالية تستهل بها الكرة حركتها. بينما الملتقط أو الممسك أو المتلقي للكرة يقوم بفعالية إنهاء حركة الكرة. ومن هذا المنطلق فإن كلا الفعلين إيجابيان رغم اختلافهما. وإذا كان أي شيء سلبياً في هذه اللعبة فهي الكرة، إنها الشيء الخامل الذي يشل الحركة أو يوقفها عندما يكون اللاعبون مستعدون لقذف أو ضرب أو إمساك الكرة. إن المقارنة بين الكتابة والقراءة هي شبه تامة، وإن الكتاب الذي يكتب أو يقرأ هو مثل الكرة

الشيء السلبي والمشترك بين النشاطين اللذين تبدأ وتنتهي بهما العملية.

ونستطيع أن نأخذ هذه المقارنة كخطوة أبعد. ففن الالتقاط هو المهارة في إمساك كل أنواع الكرات المقذوفة. وبشكل مشابه فإن القراءة هي فن إمساك كل أنواع المعلومات على أفضل وجه ممكن. ومن الجدير بالملاحظة أن نجاح كل من القاذف والملتقط متوقف على المدى الذي يتعاونان من خلاله. وإن العلاقة بين الكاتب والقارىء هي علاقة مشابهة لتلك، إن الكاتب لا يحاول أن يكون غير مفهوم، وإن ظن ذلك في بعض الأحيان. وإن التواصل الجيد يحدث عندما تجد أقوال الكاتب طريقها إلى القارىء، ومهارة الكاتب والقارىء تتركز حول هذا الهدف المشترك.

ولنقر بأن الكتّاب يختلفون كما يختلف قاذفو الكرات. فبعض الكتّاب لديهم ضوابط جيدة فهم يعرفون تماماً ما يريدون أن يبلغوا وهم يبلغونه بشكل صحيح ودقيق. وفي حال تساوي الظروف يكون الكتاب أسهل إدراكاً من كتاب متهور وبدون ضوابط.

وهناك حالة واحدة يمكن أن تنتهي عندها هذه المقارنة. وهي أن الكرة وحدة بسيطة فإما أن يمسكها اللاعب أو لا، في حين أن النص المكتوب هو شيء مركّب، وبناء على ذلك يمكن أن يُلتقى بدرجات متفاوتة، من أصغر شيء أراد الكاتب قوله إلى كل ما أراد قوله. وإن مقدار ما يلتقطه القارىء يتوقف عادة على مقدار الجهد الذي يبذله في هذه العملية بالإضافة إلى المهارات التي ينفذ بها القارىء العمليات الذهنية المختلفة.

ماذا تستلزم القراءة الفعالة؟ سوف نعود إلى هذا السؤال مرات عديدة في هذا الكتاب. ولكن يكفي أن نقول في الوقت الحاضر أنه إذا أعطينا نصاً مكتوباً إلى شخصين لقراءته فإن واحداً يقرأه بشكل أفضل من الآخر وذلك: أولاً لأنه يقرؤه بفعالية أكبر. وثانياً لأنه يؤدي كل فعل يقوم به بمهارة أكثر، وهذان الأمران يتعلقان ببعضهما البعض، فالقراءة فعالية مركبة مثل الكتابة وهي تشتمل

على أفعال كثيرة ومنفصلة، وكل منها يجب أن ينفّذ في القراءة الجيدة. وبالتالي فالشخص الذي يؤدي الأكثر منها هو الشخص الأكثر قدرة على الفهم.

أهداف القراءة

القراءة للمعلومات والقراءة للتفهم

لنفترض أنه يوجد كتاب تريد أن تقرأه، وأن هذا الكتاب يتألف من مادة كتبها شخص بهدف إيصال شيء ما إليك. في هذه الحالة يتحدد نجاحك في القراءة بالمدى الذي تتوصل إليه من خلال تلقي كل شيء هدف الكاتب أن يوصله إليك.

إن هذا ـ بالطبع ـ أمر بسيط، والسبب في ذلك أن هناك احتمال علاقتين بين ذهنك والكتاب وليس فقط علاقة واحدة، وهاتان العلاقتان يمكن أن تتمثلا بتجربتين مختلفتين تحصل عليهما من خلال قراءة الكتاب.

هناك يوجد كتاب، وهنا يوجد عقل. ومن خلال اطلاعك على صفحات الكتاب يوجد احتمالان، فإنك إما أن تفهم كل شيء يقوله الكاتب، أو لا تفهم ذلك. فإذا كان فهمك كاملاً فإنك تكون قد اكتسبت معلومات، ولكنك في هذه الحالة لا تكون قد ازددت فهماً، وإذا كان الكتاب واضحاً تماماً من بدايته وحتى نهايته، فإن عقلك وعقل الكاتب قد وضعا في قالب واحد، والرموز الموجودة على الصفحات تكون فقط تعبيراً عن الفهم المشترك لما رأيته سابقاً.

وهناك احتمال آخر، وهو أنك لم تفهم الكتاب تماماً. ودعنا نفترض أنك قرأت حتى عرفت أنك لم تفهم الكتاب إطلاقاً، مع الإشارة هنا إلى أن هذا الشيء غير السار ليس دائماً هو الشيء الحقيقي. فقد تكون قد عرفت أن الكتاب يقول شيئاً أكثر مما فهمت منه، بمعنى أنه يحوي شيئاً يمكن أن يزيد من فهمك. ماذا ستفعل في هذه الحالة؟ يمكن أن تأخذ الكتاب إلى شخص آخر تعتقد أنه يمكن أن يقرأه أفضل منك ويشرح لك الأجزاء التي أتعبتك «وهذا يمكن أن يكون شخصاً أو كتاباً آخر تفسيري أو مدرسي». أو يمكنك أن تقرر أن ما لم تفهمه من الكتاب لا يستحق العناء وذلك لأنك فهمت من

الكتاب ما يكفي، وفي كلتا الحالتين فإنك لم تبذل الجهد الذي يتطلبه الكتاب.

هناك طريقة أخرى ولكنها ذات اتجاه واحد، وهي أن تتم قراءة الكتاب بدون مساعدة خارجية من أي نوع كانت، وأن يُبذل الجهد على ذلك الكتاب من خلال قوة ذهنك فقط، وبطريقة يمكن أن تزيد من مقدرتك تدريجياً للتحول من حالة الفهم الأقل لمرحلة الفهم الأكثر، وينجز مثل هذا التحول من خلال جهد الذهن على الكتاب باستعمال مهارات القراءة العالية، تلك القراءة التي يستحقها التحدي الذي يجابهك به الكتاب.

وهكذا يمكننا وبشكل تقريبي أن نعرِّف ما نعنيه بفن القراءة على النحو التالي: إنه العملية التي يعمل بها الذهن على حروف مادة مقروءة دون أية مساعدة من خارج المادة المقروءة ويرقى بها الذهن من خلال قواه الذاتية. وفي هذه الحالة ينتقل الذهن من مرحلة الفهم الأقل إلى مرحلة الفهم الأكثر. وهذه العمليات الماهرة التي تسبب حدوث هذه الحالة تتألف من الأفعال المختلفة لفن القراءة.

ومن الواضح أن هذه هي أكثر أنواع القراءة التي قمت بها فعالية لأنها تشتمل ليس على الأنواع المختلفة من الأنشطة فقط ولكنها أيضاً الأداء الماهر للأفعال المختلفة المطلوبة. كما أنه من الواضح أيضاً أن هذه الأشياء التي تعتبر عادة من الصعب قراءتها وبالتالي تتطلب قارئاً جيداً هي التي تستحق على الأرجح هذا النوع من القراءة.

إن التفريق بين القراءة من أجل المعلومات والقراءة من أجل فهم أعمق من ذلك. دعنا نحاول أن نقول أكثر على هذا الموضوع، يجب علينا أن نأخذ هدفي القراءة لأن الخط الفاصل بين طريقة قراءة مادة ما، وما يجب أن نقرأه بطريقة أخرى هو في الحقيقة خط غامض. وللمدى الذي نستطيع أن نحتفظ بهذين الهدفين المختلفين، فإننا نستطيع أن نستخدم كلمة «قراءة» بمعنيين مختلفين:

إن المعنى الأول هو ذلك الذي نقوله عن أنفسنا عندما نقرأ صحيفة أو مجلة أو أي شيء آخر والذي هو حسب مهارتنا ومواهبنا مفهوم كلياً بالنسبة إلينا. إن مثل هذا الشيء يمكن أن يزيد من مخزوننا من المعلومات ولكنه لا يستطيع أن يحسّن فهمنا، لأن فهمنا كان مساوٍ لها قبل أن نبدأ، وإلا فإننا سوف نشعر بالحيرة والارتباك من الذي سينتج في حالة عدم المساواة.

أما المعنى الثاني فهو عندما يحاول شخص أن يقرأ شيئاً لا يفهمه بشكل تام، في هذه الحالة سوف يكون مستوى المادة المعدة للقراءة أعلى من مستوى القارىء. إنه في هذه الحالة يزيد من فهمه. وإن هذا التواصل بين الشيئين غير المتساويين يجب أن يكون ممكناً وإلا لما كان هناك إمكانية لتعليم شخص من خلال شخص آخر، سواء من خلال الحديث أو من خلال الكتابة. وبذا تعني كلمة التعلم هنا الفهم الأكثر وليس تذكر معلومات أكثر لها نفس الدرجة من الوضوح كالمعلومات التي نمتلكها نحن.

ومن الواضح أنه لا توجد صعوبة من النوع الفكري عن المعلومات الجديدة من خلال عملية قراءة حقائق جديدة من نوع الحقائق التي نعرفها. إن الشخص الذي يعرف بعض الحقائق عن التاريخ الأميركي ويفهمها من خلال أضواءٍ معينة يستطيع أن يكتسبها من خلال القراءة طبعاً للمعنى الأول المستخدم للكلمة ولكن لنفترض أنه يقرأ تاريخاً لا يعطي فقط حقائق جديدة ولكنه يلقي أضواء جديدة على كل الحقائق التي يعرفها. ولنفترض أنه يوجد فهم أكثر متاح من تلك التي يمتلكها القارىء قبل أن يبدأ القراءة. فإذا استطاع القارىء أن يحقق فهماً أكبر فإنه يكون قارئاً بالمعنى الثاني للكلمة. ويكون بذلك قد رفع نفسه من خلال فعاليته بشكلٍ غير مباشر، وبالطبع يكون ذلك قد تم من خلال الكاتب الذي لديه شيء ليعلّمه.

ما هي الشروط التي تحدث من خلالها القراءة من أجل الفهم؟ هناك شرطان: الأول يوجد حين تكون عدم مساواة مبدئية للفهم، حيث يكون الكاتب بمستوى أعلى من مستوى القارىء ويشرح من خلال كتابه رؤياه التي يملكها

والتي تنقص القارىء. والثاني أن يكون القارىء قادراً على تجاوز عدم المساواة هذه لدرجة ما. حيث ينحو القارىء للتساوي مع الكاتب. وإلى المدى الذي يتقارب به هذا التساوي يكون التواصل قد أنجز بين القارىء والكاتب.

وبالمختصر نحن نستطيع أن نتعلم من الذين أفضل منا، ويجب أن نعلم من هم وكيف نتعلم منهم. إن الشخص الذي يمتلك هذا النوع من المعرفة يمتلك فن القراءة بالمعنى الذي نهتم به في هذا الكتاب وكل شخص يستطيع القراءة لديه القابلية للقراءة بهذه الطريقة. وكلنا دون استثناء نستطيع أن نتعلم كيف نقرأ أفضل ونكسب ذلك تدريجياً من خلال الجهد الأكثر الذي نطبقه على مواد قراءة قيّمة.

نحن لا نريد أن نعطيك الانطباع على أنه من السهل التمييز بين الحقائق التي تزيد معلوماتنا وبين تلك التي تزيد فهمنا. ونعترف أن سرداً معيناً للحقائق يقود إلى فهم أكثر، إلا أننا نود التركيز على ناحية معينة هنا وهي أن هذا الكتاب يبحث في فن القراءة من أجل زيادة الفهم. وإذا استطعت أن تفعل ذلك فإن القراءة من أجل المعلومات سوف تنجز تلقائياً.

وبالطبع فإنه يوجد هدف آخر للقراءة من أجل المعلومات والقراءة من أجل الفهم، إنها القراءة من أجل التسلية. وهذا الكتاب لن يُعنى بالقراءة من أجل التسلية، وهي الأقل جهداً بين كل القراءات وتتطلب الجهود الأقل من قبل القارىء. وكل شخص يعرف كيف يقرأ يستطيع القراءة من أجل التسلية إن أراد ذلك.

وفي الحقيقة فإن أي كتاب يقرأ من أجل الفهم أو من أجل المعلومات يمكن أن يقرأ على الأغلب من أجل التسلية، تماماً مثل الذي نقرأه لنزيد فهمنا يمكن أن نقرأه من أجل المعلومات التي يحتويها. (إلا أن هذا الافتراض لا يقبل العكس حيث أنه ليس كل كتاب يقرأ من أجل التسلية يمكن قراءته من أجل الفهم). ولا نرغب في أن نجادلك في ألاّ تقرأ الكتب الجيدة من أجل التسلية

فالمسألة التي نريد التركيز عليها أنك إذا كنت تريد أن تقرأ الكتب الجيدة من أجل الفهم فإننا نعتقد أننا نستطيع أن نساعدك. وموضوع كتابنا في هذه الحالة هو فن قراءة الكتب الجيدة من أجل الفهم حين يكون الفهم الهدف الذي هو نُصْبَ عينيك.

القراءة للتعلم

الفرق بين التعلم من خلال عملية التعليم والتعلم بالاكتشاف

إن الحصول على معلومات أكثر هو تعلم، وكذلك فهم ما لم تفهمه سابقاً هو أيضاً تعلم. ولكن هناك فرقاً هاماً بين هذين النوعين من التعلم.

إن التعلم هو ببساطة أن تعرف أن شيئاً قد حدث. وأن تتنور عن حادثة ما، وذلك يعني، أن تعرف كل شيء عنها، ولماذا حدث ذلك الشيء، وما هي الروابط التي تربطها مع حقائق أخرى، وما هي النواحي التي تتشابه بها، أو تختلف بها عن نواحي أخرى.

وهذا التمييز هو مشابه للفرق بين كونك تتذكر شيئاً وبين قدرتك على شرحه. إذا كنت قادراً على تذكر ما قال الكاتب، فأنت قد تعلمت من خلال قراءتك لذلك الكاتب. وإذا كان ما قاله الكاتب صحيحاً فإنك تكون قد تعلمت شيئاً عن هذا العالم. ولكن إذا كنت قد تعلمت حقيقة ما من الكتاب أو عن هذا العالم، وإذا لم تمارس سوى عملية التذكر فإنك لن تكون قد اكتسبت شيئاً سوى المعلومات. ولن تكون قد تنورت بذلك، لأن التنور لا يتم إلا عندما تعرف بالإضافة إلى ما قاله الكاتب، ماذا يعني بما قاله، ولماذا قاله.

وصحيح بالطبع أنه يجب أن تتذكر ماذا قاله الكاتب وماذا يعني. ولكن كونك قد أُعلمت هو شرط أساسي لأن تكون قد تنورت. والموضوع على كل حال هو ألا يتوقف الأمر على كونك قد أُعلمت.

يتحدث مونتاين عن «الجهل الابتدائي الذي يسبق المعرفة وتعديل هذا الجهل الذي يأتي بعدها». فالأول هو جهل هؤلاء الأشخاص الذين لا يستطيعون القراءة مطلقاً. والثاني هو جهل هؤلاء الذين أساؤوا فهم كتب عديدة. إنهم ـ كما يدعوهم ألكسندر بوب ـ الحمقى جاهلو القراءة. لقد وجد دائماً الجاهل الأدبي الذي قرأ بشكل واسع ولكن ليس بشكل جيد. كما أن اليونانيين لديهم تسمية لهذا الخلط بين التعلم والحماقة التي تطبق على هؤلاء المولعين بالمطالعة لكنهم يقرؤون بفعالية قليلة في كل العصور، إنهم «ضاحلو الثقافة».

ولتجنب الخطأ في افتراض أن القراءة الواسعة والقراءة الجيدة متماثلتان يجب أن ندرس التمييز بين أنواع التعلم. هذا التمييز الذي له أهمية كبرى في كل عملية القراءة وعلاقتها بعملية التعليم بشكل عام.

لقد تم التمييز، تاريخياً، بين التعلم بواسطة التعليمات والتعلم عن طريق الاكتشاف ويقصد بالتعلم بواسطة التعليمات هو عندما يقوم شخص بتعليم شخص آخر من خلال التكلم أو الكتابة. ونحن على كل حال نستطيع أن نحوز على المعرفة دون أن نكون قد عُلِّمنا. وإذا لم تكن هذه هي الحالة، وكل معلم يجب أن يعلِّم ما يقوم بتعليمه للآخرين فلن تكون هناك بداية لاكتساب المعرفة. ولذا يجب أن يكون هناك اكتشاف ـ أي عملية تعلم لشيء ما من خلال البحث والتقصي، أو بواسطة الانعكاس بدون أن نكون قد عُلِّمنا.

ويقف الاكتشاف بالنسبة للتدريس كما يقف التعليم بدون أستاذ للتعلُّم بوجود أستاذ. وفي كلتا الحالتين، فإن التعلم كفعالية يذهب إلى الشخص الذي يتعلم. ومن الخطأ أن نفترض أن التعلم بالاكتشاف هو فعالية إيجابية في حين أن التعلم من خلال التدريس هو فعالية سلبية. لأنه لا يوجد تعلم من خلال فعل سلبي، كما أنه لا يوجد قراءة بأفعال سلبية.

إنه لمن الصحيح في الحقيقة ـ كي يصبح هذا التمييز واضحاً ـ أن

ندعوه التدريس بـ «الاكتشاف من خلال المساعدة». دون الدخول في نظرية التعلم كما يتصورها علماء النفس، كما أنه من الواضح أن التدريس فن ذو خصوصية كبيرة، ويشترك في ذلك مع فنين آخرين وهما الزراعة والطب بميزات هامة. إن الطبيب يفعل أشياء كثيرة لمريضه، ولكن في التحليل النهائي فإن المريض نفسه يجب أن يُشفى وتنمو صحته. والمزارع يفعل أشياء كثيرة لنباتاته وحيواناته ولكن في التحليل النهائي فإن النباتات أو الحيوانات هي التي يجوز أن تنمو من حيث الحجم وتتفوق من حيث النوعية. وبشكل مشابه، فإن المدرس يمكن أن يساعد الطالب بطرق عديدة ولكن التلميذ يجب أن يقوم بعملية التعلم، كما أن المعرفة يجب أن تنمو في ذهنه إذا أخذ التعليم مكانه.

إن التفريق بين التعلم عن طريق التدريس والتعلم بطريق الاكتشاف ـ أو من الأفضل أن نقول بين الاكتشاف بمساعدة، أو الاكتشاف بدون مساعدة ـ هو أساساً تفريق بين المواد التي يعمل عليها من يتعلم. فعندما يُدرَّس ـ يكتشف بمساعدة الأستاذ ـ فإن من يتعلم يتعامل مع الشيء الذي يتعلمه. وهو يقدم عمليات المحاضرة سواء كتابة أو شفهياً. وهو يتعلم من خلال أفعال القراءة أو الاستماع. لاحظ هنا العلاقة الوثيقة بين القراءة والاستماع. ولاحظ هنا أننا إذا تجاهلنا هذه الاختلافات الصغيرة بين هاتين الطريقتين فإنه يمكننا أن نقول: إن القراءة والاستماع هما فن واحد، فن التعلم. وعلى كل حال، عندما يبدأ من يبغي التعلم بدون مساعدة من أي مدرس، فإن عمليات التعلم تؤدى على الطبيعة أو في محيط غير المحاضرة. وإن قواعد مثل هذا التعلم تشمل فن الاكتشاف دون مساعدة. وإذا استعملنا كلمة قراءة بغير معناها الدقيق، فإننا نستطيع القول: إن الاكتشاف ـ وتحديداً الاكتشاف بدون مساعدة ـ هو فن قراءة الطبيعة أو المحيط، كما أن التدريس ـ الاكتشاف بمساعدة ـ هو فن قراءة الكتب ويشمل أيضاً الاستماع أو التعلم من خلال محاضرة.

ماذا عن التفكير؟ إذا كنا نقصد بعبارة «التفكير» هو استعمال عقولنا لكسب المعرفة أو الفهم وكان التعلم بالاكتشاف أو التعلم من خلال مدرس، يستنفد

السبل لاكتساب المعرفة، فإن التفكير يجب أن يأخذ مكانه في كل من هاتين الفعاليتين. يجب أن نفكر أثناء القراءة أو الاستماع كما يجب أن نفكر أثناء القيام بأبحاث. وطبيعي القول بأن أنواع التفكير مختلفة كاختلاف طرق التعلم.

والسبب في أن أشخاصاً كثيرين يعتبرون التفكير أكثر ارتباطاً بالبحث العلمي والاكتشاف دون مساعدة لأنهم يفترضون أن القراءة والاستماع هما عمليتان لا تحتاجان إلى جهد. وعلى الأغلب فإن ذلك صحيح بعض الشيء لأن القراءة للمعلومات أو للتسلية فإنها تتطلب تفكيراً أقل من ذلك الذي تتطلبه المباشرة في اكتشاف شيء ما. لأن هذين النوعين من القراءة هما أقل أنواع القراءة فعالية. وهذا لا ينطبق على القراءة بفعالية والتي يقصد منها القراءة للتفهم. لأنه لا أحد قام بهذا النوع من القراءة ـ القراءة للتفهم ـ وقال إنها تتم دون تفكير.

إن التفكير هو جزء من فعل التعلم فقط، لأن الفرد يجب أن يستعمل إدراكه وتخيله، ويجب أن يلاحظ ويتذكر، وأن ينشىء تصوراً لما لا يمكن أن يلاحظه. وهنا أيضاً يظهر الاتجاه على التأكيد على دور كل من هذه العوامل في عملية الاكتشاف دون مساعدة وينسون أو يقلصون من هذه العوامل في عملية التفكير من خلال القراءة أو الاستماع. وعلى سبيل المثال، فإن أشخاصاً كثيرين يفترضون أن الشاعر يجب أن يستخدم خياله في عملية النظم، أما القراء فلا يجب أن يستخدموا خيالهم في قراءتها. وباختصار فإن فن القراءة يتضمن كل المهارات التي يشملها فن الاكتشاف دون مساعدة، من الملاحظة الحادة والذاكرة المهيأة ومدى فن التخيل وبالطبع الذهن المتمرس في التحليل والتفكير. لأن القراءة بهذا المعنى هي اكتشاف أيضاً، رغم أن ذلك يتم مع أو بدون مساعدة.

حضور أو غياب المدرّس

رأينا أن القراءة والاستماع يمكن أن يعاملا كالتعلم من المدرس، وذلك صحيح إلى حد ما لأن كلتا الطريقتين هي تعلم ويجب أن يكون الفرد في كلتا

الطريقتين ذا مهارات في فن التعلم. فمثلاً إن الاستماع إلى مجموعة من المحاضرات في كثير من الاعتبارات هو كقراءة كتاب، والاستماع إلى قصيدة يماثل قراءتها. وكثير من القواعد التي يشملها هذا الكتاب قد طبقت هذه التجربة. لكن هناك سبباً وجيهاً يجعلنا نركّز بشكل أساسي على القراءة، بينما ندع الاستماع يأتي بالدرجة الثانية. والسبب في ذلك هو أن الاستماع تعلم من مدرس حاضر - أي كائن حي - في حين أن القراءة هي تعلم من أستاذ غير موجود (أستاذ غائب).

وإذا سألت مدرساً سؤالاً، فإنه على الأغلب سوف يجيبك. وإذا لم تفهم ما قاله المدرس، فإنك سوف توفر على نفسك جهد التفكير بأن تسأله ماذا يقصد بكلامه. أما إذا سألت الكتاب سؤالاً، فإنك يجب أن تجيب عليه بنفسك. ومن هذا المنطلق فإن الكتاب هو مثل الطبيعة عندما تسألها فإنها تجيبك إلى المدى الذي يمكنك أن تفكر فيه وتحلله بنفسك.

وهذا لا يعني بالطبع أن إجابة الأستاذ على سؤالك ينهي الموضوع لأنه يبقى عليك في هذه الحالة أيضاً أن تقوم بعمل بعد ذلك. وهذا صحيح فقط إذا كان السؤال عبارة عن حقيقة مبسطة. ولكن إذا كنت تبحث عن تفسير، فإنه يجب عليك أن تفهمه وإلا فإنه يكون وكأنه لم يشرح. ومع ذلك، فإن وجود أستاذ أمامك يوجهك للاتجاه الذي يجعلك تفهمه، وهذا مختلف جداً عما إذا كانت كلمات الأستاذ موجودة في كتاب عليك أن تقرأه بأكمله.

إن طلاب المدارس غالباً ما يقرؤون كتباً صعبة بمساعدة وإرشاد أساتذتهم. ولكن بالنسبة للآخرين الذين ليسوا في المدارس وبالإضافة إلى الأشخاص الذين يحاولون قراءة كتب غير مطلوبة أو محددة من أستاذ، فإن متابعة التعلم والتثقف تعتمد بشكل أساسي على الكتب وحدها، أي بالقراءة دون مساعدة مدرس. ولذا فإننا إذا كنا مقتنعين بالاستمرار في التعلم والاكتشاف، فإن علينا أن نعرف كيف نجعل الكتب تعلّمنا بشكل جيد. وهذا في الحقيقة هو الهدف الأساسي لهذا الكتاب.

الفصل الثاني

مستويات القراءة

في الفصل السابق، وضعنا بعض التفريقات التي نعتبرها هامة فيما سيتبع. إن الهدف الذي يلتمسه القارىء من قراءة كتاب معين هو الذي يحدد نوع وطريقة القراءة، ويمكن أن يكون هذا الهدف القراءة من أجل المتعة، أو من أجل المعلومات، أو من أجل التفهم. وتتجدد الفعالية التي يقرأ بها القارىء ومدى تأثيرها بكمية الجهد الذي يبذله والمهارات التي يستعملها خلال عملية القراءة.

وبشكل عام، تكون القاعدة كالتالي: الجهد الأكثر الذي نبذله هو الأفضل، وعلى الأقل في حالة الكتب التي هي أكبر من مقدرتنا كقراء وهي التي تستطيع بالتالي رفعنا من حالة الفهم الأقل لحالة الفهم الأكثر. وأخيراً فإنه للتمييز بين التعليم والاكتشاف (أو بمعنى آخر التمييز بين الاكتشاف بمساعدة أو بدون مساعدة) أهمية خاصة، لأنه على غالبية الأشخاص أن يقرؤوا بدون مساعدة أحد في أغلب الأوقات. وأن القراءة مثل الاكتشاف دون مساعدة أحدٍ، هي تعلم بغياب الأستاذ. ويمكننا أن نتّبع ذلك بنجاح إذا عرفنا فقط كيف نقوم بذلك.

ولكن لهذا التميز أهمية ضئيلة نسبياً بالمقارنة مع الأمور التي سنثيرها في هذا الفصل. وهو كل ما يجب أن نفعله في مستويات القراءة ويجب أن يُفهم الاختلاف بين هذه المستويات قبل أن يحدث أي تقدم في مهارات القراءة.

وتوجد أربعة مستويات للقراءة. وقد دعوناها مستويات وليس أنواع لأن

الأنواع ـ تحديداً ـ تعني التفريق بين نوع وآخر، بينما كلمة مستويات تعنى جملة ميزات في المستوى الأدنى من القراءة تشملها ميزات المستوى الأعلى وتضيف عليها. وبهذا المعنى فإن مستويات القراءة هي مستويات تراكمية. فالمستوى الأول لا يضيع ضمن المستوى الثاني، ولا يضيع المستوى الثاني في الثالث، ولا يضيع أيضاً المستوى الثالث في المستوى الرابع. وفي الحقيقة فإن المستوى الرابع من القراءة هو أعلى المستويات ويتضمن كل المستويات الثلاثة التي سبقته. وهو ـ ببساطة ـ يذهب إلى أبعد من بقية المستويات.

إننا سوف ندعو المستوى الأول من القراءة **بالمستوى الابتدائي**، ويمكن أن يكون لهذا المستوى أسماء أخرى مثل القراءة الأولية، أو القراءة الأساسية، أو القراءة التمهيدية. وكل واحدةٍ من هذه التعابير تستخدم للتعبير على أن من يتقن هذا المستوى فإنه يكون قد مرَّ على الأقل من المرحلة الأمية إلى مرحلة الإلمام بقواعد القراءة والكتابة. وبإتقان هذا المستوى يكون الشخص قد تعلم بدايات فن القراءة وتلقى التدريب الأساسي فيها. واكتسب المهارات الأولية في القراءة. ونحن نفضل أن نسمي هذا المستوى بالمستوى الابتدائي لأن الشخص يكون قد تعلمه في المدرسة الابتدائية.

ويجابه الطفل لأول مرة مسألة القراءة في هذا المستوى، ومشكلته عندها (ومشكلتنا أيضاً عندما بدأنا القراءة) هي في تبين الكلمات منفردة على الصفحة، فالطفل يرى مجموعة من العلامات السوداء على الصفحة البيضاء (أو ربما علامات بيضاء على لوح أسود إذا كان يقرأ في الصف على اللوح الأسود) ماذا تقول هذه العلامات؟ «جلست القطة على القبعة» إن طالب الصف الأول لا يهتم فعلاً ـ وفي هذه المرحلة ـ عما إذا كانت القطة قد جلست حتماً على القبعة، وما يشمل القطط والقبعات أو العالم. إنه على الأرجح يتعلق أو يتورط باللغة كما استخدمها الكاتب.

وإن القارىء يُسأل في هذه المرحلة، ماذا تقول هذه الجملة؟ وهذا يمكن أن يتصوره بالطبع كسؤال معقد وصعب. وما نعنيه هنا على كل حال المعنى البسيط لهذا السؤال.

إن تحقيق مهارة المستوى الأول من القراءة قد حدثت في الماضي بالنسبة للغالبية العظمى من قراء هذا الكتاب. ومع ذلك، فإننا نجابه مشكلة هذا المستوى من القراءة بغض النظر عن مقدرتنا التي يمكن أن نكون عليها كقراء. وإن هذا يحدث، على سبيل المثال كلما أردنا قراءة نص بلغة أجنبية لا نعرفها جيداً. وفي هذه الحالة ينصبّ جهدنا الأساسي في تبين الكلمات منفردة وبعد أن نتبين هذه المفردات فقط نبدأ بمحاولة الفهم وشق طريقنا لإدراك ماذا تعني هذه المفردات.

وحتى عندما يقرأ القرَّاء نصوصاً بلغتهم الأم فإن العديد منهم يستمر في مواجهة أنواع عديدة من الصعوبات في هذا المستوى من القراءة. ومعظم هذه الصعوبات تتم دون تفكير وبعضهم يرجع إلى بدايات تعلم القراءة. وقهر هذه الصعوبات يتيح لنا القراءة أسرع. ولدينا أكثر من ذلك نقوله عن القراءة الابتدائية في الفصل التالي، وفي الفصل الرابع الذي سوف يبحث سرعة القراءة.

سندعو المستوى الثاني من القراءة، القراءة التفحصية. وهي تتميز بالتركيز الخاص على الوقت. وعند القراءة على هذا المستوى، فإن التلميذ يطالب بتحديد زمن معين لإنجاز قراءة كمية معينة من النصوص. فعلى سبيل المثال، يمكن أن يسمح له بقراءة هذا الكتاب خلال ربع ساعة، أو حتى أن يقرأ كتاباً آخر بضعف حجم هذا الكتاب خلال الزمن نفسه.

وهكذا يمكن أن نصف هذا المستوى من القراءة بطريقة أخرى بأن نقول أن القراءة على هذا المستوى تهدف إلى استخراج أقصى مضمون يحتويه الكتاب خلال فترة محددة من الزمن، وهو ـ عادة ـ وقت قصير نسبياً. ودائماً ـ حسب التعريف ـ زمن قصير جداً نحصل خلاله على أقصى ما يمكن أن يعطيه الكتاب.

وهناك اسم آخر لهذا المستوى من القراءة وهو التصفح. ولا نقصد من

كلمة التصفح هنا الاستعراض العرضي أو العشوائي للكتاب، بل التصفح المنتظم والمتماسك. وعند القراءة على هذا المستوى، فإن هدفك الأساسي هو التفحص السطحي للكتاب لاكتشاف كل شيء يمكن أن تعطيه القراءة السطحية. وهذا ـ غالباً ـ هدف جيد.

وبينما كان السؤال الوحيد في القراءة على المستوى الأول «ماذا تقوله هذه الجملة؟» فإن السؤال النموذجي الذي يسأل على هذا المستوى «ما هو الشيء الذي يبحثه هذا الكتاب؟» وهذا هو السؤال الأولي، والأسئلة المماثلة لذلك «ما هو بنية هذا الكتاب؟» أو «ما هي أجزاؤه؟».

وبعد إنجاز القراءة التصفحية للكتاب ـ ولا يهم هنا قصر الوقت الذي قمت بقراءته ـ يجب على القارىء أن يكون قادراً على الإجابة على السؤال التالي: «ما هو نوع هذا الكتاب؟» قصة أو كتاب تاريخي أو دراسة علمية.

وقد كرس الفصل الرابع للخوض في هذا المستوى من القراءة، لذا لن نبحثه بأكثر من هذا القدر هنا. ونود التأكيد أن معظم الأشخاص، بل وحتى عدد كبير من القراء الجيدين، لا يعرفون أهمية القراءة التصفحية. إنهم يبدأون الكتاب من الصفحة الأولى ويتقدمون بجد وثبات حتى آخر الكتاب وبدون قراءة جدول المحتويات (الفهرس). إنهم في هذه الحالة يواجهون إنجاز هدف المعرفة السطحية للكتاب بنفس الوقت الذي يحاولون به فهمه. وهذا يضاعف صعوبة الكتاب.

أما المستوى الثالث من القراءة فسوف ندعوه القراءة التحليلية. إنها أكثر تعقيداً وفعّالية، وأكثر انتظاماً من كلا المستويين اللذين بحثناهما سابقاً. وتتعلق بمدى صعوبة النص الواجب قراءَتُه، حيث تلقي عبئاً أكبر على القارىء.

إن القراءة التحليلية هي قراءة شاملة، وهي قراءة تامة أو بالأحرى قراءة جيدة بمعنى أنها أفضل قراءة يمكن أن نقوم بها. وإذا كانت القراءة التفحصية هي أفضل قراءة وأشمل قراءة ممكنة خلال وقت محدد، فإن القراءة التحليلية

هي أفضل وأتم قراءة ممكنة خلال وقت غير محدد.

إن القارىء على المستوى التحليلي، يجب أن يسأل أسئلة عديدة ومنتظمة عما يقرأ. ونحن لا نريد أن نحدد هذه الأسئلة هنا، لأن هذا الكتاب بأكمله هو عن القراءة في هذا المستوى. إن القسم الثاني يوضح القواعد ويخبرك عن كيفية استخدامها. لكننا نريد التأكيد هنا إلى أن القراءة التحليلية هي دائماً جهد مكثّف. ففي هذا المستوى من القراءة يفهم القارىء ويدرك الكتاب الذي يقرؤه ـ وإن صحت الاستعارة ـ فإن القارىء يظل يعمل على الكتاب الذي يقرؤه إلى أن يصبح متمثلاً له. لقد قال فرانسيس باكون «إن بعض الكتب يجب أن نتذوقها، وبعضها الآخر يجب أن نبتلعه وقلة قليلة من الكتب يجب أن نمضغها ونهضمها». وعلى هذا فقراءة الكتاب قراءة تحليلية تتوجَّب أن نمضغ الكتاب ونهضمه.

ونحن أيضاً نود التأكيد على أن القراءة التحليلية ليست ضرورية على الإطلاق إذا كان هدفك من القراءة هو ـ ببساطة ـ القراءة من أجل المتعة والتسلية أو من أجل المعلومات. أما القراءة التحليلية فهي القراءة المهيمنة من أجل التفهم. وبالعكس، فإن رفع تفكيرك من حالة الفهم الأقل إلى حالة الفهم الأكثر بمساعدة كتاب هو شيء مستحيل إذا لم تكن تمتلك ـ على الأقل ـ بعض المهارات في القراءة التحليلية.

والمستوى الرابع والأخير والأعلى من مستويات القراءة هو ما يدعى بالقراءات المرجعية أو بالقراءة الموجهة لموضوع واحد. إنه النموذج الأكثر تعقيداً وانتظاماً بين كل مستويات القراءة. إنها تلقي عبئاً كبيراً على عاتق القارىء حتى لو كانت النصوص التي يقرؤها سهلة نسبياً وغير معقدة.

وثمة اسم آخر لهذا المستوى من القراءة يمكن أن يكون القراءات المقارنة، فعندما نقرأ قراءة مرجعية فإن القارىء يطالع كتباً عديدة، وليس كتاباً واحداً، ويدرك علاقة الترابط بين الكتب فيما بينها من جهة، وبين الكتب

جميعها والموضوع الواحد الذي تتمحور حوله. والمقارنة المجردة للنصوص ليست كافية في ذلك. لأن القراءات المرجعية تتطلب أكثر من ذلك. فبمساعدة الكتب يكون قارىء المراجع قادراً على أن ينشىء ويحلل الموضوع الذي قد لا يوجد في أي من الكتب. ومن الواضح أن القراءات المرجعية هي الأكثر فعالية وأكثر أنواع القراءات جهداً.

وسوف نبحث القراءة المرجعية أو القراءات المتزامنة الموجهة لموضوع واحد في القسم الرابع من هذا الكتاب. ويكفي أن نقول الآن إن القراءة المرجعية ليست فناً سهلاً، وقواعدها ليست معروفة بشكل واسع، ومع ذلك فإنها على الأغلب من أكثر نشاطات القراءة جدارة بالاهتمام. والفائدة منها كبيرة جداً حتى إنها تستحق عناء تعلم كيفية القيام بها.

المستوى الأول من القراءة
القراءة الابتدائية

يوجد اهتمام كبير في عصرنا الحالي بالقراءة. وقد أعلن المسؤولون أن عقد السبعينات سيكون «عقد القراءة». وتخبرنا الكتب الأكثر رواجاً لماذا يستطيع مصطفى أن يقرأ أو لا يستطيع. وتتواصل البحوث والتجارب لزيادة الكفاءة في كل حقول القراءة الابتدائية.

وهناك ـ تاريخياً ـ ثلاثة اتجاهات أو حركات تتلاقى في زماننا الحالي لتثير هذا القلق. الأول هو في الجهد المستمر الذي تبذله الولايات المتحدة لتعليم كل مواطنيها، والذي يعني على الأقل ـ بالطبع ـ أن تجعل كل هؤلاء المواطنين ملمين بقواعد القراءة والكتابة. هذا الجهد الذي دعمته أميركا منذ بداية وجودها القومي تقريباً والذي هو حجر الأساس في طريقة حياتنا الديمقراطية وكانت له نتائج ملموسة. فقد تم محو الأمية بشكل كامل تقريباً في الولايات المتحدة وقبل أي دولة أخرى، وهذا بدوره ساعدنا في أن نصبح المجتمع الصناعي العالي التقدم الذي نحن عليه الآن. ولكن كان هناك معضلات كبيرة أيضاً. وتتلخص هذه المعضلات في تعليم نسبة ضئيلة من الأطفال ذوي الدوافع العالية، كيف يقرأون، ومعظمهم من الأطفال ذوي الآباء الملمين بقواعد القراءة والكتابة ـ وهذا ما كان عليه الحال في القرن الماضي ـ إن تعليم هؤلاء الأطفال فيه بون شاسع بالمقارنة مع تعليم كل طفل كيف يقرأ، وبغض النظر عن دافعهم مهما كان ضئيلاً وبغض النظر أيضاً عن خلفيتهم مهما كانت.

والاتجاه الثاني ـ تاريخياً ـ كان في تعليم القراءة بحد ذاته. فأساسيات تعليم القراءة لم تتغير منذ عهد مدارس اليونان والرومان وحتى عام 1870. ففي أميركا على الأقل، كانت طريقة التعليم التي تدعى الطريقة الألفبائية هي السائدة في القرن التاسع عشر، حيث يعلم الأطفال الإخراج اللفظي للأحرف الهجائية لكل حرف بمفرده، ثم بمزج المقاطع مع بعضها يبدأون بحرفين معاً، ثم بثلاثة حروف فأربعة حروف. ولم يكن يفرّق هذه الحروف مجمّعة إذا كانت ذات معنى أو لا. وهكذا فإن مقاطع مثل AB، AC، IB، IC كانت تمارس من أجل إتقان اللغة. وعندما يستطيع الطفل أن يسمي كل الأعداد المحددة من مزيج الأحرف هذا، كان يقال عنه أنه أصبح يتقن ألف باء القراءة.

وقد جاءت هذه الطريقة التركيبية في تعليم القراءة بعد النقد الشديد في منتصف القرن الماضي حيث اقتُرح بديلان لها. البديل الأول عُرف باسم الطريقة الصوتية حيث تقوم على التهجئة التركيبية للطريقة الألفبائية، وهنا تُميز الكلمات بواسطة أصواتها عوضاً عن تمييزها بواسطة أسماء الأحرف التي تكوّن الكلمة. وقد تطور نظام بارع ومعقد من الكتب بهدف تقديم الأصوات المختلفة للحرف الواحد وبشكل خاص الأحرف الصوتية. ومن المحتمل أن تكون قد تعلمت من خلال هذه الطريقة ـ باستعمال بعض التهجيات على الطريقة الصوتية ـ إذا كان عمرك خمسين سنة أو أكثر من ذلك.

وقد نشأت في المانيا طريقة مختلفة كلياً، وهي ـ بالأحرى ـ تحليلية عوضاً عن أن تكون تركيبية، وأيّدها «هوراس مان» ومدرّسون آخرون بعده، وكان ذلك في عام 1840. حيث شملت هذه الطريقة تعليم التمييز المرئي لكامل الكلمات قبل إعطاء أي اهتمام لأسماء الحروف أو لأصواتها. ودعيت هذه الطريقة بالطريقة المرئية التي توسعت فيما بعد لتشمل كل الجمل التي تمثل وحدات الفكرة أولاً، يعود بعدها التلميذ ليتعلم إدراك الكلمات التي تشكل الجملة، وأخيراً إدراك الحروف التي تشكل الكلمة. وقد شاعت هذه الطريقة بشكل خاص خلال العشرينات والثلاثينات من القرن الحالي. وهذه الفترة التي

تميزت أيضاً بالانتقال في التركيز من القراءة الجهوريّة إلى القراءة الصامتة. لقد وجد أن القدرة على القراءة الجهوريّة ـ بصوت عالٍ ـ لا تعني بالضرورة القدرة على القراءة الصامتة، وأن تعليم القراءة الشفهية ليست هي الملائمة دائماً إذا كان الهدف هو القراءة الصامتة. وهكذا فإن التركيز الكلي تقريباً كان على القراءة الصامتة والشاملة والسريعة التي كانت ظاهرت النصف الأول في العقد الثاني لهذا القرن. ومؤخراً عاد عقارب الساعة إلى الوراء وباتجاه الطريقة الصوتية التي لم تترك المناهج الدراسية كلياً خلال سيادة الطريقة المرئية.

كل هذه الطرق المختلفة لتعليم القراءة الابتدائية كانت ناجحة لبعض التلاميذ ومخفقة بالنسبة لبعضهم الآخر. وربما كان هذا القصور هو الذي جذب الاهتمام الأكبر خلال العقدين أو العقود الثلاثة الأخيرة. وهنا دخل الاتجاه التاريخي الثالث ليلعب دوره. إن انتقاد المدارس هو شيء تقليدي في أميركا، ومنذ أكثر من قرن قام الآباء والخبراء Self styled experts وحتى المدرّسون أنفسهم بمهاجمة النظام التعليمي. ولا يوجد عامل واحد في النظام المدرسي قد انتقد بقسوة أكثر من انتقاد تدريس القراءة. والكتب الحالية ـ رغم كل التجديدات ـ تحمل في طياتها سلسلة طويلة من الشكوك، حتى إن الفرد يشعر بأن المراقبين غير مقتنعين بمدى نجاحها.

قد يكون النقد صحيحاً أو لا يكون، ولكن ـ وعلى كل حال ـ فإن هذه المعضلات أصبحت أكثر إلحاحاً من خلال الجهود المستمرة والتي دخلت مرحلة جديدة في سبيل تعليم كافة المواطنين، وما نتج عنها من تزايد مستمر في أعداد طلبة الثانوية والجامعات. إن الشاب أو الشابة الذي لا يستطيع أن يقرأ بشكل جيد يتخلف عن تحقيق الحلم الأميركي، ولكن هذا يبقى إلى حد كبير موضوعاً شخصياً إذا لم يكن هذا الفرد منخرطاً في المدرسة. أما إذا بقي في المدرسة أو دخل الجامعة فإن ذلك يكون مسألة ذات اهتمام ليس له فقط بل لأساتذته وزملائه الطلبة.

لذا فإن البحوث نشيطة جداً في وقتنا الحالي، وقد نتج عن البحوث هذه

عدد من الطرق الجديدة في تدريس القراءة. ومن أهم هذه البرامج ما يدعى الطريقة الانتقائية، وطريقة القراءة الفردية، وطريقة التجربة اللغوية. إن الطرق المختلفة قد قامت على مبادىء اللسانيات والبعض منها قام إلى حد ما على بعض أنواع التعليمات المبرمجة. وبالإضافة إلى ذلك فإن وسائل جديدة قد استخدمت مثل التعليم الابتدائي للأبجدية وفي بعض الأحيان فإن هذه تشمل أساليب جديدة أيضاً. وتبقى بعض الوسائل والبرامج مثل طريقة الانهماك الكلي، وطريقة مدرسة اللغة الأجنبية، والطريقة التي عرفت بأسماء متعددة منها «أنظر وقل» و«طريقة الكلمة». ومما لا شك فيه أن تجارب تجري الآن على أساليب ومفاهيم تختلف عن كل هذه الأساليب، وربما يكون سابقاً لأوانه أن نقرر ما إذا كانت أي من هذه الأساليب هي الدواء الناجع الذي أتى بعد بحث طويل وفيه العلاج لجميع أمراض القصور في القراءة.

مراحل تعلم القراءة

إن نتيجة مفيدة من نتائج البحوث الجارية كانت في تحليل مراحل تعلم القراءة. فمن المقبول الآن، وعلى نطاق واسع، أنه توجد أربعة مراحل متميزة بوضوح في تقدم الطفل باتجاه ما يدعى «نضوج قابلية القراءة». عُرفت المرحلة الأولى بتعابير «الاستعداد للقراءة» وهي تبدأ كما دلت الملاحظة وتستمر بشكل طبيعي حتى السنوات الست أو السبع من العمر تقريباً.

ويتضمن الاستعداد للقراءة عدة أنواع مختلفة من التحضيرات من أجل تعلم القراءة. فالرؤية الجيدة والسمع الجيد للطفل تنضوي تحت الاستعداد الجسدي. والاستعداد الذهني يشمل الحد الأدنى من الإدراك المرئي، كأن يكون الطفل قادراً على تذكر الكلمة بكاملها بالإضافة إلى الحروف التي تتشكل منها. أما الاستعداد اللغوي فيتكون من قدرة الطفل على التكلم بشكل واضح واستعمال عدة جمل بانتظام صحيح. وأخيراً الاستعداد الشخصي الذي يشمل قابلية الطفل للعمل مع أقرانه، وقابليته لتركيز انتباهه واتباع التعليمات والمسائل الأخرى المشابهة.

وتقيّم الاستعدادات العامة للقراءة من خلال الاختبارات ومن خلال التقديرات التي يجريها الأساتذة الذين ـ غالباً ـ ما يكونون مهرة في تبيّن الوقت الذي يكون التلميذ مستعداً فيه لتعلم القراءة. والشيء الهام الذي يجب تذكره هنا هو أن تخطي الصعوبة يكون عادة هزيمة شخصية. بمعنى أن الطفل غير المستعد للقراءة سوف يحبط إذا ما جرت محاولات لتعليمه ويمكن أن يحمل معه كرهه لهذه التجربة خلال تدرجه في صفوف المدرسة وحتى بلوغه سن الرشد. إن تأخير البدء في تدريس القراءة إلى ما بعد مرحلة الاستعداد للقراءة يجب أن يكون على درجة كبيرة من الجدية بالرغم من شعور الآباء الذين يمكن أن يتخوفوا من أن طفلهم يتراجع أو أنه لا يتقدم بالمقارنة مع أترابه.

وفي المرحلة الثانية يتعلم التلميذ أن يقرأ مواد بسيطة. وهو يبدأ عادة (على الأقل في الولايات المتحدة) بتعلم بعض الكلمات من خلال رؤية عدد قليل من الكلمات. وبشكل نموذجي فإنهم يتقنون ثلاثمئة إلى أربعمئة كلمة في نهاية السنة الأولى. إن مهارات القراءة الأساسية تقدم لهم في هذا الوقت، استعمال سياق الكلام ومفاتيح المعاني وبدايات أصوات الكلمات. وفي نهاية هذه الفترة يتوقع من التلميذ أن يقرأ ـ بحماسة ـ كتباً بسيطة وبشكل مستقل.

ومن الجدير بالملاحظة أن شيئاً غامضاً تماماً وحتى شيئاً سحرياً تقريباً يحدث في هذه المرحلة. ففي البداية وخلال عملية تعليم الطفل، وعندما يجابه سلسلة من الرموز على الصفحة، فإنه يجدها بدون معنى. وبعد وقت قصير ـ أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ـ فإنه يستطيع اكتشاف معاني هذه الرموز، إنه يَعلَم أن هذه الرموز تعني «القطة تجلس على القبعة». كيف يحدث ذلك؟ لا أحد يعلم كيف حدثَ هذا بالرغم من جهود الفلاسفة وعلماء النفس لأكثر من ألفين وخمسمئة عام في دراسة هذه الظاهرة. من أين يأتي المعنى؟ وكيف يجد الطفل الفرنسي المعنى نفسه في الرموز «Le chat s'assseyait sur le chapeau» وفي الحقيقة فإن اكتشاف المعاني من خلال الرموز يمكن أن يكون أكثر عمل فكري يؤديه الكائن البشري، والأكثرية تؤديه قبل بلوغ سن السابعة من العمر.

تتميز المرحلة الثالثة في التقدم السريع في بناء المفردات من خلال ازدياد المهارات في تبين المعاني للكلمات الغريبة من خلال سياق النص. بالإضافة إلى ذلك يتعلم الأطفال في هذه المرحلة القراءة لأهداف ومجالات مختلفة مثل العلوم والدراسات الاجتماعية، وفنون اللغة والموضوعات المشابهة. ويتعلمون أيضاً في هذه المرحلة أن القراءة بالإضافة إلى كونها عملاً يقومون به في المدرسة فهي أيضاً عمل يقومون به في سبيل التسلية أو لإشباع فضول أو لاتساع آفاق الفرد.

وأخيراً تتميز المرحلة الرابعة بإصلاح وتعزيز المهارات التي اكتسبت سابقاً. وقبل كل شيء فإن الطالب في هذه المرحلة تتكون لديه قدرة أولية على استيعاب تجربته في القراءة بمعنى أنه يستطيع أن ينتقل من مفهوم في نص يقرأه إلى مفهوم آخر في نص آخر، وأن يقارن بين وجهات نظر لكتّاب مختلفين يعالجون نفس الموضوع. ويجب الوصول إلى هذه المرحلة الناضجة من القراءة في سن الرشد أي في المراحل الأولى من سن البلوغ. وبتصورنا فإنهم يجب أن يستمروا في الاعتماد عليها بقية حياتهم. وأغلب الظن إنهم لا يصلون إلى هذه المرحلة، وهذا واضح لمعظم الآباء والأساتذة. وأسباب هذا الإخفاق عديدة، وهي تتراوح من الأنواع العديدة من حرمان البيئة المنزلية ـ اقتصادية أو اجتماعية أو فكرية (بما في ذلك أميّة الأبوين) ـ إلى كل أنواع المشاكل الشخصية (بما في ذلك التمرد على النظام التدريسي). ولكن سبباً واحداً لهذا الإخفاق لا يلاحظ غالباً. وهو التأكيد على الاستعداد للقراءة والأساليب المتبعة في تعليم مبادىء القراءة للأطفال والتي تعني أن المستويات الأخرى لتعليم القراءة، ـ وتحديداً ـ المستويات الأعلى، تنحو لأن تكون هزيلة. وهذا مفهوم تماماً، إذا أخذنا بالاعتبار الاحتياجات الملحة وحجم المشاكل التي توجد في المستوى الأول. ومع ذلك فإن المعالجات الفعّالة للقصور الكلي في القراءة لدى الأميركيين لا يمكن أن يشخَّص إلا إذا وضعت جهوداً على كل مستويات القراءة.

المراحل والمستويات

لقد وصفنا أربعة مستويات للقراءة، كما أننا أوضحنا أربعة مراحل لتعلم القراءة على الطريقة الابتدائية. والسؤال هو «ما هي العلاقة بين هذه المستويات والمراحل؟».

إنه من الأهمية القصوى أن نوضح أن المراحل الأربع التي شُرحت هنا هي كلها مراحل في المستوى الأول من القراءة، كما نوّهنا في الفصل السابق. إنها مراحل للقراءة الابتدائية التي يمكن أن تقسّم على نحو ما في منهاج المدارس الابتدائية. المرحلة الأولى وهي القراءات الابتدائية ـ الاستعداد للقراءة ـ يقابل تجربة ما قبل المدرسة ورياض الأطفال. والمرحلة الثانية ـ إتقان الكلمات ـ تقابل تجربة الصف الأول للطالب النموذجي (بالرغم من أن عدداً كبيراً من الأطفال الطبيعيين ليسوا نموذجيين بهذا المعنى) كنتيجة لبلوغ الطفل ما يسمى المرحلة الثانية من مهارات القراءة، أو الدرجة الأولى من قابلية القراءة، أو الدرجة الأولى من الإلمام بقواعد القراءة والكتابة. والمرحلة الثالثة من القراءة الابتدائية ـ مرحلة نمو المفردات واستعمالها في سياق الكلام ـ وهي مرحلة نموذجية (لكنها ليست شاملة لكل الأطفال حتى الطبيعيين منهم) وتكتسب عند نهاية الصف الرابع من المدارس الابتدائية وتؤتي ثمارها فيما يسمى الدرجة الرابعة أو الإلمام الفعّال بقواعد القراءة والكتابة. وتبعاً للتعريف العام تظهر هذه الدرجة في القدرة على قراءة إشارات المرور ـ بعض إشارات المرور في أميركا تظهر بشكل كتابي بالإضافة إلى اللون «don't walk, walk» ـ أو في تعليقات وشروحات الصور السهلة، وفي إملاء بعض الأوراق الحكومية البسيطة، وما شابه ذلك. أما المرحلة الرابعة والأخيرة من القراءة الابتدائية فهي تتحقق في الوقت الذي ينهي فيه التلميذ المرحلة الابتدائية أو في الصفوف الأولى من المدرسة الثانوية، التي تدعى في بعض الأحيان الدرجة الثامنة أو التاسعة أو العاشرة من الإلمام بالقراءة والكتابة. والطفل في هذه المرحلة يكون «قارئاً ناضجاً» بمعنى أنه يكون الآن قادراً على قراءة كل شيء تقريباً،

ليس مكتوباً بطريقة معقدة نسبياً. وبعبارة أخرى، يكون التلميذ قادراً بشكل كافٍ على القيام بأعمال ومتطلبات المدرسة الثانوية.

على كل حال فإن القارىء الذي أتم المستوى الأول يكون قارئاً غير ناضج بالمعنى الذي نرمي إليه في هذا الكتاب. لقد أنجز هذا المستوى من القراءة، وهذا كل شيء بالنسبة له، إنه يستطيع أن يقرأ من تلقاء نفسه وهو مستعد لأن يتعلم أكثر عن أصول القراءة. لكنه لا يعرف كيف يقرأ إلى أبعد من المستوى الابتدائي.

لقد ذكرت كل هذا لأنه مناسب جداً لهدف ورسالة هذا الكتاب. فنحن نفترض ـ أو بالأحرى يجب علينا أن نفترض ـ أنك أنت أيها القارىء قد أتممت الدرجة التاسعة من الإلمام بقواعد القراءة والكتابة. أي أنك قد أتقنت المستوى الابتدائي من القراءة، والذي بدوره يعني أنك قد اجتزت بنجاح المراحل الأربع التي ذكرت آنفاً. وإذا تمعّنت في ذلك، فإنك سوف تلاحظ أنه لا يمكننا أن نفترض أقل من ذلك. ولا أحد يستطيع أن يقرأ في الكتب التعليمية ـ وهذا أحدها ـ إلا إذا كان يستطيع القراءة أصلاً. وهذا الشيء صحيح بشكل خاص بالنسبة لكتاب مفاده أن يعلم الفرد القراءة وهذا يعني أن القارىء قادر على القراءة بمعنى من معاني هذه العبارة.

إن الفرق بين الاكتشاف بمساعدة أحد، أو بدون مساعدة أحد يأتي ليلعب دوره هنا. والشيء النموذجي هنا أن المراحل الأربعة الابتدائية من تعلم القراءة قد أُحرزت من خلال مساعدة أساتذة أحياء. والأطفال يختلفون بالطبع من خلال قدراتهم، فبعضهم يحتاج إلى مساعدة أكبر من بعضهم الآخر. لكن الأستاذ حاضر عادة للإجابة على الأسئلة وتمهيد الصعوبات التي تبرز خلال سنوات الدراسة الابتدائية. وعندما يتقن الطفل المراحل الأربع من القراءة الابتدائية ـ عند هذا الحد فقط ـ يكون مهيئاً للانتقال إلى مستويات أعلى من القراءة. وعندها فقط يستطيع أن يقرأ بشكل مستقل ويتعلم بمفرده وعلى طريقته الخاصة. وعند هذا الحد يصبح الطالب قارئاً جيداً.

المستويات الأعلى من القراءة والتعليم العالي

كانت المدارس الثانوية في أميركا تقليدياً تقدم لطلابها قواعد قليلة في القراءة. أما الكليات فلم تكن تقدم أي شيء من هذا القبيل. إلا أن هذه الحالة قد تغيرت في أيامنا الحالية. ومنذ جيلين سابقين عندما أصبح الانخراط في الدراسة الثانوية كبيراً خلال فترة زمنية قصيرة، بدأ الأساتذة يلاحظون أنه لم يعد من الممكن افتراض الطلاب المندرجين في المدرسة الثانوية يستطيعون القراءة بشكل فعّال. وبدأت تقدم العلاجات لهذه الحالة وفي بعض الأحيان وصلت إلى نسبة 75٪ أو أكثر من الطلاب المنخرطين في الدراسة الثانوية. أما خلال العقد الماضي فإن الحالة نفسها قد حدثت على مستوى الكليات. وهكذا فإن نصف عدد الطلاب الذين قُبلوا في السنة الأولى بجامعة مدينة نيويورك في خريف عام 1971 والبالغ عددهم 40 ألف طالب، أي أكثر من 20 ألفاً من اليافعين قد تلقوا بعض التدريبات العلاجية في موضوعات القراءة.

لكن هذا لا يعني على كل حال أن تعليم القراءة في مستوى ما بعد الابتدائية قد عمّم في جميع الكليات الأميركية في أيامنا هذه. بل إنه في الحقيقة لم يقدّم في أي من هذه الكليات تقريباً. والتعليمات العلاجية للقراءة لم تُدرَّس مستويات أعلى من القراءة. إنها تفيد فقط في أن تجلب الطالب إلى مستوى النضج في القراءة والذي يجب أن ينجزوه في الوقت الذي يتخرجون فيه من المدارس الابتدائية. وإن معظم المؤسسات التعليمية العليا في أيامنا هذه إما أنها لم تعرف كيف تعلّم طلابها أبعد من المستوى الابتدائي في القراءة أو أنها تفتقر إلى الأجهزة والأشخاص المؤهلين للقيام بذلك.

ونحن نقول ذلك بالرغم من أن كليات المجتمع والكليات ذات السنوات الدراسية الأربع قد أقامت في الوقت الحالي دورات «للقراءة السريعة» أو «للقراءة الفعالة» أو «للكفاءة في القراءة» وبالإجمال فإن هذه الدورات هي دورات علاجية لهذه الحالة رغم وجود بعض الاستثناءات وإنها جميعها قد صممت أن تتغلب على الأنواع المتعددة من القصور في المدارس ذات المستوى الأدنى.

وهذه الدورات لم تصمم لرفع الطالب لمستوى أعلى من المستوى الأول من القراءة، أو أن تقدم للطالب أنواعاً من مستويات القراءة والتي هي الموضوع الأساسي لهذا الكتاب.

ويجب ألاّ تكون هذه هي الحالة، فالفنون الحرة والجيدة في المدارس الثانوية، إذا لم تقدم أي شيء آخر، يجب أن تؤهل خريجها بكفاءة للقراءة التحليلية. إن الكلية الجيدة إذا لم تعمل أي عمل آخر يجب أن تخرّج قراءاً مراجعون ذوي مقدرة. إن الدرجة الجامعية يجب أن تحرز كفاءة عامة لخريجها في موضوعات القراءة كتلك التي تجعل الخريج قادراً على قراءة أي نوع من المواد للقارىء العادي وأن يكون الخريجون قادرين على مباشرة البحوث المستقلة في كل موضوع تقريباً، لأن هذا هو ما تؤهلنا به قراءة المراجع Syntopical Reading لأن نقوم بها إلى جانب الأمور الأخرى التي تؤهلنا لهذا النوع من القراءة، وعلى كل حال فإن ثلاث إلى أربع سنوات من الدراسة للخريجين تتطلب ذلك، قبل أن يحرز الطلاب هذا المستوى من قدرات القراءة، ولا يستطيعون دائماً إحراز ذلك حتى في هذا المستوى.

يجب أن لا يصرف الفرد أربع سنوات من الدراسة العليا ـ بعد التخرج ـ من أجل أن يتعلم كيف يقرأ. إن أربع سنوات من الدراسة العليا بالإضافة إلى اثنتي عشرة سنة في التعليم الابتدائي والثانوي وأربع سنوات في الدراسة الجامعية تكوّن بمجموعها عشرين سنة دراسية كاملة على مقاعد الدراسة. وهذه يجب أن لا تأخذ هذه الفترة الطويلة ليتعلم الإنسان أن يقرأ. وإن حدث شيء مثل ذلك فإن خطأً جسيماً يرتكب في هذه الحالة.

إن الشيء الخطأ يمكن أن يصلّح. كما أن دورات عديدة يمكن أن تعقد في المدارس الثانوية والكليات ويكون منهاجها الأساسي البرنامج الذي يصفه هذا الكتاب. ولا يوجد أسرار في هذا الموضوع، أو حتى لا يوجد أي شيء جديد لما نهدف إليه. إنها فقط آراء وقواعد متعارف عليها على نطاق واسع.

لا نريد أن نظهر كأشخاص ينتقدون العيوب فقط. مع العلم أننا نسمع هدير أقدام آلاف الطلبة على درجات كلياتهم وهم في سنتهم الجامعية الأولى، ونعلم أيضاً أنه من الصعب أن تسمع الرسالة التي نرمي إليها مهما كان الموضوع منطقياً ومعللاً. إن نسبة كبيرة وحتى الغالبية العظمى من هؤلاء الطلبة لا يستطيعون القراءة بفعالية في المستوى الابتدائي، ونحن نعرف أن الهدف الأول الذي نواجهه يجب أن يكون تعليمهم القراءة بالمعنى الأضيق والمعنى الأوسع لما تعنيه العبارة من حسٍ مشترك وسليم.

ونحن لا نريد في الوقت الحاضر أي سبيل آخر غير هذا. نحن نقبض أيضاً على الفرصة التعليمية الكبرى والتي هي أكبر خدمة يمكن أن يقدمها المجتمع لأفراده، وبكلام عملي أكثر، الفرصة التعليمية المحددة برغبة الفرد وقدرته واحتياجاته. وإذا كنا لا نعرف كيف نقدم مثل هذا النوع من الفرص فإن ذلك لن يثنينا عن المحاولة.

ولكن يجب أن ندرك أيضاً ـ طلاباً وأساتذة وغيرهم ـ أننا حتى عندما ننجز الهدف الذي وضعناه نصب أعيننا فلن نكون قد وصلنا إلى غايتنا. يجب أن نكون أكثر من أمة ملمة عملياً. لأننا يجب أن نكون أمة قراء أكفاء ونعلم ماذا ترمي إليه كلمة أكفاء من معنى. ولا شيء أقل من ذلك يرضي احتياجاتنا.

الفصل الرابع

المستوى الثاني من القراءة
القراءة التفحصية

القراءة التفحصية هي مستوى قائم بذاته، وهي تتميز من هذه الناحية عن المستوى السابق (القراءة الابتدائية) كما أنها تتميز عن المستوى اللاحق في السياق الطبيعي ألا وهي القراءة التحليلية. ولكن وكما نوهنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب فإن مستويات القراءة هي مستويات تراكمية. وهكذا فإن القراءة التفحصية تشتمل على مبادىء القراءة الابتدائية وتضيف إليها عناصر جديدة، وفي الحقيقة فإن القراءة التفحصية مُشتملة أيضاً في القراءة التحليلية، وهذه بدورها مشتملة في القراءات المتزامنة الموجهة لموضوع واحد Syntopical Reading أو قراءة المراجع.

إن هذا يعني عملياً أنك لا تستطيع أن تقرأ على مستوى القراءة التفحصية إلا إذا كنت تستطيع أن تقرأ بفعالية على المستوى الابتدائي. ويجب أن تكون قادراً على قراءة نص الكاتب بثبات ورسوخ، دون أن يعيقك معنى أي كلمة، ودون أن تتعثر بالقواعد أو بناء الجملة. ويجب أن تكون قادراً أيضاً على فهم الغالبية العظمى من الجمل والفقرات بالرغم من أنه ليس ضرورياً فهمها كلها.

على ماذا إذن تشتمل القراءة التفحصية؟ وكيف يمكنك أن تقوم بها؟

في البداية يجب أن ندرك أن هناك نوعين من القراءة التفحصية. وهما عاملان لمهارة واحدة، ولكن ينصح القارىء المبتدىء أن يعتبرهما خطوتين أو نشاطين مختلفين. أما القارىء المتمرس فيجب أن يؤدي هاتين الخطوتين في

الوقت نفسه، إلاّ أننا سوف نعاملهما كخطوتين تتميز إحداهما عن الأخرى.

القراءة التفحصية I

التصفح المنتظم أو ما قبل القراءة

لنعد الآن إلى الحالة الأساسية التي أشرنا إليها سابقاً. يوجد أمامنا كتاب أو أي مادة للقراءة وفي الطرف الآخر توجد عقولنا. ما هو الشيء الذي يجب أن تفعله أولاً؟

لنفترض أن هناك عنصرين آخرين في هذه الحالة، عنصرين عاديين تماماً. الأول أنك لا تعرف ما إذا كنت تريد أن تقرأ الكتاب أم لا. أنت لا تعرف في هذه الحالة ما إذا كان الكتاب يستحق القراءة التحليلية. لكنك تشتبه في أنه يستحق مثل هذه القراءة، أو على الأقل أن يكون الكتاب محتوياً على معلومات أو رؤية يمكن أن تكون قيّمة وتريد أن تتعمق بها.

ثانياً لنفترض ـ وهذه هي الحالة غالباً ـ أن لديك وقتاً محدوداً لتكتشف عما يبحثه الكتاب إن ما يجب أن تفعله في هذه الحالة هي أن تتصفح الكتاب، أو كما يفضّل البعض أن يدعوها مرحلة ما قبل القراءة. إن التصفح هو القسم الأول من القراءة التفحصية. وهدفك الأساسي في اكتشاف ما إذا كان الكتاب يتطلب قراءة متأنية. ومن ناحية أخرى فإن التصفح يستطيع أن يخبرك أكثر عن أمور أخرى يحتويها الكتاب، وحتى عندما تقرر أن لا تقرأ الكتاب بعناية أكبر.

إن إعطاء نظرة سريعة على الكتاب هي عملية تحديد رأي تساعد في فصل القشور عن اللباب وهضم المفيد منه. ويمكنك من خلال تصفحك أن تقرر ما إذا كان الكتاب هاماً لديك في الوقت الحالي أم لا. إن الكتاب قد لا يستحق أكثر من عملية التصفح. ولكنك سوف تعرف على الأقل ما يرمي إليه الكاتب، بالإضافة إلى معرفتك نوعية الكتاب الذي كتبه كاتبه. وبذلك لن يكون الوقت الذي صرفته على الكتاب وقتاً ضائعاً. ويجب أن لا تأخذ عملية

التصفح وقتاً كبيراً لاكتسابها. وهناك بعض الاقتراحات لتتعلم كيف تقوم بها.

1 ـ أنظر إلى صفحة الغلاف وإلى المقدمة إذا كان الكتاب يحتوي على مقدمة. لاحظ بشكل خاص العناوين الفرعية، وعلى مؤشرات وهدف الكتاب، ومن أي زاوية يتناول الكاتب موضوعه. وقبل أن تكمل هذه الخطوة يجب عليك أن تكون قد حصلت على فكرة جيدة عن الموضوع، وإذا رغبت يمكنك أن تتوقف عن فعل ذلك لبرهة لتضع الكتاب ضمن الفئة الملائمة له في ذهنك. وتصنيفك هذا يحتوي الكتب الأخرى الذي ينتمي إليها هذا الكتاب.

2 ـ أدرس جدول المحتويات (الفهرست) كي يكون لديك منظور منطقي لهيكل الكتاب، واستخدم هذا الفهرس كما تستخدم خارطة الطرق قبل أن تقوم برحلة. إنه مثار للعجب كيف أن أشخاصاً عديدين لا ينظرون إلى جدول المحتويات إلا إذا كانوا يريدون شيئاً ما من هذا الجدول. وفي الحقيقة فإن كتّاباً كثيرين ينفقون وقتاً كبيراً في إنشاء جدول المحتويات، ومن المحزن أن نظن أن مجهودهم هذا قد ضاع هباء.

إنه من المعتاد على صعيد التطبيق العملي أن تكتب جدولاً تاماً للمحتويات، وبشكل خاص في الأعمال التفسيرية، وأحياناً في الروايات والقصائد الشعرية، مع فصول وأجزاء ذات عناوين فرعية عديدة تشير إلى الموضوع الذي يغطيه البحث. وعلى سبيل المثال فإن الشاعر الانكليزي ملتون قد كتب عناوين مطولة، أو كما يدعوها هو «مناقشات» لكل كتاب من الفردوس المفقود. كما أن أدوارد جيبنون قد نشر كتابه «انهيار وسقوط الامبراطورية الرومانية» مع جدول محتويات تحليلي ومستفيض لكل فصل من فصول كتابه. إن مثل هذه الملخصات لم تعد شيئاً عادياً بالرغم من أنك في بعض المناسبات تتعرض لجدول محتويات تحليلي. إن واحداً من الأسباب لانهيار هذا التطبيق العملي يمكن على الأرجح أن يكون لأن الناس لم يعودوا يقرأون جدول المحتويات كما كانوا يفعلون في السابق. بالإضافة إلى أن دور النشر أخذت تشعر أن جدول محتويات أقل إيضاحاً هو أكثر اغراء للقراءة من جدول

محتويات صريح وواضح. إنهم يشعرون أن القراء ينجذبون نحو كتاب ذي عناوين لفصول أكثر أو أقل غموضاً. إنهم يشعرون أن القراء يرغبون بقراءة الكتاب ليكتشفوا ماذا تحتوي فصوله. وحتى في هذه الحالة فإن جدول المحتويات يمكن أن يكون ذا قيمة كبيرة، ويجب أن يُقرأ بعناية قبل أن نقرأ بقية الكتاب. عند هذا الحد يمكنك أن تعود إلى جدول محتويات هذا الكتاب إذا لم تكن قد قرأته بعد. لقد حاولنا أن نجعله شاملاً ودقيقاً إلى أبعد مدى نستطيعه. إن تفحص جدول المحتويات هذا يجب أن يعطيك فكرة جيدة عما نحاول أن نفعله.

3 ـ تفحص القائمة الهجائية للأسماء والموضوعات الموجودة في نهاية الكتاب ـ إذا كان الكتاب يحتوي على مثل هذه القائمة ـ إن معظم الأعمال التفسيرية تشتمل على مثل هذه القائمة. قم بتقدير سريع للموضوعات التي تشتمل عليها هذه القائمة وأنواع الكتب والكتّاب الذين أشار إليهم الكاتب. وعندما ترى ضمن التعابير المدرجة تعبيراً يبدو دقيقاً، انظر ضمن صفحات الكتاب على الجمل أو الفقرات التي يستشهد بها الكاتب والعائدة لكتب أو كتّاب غيره. (ولدينا الكثير مما نود قوله عن العبارات الدقيقة في القسم الثاني من هذا الكتاب. أما هنا فيجب أن يكون حكمك على مدى أهمية هذه العبارات على أساس حسّك العام عن الكتاب كما استحصلت عليها من الخطوات 1 و2 المذكورة آنفاً). إن الجمل أو الفقرات التي تقرؤها يمكن أن تشتمل على أفكار أساسية ـ هذه الأفكار التي يتوقف عندها الكتاب ـ وتشكل انطلاقاً لمفاهيم ومواقف أساسية عند الكاتب.

وكما هو الحال مع جدول المحتويات، فإنه يمكنك عند هذا الحد أن تتفحص الجدول الهجائي لهذا الكتاب. وسوف تميز كم هي دقيقة بعض العبارات التي نوقشت سابقاً. هل يمكنك أن تبيِّن على سبيل المثال عدد المراجع التي يشتمل عليها. وأي عبارات دقيقة أخرى تبدو أيضاً ذات أهمية.

4 ـ إذا كان الكتاب جديداً ويحتوي على ورقة تجليد لمنع الغبار dust

cover، اقرأ ورقة التجليد هذه. بعض القراء لديهم انطباع أن ورقة التجليد هذه لا تحوي إلا على مجرد اطراء للكتاب، لكن هذا لا يكون صحيحاً على الغالب، خصوصاً في الأعمال الشرحية والتفسيرية، إن ورقة التجليد لمثل هذه الكتب يكتبها المؤلفون أنفسهم وبمساعدة دائرة العلاقات العامة لدار النشر الصادر عنها الكتاب. وإنه من الشائع أن يحاول المؤلفون تلخيص النقاط الرئيسية لكتابهم وعلى أعلى قدر من الدقة التي يستطيعونها. وبالطبع إذا لم تكن ورقة التجليد هذه إلا مجرد اطراء للكتاب فمن الطبيعي أن تكتشف ذلك بمجرد نظرة إلى هذه الورقة. ولكن هذا بحد ذاته يمكن أن يخبرك شيئاً عن الكتاب. وقد يكون الكتاب لا يقدم أي شيء ذي أهمية ولذا لا تحتوي ورقة التجليد على أي شيء أيضاً.

عند استكمالك لهذه الخطوات الأربع تكون قد حصلت على المعلومات الكافية عن الكتاب لتعرف عما إذا كنت تريد أن تقرأه بأناة أكثر، أو عما إذا لم تكن تحتاج لقراءته اطلاقاً، وفي كلتا الحالتين، يمكنك أن تضعه جانباً، وإذا لم تفعل ذلك فأنت الآن جاهز لتصفحه بكل ما للكلمة من معنى.

5 ـ من خلال نظرتك العامة والتي بقيت غير واضحة لمعرفة الكتاب، انظر الآن إلى فصول الكتاب التي يظهر أنها بالغة الأهمية لمناقشاته. إذا كانت هذه الفصول تشتمل على تلخيص في بداية الفصل أو نهايته، وغالباً ما يوجد مثل هذا التلخيص، اقرأ هذا التلخيص بتأنٍ.

6 ـ أخيراً قلّب صفحات الكتاب متصفحاً هنا وهناك قارئاً فقرة أو فقرتين، وأحياناً عدة صفحات متتالية، وليس أكثر من ذلك. قلِّب صفحات الكتاب على هذا الشكل ناظراً دائماً إلى العلامات التي تشكّل المناقشات الرئيسية، متنبهاً إلى النبضات الأساسية للمسألة. وقبل كل شيء لا تنسَ أن تقرأ الصفحتين أو الثلاث الأخيرة، وإذا كانت هذه الصفحات هي خاتمة الكتاب، إقرأ الصفحات القليلة الأخيرة من صلب الكتاب الأساسي وليس الخاتمة. إن كتّاباً قليلين يستطيعون مقاومة إغراء تجميع ما يعتقدون أنه جديد وهام من

عملهم في هذه الصفحات. وأنت لا ترغب في أن تضيع هذه المسألة، فربما يحدث أحياناً، أن المؤلف نفسه يمكن أن يكون مخطئاً في حكمه وفي النتيجة التي توصل إليها.

أنت الآن قد تصفحت الكتاب بشكل منتظم، وقد أعطيته النوع الأول من القراءة التفحصية. ويجب أن تعلم بشكل جيد عند هذا الحد ماذا يبحث الكتاب بعد أن تكون قد أنفقت ليس أكثر من بضعة دقائق وعلى أبعد تقدير ساعة من الزمن. وبشكل خاص يجب أن تعلم عما إذا كان الكتاب يحتوي على موضوعٍ لا زلت تريد أن تتقصاه، أو عما إذا لم يعد الكتاب يستحق زمناً أكثر من وقتكَ واهتمامك. ويجب أن تكون قادراً أيضاً على وضع الكتاب بدقةٍ أكبر في أرشيفك الذهني من أجل مراجعة أعمق إذا ظهرت حاجة للعودة لموضوعه.

ويصادف أن يكون هذا النوع من القراءة فعّالاً جداً. ومن المستحيل أن تقرأ أي كتاب قراءة تفحصية دون أن تكون متيقظاً وبدون أن تمتلك الذهنيّة الفعالة أيضاً. وكم من مرة راودتك أحلام اليقظة وأنت تقرأ عدة صفحات من كتاب جيد لتنتبه فجأة أنك لا تمتلك فكرة عن الصفحات التي قرأتها، إن مثل هذا لا يحدث إذا اتبعت الخطوات التي أوضحناها هنا، أي إذا اتبعت نظاماً للخطوط العامة التالية.

انظر لنفسك وكأنك شرطي سري يبحث عن مفاتيح الألغاز للهدف والأفكار العامة للكتاب، وينتبه لأي شيء يمكن أن يجعل الكتاب أوضح. إن اهتمامك بالمقترحات التي أوضحناها سوف يساعدك على تعزيز هذا الموقف. وسوف تُفاجأ عندما تجد كم من الوقت قد اختصرت وتسر عندما ترى كيف فهمت أكثر، وتبتهج من اكتشافك كم يمكن أن يكون ذلك أسهل مما ظننت.

القراءة التفحصية II

القراءة السطحية

لقد تعمدنا أن يكون عنوان هذا الفصل استفزازياً. إن كلمة «سطحي» لها أصلاً دلالة سلبية. لكننا على كل حال جادون تماماً في استعمال هذه العبارة.

كل فرد قد خبر المكافحة دون جدوى مع كتاب صعب كان قد بدأ بأمل كبير في فهمه. وكان من الطبيعي تماماً أن نخرج بنتيجة أنه من الخطأ محاولة قراءته في المقام الأول. لكن هذا ليس خطأ، بل بالأحرى أنك قد توقعت الكثير في محاولتك الأولى لقراءة كتاب صعب. افهم الكتاب بالطريقة الصحيحة، لأنه لا يوجد كتاب موجّه للقارىء العادي يحتاج لأن يكون مخيباً للآمال مهما كان هذا الكتاب صعباً.

ما هي الطريقة الصحيحة؟ إن الإجابة على ذلك تكمن من خلال ملاحظة عامة لقاعدة هامة ومفيدة في القراءة. وتلك القاعدة ببساطة: لا تعالج كتاباً صعباً في المرة الأولى لقراءته. إقرأه كله دون أن تتوقف لتنظر أو تفكر فوراً في أشياء لا تفهمها.

أعطِ اهتماماً لما تستطيع أن تفهمه ولا تتوقف عندما لا تستطيع أن تدركه فوراً. امضِ في قراءتك ماراً بالنقاط التي تجدها صعبة الفهم وسوف تصل سريعاً إلى أشياء تفهمها، ركّز عليها واستمر في هذه الطريقة. إقرأ الكتاب من بدايته إلى نهايته غير هيّاب ولا وجل من فقراته وإذا سمحت لنفسك أن تتوقف، أو تركت نفسك تتعثر بأيٍ من هذه المعوقات المربكة فقد ضعت. وفي معظم الحالات فإنك لن تكون قادراً على حل ألغاز هذه الفقرات إذا توقفت عندها. وسوف يكون لديك الفرصة الأكبر لتفهمها من خلال قراءتك الثانية، ولكن ذلك يتطلب منك قبل كل شيء أن تقرأ الكتاب من بدايته لنهايته مرة واحدة على الأقل.

ما فهمته من قراءتك الكتاب من بدايته لنهايته ـ حتى ولو كان خمسين

بالمائة أو أقل ـ سوف يساعدك عندما تبذل فيما بعد جهداً آخر لتقرأ الصفحات التي مررت عليها سابقاً في قراءتك الأولى. حتى إذا لم تعد للكتاب مرة ثانية فإن فهمك لخمسين بالمئة من كتاب صعب أفضل بكثير من عدم فهمك له على الإطلاق، وتلك هي الحالة إذا ما سمحت لنفسك أن تتوقف عن قراءته في المرة الأولى عند أول مقطع صعب يعترضك من ذلك الكتاب.

إن معظمنا قد علموا أن يعطوا انتباههم للأشياء التي لا يفهمونها. وقد قيل لنا أن نبحث في القاموس من أجل معاني الكلمات غير المألوفة لنا. وقد قيل لنا أيضاً أن نبحث في الموسوعات أو الأعمال المرجعية الأخرى عندما نُجابه بإشارات ضمنية أو بتعابير لا نفهمها. وقد قيل لنا أيضاً أن نرجع إلى الحواشي وإلى التعليقات الموضّحة، أو إلى المصادر الثانوية الأخرى لنحصل على مساعدتها في الموضوع الذي نقرأه. ولكن ذلك إن حصل قبل أوانه فإنه يعيق قراءتنا عوضاً عن أن يساعدها.

وعلى سبيل المثال فإن سعادة هائلة قد أفسدت لأجيال من طلاب المدارس الثانوية وكان يمكن أن يحصلوا عليها من قراءة شكسبير وذلك لأنهم أجبروا على قراءة «يوليوس قيصر» على الطريقة التي تحبها» أو «هاملت» مشهداً مشهداً باحثين عن معاني الكلمات الغريبة في جداولها ودارسين كل حواشي التعليقات. وكنتيجة لذلك فإنهم لم يكونوا قد قرؤوا المسرحيات الشكسبيرية فعلاً. ففي الوقت الذي يكونون قد وصلوا به إلى نهاية المسرحية فإنهم يكونون قد نسوا بدايتها وأضاعوا المنظور العام للمسرحية. وعوضاً عن أن يأخذوا هذه الطريقة المتحذلقة فقد كان من الأجدر أن يشجعوا على قراءة المسرحية كلها في جلسة واحدة وأن يناقشوا ما فهموه من هذه القراءة السريعة. وعند هذا الحد فقط فإنهم يصبحون على استعداد لدراسة المسرحية بأناة وإحكام لأنهم عند هذا الحد يكونون قد فهموا بشكل كافٍ ليتعلموا أكثر.

إن القاعدة السالفة الذكر تطبّق أيضاً وبشكل مساوٍ على الأعمال التفسيرية. وفي الحقيقة فهنا المكان الأفضل لإثبات مدى منطقية هذه القاعدة ـ

أن تقرأ الكتاب قراءة سطحية ـ فماذا يحدث عند عدم اتباعها. لنأخذ عملاً أساسياً في الاقتصاد، وعلى سبيل المثال الكتاب الكلاسيكي لآدم سميث «ثروة الأمم» (لقد اخترنا هذا الكتاب كمثال لأنه أكثر من أن يكون كتاباً مدرسياً أو عملاً موجهاً للمختصين في حقل الاقتصاد، فهو أيضاً كتاب للقارىء العادي).
إذا أصررت في هذا الكتاب على أن تفهم كل شيء في الصفحة قبل أن تنتقل إلى الصفحة التالية فإنك لن تذهب بعيداً في قراءته. إن جهدك على إدراك النقاط اللطيفة والسهلة سوف يضيع النقاط الكبيرة التي جعلها آدم سميث واضحة جداً عن عوامل الأجور والرّيْع والأرباح والفائدة والتي تدخل في تكاليف الأشياء، ودور السوق في تحديد الأسعار، ومصيبة الاحتكار، وأسباب التجارة الحرة. إنك في هذه الحالة سوف تفقد الغابة من أجل شجرة، ولن تكون قارئاً على أي مستوى.

حول سرعة القراءة

في الفصل الثاني وصفنا القراءة التفحصية بأنها فن الحصول على أكبر فائدة من الكتاب خلال زمن محدد. وفي وصفنا لها أكثر في هذا الفصل فإننا لا نرمي إلى تغيير هذا التعريف في أي شكل من الأشكال. إن الخطوتين اللتين تشملهما القراءة التفحصية يجب أن تُنفّذا بسرعة. والقارىء الكفوء يستطيع أن ينجزهما كلتاهما بسرعة، بغض النظر عن حجم وصعوبة الكتاب الذي يحاول أن يقرأه.

إن هذا التعريف المعمول به يبرز السؤال الذي لا يمكن تجنبه. ماذا عن سرعة القراءة؟ ما هي العلاقة بين مستويات القراءة والدورات المتعددة الأكاديمية والتجارية التي تعقد حول سرعة القراءة والتي تجري في أيامنا الحالية؟

لقد أظهرنا على كل حال أن مثل هذه الدورات هي أساساً دورات علاجية. بمعنى أنها تزودنا بتعليمات أساسية على المستوى الابتدائي للقراءة، وهذا وإن لم يكن على سبيل الحصر فإننا نحتاج إلى أن نقول أكثر عن هذا الموضوع.

ليكن مفهوماً لدينا حالاً بأننا نؤيد الافتراض القائل بأن معظم الأفراد يجب أن يكون لديهم القابلية بأن يقرؤوا أسرع مما هم عليه. وفي أحيان كثيرة هناك أشياء كثيرة يجب أن تقرأها وهي لا تستحق عملياً أن ننفق وقتاً كثيراً في قراءتها؛ فإذا لم نكن قادرين على قراءتها بسرعة، فإن ذلك سيكون إضاعة رهيبة للوقت. وفي الحقيقة فإن هناك أفراداً عديدين يقرأون بعض الأشياء ببطءٍ شديد، ويجب عليهم أن يقرؤوها أسرع. لكن من ناحية أخرى هناك أفراد عديدون أيضاً يقرؤون الأشياء بسرعة أكبر، في حين أنه يجب أن يقرؤوها ببطء أكثر. لذا فإن دورات القراءة السريعة الجيدة هي التي تعلمك القراءة بسرعات مختلفة، وليس على سرعة واحدة، وهي التي تكون أسرع من أي شيء تستطيع أن تستخدمه الآن.

إن ما نريد أن نقوله هو ـ في الحقيقة ـ بسيط جداً. فبعض الكتب لا تستحق حتى التصفح، وبعضها الآخر يجب أن يُقرأ بسرعة، وقليل من الكتب يجب أن تُقرأ بمعدل ـ هو عادة ـ بطيء جداً ليتاح أن نفهمها. إنها إضاعة للوقت أن نقرأ كتاباً ببطء في حين أنه يستحق فقط قراءة سريعة، ومهارات القراءة السريعة تساعدك في حل هذه المشكلة. ولكن هذه هي فقط مشكلة واحدة في القراءة. إن العائق الذي يقف في طريق فهم كتاب صعب ليس ـ عادة، وربما ليس أساساً ـ فيسيولوجياً أو نفسياً. وهذا العائق يقف عند هذا الحد لأن القارىء ـ ببساطة ـ لا يعرف ماذا يفعل عندما يتناول كتاباً صعباً وجديراً بالقراءة. وهو لا يعرف أيضاً قواعد القراءة. ولا يعرف أيضاً كيف ينظّم ملكاته الفكرية من أجل هذا الهدف. ولا يهم كم هو سريع بالقراءة لأنه لن يستفيد منها، فهو لا يعرف عن ماذا يبحث ولا يعرف أيضاً أين يجده.

منع الاعتبار لمعدلات القراءة فإن الهدف ليس فقط أن تكون قادراً على القراءة أسرع، ولكن أن تكون قادراً على القراءة بسرعات مختلفة، وأن تعلم متى تستعمل هذه السرعات المختلفة. إن القراءة التفحصية تنجز بسرعة، ولكن ليس ذلك لأنك تقرأ أسرع، بالرغم من أنك في الحقيقة تفعل ذلك، فهي أيضاً

لأنك تقرأ أقل من ذلك الكتاب ـ حينما تقرؤه قراءة تفحصية ـ ولأنكم أيضاً تقرؤه بطرق مختلفة، ومع أهداف مختلفة في ذهنك.

إن القراءة التحليلية هي ـ عادة ـ أبطأ من القراءة التفحصية، ولكن حتى عندما تقرأ قراءة تحليلية يجب أن لا تقرأ الكتاب كله بمعدل السرعة نفسها. إن كل كتاب ـ بغض النظر عن مدى صعوبته ـ يحتوي على مواد سهلة وهذه يجب أن تقرأ بسرعة، كما أن كل كتاب جيد يحتوي أيضاً موضوعات صعبة وهذه يجب أن تقرأ ببطء.

التثبيت والانكفاء

إن دورات القراءة السريعة قد قامت بالكثير من الاكتشاف ـ وقد عرفناها منذ نصف قرن أو أكثر ـ وهو أن معظم الأفراد يستمرون في التعبير جزئياً ولسنوات بعد أن عُلّموا كيف يقرؤون أولاً. إن حركة العين تُظهر أن العين للشاب أو القارىء غير المتمرن تثبت خمسة أو ستة أضعاف الزمن على كل سطر يُقرأ. (إن العين عمياء عندما تتحرك، وإنها ـ فقط ـ ترى عندما تقف). وهكذا فالكلمة المفردة أو الكلمتين أو الثلاث من مقطع تقرأ في وقت واحد، وبالقفز عبر الأسطر. بل والأسوأ من ذلك فإن عين القارىء غير المتمرس تنكفىء مرة كل سطرين أو ثلاثة أسطر، بمعنى أنها تعود إلى المقاطع أو الجمل التي قُرئت سابقاً.

كل هذه العادات غير مثمرة، وتقف بوضوح أمام سرعة القراءة. إنها غير مثمرة لأن العقل لا يشبه العين وهو لا يحتاج لأن يقرأ كلمة واحدة أو مقطعاً صغيراً في وقت واحد. إن العقل ـ هذه الأداة المذهلة ـ يستطيع أن يلتقط جملة أو حتى فقرة بنظرة سريعة ـ وذلك فقط إذا استطاعت العين أن تزوده بالمعلومات التي يحتاجها. لذا فإن الهدف الأساسي الذي تعنى به كل دورات القراءة السريعة هي في التصحيح والانكفاء اللذين يبطئان قراءً عديدين. ولحسن الحظ فإن هذه يمكن أن تتمّ بسهولة كبيرة. وعندما تنجز فإن الطالب يستطيع

أن يقرأ بالسرعة التي يسمح له فيها استيعاب عقله، وليس بالبطء الذي تمليه حركة عينية.

هناك أدوات عديدة لكسر ثبات العين وبعضها معقد وغالٍ. وعلى كل حال فليس من الضروري عادة أن تُعمل أية أداة أكثر تعقيداً من يدك التي تستطيع أن تدربها بنفسك كي تتبع الحركات بسرعات متزايدة عبر الصفحة. أنت تستطيع أن تفعل ذلك بنفسك. ضمّ إبهامك وإصبعيك الأولين مع بعضهما بعضاً. حرك بقوة هذا المؤشر عبر السطر بسرعة أكثر قليلاً من حركة عينيك بشكل مريح على السطر. أجبر نفسك على متابعة القراءة مع حركة يدك. وسوف تصبح بوقت قصير جداً قادراً على قراءة الكلمات كما تتبع يدك على السطر. تابع هذا التمرين وزد سرعة تحرك يدك وقبل أن تدرك ذلك سوف تجد نفسك قد زدت سرعة قراءتك ضعفين أو ثلاثة أضعاف.

مشكلة الفهم

ولكن ماذا اكتسبت تماماً إذا زادت سرعة قراءتك بشكل ملحوظ؟ صحيح أنك اقتصدت بالوقت ولكن ماذا عن الفهم؟ هل ازداد فهمك أيضاً أم أن الفهم قد عانى من هذه العملية؟ على حد علمنا لا توجد دورة قراءة سريعة إلا وتدّعي أنها قادرة على زيادة الفهم جنباً إلى جنب مع سرعة القراءة. وبالإجمال ربما هناك بعض الأسس لهذه الادعاءات. إن اليد (أو أي أداة أخرى) تستعمل كميقاتية تنحو ليس فقط إلى سرعة زيادة قراءتك بل أيضاً إلى تحسين تركيزك على ما تقرأ. وكلما حاولت أن تتبع حركة يدك فإنه من الصعب أن تنام، أو تحلم أحلام اليقظة، أو أن يحيد عقلك عما تقرؤه. إن الأمر جيد إلى هذا الحد. فالتركيز هو اسم آخر لما يدعى فعالية القراءة. إن القارىء الجيد يقرأ بفعالية وتركيز.

ولكن التركيز بمفرده ليس له في الحقيقة تأثير كبير على الفهم. عندما يُفهم ذلك بشكل ملائم. إن الفهم يتضمن أكثر بكثير من مجرد أن تكون قادراً

على إجابة الأسئلة البسيطة عن الحقائق المتضمنة في النص. وهذا هو في الحقيقة النوع المحدود للفهم والذي لا يعني إلا القابلية البدائية للإجابة عن أسئلة عن كتاب أو أي مواد قراءة أخرى: ماذا يقول الكتاب؟

والأسئلة العديدة الأخرى الأبعد من ذلك عندما يُجاب عليها بشكل صحيح، فإنك تكون قد طبقت مستويات أعلى من الفهم وهي نادراً ما تُسأل في دورات القراءة السريعة، ونادراً ما تعطى التعليمات عن كيفية الإجابة على مثل هذه الأسئلة.

ولجعل ذلك أوضح، دعنا نأخذ مثالاً لشيء تقرؤه. دعنا نأخذ وثيقة إعلان الاستقلال. وعلى الأرجح أن يكون لديك نسخة متاحة منها. أنظر إلى هذه الوثيقة، إنها لا تشغل أكثر من ثلاث صفحات مطبوعة. ما هي السرعة التي يجب أن تُقرأ بها هذه الوثيقة؟

إن الفقرة الثانية من هذا الإعلان تنتهي بالجملة التالية: «لتثبت ذلك، دع الحقائق ترسل للعالم الأبيض» إن الصفحتين التاليتين من «الحقائق» ـ بعضها ـ وبالمصادفة ـ مشكوك فيه تماماً. إن هاتين الصفحتين يمكن قراءتهما بسرعة. وليس من الضروري أن تحصل على أكثر من فكرة عامة عن نوعية الحقائق التي يتحدث عنها جفرسون، إلا إذا كنت بالطبع من الدارسين المهتمين بالظروف التاريخية التي كتبها جفرسون خلالها.

وحتى في الفقرة الأخيرة التي تنتهي بالجملة الاحتفالية التي يتبادل بها الموقعون المودة لبعضهم عن حياتنا وثرواتنا وإجلالنا المقدس يمكن أن تقرأ بسرعة. إن هذه البلاغة البيانية تستحق ما تستحقه البلاغة دائماً. لكن الفقرتين الأوليتين من الإعلان تتطلب أكثر من مجرد القراءة الأولية السريعة.

ونشك في أن يوجد أي فرد يمكنه أن يقرأ هاتين الفقرتين الأوليتين بمعدل أسرع من 20 كلمة في الدقيقة. وفي الحقيقة فإن الكلمات الشهيرة ذاتها في الفقرة الثانية مثل عدم قابلية تحول الملكية إلى شخص آخر، الحرية،

السعادة، الموافقة والقوى المشروعة، هي كلمات تستحق الوقوف عندها والتفكير فيها ودراستها بعمق. ويجب أن تقرأ بفهم كامل، إن هاتين الفقرتين من الإعلان يمكن أن تتطلبا أياماً أو أسابيع أو حتى سنين.

إن مشكلة القراءة السريعة هي مشكلة فهم. وعملياً فإن هذه تستوجب تعريف الفهم بمستوى أبعد من المستوى الابتدائي. إن دورات القراءة السريعة في معظم أجزائها لا تحاول ذلك. ومن الجدير التأكيد على كل حال أن فهم ما نقرأ بدقة هو ما يبحثه هذا الكتاب من أجل تطويره، فلا تستطيع أن تفهم كتاباً لم تقرأه قراءة تحليلية، والقراءة التحليلية، كما ذكرنا، تؤخذ أساساً من أجل الفهم والتفهم.

ملخص القراءة التفحصية

كلمات قليلة نلخص بها هذا الفصل. وهي أنه لا توجد سرعة صحيحة ووحيدة يجب أن نقرأ بها، إن قدرة القراءة بسرعات مختلفة وأن نعلم ما هي السرعة الملائمة التي نقرأ بها هي الهدف. إن القراءة بسرعة كبيرة هي إنجاز مشكوك فيه. إنها ذات قيمة فقط إذا كان ما تقرأه لا يستحق القراءة. وبعبارة أخرى إن كل كتاب لا يجب أن يُقرأ بسرعة أقل من التي يستحقها، ولا بسرعة أكبر من التي تستطيع قراءته برضى وفهم. وفي أية حالة إن السرعة التي تقرأ بها، ولتكن سريعة أو بطيئة ليست أكثر من جزء من مشكلة معظم القراء.

إن التصفح أو ما يسمى بمرحلة ما قبل القراءة هي دائماً فكرة جيدة. إنها ضرورية عندما لا تعلم عما إذا كان الذي بين يديك يستحق القراءة بتأنٍّ أم لا، وهذه هي الحالة في أغلب الأحيان. وسوف تجد ذلك من خلال تصفح الكتاب. ومن المفضل عموماً أن تتصفح حتى الكتاب الذي تنوي قراءته بتمعن لتحصل على فكرة عن شكله وهيكله.

وأخيراً لا تحاول أن تفهم كل كلمة أو كل صفحة من كتاب صعب تقرأه لأول مرة. وهذه هي أهم قاعدة في كل ذلك؛ إنها أساس القراءة التفحصية. لا تخف من أن تكون، أو يظهر أن تكون سطحياً. إقرأ بسرعة حتى أصعب

الكتب، فإنك تكون عندها مهيّئاً لقراءته أفضل في المرة الثانية.

نحن الآن قد أتممنا نقاشنا التمهيدي عن المستوى الثاني من القراءة ألا وهي القراءة التفحصية وسوف نعود لنفس الموضوع عندما نصل إلى القسم الرابع من هذا الكتاب وسوف نرى ما أهمية دور القراءة التفحصية في قراءات المراجع ذات الموضوع الواحد بشكل متزامن والذي هو أعلى مستوى من مستويات القراءة، أي المستوى الرابع.

وعلى كل حال يجب أن تحتفظ في ذهنك أثناء نقاشنا للمستوى الثالث من القراءة - القراءة التحليلية - الذي سيبحث في القسم الثاني من هذا الكتاب، أن القراءة التفحصية تلعب وظيفة هامة في ذلك المستوى أيضاً. إن المرحلتين اللتين تشتمل عليهما القراءة التفحصية يمكن أن تكونا كلتاهما كتخمين للخطوات التي يأخذها القارىء عندما يقرأ بشكل تحليلي. إنّ المرحلة الأولى للقراءة التفحصية - هذه المرحلة التي أسميناها التصفح المنتظم - تهيّىء من يقرأ قراءة تحليلية في الإجابة عن الأسئلة التي يجب أن تُسأل أثناء المرحلة الأولى من ذلك المستوى. فالقراءة التحليلية أو بكلمات أخرى التخمين والفهم لهيكلية الكتاب، والمرحلة الثانية من القراءة التفحصية - المرحلة التي أسميناها القراءة السطحية - تخدم القارىء عندما يصل إلى المرحلة الثانية من القراءة التحليلية. إن القراءة السطحية هي الخطوة الضرورية الأولى في تفسير محتويات الكتاب.

وقبل أن نشرح القراءة التحليلية، سوف نتوقف لحظة لندرس أيضاً طبيعة القراءة كفعالية أو نشاط. فهناك أفعال معينة يجب أن يؤديها القارىء الفعال أو المجد من أجل أن يقرأ بشكل جيد. وسوف نبحث ذلك في الفصل التالي.

القسم الثاني

الفصل الخامس

كيف تكون قارئاً مجدّاً

إن اتّباع قواعد القراءة من أجل أن تنام أسهل من اتباع قواعد القراءة التي تبقيك مستيقظاً أثناء القراءة. استلقِ في سريرك بوضع مريح وتأكد من أن الضوء بوضع غير ملائم بشكل يكون فيه قليلاً من الإجهاد البصري، واختر كتاباً صعباً جداً أو مضجراً جداً ـ وفي كلتا الحالتين يجب أن تكون غير مهتم إذا قرأت الكتاب أم لا ـ إنك في هذه الحالة سوف تستغرق في النوم خلال بضعة دقائق. إن أولئك الخبراء في الاسترخاء والكتاب بين أيديهم لا ينتظرون حلول المساء كي يفعلوا ذلك، وإن مقعداً مريحاً في المكتبة يمكنه أن يفعل فعله في أي وقت.

ومن سوء الحظ أن القواعد التي تبقيك مستيقظاً لا تتألف من فعل عكس ذلك. ومن الممكن أن تبقى مستيقظاً أثناء القراءة وأنت جالسٌ على كرسيٍّ مريح أو حتى وأنت في السرير، وقد عرف أناس يجهدون عيونهم وهم ساهرون يقرؤون على ضوء خافت جداً. ما الذي جعل القراء المشهورين على ضوء الشموع مستيقظين؟ إنه أمر واحد بالتأكيد، إن الوضع مختلف بالنسبة لهم، بل هو بالأحرى مختلفٌ جداً سواء قرأوا الكتاب الذي بين أيديهم إم لم يقرأوه.

وسواء جهدت لأن تكون صاحياً أم لا، فإن ذلك يعتمد على هدفك من القراءة. فإذا كان هدفك من القراءة أن تربح من خلالها ـ أن تنمو بطريقة ما

في ذهنك أو في عواطفك ـ فيجب أن تبقى صاحياً. وإن ذلك يعني أن تقرأ بفعالية لأقصى حدٍّ ممكن. إنه يعني بذل الجهد ـ الجهد الذي يُتوقع منك أن تبذله.

إن الكتب الجيدة، سواء أكانت من صنع الخيال أم لا ـ تستحق مثل هذه القراءة. وأن تستخدم الكتاب الجيد كمسكّن هي إضاعة كبيرة للوقت. وأن تنام أو ما شابه ذلك، أي أن تجعل ذهنك يحيد عن الهدف خلال الساعات التي خططت لأن تقرأ بها قراءة مثمرة ـ والتي هي القراءة من أجل الفهم ـ فإن ذلك إخفاق في الوصول إلى الهدف الذي وضعته لنفسك.

لكن الحقيقة المحزنة هي أن الأشخاص العديدين الذين يستطيعون التمييز بين الكسب والمتعة ـ أي بين الفهم من جهة وبين المتعة وإشباع الفضول من جهة أخرى ـ يخفقون أيضاً في تنفيذ خطط قراءتهم. إنهم يخفقون حتى لو عرفوا أن أيّاً من الكتب تعطي هذه النتيجة أو تلك. والسبب في ذلك أنهم لا يعرفون كيف يكونون قراءً مُجدين، وكيف يركزون فكرهم على ما يقومون به من خلال العمل الذي بدونه لا يمكن أن تحصل على النتيجة المطلوبة.

جوهر القراءة الفعالة

الأسئلة الأربعة التي يجب أن يسألها القارىء:

لقد ناقشنا القراءة الفعالة بشكل شامل في هذا الكتاب. وقد قلنا إن القراءة الفعالة هي القراءة الأفضل، وقد أكّدنا أن القراءة التفحصية هي دائماً قراءة فعالة. إنها ممارسة مثمرة وليست ممارسة عقيمة. لكننا إلى الآن لم نخض في صلب الموضوع وذلك بوضع ولو قاعدة بسيطة واحدة عن القراءة الفعالة. وهي: إسأل نفسك أسئلة عندما تقرأ ـ أسئلة تحاول أنت بنفسك أن تجيب عليها أثناء عملية القراءة.

هل هذه الأسئلة هي أية أسئلة؟ بالطبع لا. لأن فن المطالعة على أي

مستوى بعد المستوى الابتدائي يتألف عادة من طرح الأسئلة الصحيحة ومن خلال ترتيبٍ صحيح لها. ويوجد أربعة أسئلة أساسية يجب أن تسألها عن أي كتاب[1].

1 ـ ماذا يبحث الكتاب بمجمله؟ فيجب عليك أن تكتشف ما هو الموضوع الأساسي للكتاب، وكيف طوّر الكاتب موضوعه من خلال ترتيبه له وتقسيمه إلى موضوعات أساسية وجزئية.

2 ـ ماذا قيل بشكل مفصّل وكيف قاله؟ يجب عليك أن تكتشف الأفكار الرئيسية، والأمور التي يجزم بها والمناقشات التي تشكل ما يريد الكاتب إيصاله بشكل خاص إلى القارىء.

3 ـ هل الكتاب حقيقي كلياً أو جزئياً؟ إنك لا تستطيع الإجابة على هذا السؤال إلا إذا كنت قد أجبت على السؤالين السابقين. فيجب أن تعلم ماذا قيل قبل أن تقرر أن ما قيل حقيقي أم لا. وعندما تفهم الكتاب فإنك ملزم باتخاذ قرارك إذا كنت قارئاً جادّاً، فمعرفة رأي الكاتب ليس كافياً في هذا الخصوص.

4 ـ ماذا عن الكتاب؟ إذا أعطاك الكتاب معلومات، فيجب أن تسأل عن مدى أهميتها. ولماذا يعتقد الكاتب أنه من الضروري أن تعرف هذه الأشياء؟ وهل من الضروري أن تعرفها؟ وإذا لم يكن الكتاب يُعلِمُك فحسب، بل أنه ينوّرك أيضاً، فهل من الضروري أن تستفيض في ذلك إلى مدى أبعد وذلك من خلال السؤال، ماذا تبع ذلك؟ وما الذي يلمِّح إليه الكاتب؟ وما هي مقترحاته؟

وسوف نعود إلى هذه الأسئلة الأربعة بشكل مطوَّل فيما تبقى من هذا

---

(1) هذه الأسئلة الأربعة التي أوضحت مع المناقشات التي تتبعها تطبق أساساً على الكتب التفسيرية أو بالحري على الكتب غير التخيلية Fiction. وعلى كل حال عندما تُكيف هذه الأسئلة فإنها تطبق على الاعمال التخيلية والشعر. والتكييفات المتطلبة نوقشت في الفصلين 14 و15.

الكتاب. ولنصفها بطريقة أخرى، فإن هذه الأسئلة الأربعة في القراءة هي التي سيهتم بها القسم الثاني من هذا الكتاب. لقد وضعناها هنا بشكل أسئلة لهدف هام. لأن قراءة كتاب على أي مستوى أبعد من المستوى الابتدائي هو ـ أساساً ـ جهد تبذله لتسأل أسئلة (وتجيب عليها أيضاً لأبعد مدى ممكن من قدرتك). وهذا الشيء يجب أن لا يُنسى أبداً. وهذا هو الفارق الأساسي في كل العالم بين القارىء الجاد والقارىء غير الجاد، إن الأخير لا يسأل أسئلة ولا يجيب عليها.

إن الأسئلة الأربعة المذكورة سابقاً تلخص كل واجبات القارىء. وإنها تطبق على أي مادة تستحق القراءة (كتاب أو مقالة أو حتى إعلان تجاري). إن القراءة التفحصية تنحو لتقديم أجوبة أكثر دقة للسؤالين الأولين أكثر من السؤالين الثالث والرابع، لكنها على كل حال تساعد في الإجابة على هذين السؤالين الأخيرين أيضاً. أما القراءة التحليلية فلا تنجز بشكل مُرضٍ حتى تجيب عن السؤالين الأخيرين، أي حتى يكون لديك فكرة عن مدى صحة الكتاب بشكل كلي أو جزئي ومعرفة مدى أهميته فقط إذا كان في مخططك أشياء من هذا القبيل. إن السؤال الأخير «ماذا عن الكتاب» هو على الأغلب أهم سؤال في القراءة المتزامنة الموجهة لموضوع واحد. ومن الطبيعي أن تجيب على الأسئلة الثلاثة الأولى قبل أن تحاول الإجابة على السؤال الأخير.

وليس كافياً أن تعرف ما هي الأسئلة الأربعة. لأنه يجب عليك أن تسألها وأنت تقرأ. وإنّ العادة في فعل ذلك هي الدليل على أنك قارىء جاد. والأكثر من ذلك فإنه يجب عليك أن تعرف كيف تجيب عليها بشكل دقيق وصحيح. إن القابلية المتمرسة لفعل ذلك هي ما يسمى بـ «فن القراءة».

فالناس عادة يشعرون بالنعاس عندما يقرأون الكتب الجيدة ليس لأنهم غير قادرين على بذل الجهد، بل لأنهم لا يعرفون كيف يبذلون مثل هذا الجهد. إن الكتب الجيدة في متناول يدك، ولن تكون جيدة بالنسبة لك إذا لم تكن بحد ذاتها جيدة. وهذه الكتب هي في متناول يدك وسترهقك إلا إذا

استطعت الوصول إليها وأن ترفع نفسك لمستواها. وليس هذا النوع من الجهد هو الذي يتعبك، ولكن الذي يتعبك هو ذلك الإحباط الذي يعتريك من جراء عدم النجاح في ذلك. لأنك تفتقر إلى مهارة القيام بذلك بشكل فعال. ولكي تستمر في القراءة بشكل فعال يجب ألا يكون لديك فقط الرغبة في ذلك بل - أيضاً - المهارة للقيام به، المهارة التي تتيح لك أن ترقى بنفسك لإتقان ما يبدو لك للوهلة الأولى أبعد من أن تصل إليه.

كيف تجعل الكتاب ملكك؟

إذا كانت لديك عادة أن تسأل الكتاب أسئلة عندما تقرأه، فإنك تكون قارئاً أفضل من الذي لا يفعل ذلك. ولكن وكما أشرنا سابقاً فإن طرح الأسئلة ليس كافياً فقط. لأن عليك أن تجيب عن هذه الأسئلة. وبالرغم من أن ذلك يمكن أن ينجز نظرياً في ذهنك فقط، فإنه من الأسهل أن تنجزه والقلم بين يديك. إنّ القلم في هذه الحالة يصبح دليلاً على تيقظك أثناء القراءة.

وإنه لقول قديم ذلك الذي يقول: «يجب أن تقرأ بين الأسطر» لتأخذ أقصى ما يمكن من الكتاب. وإن قواعد القراءة هي الطريقة المنهجية لقول ذلك. لكننا نريد أن نقنعك أن تكتب بين السطور أيضاً. وإذا لم تفعل فإنك على الأرجح لا تقرأ بأقصى كفاءةٍ ممكنة.

وعندما تشتري كتاباً، فإنك تُنشىء حق ملكية عليه، مثل شراء الملابس أو الأثاث، فعندما تشتريها فإنك تدفع ثمنها. لكن فعل شراء الكتاب هو - عملياً - مقدمة لتملكه. لأن الملكية التامة له تأتي عندما تجعل الكتاب جزءاً من نفسك، والطريقة الأفضل أن تجعل نفسك جزءاً من الكتاب والتي تصل بها للنتيجة نفسها من خلال الكتابة عليه.

لماذا يُعدّ وضع الإشارات على الكتاب أمراً لا مفر منه لقراءته؟ إن ذلك يكون لأسباب عديدة: فهو أولاً يبقيك مستيقظاً، وليس واعياً فحسب، بل متيقظاً أيضاً. وثانياً، إن القراءة عبارة عن عملية تفكير إذا كانت قراءة فعّالة،

والتفكير ينزع إلى أن يعبّر عن نفسه بكلمات سواءاً كانت شفهية أم كتابية. والشخص الذي يقول إنه يعرف بماذا يفكر؟ ولكنه لا يستطيع التعبير عما يفكر فيه، هو عادة لا يعلم بماذا يفكر؟ وثالثاً، إن كتابة رد فعلك على ما تقرأه يساعد في تذكر أفكار الكاتب.

إن قراءة كتاب يجب أن يكون حواراً بينك وبين الكاتب. ومن المفترض أن هذا الأخير ـ الكاتب ـ يعلم عن الموضوع الذي يبحثه أكثر من القارىء، وإذا لم يكن كذلك، فمن الأرجح أنك لن تتكبد قراءة كتابه. ولكن الفهم هو عملية ذات اتجاهين. لأن من يود التعلم يجب أن يسأل نفسه ويسأل الأستاذ. بل هو يجب أن يكون راغباً أيضاً في مناقشة الأستاذ عندما يفهم ماذا يقول الأستاذ. وإن وضع الإشارات على الكتاب معناه ـ حرفياً ـ هو تعبيرك عن مدى اتفاقك أو اختلافك مع الكاتب. وإنها أعلى تقدير يقدمه القارىء للكاتب.

يوجد كثير من الأدوات والوسائل لوضع الإشارات على الكتاب بشكل مثمر وذكي، وهنا نورد بعض هذه الوسائل التي يمكن استعمالها:

1 ـ ضع خطّاً تحت الجمل القوية أو الهامّة.

2 ـ ضع خطوطاً شاقولية على الهامش، للتأكيد على الجمل التي وضعت خطّاً تحتها سابقاً، أو لتشير إلى فقرة تراها طويلة لأن تضع خطاً تحت أسطرها.

3 ـ ضع نجمة أو نُجيمة أو أي إشارة أخرى على الهامش، كي تستعملها بشكل مختصر للتأكيد على أكثر الجمل أو المقاطع التي تراها أكثر أهمية من سواها. ويمكنك أن تطوي زاوية الصفحة في كل الصفحات التي تضع عندها هذه الإشارة، أو أن تضع قصاصة صغيرة بين هذه الصفحات. وفي كلتا الحالتين فإنه يمكنك أن تأخذ الكتاب من على رف المكتبة في أي وقت تريد وتفتح على هذه الصفحات التي أشرت عليها سابقاً لتتذكر أو تنعش ذاكرتك من

خلال قراءتها.

4 ـ ضع أرقاماً على هامش صفحات الكتاب، للإشارة إلى تسلسل النقاط التي وضعت من قبل الكاتب أثناء تطويره للمناقشات التي يقوم بها.

5 ـ ضع أرقام الصفحات الأخرى على هامش الصفحة التي تقرؤها، للإشارة إلى أي من الصفحات التي أثار الكاتب النقاط نفسها في سياق كتابه، أو للإشارة إلى الصفحات المماثلة أو المناقضة لما كتبه في الصفحة المعينة وذلك لتربط أفكار الكتاب التي قد تبدو منفصلة وعلى صفحات عديدة من الكتاب إلا أنها مترابطة فيما بينها. وإن قراءً عديدين يستعملون كلمة أنظر أو كلمة قارن أو بالإشارة إلى...

6 ـ ضع دائرة على الكلمة الأساسية أو الجملة الأساسية، وهذه الإشارة تخدم تماماً مثل وضع الخط تحت الكلمة أو الجملة.

7 ـ الكتابة على الهامش أو في أعلى أو أسفل الصفحة. وذلك لتسجيل أسئلة، أو ربما لتجيب عن الأسئلة التي يثيرها النص في ذهنك، ولتختصر مناقشات معقدة في جمل بسيطة، ولتسجيل النقاط الأساسية في سياق الكتاب. إن الصفحات الأخيرة البيضاء في نهاية الكتاب يمكن أن تستخدم كفهرس شخصي للنقاط التي بحثها الكاتب وفي تسلسل ترتيب ظهورها.

وبالنسبة للقارىء المتمكن من كتابة الملاحظات فإن الصفحات البيضاء في مقدمة الكتاب هي الأهم في صفحات ذلك الكتاب. وبعض القراء يحتفظون بها لكتابة أسمائهم للدلالة على ملكيتهم المالية للكتاب. ولكن من الأفضل الاحتفاظ بهذه الصفحات لتسجل خواطرك عن الكتاب. فبعد الانتهاء من قراءة الكتاب ووضع فهرسك الشخصي في الصفحات الأخيرة منه، فإنك تعود للصفحات البيضاء في مقدمة الكتاب لتحاول أن توجز الكتاب، ليس صفحة بصفحة ولا نقطة بنقطة (فقد فعلت ذلك في نهاية الكتاب)، ولكنك تحاول أن تضع هيكلاً متكاملاً مع مختصر أساسي لترتيب أجزائه. وهذا الموجز سوف

يكون معيار فهمك للكتاب وهو بخلاف كتابة اسمك على الصفحة الأولى منه لإثبات ملكيتك المالية له، لأن هذا الموجز يعبر عن ملكيتك الفكرية للكتاب.

ثلاثة أنواع من وضع الملاحظات

هناك ثلاثة أنواع مختلفة من الملاحظات لتضعها على كتبك، وتحديد أي نوع من هذه الملاحظات التي ستضعها يعتمد على المستوى الذي تقرأ به.

فعندما تقرأ كتاباً قراءة تفحصية، فلن يكون لديك الوقت لوضع ملاحظات عنه، فالقراءة التفحصية كما نوّهنا سابقاً هي قراءة في وقت محدود. ومع ذلك فأنت تسأل أسئلة هامة عن الكتاب عندما تقرأه على هذا المستوى، ومن المرغوب فيه وإن لم يكن ذلك ممكناً دائماً أن تضع إجاباتك عندما تطرأ على ذهنك أثناء القراءة.

والأجوبة عن أسئلة القراءة التفحصية هي: أولاً ما هو نوع الكتاب؟ ثانياً: ماذا عن مضمون الكتاب بشكل عام؟ ثالثاً: ما هو الترتيب الهيكلي للكتاب وفقاً لتطوير مفاهيم الكاتب وفهمه لموضوعه بشكل عام؟ ويمكنك أو على الأغلب يجب أن تضع ملاحظاتك التي تتعلق بالإجابة عن هذه الأسئلة، خصوصاً عندما تعلم أنه ربما سوف يكون هناك أيام أو أشهر قبل أن تعود للكتاب لتقرأه قراءة تحليلية. وأفضل مكان لوضع هذه الملاحظات هي صفحة فهرس المحتويات، أو ربما صفحة عنوان الكتاب التي لن تستخدمها في المخطط الذي أوضحناه سابقاً.

والنقطة التي يجب تمييزها أن هذه الملاحظات تتعلق في الأساس بهيكل الكتاب وليس بجوهره ـ وعلى الأقل ليس بذلك التفصيل ـ لذا فهذا النوع من الملاحظات سوف ندعوها «الملاحظات الهيكلية».

أثناء القراءة التفحصية ولا سيما لكتاب صعب فإنه من الممكن أن تحرز بعض المفاهيم عن أفكار الكاتب التي تتعلق بموضوعه. وعلى كل حال فمن

الأغلب أنك لن تضع حكمك، بل بالتأكيد يجب أن تؤجل حكمك عن مدى دقة الكتاب وصوابه إلى أن تقرأ الكتاب بتأنٍ أكثر. ثم وأثناء القراءة التحليلية فإنك سوف تحتاج لأن تضع إجابات عن أسئلة تتعلق بصحة وأهمية الكتاب. والملاحظات التي تضعها في هذا المستوى من القراءة لن تكون هيكلية، بل إنها مفاهيمية لأنها سوف تتعلق بمفاهيم الكاتب ومفاهيمك أيضاً، من خلال تعمقها أو اتساعها بعد قراءة الكتاب قراءة تحليلية.

يوجد فرق واضح بين الملاحظات الهيكلية والملاحظات المفاهيمية. فما هو نوع الملاحظات التي تضعها عندما تقرأ بضعة كتب قراءة مراجع، أي عندما تقرأ أكثر من كتاب في الموضوع نفسه. إن مثل هذه الملاحظات تنحو لأن تكون مفاهيمية، وهذه الملاحظات التي تضعها على صفحة ما يمكن أن توجهك ليس إلى صفحات أخرى في الكتاب نفسه فحسب ولكن أيضاً إلى صفحات أخرى في كتب أخرى.

وهناك خطوة أبعد من ذلك أيضاً تستطيع أن تأخذها كقارىء خبير عندما تقرأ عدة كتب عن الموضوع نفسه. وهي أن تضع ملاحظات على شكل المناقشات ـ المناقشات التي تنخرط فيها مع كل الكتّاب وحتى تلك التي تكون مجهولة من قبلهم. لأسباب سوف تكون واضحة في القسم الرابع من هذا الكتاب والتي نفضل أن نطلق عليها ملاحظات ديالكتيكية. لأنها توضع فيما يتعلق بعدة كتب وليس فقط بكتاب واحد، وعليك أن تضع هذه الملاحظات على ورقة أو أوراق منفصلة. وإن تركيب المفاهيم ضمني هنا وهو ترتيب الجمل والأسئلة لموضوع واحد. وسوف نعود إلى هذا النوع من الملاحظات في الفصل 20.

تكوين عادة القراءة

إن أي فن أو مهارة يكتسبه أولئك الذين كوّنوا عادة العمل طبقاً لقواعد معينة. هذه هي الطريقة التي يختلف فيها الفنان أو العامل اليدوي الماهر عن

أولئك الذين تنقصهم مهارته.

ولا يوجد طريقة أخرى لتكوين عادة عملية إلا من خلال إعمالها. وهذا هو ما نقصده عندما نقول أن المرء يتعلم من خلال الممارسة. والفرق بين الفعالية قبل وبعد تكوين العادة هي كالفرق بين البراعة والقابلية. فبعد الممارسة تستطيع أن تفعل الشيء نفسه أفضل مما ابتدأت. وهذا ما يعنيه القول «التمرين ينتج الكمال». إن ما تفعله بشكل غير تام في البداية تتحسن بفعله تدريجياً لتصل إلى مرحلة الكمال بشكل آلي وهذا هو الأداء الغريزي. فإنك تفعل أمراً ما كما لو كنت قد ولدت وأنت تتقن فعله، كأن تكون هذه الفعالية طبيعية بالنسبة لك كالسير والأكل. وهذا ما يعنيه القول «إن العادة هي طبيعة ثانية».

إن معرفة قواعد فن ما ليست كتكوين عادة. وعندما نتحدث عن امرئ قائلين إنه ماهر في موضوع ما فإننا لا نعني أنه يعرف قواعد فعل شيء أو صنع شيء، ولكننا نعني أنه يملك العادة على فعل أو صنع ذلك الشيء. وبالطبع فمن الصحيح أن معرفة القواعد يشكل بمرونة أكثر أو على الأقل هي شرط لاكتساب المهارة. فإنك لا تستطيع اتباع قواعد تجهلها، ولا تستطيع اكتساب عادة بشكل فني ـ صناعة يدوية أو مهارة ـ دون اتباع قواعد معينة. إن الفن كشيء يمكن تعلمه يشتمل على قواعد يجب اتباعها في العمل. إن الفن كشيء يُتعلم أو يُمتلك يشتمل على العادة التي تنتج عن العمل حسب القواعد.

وبالمصادفة فإنه ليس كل إنسان يفهم كونه فناناً يتحتم عليه العمل وفقاً لقواعد معينة. والناس يشيرون إلى رسام أو نحات أصيل بقولهم «إنه لا يتّبع قواعد، وهو يفعل شيئاً مبتكراً، شيئاً لم يُفعل مثله سابقاً، شيئاً أصلياً بشكل كلي». ولكنهم يخفقون برؤية أية قواعد اتبعها الفنان. فلا توجد قواعد نهائية وغير قابلة للتجاوز وبشكل أكثر تحديداً في عمل الرسام أو النحّات. ولكن توجد هناك قواعد لتحضير اللوحة وخلط الألوان وتطبيقها، هناك قواعد أيضاً من أجل الجص أو تلحيم الفولاذ. هذه هي القواعد التي يجب أن يتّبعها الرسام أو النحات وإلا فإنه لا يستطيع أن يصنع ما صنعه. بغض النظر كم

هو مبتكر إنتاجه النهائي وبغض النظر كم تبدو قليلة القواعد الفنية التي اتبعها كما فُهمت تقليدياً فإنه يجب أن يكون ماهراً ليقدمها. وهذا هو الفن ـ الصنع اليدوي أو المهارة ـ الذي نتحدث عنه هنا.

تكوين قواعد عديدة لعادة واحدة

إن القراءة مثل التزلج على الثلج عند إجادتها وعند أدائها بواسطة خبير، وكلٌ من القراءة والتزلج نشاطان شقيقان ومتناسقان. أما عند أدائها بواسطة مبتدىء فإنها تكون غير متلائمة بل ومحبطة أيضاً.

تعلم التزلج واحدٌ من أكثر التجارب إذلالاً يمكن أن يتحمله الإنسان الراشد (وهذا هو السبب الذي من أجله ينصحون بتعلمها منذ الصغر). وبعد كل ذلك فإن البالغ قد تعلم السير منذ زمن بعيد، إنه يعلم أين موطىء قدميه، ويعلم كيف يضع قدماً أمام الأخرى بهدف الوصول إلى مكان ما. ولكن عندما يضع أدوات التزلج بقدميه فإنه يشعر وكأنه يتعلم السير مرة أخرى. إنه ينزلق وتزل قدمه ويقع أرضاً، ويجابه بصعوبة الوقوف مرة أخرى، وتتصلَّب قدماه ويتعثر مرة أخرى، ويشعر كأنه أحمق.

وحتى أفضل المدربين يبدون للوهلة الأولى أنهم غير ذي فائدة. والسهولة التي يؤدي بها المدرب حركاته ويقول عنها إنها بسيطة فإن المتدرب يعتقد ضمنياً أنها مستحيلة ومهينة تقريباً. كيف تستطيع أن تتذكر كل شيء يقوله المدرب ويجب أن تتذكرها؟ إثنِ ركبك، أنظر أسفل المنحدر. أبقِ وزنك متوازناً على أدوات التزلج، إجعل ظهرك مستقيماً، ورغم ذلك فإنه يتكىء إلى الأمام. وتبدو عملية التذكر بلا نهاية ـ وكيف تستطيع أن تفكر بكل ذلك وتبقى تريد التزلج؟

إن موضوع التزلج هو بالطبع أنك لا يجب أن تفكر بالحركات منفصلة فإنها مع بعضها تجعل الالتفاف لمرةٍ واحدة أو لعدة مرات سهلاً ومرناً. وعوضاً عن ذلك يجب ألا تفعل أكثر من النظر لأسفل المنحدر وتخمن بمن

سترتطم به من المتزلجين الآخرين، وتتمتع بالهواء البارد على وجنتك، وتبتسم بحبور على مرونة ورشاقة جسدك عند انحداره لأسفل الجبل. وبعبارة أخرى يجب عليك أن تنسى الحركات المنفصلة من أجل أن تؤديها كلها مع بعضها بعضاً. وفي الحقيقة لكي تؤدي كلاً منها بشكل جيد. وكي لا تنسى هذه الحركات منفصلة فإنه يجب عليك أن تتعلمها كحركات منفصلة. وعند هذا الحد فقط يمكنك أن تجمع هذه الحركات معاً كي تصبح متزلجاً جيداً.

وينطبق نفس الموضوع على القراءة، فغالباً ما تكون قارئاً منذ وقت طويل أيضاً، وقد يبدو من المخزي أن تبدأ بالتعلم مرة أخرى. ولكن هذا صحيح بالنسبة للقراءة كما هو صحيح بالنسبة للتزلج فلا يمكنك أن تدمج الأفعال المختلفة في فعل واحد مركب ومتناسق الأداء إلى أن تصبح متمرساً في كل هذه الأفعال منفصلة. ولا تستطيع أن تجعل أجزاء العمل متداخلة حتى يجري الواحد منها من خلال الآخر باندماج وعمق. وكل فعل منفصل يتطلب انتباهاً كاملاً عندما تقوم بفعله. وبعد أن تمارس هذه الأجزاء منفصلة فإنك لا تستطيع فقط أن تقوم بها بسهولة أكبر وانتباه أقل بل وتستطيع أن تجمع هذه الأجزاء مع بعضها بحيث تجريها بمرونة كبيرة.

كل هذا عبارة عن أمور عامة في تعلم مهارة معقدة. ونحن نقول ذلك بهذا الخصوص لأننا فقط نريدك أن تدرك أن تعلم القراءة هو على الأقل بدرجة تعقيد تعلم التزلج أو الضرب على الآلة الكاتبة أو لعب التنس. وإذا لفتنا نظرك لأي من المهارات الأخرى التي تمتلكها فإنك سوف تكون أكثر تسامحاً مع الأستاذ الذي يعدد لك قائمة طويلة من قواعد القراءة.

إن الشخص الذي لديه خبرة في اكتساب مهارة معقدة يعلم أننا يجب أن لا نخاف من عدد القواعد التي تقدم نفسها في بداية شيء جديد يجب تعلمه. لأنه يعلم أنه يجب أن لا يقلق من كل الأفعال المنفصلة التي يجب أن يصبح ماهراً في كل منها منفصلة لأنها سوف تعمل مع بعضها في النهاية بانسجام.

إن تعدد القواعد تشير إلى درجة تعقيد تكون عادة واحدة وليس إلى تشكيل مجموعة من العادات. واندماج الأجزاء وتداخلها لتصل كل منها إلى مرحلة التنفيذ الآلي وعندما تؤدي كل الأفعال المساعدة بشكل أكثر أو أقل آلية فإنك تكون قد شكلت عادة الأداء المتكامل. وعندها يمكن التفكير في معالجة التزلج بخبرة لم تمارسها من قبل وأن تقرأ كتاباً ظننت أن قراءته صعبة جداً عليك. وفي البداية فإن المتعلم يلقي انتباهاً على نفسه ومهارته من خلال الأفعال المنفصلة. وعندما تفقد هذه الأفعال انفصالها في مهارة الأداء المتكامل فإن المتعلم يمكنه أخيراً أن يلقي اهتماماً على الأهداف التي مكنته التقنية من اكتسابها والوصول إليها.

نأمل أن نكون قد شجعناك بالأشياء التي تحدثنا بها في هذه الصفحات. فإنه من الصعب أن تتعلم كيف تقرأ جيداً وبشكل أخص قراءة تحليلية، فهي فعالية معقدة جداً ـ وأكثر تعقيداً من التزلج، وهي أيضاً فعالية ذهنية على الأكثر. إن المتزلج المبتدىء يجب أن يفكر بالحركات الجسمية التي ينساها فيما بعد ويؤديها بشكل آلي وإنه لمن السهل نسبياً أن تفكر وتعي الأفعال الجسمية. لكن الأكثر صعوبة أن تفكر بالأفعال الذهنية كما يفعل المبتدىء بالقراءة التحليلية. بمعنى أنه يفكر في أفكاره الشخصية. والغالبية العظمى منا غير معتادة على فعل ذلك. وبالرغم من ذلك فإنها ممكنة الحدوث والشخص الذي يفعلها يستطيع أن يتعلم القراءة على نحو أفضل بكثير.

الفصل السادس

تصنيف الكتاب

لقد ذكرنا في بداية هذا الكتاب أن تعليمات القراءة التي يقدمها تنطبق على أي مادة يجب أن تقرأها أو تريد قراءتها. وعلى كل حال فإننا في شرح قواعد القراءة التحليلية، كما سنفعل في القسم الثاني من هذا الكتاب، سوف نهمل تلك الحقيقة. وأننا سوف نقوم عادة، وإن لم يكن دائماً، بالإشارة إلى قراءة كتب بكاملها «لماذا نفعل ذلك؟».

إن الإجابة على ذلك بسيطة. فقراءة كتاب بكامله وخصوصاً إذا كان كتاباً صعباً وكبيراً تطرح المشاكل الصارمة التي يواجهها أي قارىء. فقراءة قصة قصيرة هي تقريباً أسهل من قراءة رواية طويلة؛ وقراءة فعالة هي دائماً أسهل من قراءة كتاب له نفس موضوع المقالة. فإذا كنت تستطيع قراءة القصائد الملحمية أو الرواية فإنك تستطيع أن تقرأ القصائد الغنائية أو القصة القصيرة. وإذا كنت تستطيع أن تقرأ الكتب التفسيرية ـ التاريخ والكتابات الفلسفية والدراسات العلمية ـ فإنك تستطيع أن تقرأ مقالة أو مستخلصات بنفس الموضوع. وهكذا فإن كل شيء سوف نقوله عن قراءة الكتب ينطبق على قراءة المواد الأخرى من النوع الذي أشرنا إليه. وعليك أن تفهم عندما نشير إلى قراءة الكتب أن هذه القواعد التي نشرحها تطبق أيضاً على المواد الأكثر سهولة من حيث الفهم. وفي بعض الأحيان فإن القواعد لا تطبق على المواد الأخيرة تماماً وبنفس الطريقة، أو إلى المدى الذي تطبق فيه على قراءة كتاب بأكمله. ورغم ذلك فإنه من السهل عليك دائماً أن تكيّف هذه القواعد بحيث تجعلها قابلة للتطبيق.

أهمية تصنيف الكتب

إن القاعدة الأولى في القراءة التحليلية يمكن أن يعبّر عنها كما يلي:

القاعدة الأولى: يجب عليك أن تعرف ما هو نوع الكتاب الذي تقرأه، ويجب عليك أن تعرف ذلك بأسرع وقت ممكن أثناء عملية القراءة ويفضل أن يكون ذلك قبل أن تبدأ القراءة.

يجب أن تعرف مثلاً ما إذا كنت تقرأ كتاباً أدبياً ـ رواية، مسرحية، ملحمة شعرية أو قصيدة غنائية ـ أو ما إذا كان الكتاب الذي تقرأه عملاً تفسيرياً من نوع ما. وإن كل قارىء تقريباً يعرف أن كتاباً ما هو كتاب أدبي وذلك بمجرد رؤيته. أو أن هذا ما يبدو عليه الوضع ـ ورغم ذلك فإن هذا ليس دائماً سهلاً. فمثلاً هل «شكوى بورتنوي» رواية أم دراسة في التحليل النفسي؟ وهل «الغذاء العادي» كتاب أدبي أم كراسة دعائية ضد إساءة استعمال الدواء، وهو مماثل للكتب التي تنبّه إلى مضار الإدمان على الكحول وذلك لمصلحة القارىء، وهل كتاب «ذهب مع الريح» هو كتاب رومانسي أم أنه تاريخ للأميركيين الجنوبيين قبل وأثناء الحرب الأهلية الأميركية؟ وهل كتاب «الشارع الرئيسي» و«عنب وارث» يندرجان ضمن فئة الآداب أم أنهما كليهما عبارة عن دراسات اجتماعية وأن الأول يركّز على تجارب التحضر والتمدن في حين أن الثاني يبحث في الحياة الريفية الزراعية؟

كل هذه الكتب بالطبع روايات. وكلها أيضاً تظهر في جانب الكتب التخيلية من قائمة الكتب الأكثر مبيعاً best-seller list. وبالرغم من ذلك فإن هذه الأسئلة ليست سخيفة. ومن خلال عناوينهم فقط يكون من الصعب أن نعلم ذلك مثل حالة كتاب «الشارع الرئيسي» وكتاب «وسط المدينة» وأي منهما هو أدب تخيّلي وأي منهما علم اجتماع. يوجد الكثير من علم الاجتماع في بعض الروايات المعاصرة ويوجد الكثير من الأدب التخيلي في علم الاجتماع إذ من الصعب أن تجعلهما منفصلين. ولكن يوجد نوع آخر من العلوم أيضاً ـ

الفيزياء والكيمياء على سبيل المثال ـ وفي كتب مثل «وثاق أندروميدا» أو روايات «روبرت هاينلاين» أو «آرثر كلارك» وكتاباً مثل «الكون والدكتور أنشتاين» حيث من الواضح أنه ليس كتاباً تخيلياً ولكنه يقرأ تقريباً كما تقرأ الرواية والأكثر احتمالاً أنه الكتاب الأكثر قراءة من بعض الروايات ولنقل مثلاً روايات وليم فولكنر.

إن الكتاب التفسيري هو كتاب يوضح معرفة هي أساساً يمكن تفسيرها بشكل عريض وعام. وأي كتاب يشتمل أساساً على آراء ونظريات وافتراضات أو تأملات والتي من أجلها يطالب وبشكل صريح في أنها حقيقية في بعض وجهات النظر ـ هذه الكتب ـ توضح معرفة وفي هذا المعنى للمعرفة فإنها تكون عملاً تفسيرياً.

وكما في الأدب التخيلي، فإن معظم الأفراد يعرفون الكتب التفسيرية بمجرد رؤيتهم لها. وهنا على كل حال فإن المشكلة ليست في التفريق بين الأدب التخيلي عن سواه ولكن في ملاحظة أن هناك أنواعاً عديدةً من الكتب التفسيرية.

إنه ليس سؤالاً في معرفة أي الكتب هي أساساً مثقِّفة ولكنه أيضاً في معرفة أي منها مثقّفة في طريقة معينة. إن نوع المعلومات وإلقاء الأضواء التي يقدمها التاريخ والكتابات الفلسفية ليست بنفس الطريقة. وإن المشاكل التي تعالج من خلال كتاب في الفيزياء والمشاكل التي تعالج الأخلاق ليست متماثلة ولا هي من نفس الطرق التي يستخدمها كتابها في حل مثل هذه المشاكل المختلفة.

وهكذا فإن القاعدة الأولى في القراءة التحليلية بالرغم من أنها مطبقة على كل الكتب فإنها تطبق بشكل خاص على كتب هي غير الأدب التخيلي وتطبق تحديداً على الكتب التفسيرية. وكيف سوف تتبّع القاعدة خصوصاً في عبارتها الأخيرة؟

لقد اقترحنا، على كل حال، أنك سوف تفعل ذلك من خلال أولاً تفحص الكتاب أي إعطائه قراءة تفحصية. فإنك تقرأ العنوان والعنوان الفرعي وجدول المحتويات وإنك على الأقل سوف تلقي نظرة سريعة على التقديم والمقدمة التي يكتبها الكاتب وعلى الفهرس أيضاً. وإذا كان غلاف الكتاب يحتوي على غلاف ضد الغبار dust jacket فإنك سوف تنظر إلى ما كتبه الناشر عليه. وهذه كلها نقاط علاّم يحركها الكاتب ليدعك تعلم بأي اتجاه تسير الريح. وليس خطأ من الكاتب إذا لم تتوقف لتنظر إليها.

ما الذي يمكن أن تتعلمه من عنوان الكتاب

إن عدد القراء الذين لا يعيرون اهتماماً للإشارات هو أكبر مما يمكن أن تتوقع. وقد تراكمت خبرتنا في هذا المجال مرة تلو الأخرى مع الطلاب. وقد سألناهم ماذا يبحث الكتاب. كما سألناهم، بأوسع العبارات، أن يخبرونا ماذا كان نوع الكتاب. وهذه هي طريقة جيدة ولا غنى عنها لبدء النقاش عن الكتاب. وهكذا فإنه من الصعب غالباً أن تحصل على أي نوع من الإجابة عن هذا السؤال.

دعنا نأخذ مثالين عن الالتباس الذي يمكن أن يحدث. في عام 1859 نشر داروين كتباً حاز على شهرة كبيرة. وبعد قرن من هذا التاريخ احتفل العالم الناطق بالانكليزية بأكمله بنشر هذا الكتاب. وكانت هناك نقاشات لا نهائية، وتأثيراته قد قيّمت من قبل المعلقين المتعلمين وغير المتعلمين. وبحث الكتاب في نظرية النشوء والارتقاء وقد ظهرت في عنوانه كلمة «الأنواع». ماذا كان عنوان الكتاب؟. غالباً ما تقول إنه «أصل الأنواع» فبأي حال تكون إجابتك صحيحة. يمكن أن لا تكون قد قلت ذلك. يمكن أن تقول إن العنوان كان «أصل الأنواع». والآن سألنا حوالي 25 قارئاً جيداً ماذا كان عنوان كتاب داروين وأكثر من نصفهم أجاب بأنه أصل الأنواع. والسبب الواضح في هذا الخطأ، يفترض أنهم لم يقرأوا الكتاب حيث يعتقدون أن الكتاب لديه ما يقول عن تطور الجنس البشري. وفي الحقيقة فإن الكتاب لديه الشيء القليل الذي يقوله في

هذا الموضوع أو ليس لديه شيء إطلاقاً عن ذلك. حيث خصص له داروين كتاباً تالياً هو «أصل الإنسان». إن «أصل الأنواع» هو كما يقول عنوانه تحديداً التكاثر في العالم الطبيعي لأنواع عديدة من النباتات والحيوانات من عدد أصغر من الأنواع أصلاً تعود أساساً إلى مبادىء الاصطفاء الطبيعي. ولقد ذكرنا هذا الخطأ الشائع لأن الكثيرين يظنون أنهم يعرفون عنوان الكتاب بالرغم من أن القلائل قد قرأوا العنوان بتمعن وفكروا بما يعنيه.

وهنا أيضاً مثال آخر. وفي هذه الحالة لن نسألك أن تتذكر العنوان بل في أن تفكر ماذا يعنيه. لقد كتب ادوارد جيبون كتاباً شهرياً وطويلاً عن الامبراطورية الرومانية. وقد دعاه «سقوط وانهيار الامبراطورية الرومانية». وكلّ شخص تقريباً يمسك الكتاب يميز عنوانه ومعظم الأشخاص حتى الذين لم يمسكوا الكتاب بين أيديهم يعرفون العنوان. وفي الحقيقة فإن عبارة «سقوط وانهيار» قد أصبحت مضرب المثل. وبالرغم من ذلك فعندما سألنا حوالي خمسة وعشرين قارئاً جيداً لماذا سمي الفصل الأول من الكتاب «القوة العسكرية ومداها للامبراطورية في عهد أنطونين» لم يكن لديهم فكرة عن ذلك. أنهم لم يروا أن الكتاب بمجمله معنون «سقوط وانهيار» حيث يمكن أن يبدأ الراوي بأعلى نقطة للامبراطورية الرومانية ويستمر حتى نهايتها. وأنهم قد ترجموا باللاشعور عبارة «سقوط وانهيار» إلى عبارة «نشأة وسقوط». وقد احتاروا لأنه لا توجد مناقشات حول الجمهورية الرومانية التي انتهت قبل قرن من عصر أنطونين. ولو كانوا قد قرأوا العنوان بتأنٍ فإنهم كانوا سيفترضون أن عصر أنطونين هو أعلى نقطة في الامبراطورية الرومانية حتى لو لم يعرفوا ذلك سابقاً. وبعبارة أخرى فإن قراءة العنوان يمكن أن تعطي معلومات أساسية عن الكتاب قبل أن يباشروا بقراءته. لكنهم فشلوا في الوصول إلى ذلك كما يفشل معظم الأشخاص.

هناك سبب وحيد يهمل من أجله العنوان والتمهيد من قبل قراء كثيرين، وذلك لأنهم لا يظنون أن هناك أهمية لتصنيف الكتاب الذي يقرؤونه، وهل

يتبعون القاعدة الأولى في القراءة التحليلية أم لا. وإذا حاولوا أن يفعلوا ذلك فإنهم سوف يشعرون بالامتنان للكاتب لمساعدته لهم للقيام بتصنيف الكتاب. ومن الواضح أنه شيء هام بالنسبة للكاتب أن يعرف قارئه نوع الكتاب الذي أعطي له، ولهذا السبب يخوض الكاتب في مشكلة جعل التمهيد واضحاً. كما أنه يحاول عادة أن يجعل عنوان كتابه أو على الأقل العنوان الفرعي للكتاب ذا طابع وصفي. وهكذا فإن أنشتاين وانفلد في مقدمتهما للكتاب «تطور الفيزياء» يعلمان قراءهما بأنهما يتوقعان منهم أن يعرفوا «أن الكتاب العلمي، حتى ولو كان شعبياً وشائعاً، يجب أن يُقرأ بنفس الطريقة التي تُقرأ فيها الرواية» وقد وضعا أيضاً فهرساً تحليلياً للمحتويات بغية إرشاد القارىء مقدماً إلى تفاصيل الموضوع الذي عالجاه. وفي كل الأحوال، فإن عناوين الفصول المدرجة في بداية الكتاب تخدم هدف إلقاء الأضواء وتضخيم أهمية العنوان الرئيسي.

والقارىء الذي يهمل كل هذه الأشياء عليه أن لا يلوم سوى نفسه إذا احتار في الإجابة عن سؤال، ما هو نوع الكتاب الذي بين يديه؟ وسوف يكون أكثر حيرة إذا لم يستطع الإجابة عنه، وإذا لم يسأل نفسه هذا السؤال فإنه سوف يكون غير قادر على الإجابة عن أسئلة عديدة أخرى حول الكتاب.

ورغم أهمية عناوين الكتب فإنها ليست كافية. فأوضح العناوين في العالم وأكثر القضايا صراحة لن تساعدك في تصنيف الكتاب إذا لم يكن في ذهنك خطوط عريضة مسبقاً عن التصنيف.

إنك لن تعرف معنى كتاب اقليدس «عناصر الهندسة» وكتاب وليم جيمس «أصول علم النفس» في أنهما كتابان من النوع ذاته إذا لم تكن تعلم أن علم النفس والهندسة كلاهما يندرجان تحت فئة العلوم ـ وتحديداً إذا لم تكن تعلم أن كلمتي «عناصر» و«أصول» تعنيان الشيء نفسه في هذين العنوانين (بالرغم من أن ذلك ليس عاماً). ولن تكون قادراً أن تتبين أنهما مختلفتان حتى تعرف أن هناك أنواعاً متعددة للعلوم. وبشكل مماثل في حالة كتاب أرسطو «السياسة» وكتاب آدم سميث «ثروة الأمم» فإنه يمكن أن تخبر كيف أن هذين الكتابين

متشابهين ومختلفين فقط إذا علمت ماهية المشاكل العملية وما هي الأنواع المختلفة للمشاكل العملية.

إن العناوين تجعل إدراج الكتب في مجموعات سهلاً في بعض الأحيان. وأي واحد يعلم أن كتاب اقليدس «العناصر» وكتاب ديكارت «الهندسة» وكتاب هلبرت «أساسيات الهندسة» هي كتب في الرياضيات. وأنهم لدرجة أكثر أو أقل مرتبطة بنفس الموضوع. ولكن هذه ليست هي الحالة دائماً. ويمكن أن لا يكون سهلاً أن تعلم من العنوان أن كتاب أوغسطين «مدينة الله» وكتاب هوبس «لوياثان» وكتاب روسو «العقد الاجتماعي» هي دراسات سياسية بالرغم من التفحص المتأني لعناوين فصولهم يمكن أن تكشف عن المشكلة التي هي مشتركة في هذه الكتب الثلاثة.

وأيضاً، على كل حال، فإن جميع الكتب ضمن مجموعات من نفس النوع ليس كافياً. ولتتبّع هذه القاعدة الأولى للقراءة يجب عليك أن تعرف ما هو نوع الكتاب. ولن يخبرك العنوان ولا أي من الموضوعات المدرجة في المقدمة أو على الغلاف، ولا الكتاب، بمجمله في بعض الأحيان إذا لم يكن لديك بعض الفئات التي يمكنك أن تطبقها في تصنيف الكتب بمهارة. وبكلمات أخرى فإن هذه القاعدة يجب أن توضع بدرجة أكثر وضوحاً إذا أردت أن تتبعها بذكاء وحرص ويمكن فقط أن توضع بوضوح من خلال رسم الاختلافات وإنشاء الأصناف التي تعطي معنى والتي سوف تقف في مواجهة اختبار الزمن لها.

لقد ناقشنا حتى الآن صعوبة تصنيف الكتب. كما قلنا الفارق الرئيسي بين أعمال الأدب التخيلي من ناحية وبين الأعمال التي توضّح المعرفة أو الأعمال التفسيرية من ناحية أخرى. فبين الأعمال التفسيرية يمكننا التمييز أكثر بين التاريخ والفلسفة والعلوم والرياضيات.

وإن هذا شيء جيد إلى الحد الذي ذهبنا إليه. وإن خطة التصنيف له

شيء من السهولة ضمن فئاته. ومعظم الأشخاص يستطيعون على الأغلب أن يضعوا معظم الكتب في فئاتها الصحيحة إذا فكروا بذلك. ولكن ليس في كل الكتب وفي كل الفئات.

والمعضلة هي أنه ليس لدينا حتى الآن مبادىء تصنيف. ولدينا الكثير كي نقوله عن هذه المبادىء كلما تقدمنا في مناقشاتنا للمستويات الأعلى للقراءة. أما في الوقت الحالي فإننا نريد أن نقصر أنفسنا لتمييز أساسي واحد وهو الاختلاف الذي يطبق على كل الأعمال التفسيرية. وهو التمييز بين الكتب النظرية وبين الكتب التطبيقية العملية.

الكتب العملية مقابل الكتب النظرية

كل فرد منا يستعمل كلمة «نظري» و«عملي» ولكن ليس كلٌ فرد يعلم ماذا تعني هاتان الكلمتان، وربما أكثر الأفراد واقعيةً وعملياً لا يثق بكل المنظّرين لا سيما إذا كانوا يعملون في الحكومة. ولمثل هؤلاء الأشخاص تعني كلمة نظري بأن الشخص الذي يحمل هذه الصفة هو شخص خيالي، بل حتى شخص غامض. وإن كلمة «عملي» تعني أنه شيء يؤدي إلى نتيجة، شيء ذو مردود مالي آني. ويوجد شيء من الصحة في ذلك. إن العملي لديه شيء يؤدي إلى نتيجة بطريقة ما، حالاً أو في المدى البعيد. أما النظري فإنه يُعنى بشيء يُرى أو يُفهم. وإذا وضّحنا الحقيقة التقريبية التي أدركناها هنا، فإننا سوف نأتي إلى التمييز بين المعرفة والفعل كنتيجتين يفكر بهما الكاتب.

ولكن، يمكن أن نقول، في معرض معالجة الكتب التفسيرية، هل نبحث في كتب توضح معرفة؟ كيف يمكن أن يأتي الفعل إليها؟ والجواب بالطبع، إن الأفعال الذكية تعتمد على المعرفة الواضحة. فالمعرفة يمكن أن تستعمل بطرق عديدة، وليس فقط بالتحكم بالطبيعة واختراع الآلات والأدوات المفيدة ولكنها أيضاً من خلال توجيه الفعل الإنساني وتنظيم العمليات الإنسانية في الحقول المختلفة للمهارات. وما نفكر به هو أن نضرب مثلاً في التفريق بين العلوم

البحتة أو الأساسية وبين العلوم التطبيقية، أو كما نعبر عنه بشكل خاطىء في بعض الأحيان وهو التفريق بين العلم والتكنولوجيا.

إن بعض الكتب وبعض المدرسين يهتمون فقط بالمعرفة بحد ذاتها وينقلونها إلى الآخرين. وهذا لا يعني أنهم ينكرون استخدامها، أو أنهم يصرون على أن المعرفة شيء جيد فقط من أجل ذاتها. إنهم ببساطة يقصرون أنفسهم على نوع واحد من التدريس أو نقل المعرفة، ويتركون الأنواع الأخرى لأشخاص آخرين. إنهم يُعنون بمعضلات الحياة الإنسانية التي تستطيع المعرفة أن تساعد في حلها. إنهم ينقلون المعرفة أيضاً ولكن دائماً من خلال وجهة النظر والتأكيد على استخداماتها.

ولجعل المعرفة شيئاً عملياً يجب أن نحولها إلى قواعد عملية، ويجب علينا أن نمر من معرفة ما هي الحالة إلى معرفة ماذا نفعل حيالها إذا كنا نريد أن نصل إلى أمر ما. وهذا يمكن أن يلخص من خلال التمييز بين «ما نعرف أنه هو الحالة» وبين «أن نعرف كيف هي هذه الحالة». إن الكتب النظرية تعلمك «أن هذه هي الحالة». أما الكتب العملية فتعلمك كيف تفعل شيئاً ما تريد أن تفعله أو تظن أنك يجب أن تفعله.

وهذا الكتاب كتاب عملي وليس كتاباً نظرياً. وأي كتاب إرشاد هو كتاب عملي. وأي كتاب يخبرك ماذا يجب أن تفعل، أو كيف تعمل هو كتاب عملي. وهكذا فإنك ترى أن رتبة الكتب العملية تشمل كل الكتب التفسيرية لفنون يجب أن تمارس، وكل دليل للممارسة في أي حقل من حقول المعرفة مثل الهندسة والطب أو الطبخ، وكل الدراسات التي يمكن أن تصنف بأنها أخلاقية، مثل كتب الاقتصاد والأخلاق أو المعضلات السياسية. وسوف نوضح لاحقاً لِمَ تدعى هذه الفئة من الكتب بأنها «معيارية» وتندرج في فئة خاصة جداً من الكتب العملية.

ولن يتساءل أحد، على الأغلب، عن أن تفسير الفنون التي يجب أن تتقن

والكاتالوجات وكتب القواعد هي كتب عملية. ولكن بالنسبة «للرجل العملي» الذي أشرنا إليه، آنفاً يمكن أن يعترض على المفهوم القائل بأن كتاباً عن الأخلاق مثلاً أو عن الاقتصاد هو كتاب عملي. ويمكن أن يقول بأن مثل هذا الكتاب كتاب غير عملي وهو ليس صحيحاً أو ليس ذا فائدة.

وفي الحقيقة فإن هذه وجهة نظر غير وثيقة الصلة بالموضوع، فبالرغم من أن كتاباً في الاقتصاد الذي هو ليس كتاباً واقعياً من منظور أو آخر هو كتاب سيء. فإن القول تحديداً بأن أي عمل عن الأخلاق يعلمنا كيف نعيش حياتنا ويخبرنا أيضاً ماذا يجب أن نفعل وما يجب أن نتجنب هو غالباً ما يُعْلِمنا عن الفوائد والمثالب الملحقة بفعل هذا الشيء أو عدم فعله.

وهكذا وبغض النظر عما إذا كنا نتفق أو نختلف على النتائج التي توصل إليها، فإن أي كتاب من هذا النوع هو كتاب عملي. (إن بعض الدراسات الاجتماعية التي تقدم لنا فقط السلوك الفعلي للبشر دون أن تحكم عليه. هذه ليست كتباً في الأخلاق وليست أيضاً كتباً عملية إنها كتب نظرية ـ بل أعمال علمية).

وبشكل مشابه لعمل في الاقتصاد. وبعيداً عن الدراسات التقريرية والرياضية والاحصائية للسلوك الاقتصادي والتي هي نظرية أكثر من كونها عملية، فإن مثل هذه الأعمال عادة تعلمنا كيف ننظم حياتنا الاقتصادية إما كأفراد أو مجتمعات أو دول، وتخبرنا ماذا يجب أن نفعل وما يجب ألا نفعل، كما وتخبرنا بالإضافة إلى ذلك عن المثالب التي تشتمل عليها تصرفاتنا إذا فعلنا ما كان يجب ألا نفعله. ومرة أخرى يمكن ألا نتفق مع الكاتب، ولكن عدم اتفاقنا معه لا يجعل الكتاب غير عملي.

لقد كتب عمانويل كانت عملين فلسفيين مشهورين، وقد دعي الأول «نقد الفكر المجرد» ودعي الثاني «نقد الفكر العملي». يبحث العمل الأول عن ما هو كائن وكيف نعرفه ـ ليس كيف نعرفه ولكن كيف في الحقيقة نعرفه ـ بالإضافة

إلى ما نستطيع أن نعرفه وما لا نستطيع. وهو كتاب نظري دون منازع. أما الكتاب الثاني «نقد الفكر العملي» فهو يبحث في كيفية تسيير البشر لأنفسهم وما هي الفضائل التي يشتمل عليها التسيير الصحيح. وهذا الكتاب يركز تركيزاً أساسياً على الواجب كأساس للفعل الصحيح، وهذا التركيز يمكن أن يبدو مُنَفِّراً للعديد من القراء المعاصرين. ويمكنهم أن يقولوا عنه إنه كتاب «غير عملي» اعتقاداً منهم أن الواجب لم يعد قائماً الآن كمفهوم أخلاقي مفيد. وما يعنونه بالطبع، أن «كانت» على خطأ في رأيهم، وهذا الخطأ يعود إلى المنطلق الأساسي للمفهوم. ولكن هذا لا يعني أن كتاب «كانت» هو كتاب أقل من أن يكون كتاباً عملياً بالمعنى الذي نستخدمه هنا.

وبعيداً عن دليل الممارسة العملية والدراسات الأخلاقية بمعناها العريض، فإن نوعاً آخر من الكتابات العملية يجب أن يذكر. إنه الخطابه ـ الخطاب السياسي والموعظة الأخلاقية ـ وهو بالتأكيد يحاول أن يخبرك ماذا يجب أن تفعل وكيف يجب أن تشعر نحو شيء ما. وأي شخص يكتب عملياً عن أي شيء فهو لا يحاول فقط أن ينصحك بل إنه أيضاً يحاول أن يقنعك باتباع نصيحته. وهكذا فإنه يوجد عنصر الخطابة والموعظة في دراسة أخلاقية. وهي أيضاً تعرض في الكتب التي تحاول أن تعلمك فناً من الفنون، مثل هذا الكتاب. وهكذا، فبالإضافة إلى تعليمك كيف تقرأ بشكل أفضل، فقد حاولنا وسوف نستمر في المحاولة، في إقناعك بأن تقوم بالجهد اللازم للقيام بذلك.

بالرغم من أن كل كتاب هو نوعاً ما خطابي أو وعظي، ولكن هذا لا يؤدي إلى أن الخطابية والوعظية ممتدة على كل ما هو عملي. وهناك فرق بين الخطاب السياسي وبين دراسة عن السياسة. وهناك فرق أيضاً بين الدعاية الاقتصادية وبين تحليل المشكلات الاقتصادية. إن البيان الشيوعي هو مقطوعة خطابية في حين أن كتاب رأس المال هو أكثر بكثير من ذلك.

يمكنك في بعض الأحيان أن تستخلص أن كتاباً ما هو كتاب عملي من عنوانه. إذا كان العنوان يحتوي على عبارات مثل «فن الخياطة» أو «كيف» يمكنك أن تكتشف ذلك بنفسك وإذا كان العنوان يحتوي على أسماء في ميادين

تعرف أنها عملية مثل السياسة والأخلاق والهندسة أو الأعمال التجارية، وفي العديد من الحالات فإن الاقتصاد والقانون والطب يمكن تصنيف الكتب من خلالها بشكل عادل.

إن العناوين يمكن أن تخبرك بأكثر من ذلك. لقد كتب جون لوك كتابين بعنوانين متشابهين «مقالة تتعلق بالفهم الإنساني» و«دراسة تتعلق بأصل ومدى ونهاية الحكومة المدنية» أي من هذين الكتابين هو كتاب نظري وأيهما كتاب عملي؟

من العنوانين فقط يمكن أن نستنتج أن الكتاب الأول هو كتاب نظري، لأن أي تحليل للفهم يمكن أن يكون نظرياً، وأن الكتاب الثاني هو كتاب عملي لأن المعضلات الحكومية ذات طابع عملي. ولكن الشخص يمكن أن يذهب أبعد من ذلك باستخدام تقنيات القراءة التفحصية التي ذكرناها. لقد كتب لوك مقدمة لكتابه الذي يتعلق بالفهم الإنساني عبّر من خلالها عن نيّته في استقصاء «أصل وتأكيد ومدى المعرفة البشرية» وفيها جملة تشبه عنوان كتابه عن الحكومة ولكن مع اختلاف وحيد وهام. حيث أن لوك يُعنى بتأكيد وصلاحية المعرفة في حالة واحدة، مع نتيجة وهدف الحكومة بالمقابل. إن الأسئلة عن صلاحية شيء ما هي شيء نظري، بينما اطلاق الأسئلة عن نتيجة أي شيء والهدف الذي تخدمه هو شيء عملي.

في وصفنا لفن القراءة التفحصية، كتبنا أنه يجب ألا تتوقف بعد أن تقرأ الموضوعات التي يطرقها الكتاب من خلال فهرسه، ويجب عليك أن تقرأ مقاطع من الكتاب والتي تبدو ذات طبيعة تلخيصية كما أنه يفترض أن تقرأ بداية الكتاب وخاتمته ومقاطعه الرئيسية.

وهذه تصبح ضرورة في بعض الحالات، لأنه من المستحيل أن تصنف كتاباً من عنوانه بل أيضاً من الموضوعات التي يطرحها. ففي تلك الحالة يجب عليك أن تعتمد على علامات توجد في الفقرات الأساسية للنص. من خلال

الاهتمام بالكلمات والاحتفاظ بالفئات الأساسية في الذهن دوماً، ويجب عليك أن تصنف الكتاب دون أن تذهب بعيداً في القراءة.

إن الكتاب العملي يكشف سريعاً عن تضليل صفته من خلال الورود المتكرر لكلمات مثل «يجب» «جيد»، «سيء»، «النتائج» و«الوسائل». والصفة الرئيسية لنصوص الكتاب العملي هي تلك التي تنص على أن شيئاً ما يجب أن يفعل أو يصنع، أو أن هذه هي الطريقة الصحيحة للقيام بهذا العمل أو ذاك. أو أن هذا الشيء أفضل من ذلك في الوصول إلى النتيجة المتوخاة. أو أنه يجب عليك أن تختار هذه الوسيلة. وبالمقابل فإن الكتاب النظري يستمر في قول «هذا كائن» وليس «يجب أن يكون». إنه يحاول أن يظهر أن شيئاً ما هو صحيح، وأن هذه هي الحقائق، وليس أن ذلك الشيء سيكون أفضل إذا كان خلاف ذلك، وأن هذه هي الطريقة لتفعلها بشكل أفضل.

وقبل أن نتناول الكتاب النظري، دعنا نحذرك من افتراض أن هذه المسألة سهلة كما لو كنت تشرب الحليب أو القهوة. وقد اقترحنا عليك بعض العلامات التي يمكنك من خلالها أن تقوم بالتمييز. والطريقة الأفضل التي تفهم من خلالها كل شيء تشتمل على التفريق بين النظري والعملي سوف تكون هي الأفضل وستجعلك قادراً على استعمال العلامات.

يجب عليك أن تكون متشككاً في تصنيف الكتب. وقد ألمحنا إلى أن كتباً في الاقتصاد هي أساساً وعادة كتب ذات طابع عملي، إلا أنه يوجد بالرغم من ذلك كتب في الاقتصاد نظرية بحته. وبشكل مماثل فإنه بالرغم من أن المسائل التي تتعلق بالفهم هي عادة وأساساً موضوعات ذات طابع نظري فإنه يوجد كتب (معظمها رهيبة) تزعم أنها تعلمك كيف تفكر. وسوف تجد كتّاباً لا يعلمون الفرق بين النظرية والتطبيق. تماماً كما يوجد روائيون لا يعرفون الفرق بين الأدب وعلم الاجتماع وسوف تجد كتباً تحتوي على الطابعين النظري والعملي مثل كتاب سبينوزا «الأخلاق» ويبقى بالرغم من ذلك ولفائدتك كقارىء أن تستخلص الطريقة التي يعالج من خلالها الكاتب لموضوعه.

أنواع الكتب النظرية

إن التقسيم الفرعي التقليدي للكتب النظرية يصنفها على أنها تاريخ وعلوم وفلسفة. وكل واحد منا يعلم أن الاختلاف هنا هو اختلاف تقريبي. وعندما تحاول فقط أن تخوض في هذا التقسيم وتعطي تفريقات أكثر دقة فإنك سوف تواجه الصعوبات. ودعنا الآن نحاول تجنب هذه المخاطر باعتبار أن هذا التقسيم التقريبي يفي بالغرض.

في حالة التاريخ فإن العنوان لا يخدع عادة. وإذا لم تكن كلمة «تاريخ» قد ذكرت في العنوان فإن بقية الموضوعات المواجهة تعلمنا على الأرجح أن الكتاب هو عن شيء قد حدث في الماضي ـ وليس بالضرورة الماضي البعيد بالطبع، فقد يكون حدث الحدث البارحة فقط ـ إن الرواية هي جوهر التاريخ، إن التاريخ عملية معرفة وبشكل خاص للأحداث أو الأشياء التي لم تتحدث عن الماضي وحسب بل أيضاً اجتازت سلسلة من التغييرات أثناء فعل الزمن. وإن المؤرخ يروي هذه الأحداث وغالباً ما يعطيها قالب الرواية مع تعليقات من عنده ورؤية لأهمية الحدث.

إن التاريخ هو CHRONOTOPIC حيث تعني CHRONOS باللغة اليونانية الزمن. وكلمة TOPOS تعني باليونانية المكان. وهكذا فإن التاريخ يبحث دائماً في الأشياء أو الأحداث التي وجدت وحدثت بتاريخ ومكان معينين. وكلمة CHRONOTOPIC تذكرك بذلك دائماً.

إن العلوم لا تُعنى بالماضي بهذه الطريقة. إنها تعالج المسائل التي يمكن أن تحدث في أي زمان أو مكان. إن العلماء يبحثون عن القوانين أو العموميات. إن العالِمَ يريد أن يعرف كيف حدثت الأمور في الغالبية العظمى أو لكل حالة بمفردها. وهو ليس كالمؤرخ الذي يريد أن يعرف كيف حدثت أشياء معينة في زمان ومكان معينين في الماضي.

إن عنوان الكتاب العلمي أقل كشفاً لموضوعه من الكتاب التاريخي.

وكلمة علم تظهر في بعض الأحيان في العنوان ولكن الأغلب أن يظهر ضمن العنوان اسم الموضوع مثل سيكولوجيا أو جيولوجيا أو فيزياء. وعند ذلك علينا أن نعرف ما إذا كان الموضوع يعود للعلماء مثلما تفعل الجيولوجيا بوضوح أو إلى الفلسفة أو إلى الميتافيزيقا كما هو واضح.

إن المشاكل تأتي من الحالات غير الواضحة تماماً مثل السيكولوجيا والفيزياء التي طالب بها كل من العلماء والفلاسفة في أزمنة عديدة. وهناك مشاكل حتى في كلمتي فلسفة وعلم حيث استعملت بأشكال متعددة. إن أرسطو دعا كتابه عن الفيزياء بأنه دراسة علمية، بالرغم من أن استعمالها الجاري الآن يجب أن يعتبر استعمالاً فلسفياً، وعنوان الكتاب العظيم لنيوتن «المبادىء الرياضية للفلسفة الطبيعية» بالرغم من أننا نصنفه اليوم كعمل عظيم ومرموق هو من أعمال العلم.

إن الفلسفة تشبه العلوم ـ ولا تشبه التاريخ ـ من حيث أنها تبحث عن الحقيقة العامة أكثر من بحثها عن أحداث خاصة حدثت إما في الماضي القريب أو في الماضي البعيد. ولكن الفلاسفة لا يسألون نفس الأسئلة التي يسألها العلماء، ولا يستخدمون نفس الطرق للإجابة عليها.

إذا كان العنوان واسم الموضوع لا يساعداننا على الأرجح في تحديد ما إذا كان الكتاب هو كتاباً فلسفياً أم علمياً فكيف يمكننا أن نعرف الموضوع؟ هناك معيار واحد نظن أنه يمكننا استخدامه دائماً، بالرغم من أنه يمكن أن نكون قد قرأنا كمية ملحوظة من الكتب قبل أن نستطيع تطبيق ما إذا كان الكتاب النظري يؤكد على أشياء خارج نطاق ومدى تجربتك اليومية والعادية والروتينية فإنه يكون كتاباً علمياً، وإذا لم يكن كذلك فهو كتاب فلسفي.

إن هذا التمييز يمكن أن يكون مفاجئاً. دعنا نوضحه، (وتذكر أننا نطبق هذا المعيار فقط إذا كان الكتاب علمياً أو فلسفياً). إن كتاب جاليليو «علمين جديدين» يتطلب منك أن تتخيل أو تعيد بنفسك وفي المختبر تجارب معينة مع

سطوح مائلة. وكتاب نيوتن «البصريات» تعود فيه إلى تجارب في الغرفة المظلمة مع مؤشرات ومرايا وأشعة من الضوء متحكم بها. إن التجربة الخاصة والتي أشار إليها الكاتب يمكن أن لا تكون قد حصلت له في مخبر. والحقائق التي نص عليها داروين في كتابه «أصل الأنواع» هي نتيجة ملاحظات طويلة ولعدة سنوات في هذا الحقل. إن كل هذا عبارة عن حقائق يمكن أن يعاد اختبارها من قبل أي مراقب يقوم بنفس الجهد. ولكنها ليست حقائق يمكن اختبارها من خلال التجربة العادية اليومية للرجل العادي.

وبالمقابل فإن الكتاب الفلسفي لا يحتكم إلى حقائق وملاحظات موجودة خارج نطاق تجربة الرجل العادي. ويشير الفيلسوف إلى تجربة القارىء العادية والمعتادة للتحقق مما يقوله أو لدعم أي شيء يقوله الكاتب. وهكذا فإن كتاب لوك «مقالة تتعلق بالفهم الإنساني» هو عمل فلسفي بعلم النفس في حين أن العديد من كتابات فرويد هي كتابات علمية. إن لوك يظهر كل نقطة على أنها تجربة اكتسبها كل منا من خلال عملياته الذهنية. أما فرويد فإنه يضع العديد من نقاطه من خلال تقرير ملاحظاته تحت الشروط الطبية لعيادة المحلل النفسي. أما وليم جيمس وهو واحد من المحللين النفسيين المشهورين فقد أخذ خطاً وسطاً في هذه العملية. إنه يقرر العديد من الأمثلة للتجربة الخاصة التي يعرفها المراقب المتدرب والمتأني، ولكنه أيضاً يسأل القارىء بشكل متكرر أن يحكم بنفسه عمّا إذا كان ما يقوله الكاتب صحيحاً من خلال تجربته الشخصية. وهكذا فإن كتاب جيمس «مبادىء علم النفس» هو كتاب علمي وفلسفي بآن واحد، بالرغم من أنه أساساً كتاب علمي.

إن هذا التمييز الذي أثرناه هنا قد أخذ قبولاً شعبياً عندما قلنا إن العلم هو عبارة عن تجارب تعتمد البحث والملاحظة المتقنة في حين أن الفلسفة هي فقط عبارة عن تفكير إنسان يجلس بهدوء. إن هذا التباين يجب ألا يكون مؤذياً. وهناك مشاكل معينة بعضها هام جداً ويمكن حلها من خلال التفكير الهادىء لإنسان يعرف كيف يفكر بها من خلال التجربة البشرية المعتادة. وهناك

مشاكل أخرى لا يمكن لأي كمية من أفضل التفكير الهادىء أن تحلها. ويتطلب حلها بعض أنواع الاستقصاء (تجارب في المخبر أو بحوثاً ميدانية) مما يمدد التجربة لأبعد من الروتين العادي للحياة اليومية. وهنا فإن الخبرة الخاصة مطلوبة.

وهذا لا يعني أن عمل الفيلسوف عمل فكري بحت وأن العالم هو فقط إنسان ملاحظ. فكلاهما يجب عليهما أن يلاحظا ويفكر ولكنهما يفكران بأنواع مختلفة من الملاحظات، وعلى كل حال يمكن أن يصلا إلى النتائج التي يريدان الوصول إليها وتثبيتها بطريقتين مختلفتين، فالعالم يثبتها من خلال الإشارة إلى نتائج تجربته الخاصة بينما يثبتها الفيلسوف من خلال التجارب العامة والمعتادة من قبل الجميع.

إن اختلاف الطرق يكشف دائماً عن نفسه في الكتب الفلسفية والكتب العلمية، وهذا ما يجعلك تستطيع أن تعرف نوع الكتاب الذي تقرأه. وإذا لاحظت نوع التجربة المشار إليها كمسألة فهم ما يقال فإنك سوف تعرف ما إذا كان الكتاب كتاباً علمياً أو فلسفياً.

ومن المهم أن تعرف هذا لأنه وبعيداً عن الأنواع المختلفة للتجربة التي يعتمدون عليها فإن العلماء والفلاسفة لا يفكرون تماماً بنفس الطريقة. وأسلوبهم في المناقشة مختلف ويجب عليك أن تكون قادراً على إيجاد التعابير والافتراضات ـ وهنا فنحن نتقدم قليلاً عما قصرنا عليه أنفسنا ـ التي تشتمل عليها هذه الأنواع المختلفة من المناقشات.

وهذا الشيء صحيح بالنسبة للتاريخ. إن التعبير التاريخي مختلف عن كل من التعبيرين العلمي والفلسفي. فالمؤرخ يناقش بشكل مختلف ويفسر الحقائق بشكل مختلف أيضاً. وأبعد من ذلك فإن كتاب التاريخ النموذجي يأخذ شكل رواية. والرواية هي رواية سواء أكانت حقائق أم خيالاً. إن المؤرخ يجب أن يكتب بشاعرية بمعنى أن يتبع ويطيع قواعد إخبار القصة الجيدة. ومهما كانت الميزات الأخرى التي يحتويها كتاب لوك «مقالة عن الفهم الإنساني» وكتاب

نيوتن عن «المبادىء» فلا هذا ولا ذاك هو رواية جيدة.

ويمكن أن تعترض على أننا نقول الكثير عن تصنيف الكتب، وعلى الأقل قبل أن يقرأها القارىء. هل هي في الحقيقة هامة إلى هذا الحد؟

يمكن أن نكون قادرين على الرد على هذا الاعتراض بلفت نظرك إلى حقيقة واضحة. إذا كنت تسير في أحد صفوف المدرسة يحاضر من خلالها أستاذ أو يعلم تلاميذه، فإنك تستطيع أن تعرف وبسرعة ما إذا كان هذا الدرس في التاريخ أو في العلم أو في الفلسفة. وإذا انتبهت إلى طريقة طرح المدرس للدرس ونوع الكلمات التي يستعملها، ونوع المناقشات التي يستخدمها، ونوع المسائل التي يطرحها، ونوع الاستجابة التي يتوقعها من تلاميذه، وهذا ما يعطي المدرس طريقة في أن يتبع هذه الدائرة العلمية أو تلك. وهذا ما يجعل الفرق في أن تعلم وما إذا كنت تحاول أن تسمع بفهم لما يجري.

وبالمختصر فإن طرق تدريس أنواع مختلفة من الموضوعات هي شيء مختلف. وأي مدرس يعلم ذلك. ونتيجة لهذه الاختلافات في الطرق والموضوعات فإن الفيلسوف عادة يجد أنه من الأسهل له أن يعلم التلاميذ الذين لم يعلمهم أحد من زملائه سابقاً بينما يفضل العالم التلاميذ الذين قد أهّلهم وحضّرهم زملاؤه سابقاً. وهكذا دواليك.

والآن كما أن هناك فرقاً في فن التدريس في الحقول المختلفة، فإنه يوجد فرق متبادل في فن التعلم. وإن فعالية التلميذ يجب أن تكون وعلى نحو ما مستجيبة لفعالية المعلم. وإن العلاقة بين الكتب وقرائها هي نفسها كتلك التي بين المعلم والمتعلم. وهكذا كما تختلف الكتب في أنواع المعرفة التي تنقلها، فإنهم يتقدمون ليعلّموننا بطرق مختلفة، وإذا اتبعناهم فإننا يجب أن نتعلم كيف نقرأ كل كتاب بالطريقة الملائمة له.

الفصل السابع

تصوير الكتاب شعاعياً

لكل كتاب هيكل عظمي مخبوء بين دفتيه. ووظيفتك كقارىء قراءة تحليلية أن تكتشف هذا الهيكل العظمي.

إن الكتاب يأتي إليك وفيه لحم على عظامه وملابس فوق اللحم، والكتاب كله يكون مرتدياً هذه الثياب. وليس من واجبك أن تُخلع الكتاب من ثيابه وتُمزق اللحم عن أعضائه لتأخذ الهيكل المحدد لتركيبه الذي يندرج تحت سطحه الطري. ولكن عليك أن تقرأ الكتاب من خلال نظرة شعاعية من عينيك، لأنه من الأساسي بالنسبة لك أن تفهم أي كتاب وتلتقط هيكله.

إن الاعتراف بالحاجة لرؤية هيكل الكتاب تقودك لاكتشاف القاعدتين الثانية والثالثة في قراءة أي كتاب ونحن نقول «أي كتاب». فهاتان القاعدتان تنطبقان على قراءة دواوين الشعر كما تنطبقان أيضاً على قراءة العلوم وعلى قراءة أي نوع من الكتب التفسيرية. وتطبيقاتهما سوف تكون مختلفة طبعاً، حسب نوع الكتاب. إن وحدة الرواية هي ليست كوحدة الدراسة السياسية وليست الأجزاء من نفس النوع ولا بنفس طريقة التسلسل. ولكن أي كتاب يستحق القراءة وبلا استثناء له وحدة وأجزاء منتظمة. إن الكتاب ليس عبارة عن فوضى لأنه سوف يكون غير مقروء نسبياً كما يكون الكتاب السيء عادة. وسوف نضع هاتين القاعدتين بنوع من التبسيط قدر الإمكان؛ وبعدها سوف نشرحهما ونوضحهما.

القاعدة الثانية: أوضح وحدة الكتاب بجملة واحدة، أو بعدة جمل على

الأكثر (فقرة صغيرة). وهذا يعني أنك يجب أن تقول ماذا يبحث الكتاب بأكبر قدر ممكن من الاختصار. وأن تقول ما يبحث الكتاب ليس هو نفس القول عن نوع الكتاب (الذي نصت عليه القاعدة الأولى). أن تجد ما يبحثه الكتاب هو أن تكتشف ما هو موضوعه أو نقاطه الرئيسية.

إن الكتاب هو عمل فني (ونريد أن نحذرك من المفهوم الضيق لكلمة «فن». ونحن لا نعني أو لا نعني فقط «الفنون الجميلة» هنا بل نعني أن الكتاب هو نتاج شخص ما لديه مهارات معينة في صنعه. إنه صانع كتب، وقد صنع كتاباً من أجل فائدتنا). بجزء هو جيد ككتاب وكعمل فني، إنه الأقرب إلى الكمال، بمعنى الوحدة الشاملة. إن هذا صحيح بالنسبة للموسيقى وللرسم، وفي الروايات والمسرحيات، وهو ليس أقل صحة بالنسبة للكتب التي توضح المعرفة.

ولكن هذا ليس كافياً لتعلم الحقيقة بشكل كامل فيجب عليك أن تفهم هذه الوحدة بالتحديد. وهناك طريقة واحدة فقط لتعلم أنك نجحت في ذلك، وهي أن تكون قادراً على أن تخبر نفسك أو أي شخص آخر، ما هي هذه الوحدة وبكلمات قليلة. (وإذا تطلب ذلك كلمات عديدة فإنك، في هذه الحالة، لم تر الوحدة بل تعددية الأجزاء). ولا ترضى «بشعور هذه الوحدة» التي لا تستطيع التعبير عنها. إن القارىء الذي يقول «أنا أعرف ما هو هذا الكتاب، ولكني لا أستطيع التعبير عنه» إن مثل هذا القارىء لا يخدع إلا نفسه.

أما القاعدة الثالثة فإننا سنعبر عنها كما يلي:

القاعدة الثالثة: أوضح الأجزاء الرئيسية للكتاب وأظهر كيف نُظمت هذه الأجزاء في الكتاب بمجمله، وذلك من خلال تسلسل هذه الأجزاء في علاقاتها بين بعضها البعض وبين وحدة الكتاب ككل.

إن سبب هذه القاعدة واضح. إذا كان العمل الفني بسيطاً جداً فإنه، بالطبع، لن يكون له أجزاء ولكن هذه ليست هي الحالة. فليس هناك شيء

معقول وأشياء مادية يعلم الإنسان أنها بسيطة بهذه الطريقة، ولا في أي نتاج إنساني. بل توجد وحدات معقدة ومركبة. ولكن يكون بإمكانك أن تلتقط الوحدة المركبة إذا كان كل ما تعرفه هو كيف هي واحدة ويجب عليك أن تعلم كيف هي عديدة أيضاً. بمعنى أنها تتألف من أشياء عديدة ومنفصلة، ولكنها عديدة بشكل منتظم. وإذا كانت هذه الأجزاء غير مرتبطة عضوياً، فإن الكل الذي تشكله لن يكون واحداً، وبتعبير أكثر جزماً، لن يكون هناك كُلٌ إطلاقاً، ولكنها على الأغلب مجموعة من الأشياء.

ويوجد فرق بين كمية كبيرة من الحجارة من جهة، وبين منزل مفرد يتألف من الحجارة من جهة أخرى. كما يوجد فرق بين منزل منفرد وبين مجموعة من المنازل. إن الكتاب مثل منزل منفرد. إنه قصر يحتوي على غرف عديدة وهذه الغرف على مستويات مختلفة وأبعاد وأشكال مختلفة بالإضافة إلى الإطلالات والاستعمالات المختلفة. إن الغرف مستقلة عن بعضها وكل منها لها هيكلها الخاص وتزييناتها الداخلية المختلفة. ولكنها ليست منفصلة ومستقلة بشكل مطلق. إنها متصلة من خلال الأبواب والممرات والأدراج، وبما يدعوه مهندسو العمارة «قواعد الحركة». ولأن هذه الغرف مرتبطة مع بعضها فإن الوظيفة الجزئية لكل منها تساهم من خلال دورها الجزئي بفائدة المنزل بأكمله. وإلا فلن يكون من الممكن العيش في المنزل.

وبشكل مطابق تماماً، فإن الكتاب الجيد مثل المنزل الجيد هو مرتب ترتيباً منظماً من خلال أجزائه. وكل جزء رئيسي له كمية معينة من الاستقلال. وكما سنرى فسوف يكون له هيكل داخلي ويمكن أن يزين بطرق عديدة مختلفة عن بقية الأجزاء. ولكن يجب أن يكون أيضاً مرتبطاً مع بقية الأجزاء ـ بمعنى أنها تصلهم مع بعضهم وظيفياً ـ وإلا فإنها لن تشترك من خلال مساهمتها بفهم العمل بمجمله.

تمكن الحياة في المنزل لمدى بشكل تقريبي كما أن الكتاب يمكن أن يُقرأ لمدى تقريبي وإن الكتب الأكثر قراءة هي إنجاز معماري يقع على عاتق المؤلف. وإن أفضل الكتب هي الكتب التي لها تركيب هيكلي مفهوم. بالرغم

من أنها تكون عادة أكثر تعقيداً من الكتب السيئة، وتعقيداتها الكبيرة هي أيضاً بساطتها الكبيرة لأن أجزاءها متسلسلة بشكل أفضل وأكثر توحداً.

وهذا هو واحد من الأسباب في أن أفضل الكتب هي أيضاً الأكثر قراءة. والأعمال الأقل مستوى هي في الحقيقة مزعجة في القراءة. ومن أجل قراءتها بشكل جيد ـ ومن قبل أكبر عدد ممكن من القراء فإنه يجب عليك أن تحاول أن تجد مخططها. ولن تكون أفضل الكتب ـ إذا لم يُري كتّابها بأنفسهم مخططاتها بشكل أكثر وضوحاً. ولكن إذا لم تتعلق هذه الأجزاء مع بعضها وإذا لم يكن لها وحدة مركبة لأي درجة، فإنه يجب أن يكون لها مخطط ويجب عليك أن تجده.

الحبكة والمخطط ـ اكتشاف وحدة الكتاب

دعنا نعود الآن إلى القاعدة الثانية، التي تتطلب منك أن تكتشف وحدة الكتاب. إن بعض الإيضاحات لهذه القاعدة أثناء تطبيقها يمكن أن ترشدك لوضعها موضع التطبيق.

دعنا نبدأ من حالة معروفة. أنت على الأغلب قد قرأت في المدرسة «الأوديسة» لهوميروس، وإذا لم تكن قد قرأتها فأنت بلا شك تعرف قصة أوديسيوس أو يوليسس كما يسميه الرومان. إنه الرجل الذي استغرق عشر سنوات كي يعود من حصار طروادة ليجد أن زوجته المخلصة بينيلوب مطوقة بالخاطبين الذين يطلبون يدها. إنها قصة محكمة كما يخبرنا إياها هوميروس ومليئة بالمتعة وبالمغامرات في البحر وعلى اليابسة، ومفعمة بالأحداث الجانبية من كل الأنواع وتعقيدات كثيرة للحبكة. ولكنها أيضاً لها الوحدة المفردة للعمل وخيط رئيسي للحبكة والتي تربط كل شيء مع الأشياء الأخرى. ويصر أرسطو في كتابه عن الشعر بأن هذه علامة كل قصة جيدة أو رواية أو مسرحية. وليدعم رأيه هذا فإنه يظهر كيف أن وحدة الأوديسة يمكن أن تلخص بجمل قليلة:

«رجل معين غائب عن وطنه لسنوات عديدة، إنه مراقب بنوع من الغيرة من إله البحر (بوسيدون) وقد تُرك مهجوراً. والخاطبين يضيعون ثروته ويتآمرون ضد ابنه. وبعد أحداث عديدة يصل هذا الرجل إلى مدينته ويعرفه عدد من الأشخاص. ويهاجم هؤلاء بيديه وينجو هو بعد أن يحطمهم جميعاً».

يقول أرسطو «إن هذا هو جوهر الحبكة، أما البقية فهي عبارة عن أحداث جانبية في سياق القصة».

وبعد أن تعرف الحبكة بهذه الطريقة وتعرف من خلال هذه الحبكة الوحدة الكلية للعمل، فإنك تستطيع أن تضع الأجزاء في مكانها المناسب. ويمكنك أن تجد تمريناً جيداً من خلال محاولة تطبيق هذه القاعدة على بعض القصص التي قرأتها سابقاً. حاول ذلك على بعض القصص الجيدة مثل كتاب فيدلينغ «توم جونز» أو كتاب ديستوفيسكي «الجريمة والعقاب» أو كتاب جيمس جويس «يوليسس». إن حبكة توم جونز مثلاً يمكن أن تختصر بالصيغة المألوفة «ولد يقابل فتاة، ولد يفقد فتاة، ولد يحصل على فتاة». وهذه في الواقع هي الحبكة في أي قصة حب. ولتمييز ذلك فإنك تتعلم ما يعني أنه يوجد فقط عدد قليل من الحبكات في الوجود. والفرق بين القصص الجيدة والقصص السيئة والتي لها نفس الحبكة الأساسية، إن هذا الفرق يكمن فيما يفعل الكاتب بهذه الحبكة وكيف يكسو الكاتب العظام العارية.

ولا يجب عليك دائماً أن تجد وحدة الكتاب بمفردك، فغالباً ما يساعد الكاتب في ذلك. إن العنوان في بعض الأحيان هو كل ما يجب أن تقرأه. ففي القرن الثامن عشر اعتاد الكتّاب أن يضعوا عناوين كتبهم بشكل محكم ليخبروا القارىء عما يبحث كتابهم بشكل مجمل. وهذا عنوان لجرمي كويلر «كاهن إنكليزي يهاجم ما يعتبره فحشاً» ـ ربما يمكن أن نقول إنه يهاجم ما يقال عنه الأدب الإباحي من خلال إحياء المسرح أكثر مما هو مألوف في أيامنا الحالية: «نظرة قصيرة على اللاأخلاقية وامتهان المسرح الإنكليزي بالإضافة إلى المشاهد القديمة حول هذه المسألة». ويمكنك أن تكتشف أن كويلر يذكر فقرات

فاضحة لمفاسد الأخلاق والتي تدعم احتجاجه من خلال اقتباس نصوص من القدماء الذين ذكروا هذه المسألة، كما قال أفلاطون أن المسرح يفسد الشباب أو كما كان يقول القدماء في أن المسرحيات تغري الجسد والشيطان.

وفي بعض الأحيان فإن الكاتب يخبرك عن وحدة مخططه في مقدمة كتابه. وبهذا الاعتبار فإن الكتب التفسيرية تختلف بشكل جذري عن الأدب التخيلي. إن كتّاب الكتب العلمية والفلسفية لا يوجد لديهم سبب كي يجعلوك متشككاً حول موضوع الكتاب. وفي الحقيقة فإن الشكوك الأقل هي التي تدعك على الأكثر مستمراً ببذل الجهد لقراءة العمل بمجمله. ومثل مقالات الصحف فإن الكتاب التفسيري يمكن أن يلخص نفسه من فقرته الأولى.

ولا تفخر كثيراً بقبول مساعدة الكاتب التي يقدمها لك ولا تعتمد كلياً على ما يقوله في مقدمته أيضاً. فإن أفضل مخططات الكتاب مثل النساء والرجال غالباً ما تنحرف. أرشد نفسك من خلال النشرة التمهيدية التي يعطيها لك الكاتب، ولكن تذكر دائماً أن القارىء ملزم بشكل نهائي باكتشاف وحدة الكتاب بنفسه تماماً كالالتزام الملقى على عاتق الكاتب. ويمكن أن تفي بهذا الالتزام فقط من خلال قراءة العمل كله.

إنّ الفقرة التمهيدية لكتاب هيرودوت عن الحرب بين الإغريق والفرس تعطي تلخيصاً ممتازاً للعمل بمجمله.

«هذه هي أبحاث هيرودوت التي نشرها على أمل أن تبقى بعيدة عن الاضمحلال لذكرى ما فعله الرجال، ولمنع الأفعال العظيمة والرائعة التي فعلها الإغريق والبرابرة من ضياع مكافأة المجد. وبالإضافة إلى ذلك لوضع سجل عن أرضية العداء بينهما».

إن هذه بداية جيدة لك كقارىء. إنها تخبرك بشكل بارع الإيجاز عما يبحثه الكتاب بكامله. ولكن من الأفضل لك ألا تقف عند ذلك. وبعد أن تكون قد قرأت الأجزاء التسعة لتاريخ هيرودوت، فإنك في الغالب تجد أنه من

الضروري الاعتماد على تلك العبارة لتحكم على الكتاب بشكل عادل. يمكن أن ترغب بذكر ملوك الفرس - كايروس وداريوس واكبريكس وأبطال الحرب الإغريق وبشكل أساسي تميستوكلس والأحداث الرئيسية واجتياز هيليسبونت والمعارك الحاسمة مثل تيرموبيلاي وسالاميس.

كل بقية التفصيلات الجميلة التي من خلالها حضّر هيرودوت قارئه للبلوغ إلى أوجها يمكن أن لا يأتي على ذكرها في ملخص حبكة الرواية. ولاحظ هنا أن وحدة الحادثة التاريخية هي من خلال خيط مفرد من الحبكة، وهي في ذلك مثل الأدب التخيلي. وإلى المدى الذي يعنينا فإن هذه القاعدة من قواعد القراءة تظهر نفس النوع من الإجابات في كل من التاريخ والأدب التخيلي.

إن بعض الإيضاحات الأخرى يمكن أن تفي بالغرض هنا. دعنا نأخذ كتاباً تطبيقياً عملياً أولاً إن وحدة كتاب الأخلاق لأرسطو يمكن أن توضح كما يلي:

إن هذا عبارة عن استعلام لطبيعة السعادة الإنسانية تحليلاً للشروط التي من خلالها يمكن أن تحرز السعادة أو تفقد، مع إشارات إلى ما يجب على البشر فعله والتفكير به من أجل أن نصبح سعداء أو لنتجنب التعاسة، إن التأكيد الأساسي الذي نصّت عليه هو ثمرة فضائل أخلاقية وفكرية، بالرغم من أن الخير يمكن أن يميّز كشيء ضروري من أجل السعادة مثل الثروة والصحة والأصدقاء، والمجتمع العادل الذي نعيش فيه.

وكتاب تطبيقي آخر هو كتاب آدم سميث «ثروة الأمم» وفيه يساعد الكاتب القارىء من خلال نصوص الكاتب نفسه فيما دعاه «خطة العمل» وذلك في بدء الكتاب ولكن هذه تأخذ عدة صفحات ووحدة العمل يمكن أن تختصر كما يلي:

«إن هذا الكتاب عبارة عن استعلام عن مصدر الثروة القومية في أي اقتصاد أقيم على مبدأ تقسيم العمل آخذاً بعين الاعتبار العلاقة بين الأجور

المدفوعة للعمل وبين الأرباح العائدة من رأس المال وريع العقارات كعوامل رئيسية في أسعار البضائع. إنه يبحث في الطرق المختلفة التي من خلالها يستخدم رأس المال ويتعلق بأصل النقود من أجل مراكمة واستخدام رأس المال. كما يبحث في نمو الثروة لأمم مختلفة وتحت شروط مختلفة ويقارن بين أنظمة مختلفة للاقتصاد السياسي ويناقش في فوائد التجارة الحرة».

وإذا استطاع القارىء أن يلحظ وحدة كتاب «ثروة الأمم» بهذه الطريقة ويقوم بعمل مشابهٍ لكتاب ماركس «رأس المال»، فإنه يكون على الطريق في رؤية العلاقة بين أكثر كتابين تأثيراً خلال القرنين الماضيين.

إن كتاب داروين «أصل الأنواع» يعطي مثالاً جيداً عن وحدة الكتاب النظري في العلوم. وهذا هو النص: «إن هذا الكتاب عبارة عن حساب لتغيرات الأشياء الحية خلال أجيال كثيرة لا تقبل الإحصاء، والطريقة التي ظهرت من خلالها هذه النتائج لمجموعات جديدة من النباتات والحيوانات. وأن تعالج كلاً من تغيرات الحيوانات المحلية والتغيرات تحت الشروط الطبيعية مظهرة كيف أن مثل هذه العوامل كالصراع من أجل البقاء والانتخاب الطبيعي تعمل من أجل بقاء مثل هذه المجموعات».

إنها تناقش أن الأنواع ليست مجموعات ثابتة وأنها عبارة عن أنواع مرّت من حالات دنيا إلى حالات ملحوظة ودائمة. وداعماً هذه المناقشات من خلال أدلة من الحيوانات المنقرضة التي وجدت على سطح الأرض ومن خلال مقارنات علم الأجنة والتشريح.

من هذا يبدو أن الكتاب صعب جداً، لكنه كان أصعب بالنسبة لقراء عديدين في القرن التاسع عشر وهذه الصعوبة تأتي جزئياً لأنهم لم يتكبدوا عناء إيجاد ما يبحثه الكتاب.

وأخيراً دعنا نأخذ كتاب لوك «مقالة تُعنى بالفهم الإنساني» ككتاب نظري في الفلسفة. يمكن أن تتذكر ملاحظتنا في أن لوك قد لخّص عمله بنفسه بقوله «إن الكتاب عبارة عن استعلام عن أصل وتأكيدات ومدى المعرفة البشرية،

بالإضافة إلى أرضية ودرجة الاعتقاد، والآراء والموافقة». ونحن لن نتجادل مع الكاتب حول نص ممتاز مثل هذا. إلا أننا نود أن نضيف تأكيدين مساعدين من أجل أن يكون شاملاً أكثر من القسمين الأول والثالث من المقالة: إنه سوف يظهر ـ يمكننا أن نضيف ـ أنه لا توجد أفكار مكتسبة، ولكن كل المعرفة الإنسانية تكتسب من التجربة، كما تناقش اللغة كوسيلة للتعبير عن الأفكار واستخدامها الملائم ويشار إلى مفاسدها المعروفة.

هناك شيئان نود أن نلحظهما قبل أن نتقدم في مناقشتنا. الأول ما هو عدد المرات التي يمكن أن تتوقعها من الكاتب وخصوصاً إذا كان كاتباً جيداً في مساعدتك على وضع خطة كتابه. بالرغم من الحقيقة أن معظم القراء لا يستطيعون الحديث باختصار عما يبحث فيه الكاتب ويعود ذلك جزئياً إلى انتشار عدم القدرة على الحديث بجملة انكليزية مختصرة، ثم إلى إهمال استخدام هذه القاعدة في القراءة. ولكن ذلك يشير أيضاً إلى أن قراءً عديدين يعطون اهتماماً قليلاً لكلمات التقديم التي يكتبها الكتّاب مثلما يفعلون ذلك أيضاً مع العنوان.

إن الشي الثاني الذي نود أن نلحظه هو عبارة عن كلمة تحذير. لا تأخذ عيّنة الملخصات التي أعطيناك إياها كما هي، في كل حالة، كصيغة نهائية ومطلقة لوحدة الكتاب. فوحدة الكتاب يمكن أن ينص عليها بشكل مغاير. ولا توجد طريقة واحدة فقط لفعل ذلك. إن صيغة معينة هي أفضل من الصيغة الأخرى طبعاً، في جزء هي مختصرة وصحيحة وشاملة. ولكن صيغة أخرى يمكن أن تكون جيدة أيضاً أو سيئة.

لقد نصصنا هنا على وحدة الكتاب بشكل مختلف تماماً عن تعبيرات الكاتب وبدون الاعتذار منه، وبشكل مشابه يمكن أن تختلف أنت عنا نحن. وبعد كل ذلك فالكتاب هو شي مختلف بالنسبة لكل قارىء. ولن يكون مفاجئاً أن التعبير عن هذا الاختلاف بالطريقة التي يعبر بها القارىء عن وحدة الكتاب. وهذا لا يعني بطبيعة الحال أن أي شيء يمكن أن يفي بالغرض. بالرغم من

أن القراء مختلفين فإن الكتاب هو ذاته ويوجد نوع من الاختلاف الموضوعي على دقة وإخلاص العبارة التي يضعها أي إنسان عن الكتاب.

اتقان التعددية، فن تلخيص الكتاب

دعنا الآن نعود إلى قاعدة هيكلية أخرى، القاعدة التي تتطلب منا أن ندرج الأجزاء الرئيسية من الكتاب حسب تسلسلها وعلاقتها. وهذه القاعدة ـ الثالثة ـ ترتبط كثيراً بالقاعدة الثانية. إن الوحدة الموضحة تشير إلى الأجزاء الرئيسية التي تكوِّن الكل. فأنت لا تستطيع أن تفهم الكتاب بمجمله دون أن ترى أجزاءه. ولكنه أيضاً شيء حقيقي أنه إذا لم تتمكن من أن تلتقط الأجزاء المنظمة، فأنت لا تستطيع أن تعرف الكل بشكل مفهوم.

لماذا إذن نضع قاعدتين عوضاً عن واحدة؟ إن ذلك هو موضوع ملاءمة. فمن السهل أن ترى الهيكل المركّب والموحد من خلال خطوتين بشكل أفضل من أن يكونا بخطوة واحدة. إن القاعدة الثانية توجه اهتمامك نحو الوحدة، والقاعدة الثالثة تعنى بتركيب الكتاب. ويوجد سبب آخر لهذا الفصل. إن الأجزاء الرئيسية لكتاب يمكن أن تُرى في اللحظة التي ترى فيها وحدته. ولكن هذه الأجزاء هي نفسها مركبة وله هيكل داخلي يجب أن تراه. وهكذا فإن القاعدة الثالثة تشتمل أكثر من تعداد الأجزاء. إنها تعني تلخيصها، أي أن تعالج الأجزاء كأشياء مكونة للكل، وكل منها لها وحدتها وتركيبها الذاتي.

إن الصيغة يمكن أن توضع موضع العمل حسب هذه القاعدة الثالثة. إنها سوف ترشدك بشكل عام إلى الطريقة. وحسب القاعدة الثانية يمكننا أن نقول: إن الكتاب بمجمله عن كذا وكذا وعندما يتم ذلك فإننا سوف نخضع للقاعدة الثالثة كما يلي:

1 ـ إنّ الكاتب قد أنجز هذا المخطط من خلال خمسة أجزاء رئيسية والتي يبحث الجزء الأول منها في كذا وكذا، كما يبحث الجزء الثاني في هذا وهذا، والجزء الثالث يبحث في هذا الموضوع، أما الجزء الرابع فيبحث في

ذلك الموضوع والجزء الخامس يبحث في شيء مختلف.

2 ـ إن الأول من هذه الأجزاء الرئيسية يقسم إلى ثلاثة أقسام والتي من خلالها يُعنى القسم الأول بـ (س) ويعنى القسم الثاني بـ (ع) أما القسم الثالث فيعنى بـ (ص).

3 ـ إن القسم الأول من الجزء الأول يضع فيه الكاتب أربعة نقاط، الأولى هي (آ) والثانية (ب) والثالثة (ج) والرابعة (د) وهكذا.

يمكن أن تعترض على هذا التلخيص الموسع. ويمكن أن تأخذ العمر كله في قراءة كتاب بهذه الطريقة ولكن بالطبع فإن هذه ليست سوى صيغة. وتبدو القاعدة وكأنها تتطلب منك قدراً مستحيلاً من العمل. وفي الحقيقة فإن القارىء الجيد يقوم بهذه الأمور بشكل اعتيادي وبسهولة وطبيعية ويمكن ألا يكتب كل هذا. كما يمكن أن يكون قد وصفها بشكل ضمني أثناء القراءة. ولكن إذا طُلب من هذا القارىء أن يضع تركيباً هيكلياً للكتاب فإنه سوف يقوم بشيء تقريبي لهذه الصيغة التي وصفناها.

إن كلمة تقريبي يجب أن تبعد عنك القلق. فالقاعدة الجيدة تصف دائماً الأداء المثالي. ولكن الشخص يمكن أن يكون ماهراً في فن من دون أن يكون فناناً مثالياً. ويمكن أن يكون ممارساً جيداً إذا قام بأداء القاعدة بشكل تقريبي. وقد وضعنا القاعدة هنا من أجل حالة مثالية لذا يجب أن تكون راضياً إذا قمت بالمطلوب بشكل تقريبي جيد.

وحتى عندما تتمتع بمهارات أكثر، فأنت لا ترغب في قراءة كل كتاب بنفس الدرجة من الجهد. كما أن أفضل القراء يقومون بمتطلبات تقريبية لهذه القاعدة ولكتب قليلة نسبياً. وفي معظم الحالات فإنهم يكونون راضين بالمفهوم التقريبي لهيكلية الكتاب. ودرجة التقريب هذه تتغير وفقاً لنوع الكتاب والهدف من قراءته. وبغض النظر عن التغاير فإن القاعدة تبقى نفسها. ويجب أن تعرف كيف تتبعها سواء طبقتها بكاملها أو بشكل تقريبي.

ويجب أن تفهم أن المحدودية والدرجة التي تستطيع فيها أن تقوم بترتيب القاعدة ليست فقط مشكلة وقت وجهد. فأنت مخلوق محدود وفانٍ، ولكن الكتاب أيضاً محدود وإذا لم يكن فانياً فهو على الأقل مُعابٌ بنفس الأسلوب الذي يصنع به البشر الأشياء. ولا يوجد كتاب يستحق هذا التلخيص المتكامل لأنه لا يوجد كتاب كامل. إنها تنحو بذلك إلى هذا الحد وينطبق عليك ذلك. والقاعدة بعد كل ذلك لا تتطلب منك أن تضع في الكتاب أشياء لم يضعها الكاتب في كتابه أصلاً، حيث يجب أن يكون تلخيصك للكتاب ذاته وليس عن الموضوع الذي يعالجه الكتاب. وربما يمكن أن يتسع تلخيصك للموضوع بشكل غير محدود، ولكن تلخيصك للكتاب يعطي للموضوع معالجة محددة وتقريبية. وهكذا يجب أن تشعر بأننا نناقشك هنا كي تكون كسولاً في تطبيق واتباع هذه القاعدة. فأنت لا تستطيع اتباعها إلى أقصى مداها حتى لو أردت ذلك.

إن عوامل منع الصيغة من تطبيق تسلسل وعلاقة الأشياء يمكن أن تقل نسبياً بوضع بعض الايضاحات عن القاعدة أثناء التطبيق. ومن سوء الحظ فإن إيضاح هذه القاعدة سوف يكون أكثر صعوبة من القاعدة الأخرى التي تنص على وحدة الكتاب. فالوحدة بعد كل هذا يمكن أن توضع في جملة، أو جملتين، بل فقرة صغيرة على الأكثر. ولكن في حالة كتاب كبير ومركب، فإن تلخيصاً متأنياً وملائماً للأجزاء وأقسامها وأقسام أقسامها نزولاً إلى أصغر قسم في الهيكل الذي يكون شاملاً ومستحقاً للتحديد سوف يأخذ صفحات عديدة لتكتبه.

إن التلخيص نظرياً يجب ألا يكون أكبر من الأصل. فبعض تعليقات العصور الوسطى على أعمال أرسطو هي أكبر من الأعمال التي عُلّق عليها. إنها تتضمن بالطبع أكثر من التلخيص إنها تحاول تفسير كتابات الكاتب جملة جملة. والشيء ذاته صحيح في تعليقات معاصرة ومعينة. مثل التعليقات العظيمة على كتاب «كانت» «نقد الفكر المجرد» والنسخ المحققة لمسرحيات

شكسبير التي تتضمن تلخيصاً موسعاً للمسرحية بالإضافة لأشياء أخرى هي أكبر بعدة مرات من النص بل ربما عشرة أضعاف الأصل. يمكنك أن تنظر إلى تعليق من هذا النوع إذا أردت أن ترى القاعدة وهي مطبقة بحذافيرها أو أقرب ما تكون إلى الكمال الذي يؤديه الإنسان. إن توما الاكويني مثلاً يبدأ كل قسم من تعليقاته بتلخيص جميل للنقاط التي وصفها أرسطو في جزء معين من عمله. وهو دائماً يقول بصراحة كيف أن الجزء ينخرط في التركيب بمجمله، وخصوصاً بالنسبة للأجزاء التي تقع قبله أو بعده.

دعنا نأخذ شيئاً أسهل من دراسات أرسطو، فأرسطو على الأغلب أكثر كتّاب النثر إيجازاً، ويمكنك أن تتوقع أن تلخيصاً لأعماله يمكن أن يكون كثيفاً وصعباً. ودعنا نقول أيضاً أنه، ومن أجل المثال، أننا لن نحمل العملية إلى هذه الدرجة من الكمال والتي قد تكون ممكنة إذا كان لدينا عدداً ضخماً ومتاحاً من الأوراق.

وهناك مثال آخر مختصر جداً: لقد أوضحنا وحدة كتاب الأخلاق لأرسطو. والآن دعنا نحاول أن نضع هيكلاً أولياً وتقريبياً للكتاب. إن الكتاب ككل قد قسِّم إلى الأجزاء الرئيسية التالية: الأول يعالج السعادة كهدف نهائي للحياة ويناقشها من خلال علاقتها مع الخير العملي الآخر. والثاني يعالج طبيعة الفعل التطوعي وعلاقته بتكوين العادات الجيدة والسيئة. والثالث يبحث في الفضائل والرذائل المختلفة أخلاقياً وفكرياً. والرابع يعالج الحالات الأخلاقية التي لا تندرج ضمن الفضائل ولا الرذائل. والخامس يبحث في الصداقة. والسادس والأخير يبحث في الملذات والمتع الحسية التي تكمل حساب السعادة البشرية التي بدأت في الأولى.

إن هذا التقسيم لا يقابل الكتب العشرة «للأخلاق» وهكذا ينتهي الجزء الأول في الكتاب الأول والجزء الثاني يشمل الكتاب الثاني والنصف الأول من الكتاب الثالث. والجزء الثالث يبدأ من بقية الكتاب الثالث وحتى نهاية الكتاب السادس ومناقشة الملذات تحدث في نهاية السابع وفي بداية الكتاب العاشر.

وقد ذكرنا هذا لنريك أنك لا تحتاج إلى اتباع هيكلية الكتاب كما أشير إليه من خلال تقسيم فصوله. إن هذا الهيكل يمكن أن يكون بالطبع أفضل من الملخص الذي وضعته أنت، ولكنه أيضاً يمكن أن يكون أسوأ، وفي أية حالة فإن الشيء المهم هو أن تضع ملخصك أنت. إن الكاتب وضع مخططه من أجل أن يكتب كتاباً جيداً. وعليك أنت أن تضع ملخصك من أجل أن تقرأ ذلك الكتاب بشكل جيد أيضاً. وإذا كان هو كاتباً كاملاً وكنت قارئاً كاملاً فإن ذلك يستتبع أن يكون هيكل كتابه وملخصك عنه متماثلين. وفي الجزء حيث يسقط أي منكما بعيداً عن الكمال، فإن كل أنواع التناقضات سوف تنجح بشكل لا يمكن تجنبه.

إن هذا لا يعني أنك يجب أن تهمل عناوين الفصول والأقسام التي وضعها الكاتب. لقد وضع هذه العناوين والأقسام لمساعدتك تماماً مثل عنوان الكتاب ومقدمته. ولكن يجب أن تستعملها كمرشد لفعالياتك الخاصة وليس للاعتماد عليها كلياً. هناك بعض الكتاب الذين ينفذون خططهم بشكل تام، ولكن يوجد خطط في الكتاب الجيد لا تراها عيناك للوهلة الأولى. إن السطح قد يكون خادعاً لذا يجب عليك أن تنظر تحته لتكتشف التركيب الحقيقي.

كم هو هام أن تكتشف التركيب الحقيقي للكتاب؟ نحن نظن ذلك شيئاً هاماً جداً. ونقول ذلك بطريقة أخرى بالنسبة للقاعدة الثالثة: وهي (وضع الأجزاء التي تشكل وحدة الكتاب). ويمكن أن تكون قادراً ومن خلال نظرة خاطفة إلى الكتاب أن تأتي بحكم مناسب عن وحدته من خلال جملتين أو ثلاث. ولكن لن تعلم إن كان ذلك مناسباً أو لا. وشخص آخر يكون قد قرأ الكتاب بشكل أفضل يمكنه أن يعلم ذلك، ويعطيك علامة عالية من أجل جهدك هذا. ولكن بالنسبة لك ومن خلال وجهة نظرك، قد يكون ذلك عبارة عن اكتشاف محظوظ. وهذا يبين أن القاعدة الثالثة هي ضرورية جداً كمكملة للقاعدة الثانية.

إن مثالاً صغيراً يمكن أن يوضح ما نعنيه. إن طفلاً بعمر سنتين قد بدأ

حديثاً بمعرفة الكلام يمكن أن يقول أن إثنين زائد إثنين تساوي أربعة. وبشكل موضوعي فإن هذه الجملة تكون صحيحة. ولكن سوف نكون مخطئين إذا استنتجنا من ذلك أن الطفل يعرف الكثير عن الرياضيات. وفي الحقيقة فإن الطفل قد لا يعلم على الأغلب ماذا تعني عبارته، وبالرغم من أن العبارة بحد ذاتها ملائمة فنحن نقول أن الطفل ما زال يحتاج إلى تمرين أكثر في هذا الموضوع. وبشكل مشابه فإنك قد تكون على صواب في أن تحرز الهدف الأساسي من الكتاب ولكنك تكون بحاجة أيضاً إلى أن تمارس تمارين إظهار كيف ولماذا قلت تلك العبارة. إن متطلبات تلخيص أجزاء الكتاب وإظهارك كيف يؤدون دورهم لتطوير فكرة الكتاب هي بالإضافة إلى ذلك تدعم حكمك عن وحدة الكتاب.

الفنون المتبادلة بين القراءة والكتابة

إن قاعدتي القراءة اللتين نبحثهما الآن تبدوان، بشكل عام، وكأنهما قاعدتان للكتابة أيضاً وهما كذلك طبعاً. إن القراءة والكتابة هما شيء متبادل مثل التعليم والتَعَلُّم. إن لم يرتب الكتّاب والمدرسون ما يودون نقله للقراء أو الطلاب، وإذ فشلوا في توحيدهما وتسلسل أجزائهما، فإنه لن يكون هناك إشارة لتوجيه القراء والمستمعين للبحث عن الوحدة وكشف الهيكل الذي يجمع الكل.

وبالرغم من ذلك فإن القواعد متبادلة ولا تُتبع بنفس الطريقة. إن القارىء يحاول أن يزيل الغطاء عن الهيكل العظمي الذي يخفيه الكتاب. كما أن الكاتب يبدأ بالهيكل العظمي ويحاول أن يغطيه. وهدفه في ذلك هو أن يخفي الهيكل العظمي بشكل فني، أو بكلمات أخرى، يحاول الكاتب أن يضع اللحم على العظام. فإذا كان كاتباً جيداً، فهو لن يخفي الهيكل العظمي السقيم تحت أكوام من الدهن. ومن ناحية أخرى يجب ألاّ يكون اللحم رقيقاً جداً بحيث تظهر العظام من خلاله. إذا كان اللحم سميكاً بشكل كافٍ وتجنب الكاتب الترهل، فإن اللحم سوف يُرى وحركة الأجزاء سوف تكشف عن الترابط.

لماذا يكون ذلك على هذا النحو؟ لماذا يجب أن يكون الكتاب التفسيري هو الكتاب الذي يحاول أن يعرض جسداً للمعرفة بطريقة متسلسلة، وأن تكون تلخيصاً للموضوع؟

إن السبب لا يكمن فقط في أن معظم القراء لا يستطيعون قراءة الملخصات، وأن مثل هذا الكتاب يمكن أن يكون منفّراً للقارىء الذي يحترم نفسه والذي يعتقد أنه إذا كان عليه أن يقوم بعمله فيجب على الكاتب أيضاً أن يقوم بعمله. إن لحم الكتاب هو جزء من الكتاب كما أن الهيكل العظمي للكتاب هو جزء منه أيضاً. وهذا صحيح بالنسبة للكتب مثلما هو صحيح بالنسبة للحيوانات والبشر. إن اللحم ـ أو الملخص الموضح ـ يضيف أبعاداً أساسية. إنه يضيف الحياة، في حالة الحيوانات. ومثل ذلك، فإن كتابة الملخص، هو عملياً، وبغض النظر عن درجة التفصيل، يعطي الكتاب نوعاً من الحياة لا نستطيع الحصول عليها إذا فعلنا عكس ذلك.

ويمكننا أن نلخص كل ذلك من خلال تذكرنا للقاعدة العامة في أن موضوع الكتابة يجب أن يشمل الوحدة والوضوح والترابط. وهذه في الحقيقة القاعدة الأساسية في الكتابة الجيدة.

إن القاعدتين اللتين ناقشناهما في هذا الفصل تتعلقان بالكتابة التي تتبع هذه القاعدة. فإذا كان للكتابة وحدة فيجب أن نجدها. وإذا كانت الكتابة تتسم بالوضوح والترابط فيجب علينا أن نقدر ذلك من خلال إيجاد الفوارق وتسلسل الأجزاء. وما هو واضح، هو كذلك بسبب التمييز بين فقراته. وما هو مترابط يتعلق مع بعضه من خلال تسلسل الأجزاء.

وعلى ذلك فإن هاتين القاعدتين يمكن أن تستعملا للتمييز بين الكتب الجيدة والكتب السيئة وإذا كنت قد أحرزت مهارات ملائمة، وبغض النظر عن كمية الجهد الذي صرفته من قبلك ويتعلق بنتائج فهمك لوحدة الكتاب، وإذا كنت قادراً أيضاً على أن تميز بين أجزاء الكتاب وعلاقة هذه الأجزاء فيما

بينها، فإنه من الأرجح أن يكون الكتاب كتاباً سيئاً مهما كانت سمعته. ويجب ألا تكون متسرعاً بحكمك، فربما يكون الخطأ منك وليس من الكتاب. وعلى كل حال يجب دائماً أن نفترض أن الخطأ فيك وليس في الكتاب. وفي الحقيقة مهما كان سبب فشلك كقارىء، فإن الخطأ عادة موجود في الكتاب، لأن معظم الكتب ـ ونسبة كبيرة منها ـ قد صنعت بشكل سيء، بمعنى أنَّ كتّابها لم يكتبوها حسب هذه القواعد.

هاتان القاعدتان يمكن أن تستعملا أيضاً ـ كما يمكن أن نقول ـ في قراءة أي جزء أساسي من أي كتاب تفسيري بالإضافة إلى قراءته كله. وإذا كان الجزء الذي اخترته مستقلاً نسبياً أو أن له وحدة مركبة، فهذه الوحدة وهذا التركيب يجب أن يدرك كي يُقرأ قراءة جيدة. وهنا يوجد فارق أساسي بين الكتب التي توضح المعرفة وبين الأعمال الشعرية والمسرحية والروايات. فإن الأجزاء في الأولى ـ الأعمال التي توضح المعرفة ـ يمكن أن تكون أكثر استقلالاً من الأجزاء في الثانية ـ الأعمال الشعرية والمسرحيات والروايات ـ إن الشخص الذي يقول عن قصة «أنه قرأ إلى درجة أنه حصل على فكرة القصة» هو شخص لا يعرف عن أي شيء يتكلم. ولا يمكن أن يكون صحيحاً، وإنّ القصة إذا كانت جيدة فإن فكرتها تكمن في مجملها ولا تكمن في قراءة فصول منها فقط. ولكنك يمكن أن تأخذ الفكرة في قراءة كتاب أرسطو «الأخلاق» و«أصل الأنواع» لداروين من خلال قراءة بعض أجزائها بعناية بالرغم من أنك في هذه الحالة لن تكون قادراً على ملاحظة القاعدة الثالثة.

اكتشاف قصد الكاتب

توجد قاعدة إضافية أخرى لقواعد القراءة نود أن نبحثها في هذا الفصل. ويمكن أن توضع بشكل مختصر وهي بحاجة إلى شرح بسيط ولا تحتاج إلى إيضاحات مستفيضة وهي إعادة بشكل آخر لما قمت به بالفعل إذا كنت قد طبقت القاعدتين الثانية والثالثة. ولكن من المفيد تكرارها لأنها تلقي أضواءً على مجمل الكتاب وأجزائه. ويمكن أن ينص على هذه القاعدة كالتالي:

القاعدة الرابعة: أوجد ما هي المسائل التي يعالجها الكاتب.

إن الكاتب يبدأ كتابه بسؤال أو مجموعة أسئلة، والكتاب يحتوي ظاهرياً على الإجابة أو الإجابات. والكاتب يمكن أن يخبرك أو لا يخبرك ما هي هذه الأسئلة بالإضافة إلى إعطائه الأجوبة التي هي ثمار عمله. وإذا كان الكاتب قد فعل ذلك أم لم يفعل ـ وخصوصاً إذا لم يفعل ذلك ـ فإنه من واجبك كقارىء أن تصيغ الأسئلة بأكبر قدر تستطيعه من الدقة. ويجب عليك أن تكون قادراً على وضع السؤال الرئيسي الذي يحاول الكتاب الإجابة عنه. كما يجب عليك أن تكون قادراً على وضع الأسئلة المساعدة إذا كان السؤال الرئيسي معقداً وله أجزاء عديدة. ويجب عليك ليس فقط أن تنظر إلى كل الأسئلة الوثيقة الصلة بالموضوع ولكن يجب عليك أيضاً أن تضع هذه الأسئلة حسب تسلسل واضح ومفهوم. ما هي الأسئلة الرئيسية وما هي الأسئلة الثانوية. وما هي الأسئلة التي يجب أن يجاب عليها أولاً. وإذا كان يوجد هناك أجوبة يجب أن يردَّ عليها فيما بعد.

ويمكنك أن ترى كيف أن هذه القاعدة هي تكرار لما قمت به سابقاً من خلال وضع وحدة الكتاب وإيجاد تسلسل أجزائه. وذلك مما يساعدك عملياً في القيام بهذا العمل. وبكلمات أخرى إن اتباع هذه القاعدة ـ الرابعة ـ هو إجراء مفيد بالإضافة إلى قيامك باستيفاء القاعدتين السابقتين.

وحيث أن هذه القاعدة غير مألوفة أكثر من القاعدتين الأخرتين فإنها يمكن أن تكون أكثر مساعدة في التصدي لمعالجة كتاب صعب. ونريد أن نؤكد، على كل حال، أننا لا نقصد أن تقع بما يدعى من قبل النقاد بالمغالطة المقصودة. وهي مغالطة التفكير التي يمكن أن تكتشفها وهي ما الذي كان يرمي إليه الكاتب عندما كتب كتابه. وهذا ينطبق بشكل خاص على الأعمال الأدبية لأنه خطأ مميت مثلاً أن تحاول استخدام التحليل النفسي لشكسبير من خلال هاملت وهكذا فحتى في الأعمال الشعرية فإنه من المساعد جداً أن تحاول اكتشاف قصد الكاتب من خلال كتابه. ففي حالة الأعمال التفسيرية لهذه القاعدة ميزة واضحة. وهكذا فإن معظم القرَّاء ـ وبغض النظر عن مدى مهارتهم في

هذا الاعتبار ـ غالباً ما يفشلون في ملاحظة ذلك. ونتيجة لذلك، فإن فهمهم للنقاط الرئيسية أو للهدف يمكن أن يكون منقوصاً. وبالطبع فإن تلخيصهم لهيكل الكتاب سوف يكون مشوشاً. وكذلك سوف يفشلون في رؤية هيكل الكتاب لأنهم لا يدركون لماذا يحتوي الكتاب على الوحدة التي يملكها، وفهم الهيكل العظمي لتركيب الكتاب ينقصه الفهم للنتائج التي يخدمها الكتاب.

إذا كنت تعرف أنواع الأسئلة التي يستطيع أي شخص أن يسألها عن أي شيء، فإنك سوف تكون ماهراً في تقصي المسائل التي يبحثها الكتاب. ويمكن أن تصاغ بشكل مختصر هنا. هل يوجد هذا الشيء؟ ما هو نوع هذا الشيء؟ ما الذي يسبب وجوده؟ أو تحت أية شروط يمكن أن يوجد أو ماذا يوجد؟ وما هو الهدف الذي يخدمه؟ ما هي نتائج هذا الوجود؟ ما هي صفاتها وخواصها؟ ما هي سمتها النموذجية؟ ما هي علاقتها مع أشياء أخرى ذات صنف مشابه، أو مخالف؟ ما هو السلوك الذي يسلكه؟ كل هذه عبارة عن أسئلة نظرية. ما هي النتائج التي يجب أن يبحث عنها؟ ما هي الوسائل التي يجب اختيارها للوصول إلى نتيجة معينة؟ ما هي الأشياء التي يجب أن يفعلها شخص ما ليحرز هدفاً معيناً، وما هو تسلسل هذه الأشياء؟ وتحت هذه الظروف ما هي الأشياء الصحيحة التي يجب فعلها؟ أو ما هو الأفضل وما هو الأسوأ؟ وتحت أية شروط من الأفضل أن تفعل هذا أكثر من ذلك؟ كل هذه عبارة عن أسئلة تطبيقية عملية.

إن هذه القائمة من الأسئلة بعيدة عن أن تكون شاملة، ولكنها تعرض أنواعاً لأكثر الأسئلة تكراراً أثناء السعي وراء المعرفة النظرية أو التطبيقية. وهي يمكن أن تساعدك في اكتشاف المسائل التي يحاول أن يحلها الكتاب. كما أن هذه الأسئلة يجب أن تكيّف عندما تطبق على أعمال الأدب التخيلي، حيث يمكن أن تكون مفيدة هناك أيضاً.

المرحلة الأولى من القراءة التحليلية

لقد وضعنا وشرحنا القواعد الأربعة الأولى للقراءة وهي قواعد القراءة

التحليلية. تفحص الكتاب بشكل جيد قبل أن تقرأه، وسوف يساعدك ذلك في تطبيق هذه القواعد.

إنه من المهم عند هذا الحد التأكيد على أن هذه القواعد الأربعة الأولى مرتبطة مع بعضها وتشكل مجموعة من القواعد التي لها هدف واحد. وهذه القواعد مجتمعة تقدم للقارىء الذي يطبقها معرفة في هيكل الكتاب وتركيبه. وعندما تطبقها على كتاب ما أو في الحقيقة على أي شيء تقرأه متوسط الطول والصعوبة فإنك ستكون قد أنجزت المرحلة الأولى من القراءة التحليلية.

ويجب عليك ألا تأخذ كلمة «مرحلة» بمعناها الزمني، إلا إذا كنت جد مبتدىء في تمارينك كقارىء تحليلي. وهذا يعني أنه ليس من الضروري أن تقرأ الكتاب بأكمله من أجل أن تطبق هذه القواعد الأربعة الأولى، ومن ثم لتقرأه مرة ثانية وثالثة من أجل أن تطبق القواعد الأخرى. إن القارىء المتمرس ينجز كل هذه المراحل من خلال قراءة واحدة. وبالرغم من ذلك يجب عليك أن تدرك أن معرفة هيكل الكتاب وتركيبه يؤلف مرحلة في قراءته قراءة تحليلية.

وطريقة أخرى لقول ذلك، وهي أن تطبيق هذه القواعد الأربعة الأولى يساعدك في الإجابة على السؤال الأساسي الأول حول الكتاب. وإنك سوف تتذكر أن السؤال الأول هو: ماذا يبحث الكتاب بمجمله؟

وإنك سوف تتذكر أيضاً أننا قلنا إن هذا يعني اكتشاف الهدف الرئيسي للكتاب وكيف يطور الكاتب الهدف بطريقة منتظمة من خلال تقسيمه إلى أجزاء أو موضوعات أساسية. ومن الواضح أن تطبيق هذه القواعد الأربعة للقراءة سوف يقدم أكثر ما تحتاج إلى معرفته من أجل الإجابة على هذا السؤال. بالرغم من أنه تجب الإشارة إلى أن إجابتك سوف تتقدم من الدقة من خلال تطبيق القواعد الأخرى والإجابة على الأسئلة الأخرى.

وحيث أننا الآن قد وضعنا المرحلة الأولى من القراءة التحليلية، دعنا نقف لحظة لنكتب القواعد الأربعة الأولى في تسلسل تحت عنوان ملائم من أجل المراجعة.

المرحلة الأولى من القراءة التحليلية
أو
قواعد إيجاد ما يبحثه الكتاب

1 ـ صنّف الكتاب حسب نوعه وموضوعه.

2 ـ أوضح ما يبحثه الكتاب بأكبر إيجاز ممكن.

3 ـ عدّد الأجزاء الرئيسية حسب تسلسلها وعلاقتها وأوجز هذه الأجزاء من خلال تلخيصك للكتاب بمجمله.

4 ـ بيّن المشكلة أو المشاكل التي يحاول المؤلف أن يحلها.

الفصل الثامن

التوصل إلى تفاهم مع الكاتب

إن المرحلة الأولى من القراءة التحليلية تكون قد أنجزت عندما تنتهي من تطبيق القواعد الأربعة المدرجة في نهاية الفصل السابق، والتي تمكنك مجتمعة من أن تقول ماذا يبحث الكتاب وأن تتبين هيكله وتركيبه. وأنت الآن مهيءٌ للمرحلة التالية، والتي تتضمن هي الأخرى أربع قواعد للقراءة. القاعدة الأولى منها ندعوها بشكل مختصر: التوصل إلى تفاهم.

إن التوصل إلى تفاهم هو عادة الخطوة الأخيرة في أي مفاوضات تجارية ناجحة. وكل ما يبقى بعد ذلك هو أن توقّع مكان التوقيع. ولكن في القراءة التحليلية للكتاب، فإن التوصل إلى تفاهم هو الخطوة التالية بعد أن تتبين المخطط التمهيدي للكتاب Outline a book وإذا لم يتوصل القارىء إلى تفاهم مع الكاتب، فإن نقل المعرفة من واحد إلى الآخر لا يتم لأن المصطلح Term هو العنصر الأساسي في تناقل المعرفة.

الكلمات مقابل المصطلحات

إن المصطلح ليس كلمة، بل على الأقل ليس كلمة فقط وبدون أية أبعاد أخرى. وإذا كانت الكلمة والمصطلح متطابقين تماماً، فعليك فقط أن تجد الكلمات الهامة في الكتاب من أجل أن تتفهّم الكتاب. ولكن الكلمة يمكن أن يكون لها معانٍ عديدة، وبشكل خاص الكلمات الهامة. وإذا كان الكاتب يستعمل الكلمات بمعنى واحد، والقارىء يقرأها بمعنى آخر فإن الكلمات تكون قد مرت بينهما ولكنهما لم يتوصلا إلى تفاهم. وعندها يوجد غموض غير

مقصود في نقل المعلومات، فلن يكون هناك تناقل معلومات، أو على الأقل يكون هذا التناقل غير تام.

أنظر فقط إلى كلمة التناقل Communication لحظة، إن جذرها يتعلق بكلمة Common مشترك أو عام. فنحن نتكلم عن المجتمع Community كمجموعة من البشر لديهم شيء مشترك يجمعهم. والتناقل هو جهد من قبل شخص يشارك شيئاً ما مع شخص آخر (أو مع حيوان أو آلة) في معرفته، وقراراته، وعواطفه. إن هذا التناقل ينجح فقط عندما ينتج شيء مشترك مثل مادة من مواد المعلومات أو المعرفة التي تقاسمها شخصان أو طرفان. وعندما يوجد غموض أو التباس في تناقل المعرفة فإن كل ما يكون مشتركاً هو الكلمات التي يتلفظ بها أو يكتبها شخص ثم يسمعها أو يقرأها شخص آخر. وعلى طول الخط الذي يوجد فيه غموض أو التباس فلن يكون هناك معنى مشتركاً بين الكاتب والقارىء. لأنه من أجل أن يكون التناقل ناجحاً وتاماً فإنه من الضروري من أجل طرفي هذا التناقل أن يستعملا الكلمة ذاتها وبالمعنى ذاته ـ وباختصار يتم التفاهم بينهما. وعندما يتم ذلك يحدث هذا التناقل وتحدث المعجزة باشتراك الذهنين في فكرة واحدة.

يمكن أن يُعرّف المصطلح بأنه كلمة غير غامضة. إن القاموس ممتلىء بالكلمات. وهي كلها تقريباً كلمات غامضة بمعنى أن كل كلمة من هذه الكلمات لها معاني عديدة. ولكن هذه الكلمات التي لها معاني عديدة يمكن أن تستعمل بمعنى واحد في وقت واحد. وعندما يستطيع الكاتب والقارىء أن يستعملا كلمة معينة بمعنى واحد فقط، فإن القارىء والكاتب يكونان قد استعملا المعنى غير الغامض وتوصلا إلى تفاهم.

إنك لا تستطيع أن تجد مصطلحاً في القواميس بالرغم من أن المواد التي تصنع منها المصطلحات موجودة في هذه القواميس وهي الكلمات. إن المصطلح يتكون فقط أثناء عملية التناقل والتفاهم. إنه يتكون عندما يحاول الكاتب أن يتجنب الغموض ويساعده القارىء في محاولة استخدامه للكلمة

ذاتها للمعنى ذاته الذي أراده الكاتب. ويوجد هنا بالطبع درجات عديدة من النجاح. إن التوصل إلى تفاهم هو المَثَل الذي يحاول أن يصل إليه كل من الكاتب والقارىء. حيث أن هذا هو الإنجاز الأساسي في عملية الكتابة والقراءة، فإننا نستطيع أن نفكر بالمصطلحات على أنها استعمال ما هو للكلمات من أجل تناقل المعرفة.

عند هذه النقطة يتضح أن كلامنا موجه على سبيل الحصر إلى الكتابات التفسيرية والكتب التفسيرية، حيث أن الشعر والأدب التخيلي غير معنيين في الاستعمال غير الغامض للكلمات كما تعنى بذلك الأعمال التفسيرية ـ أي الأعمال التي توضح المعرفة بالمعنى العام للكلمة الذي نستخدمه هنا، حيث أن أفضل الشعر هو ذلك الشعر الأكثر غموضاً. ولقد قيل بشيء من العدل إن الشاعر الجيد هو أحياناً غامض بشكل مقصود في كتاباته. إن هذا تبصّر هام عن الشعر الذي سوف تعود إليه فيما بعد. ومن الواضح أن هذا الاختلاف هو الأساسي بين الأعمال الشعرية والأعمال التفسيرية أو الكتابات العلمية وبين عالم الفنون الأدبية.

نحن الآن مهيؤون لتلقي القاعدة الخامسة في القراءة (قراءة الأعمال التفسيرية) ويمكن أن توضع بشكل تقريبي في أنه يجب على القارىء أن يتبين الكلمات الهامة في الكتاب ويفكر في كيفية استخدام الكاتب لها. ولكن نستطيع أن نكون أكثر دقة وتحديداً، حيث تكون القاعدة الخامسة.

القاعدة الخامسة: أوجد الكلمات الهامة وتوصل إلى تفاهم مع الكاتب من خلالها. لاحظ أن للقاعدة جزءان: الجزء الأول (أن تجد الكلمات الهامة أي الكلمات التي تحدث الاختلاف)؛ والجزء الثاني (تحديد معنى هذه الكلمات كما هي مستعملة بمنتهى الدقة).

هذه هي القاعدة الأولى في المرحلة الثانية من القراءة التحليلية. والهدف هنا ليس تبين تركيب الكتاب وهيكله بل تفسير محتواه وما يريد أن يقوله. إن

القواعد الأخرى في هذه المرحلة سوف تبحث في الفصل التالي، وهي مثل هذه القاعدة هامة في هذا الاعتبار. كما تتطلب أيضاً خطوتين اثنتين: الخطوة الأولى وتُعنى باللغة بحد ذاتها؛ والخطوة الثانية تُعنى بأبعد من اللغة، أي بالأفكار المخبأة خلفها.

وإذا كانت اللغة نقية وكاملة من حيث أنها وسيلة لنقل الأفكار، فإن هاتين الخطوتين لن تكونا منفصلتين. وإذا كان لكل كلمة معنى واحد فقط، وإذا لم يكن يمكن استعمالها بشكل غامض، وإذا كانت كل كلمة باختصار مصطلحاً نموذجياً فإن اللغة سوف تكون وسيلة شفافة. ويمكن للقارىء أن يرى مباشرة ومن خلال كلمات الكاتب محتوى ذهنه. وإذا كانت هذه هي الحالة فلن يكون هناك حاجة إطلاقاً لهذه المرحلة الثانية من القراءة التحليلية، ولن يكون التفسير ضرورياً.

لكن هذه بالطبع ليست هي الحالة. وليس هناك فائدة من البكاء عليها، وليس هناك فائدة من وضع مخططات مستحيلة للغةٍ نموذجيةٍ كما حاول أن يفعل لايبنز Leibniz وبعض أتباعه. وفي الحقيقة إذا ما نجح الكتّاب في ذلك فلن يكون هناك شعر. وعلى ذلك فالشيء الوحيد الذي نستطيع أن نفعله في الأعمال التفسيرية أن نستخدم اللغة على النحو الأفضل، والطريقة الوحيدة للقيام بذلك هي أن نستخدم اللغة بأقصى ما نستطيع من المهارة عندما نريد أن نوضح المعرفة.

ولأن اللغة غير كاملة كوسيلة لتوضيح المعرفة، فإنها تعمل أيضاً كعائق في تناقل المعرفة. وقواعد تفسير القراءة موجهة لقهر هذا العائق. ونتوقع من الكاتب الجيد أن يبذل قصارى جهده ليوصل أفكاره لنا من خلال حاجز اللغة الذي لا يمكن تجنبه، ولكن علينا أيضاً ألا نتوقع منه أن يقوم بالعمل كله منفرداً وعلينا أن نقابله في منتصف الطريق.

ويجب علينا كقراء أن نحاول حفر النفق من جهة الحاجز الذي أمامنا. إن ترجيح التقاء العقول من خلال اللغة يعتمد على مدى الرغبة في ذلك لدى

كل من القارىء والكاتب اللذين يعملان معاً. تماماً مثل التعليم الذي لن يكون متاحاً إلا من خلال النشاط المتبادل في طريقة التعلم، لذلك لا يوجد كاتب ـ بغض النظر عن مدى مهارته في الكتابة ـ يستطيع أن ينجز تناقل الأفكار بدون المهارة المتبادلة من جانب القراء. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فإن المهارات المتنوعة للقراءة والكتابة لن تجمع العقول مع بعضها، وعلى كل حال فإن جهداً كبيراً سوف يبذل من قِبَل الرجال الذين يحفرون النفق من جهتي الجبل المتناظرين ولن يلتقي هؤلاء ضمن النفق إلا إذا وضعوا حساباتهم استناداً إلى المبادىء الهندسية نفسها.

وكما أشرنا فإن كل قاعدة في القراءة التفسيرية تتضمن خطوتين. ولنكون فنبين أكثر الآن يمكن أن نقول إن هذه القواعد لها عوامل قواعدية ومنطقية. إن العوامل القواعدية هي التي تُعنى بالكلمات، وأما القواعد المنطقية فهي التي تُعنى بمعاني هذه الكلمات أو بشكل أكثر دقة بالمصطلحات. وإلى هذا الحد الذي يهم تناقل المعرفة فإن هاتين الخطوتين لا غنى عنهما. فإذا استُعملت اللغة بدون أفكار لا يمكن نقل شيء، كما أن الأفكار أو المعرفة لا يمكن نقلها بدون اللغة وكالفن فإن القواعد والمنطق يعنيان باللغة في علاقتها مع الأفكار كما تُعنى الأفكار في علاقتها مع اللغة. لذا، فإن المهارات في كل من القراءة والكتابة تحرز من خلال هذين الفنين.

إن هذا العمل بين اللغة والفكر ـ وخصوصاً في التمييز بين الكلمات والمصطلحات ـ هو هام جداً لدرجة أننا سوف نخاطر ونكرر أنفسنا لنتأكد من أن النقطة الرئيسية قد استوعبت. والمسألة هنا في أن كلمة واحدة يمكن أن يعبّر عنها بمصطلحات عديدة، كما أن مصطلحاً واحداً يمكن أن يعبر عنه بكلمات عديدة. دعنا نوضح ذلك المنهج بالطريق التالية:

إن كلمة «قراءة» قد استعملت بمعاني متعددة أثناء مناقشتنا في هذا الكتاب. وبكلمة «قراءة» يمكن أن نعني: (1) أن نقرأ من أجل التسلية؛ (2) أن نقرأ من أجل أن نحصل على معلومات؛ (3) أن نقرأ بغية الفهم.

والآن دعنا نرمز لكلمة «قراءة» بالرمز س وللمعاني الثلاثة بالرموز أ، ب، ج. وما نرمز له هنا هو أن أ س، ب س، ج س ليست ثلاث كلمات لأن س تبقى نفسها في المعاني الثلاثة، لكنها ثلاثة مصطلحات بشرط واحد بالطبع هو أنك أنت كقارىء ونحن ككتّاب نعرف أن س قد استعملت بمعنى معين وليس بمعنى آخر. وإذا كتبنا أ س في مكان معين وأنت قد قرأت ب س التي كتبناها وتقرأها على أنها نفس الكلمة ولكن ليس بنفس الطريقة. فإن الغموض يمنع أو على الأقل يعيق تناقل المعرفة. وعندما تفكر بالكلمة كما نفكر بها نحن فإننا نكون مشتركين في الفكرة ذاتها معاً وذهنينا لن يلتقيا في س ولكن فقط في آ س، ب س، ج س، وهكذا نحصل على تفاهم فيما بيننا.

إيجاد الكلمات الرئيسية

نحن الآن مهيأون لوضع اللحم على القاعدة التي تتطلب من القارىء أن يتفهمها. كيف سيفعل ذلك؟ كيف سيجد الكلمات الرئيسية أو الهامة في الكتاب؟ يجب أن تكون متأكداً من شيء واحد وهو أنه ليست كل الكلمات التي يستعملها الكاتب هامة. فقط تلك الكلمات التي يستعملها الكاتب بشكل خاص هي هامة بالنسبة له وبالنسبة لنا كقراء أيضاً. وهذه ليست بالطبع قضية مطلقة لكنها كذلك إلى حد ما والكلمات ذات أهمية تقريبية. وما يعنينا في ذلك هو أن بعض الكلمات أهم من غيرها. وعلى الطرف الآخر توجد الكلمات التي يستعملها الكاتب كما يستعملها رجل الشارع العادي. وحيث أن الكاتب يستعمل هذه الكلمات كما يستعملها أي شخص آخر في محادثاته اليومية فيجب ألا تسبب هذه الكلمات أي عناء بالنسبة للقارىء. وهو معتاد على مدى غموضها كما أنه معتاد على تغير معانيها كما تحدث في هذا السياق أو ذاك.

ومثال على ذلك إن كلمة «قراءة» آ. س. إيدينغتون Eddington في كتابه «طبيعة العالم الطبيعي» إنه يتحدث عن «قراءة المؤشرات» قراءة العدادات والمقاييس على الأدوات العلمية وإنه يستخدم كلمة قراءة بأحد معانيها العادية.

وهي ليست بالنسبة له كلمة فنية. وبإمكانه أن يعتمد على الاستعمال الشائع ليوضح قصده للقارىء. حتى لو استعمل كلمة قراءة بمعنى مختلف في مكان آخر من كتابه ـ في عبارة ولتكن «قراءة الطبيعة» ـ فإنه واثق من أن القارىء سوف لن يذهب إلى معنى آخر غير عادي. والقارىء الذي لا يستطيع أن يفعل ذلك لا يستطيع أن يتحدث مع أصدقائه أو يقوم بأعماله اليومية.

لكن إيدينغتون غير قادر على استعمال كلمة «السبب» بمعناها العادي. ويمكن أن تكون هذه الكلمة بالاستعمال العادي لكنه يستخدمها بمعنى خاص ومحدد عندما يناقش نظرية السببية. كيف يجب أن تفهم هذه الكلمة، وهذا ما يجب أن يعنى بها الكاتب والقارىء. ومن أجل السبب نفسه فإن كلمة «قراءة» هي كلمة هامة في هذا الكتاب. ولا تستطيع أن تستخدمها فقط بمعناها العادي والشائع.

إن الكاتب يستعمل معظم الكلمات كما يستعملها الناس في مناقشاتهم العادية وفي مدى واسع من المعاني ويثقون بها حتى يأتِ ما يشير إلى اختلاف المعنى. ومعرفة هذه الحقيقة تساعد كثيراً في تحري الكلمات الأكثر أهمية. ويجب علينا أن لا ننسى على أية حال أنه في أوقات مختلفة وفي أماكن مختلفة فإن الكلمات نفسها ليس لها معان مألوفة ومتساوية في الاستعمال اليومي. والكتّاب المعاصرون يستخدمون معظم الكلمات كما هو استعمالها المألوف في أيامنا هذه، وسوف تعلم ما هي هذه الكلمات لأنك تعيش الآن. ولكن في قراءة كتب كتبت في الماضي فإن ذلك سيكون أكثر صعوبة في تحري الكلمات التي يستعملها الكاتب كما يستعملها معظم الناس في الزمان والمكان اللذين كتبها فيهما. بالإضافة إلى حقيقة أن بعض الكتّاب يستخدمون وبشكل مقصود كلمات قديمة، أو المعاني القديمة لهذه لكلمات مما يعقّد المسألة أكثر. كما هو الوضع في ترجمة كتب من اللغات الأجنبية فإنك لا تستطيع أن تجد الكلمات الرئيسية ما لم تقم بجهد فهم الفقرات التي ترد فيها. وهذه الحالة تبدو إلى حد ما متناقضة. وإذا فهمت الفقرة فأنت بالطبع تعرف الكلمات الأكثر

أهمية. وإذا لم تفهم الفقرة بشكل تام فالسبب على الأغلب لأنك لم تعرف الطريقة التي يعالج فيها الكاتب الكلمات. وإذا علّمت الكلمات التي لم تفهمها فإنك سوف تجد الكلمات التي يستعملها الكاتب بشكل خاص. وهذا على الأرجح يتبع حقيقة أنك يجب ألا تلقى صعوبات مع الكلمات التي يستعملها الكاتب بشكلها المعتاد.

من وجهة نظرك كقارىء، فإن الكلمات الأكثر أهمية هي الكلمات التي تسبب لك صعوبات معينة. وعلى الأرجح هذه الكلمات هامة للكاتب أيضاً. ويمكن ألا تكون كذلك. ومن المحتمل أيضاً ألا تزعجك الكلمات الهامة بالنسبة للكاتب ـ بشكل أدق ـ لأنك تفهمها. وفي هذه الحالة تكون قد توصلت إلى تفاهم مع الكاتب. وفي حال فشلك في التوصل إلى تفاهم مع الكاتب فإنه يظل عليك بعض العمل الذي يجب أن تقوم به.

الكلمات الفنية والتعابير الخاصة

نحن نتداول الموضوع بشكل سلبي حتى الآن من خلال تصفية وحذف الكلمات العادية، حيث أنك يمكن أن تكتشف بعض الكلمات الهامة من خلال حقيقة أن هذه الكلمات غير مألوفة بالنسبة لك. ولهذا السبب فإنهم يسببون لك بعض الإرباك. لكن هل توجد طرق أخرى تلقي الضوء على الكلمات الهامة؟ وهل توجد هناك بعض العلامات الإيجابية لتشير إلى هذه الكلمات؟

توجد عدة طرق لذلك. إن الطريقة الأولى والعلامة الإيجابية هي التركيز الصريح الذي يوليه الكاتب لكلمات معينة دون الكلمات الأخرى. ويمكنه أن يفعل ذلك بطرق عديدة. يمكن أن يستعمل أدوات من الأقواس أو الكتابة بشكل مائل italics أو يعلِّم الكلمات لك. كما يمكنه أن يوجّه انتباهك إلى كلمة من خلال المناقشة الصريحة لمعانيها المختلفة مشيراً إلى الطريقة التي سيستعملها فيها هنا أو هناك. أو أن يركّز على كلمة من خلال تعريف الأشياء التي استعملت الكلمة لتسميتها.

ولا يستطيع أحد أن يقرأ اقليدس دون معرفة كلمات مثل «النقطة» و «الخط» و «المستوي» و «الزاوية» و «التوازي» وهكذا دواليك، حيث أن لهذه الكلمات الأهمية الأولى. فهذه الكلمات هي التي تسمي الوجود الهندسي المعرف من قبل اقليدس. وهناك كلمات أخرى هامة مثل «التساوي»، «الكل» و «الجزء» وهذه لا تسمي أي شيء معرّف. لكنك تعرف أنها هامة من خلال حقيقة حدوث هذه الأشياء بالبديهة. واقليدس يساعدك في ذلك من خلال الافتراضات الأساسية التي يوضحها منذ البداية. ويمكن أن تستنبط أن المصطلحات التي تؤلف مثل هذه الافتراضات الأساسية، وأنها توضح لك الكلمات التي تعبر عن المصطلحات. ويمكن ألا يكون لديك صعوبات مع هذه الكلمات لأنها كلمات مستمدة من الحديث المعتاد ويظهر أن اقليدس قد استعملها بتلك الطريقة.

إذا كتب كل الكتّاب كما كتب أقليدس، فيمكنك أن تقول، أن عملية القراءة ستكون أكثر سهولة. لكن هذا غير ممكن بالطبع. بالرغم من أن بعض الأشخاص في الحقيقة قد فكروا أن أي موضوع يمكن أن يشرح بالأسلوب الهندسي. لكن خطوات هذا العمل ـ الطريقة والإثبات ـ التي تجري في الرياضيات لا تُطبق في كل حقل من حقول المعرفة. وأياً كان ذلك فإنه من الكافي بالنسبة لأهدافنا أن نلحظ ما هو معتاد بالنسبة لأي نوع من أنواع الشرح والتفسير. فكل حقل من حقول المعرفة له مفرداته الفنية الخاصة. وأقليدس بسَّط الموضوع منذ البداية تماماً. والشيء نفسه هو حقيقي لدى أي كاتب مثل غاليلو أو نيوتن اللذان كتبا بالطريقة الهندسية. وبالنسبة للكتب المكتوبة بطريقة مختلفة وفي حقول المعرفة الأخرى فإن المفردات الفنية يجب أن تُكتشف من قبل القارىء.

وإذا لم يشر الكاتب إلى الكلمات بنفسه فإن القارىء يمكن أن يعرفها من خلال حصوله على معرفة مسبقة بالموضوع. فإن كان يعرف شيئاً عن البيولوجيا أو الاقتصاد قبل أن يبدأ بقراءة داروين أو آدم سميث فإنه من المؤكد سيكون

لديه بعض الخطوط في تبين الكلمات الفنية. إن قاعدة تحليل هيكل الكتاب يمكن أن تساعد في ذلك. وإذا كنت تعرف نوع الكتاب وما يبحثه بمجمله وما هي أقسامه الرئيسية فإن ذلك يمكن أن يساعد بشكل كبير في فصل المفردات الفنية عن الكلمات العادية. إن عنوان الكتاب وعناوين الفصول والتمهيد يمكن أن تكون مفيدة في هذا الخصوص.

ومن هذا يمكن أن تعرف مثلاً أن كلمة «ثروة» هي كلمة فنية بالنسبة لآدم سميث وأن كلمة «أنواع» هي كلمة فنية بالنسبة لداروين. وحيث أن الكلمات الفنية تؤدي إلى بعضها فلا يمكنك أن تكتشف الكلمات الفنية الأخرى إلاّ بطريقة مشابهة. ويمكنك أن تضع قائمة بالكلمات الهامة المستعملة من قبل آدم سميث مثل العمل، رأس المال، الأرض، الأجور، الأرباح، الإيجار، البضائع، الأسعار، التبادل، الإنتاج والنقود وإلى ما هنالك من تعابير.

وهنا أيضاً بعض الكلمات التي لا يمكن إغفالها في كتابات داروين مثل الأنواع والمورثات والاصطفاء والبقاء والتكيف والهجين والخلق.

وحيث يوجد حقل من حقول المعرفة المؤسس لمفرداته الفنية فإن تبين الكلمات الهامة في كتاب يعالج ذلك الموضوع سهل نسبياً. ويمكنك أن تلقي الأضواء عليها بشكل إيجابي من خلال بعض المعرفة في ذلك الحقل من حقول المعرفة أو بشكل سلبي من خلال معرفة ما هي الكلمات التي يمكن أن تكون فنية لأنها ليست كلمات عادية. ومن سوء الحظ أن هناك حقولاً عديدةً لم تؤسس مفرداتها الفنية بشكل جيد.

إن الفلاسفة معروفون باستعمال مفردات خاصة. وتوجد بعض الكلمات التي لها بالطبع تقاليد راسخة في الفلسفة بالرغم من أنها لا تستعمل من قبل كل الكتّاب بنفس المعنى. وهي كلمات فنية في مناقشة مسائل معينة. لكن الفلاسفة غالباً ما يجدون أنه من الضروري ابتداع كلمات جديدة، أو أخذ بعض الكلمات من الكلام المعتاد وجعله كلاماً فنياً. وهذا الإجراء الأخير هو على

الأرجح أكثر الأمور تضليلاً للقارىء الذي يفترض أنه يعرف معنى الكلمة وبالتالي فهو يعاملها ككلمة عادية. إن معظم الكتّاب الجيدين يخمّنون هذا الالتباس ويعطون تحذيراً صريحاً كلما طبقوا مثل هذا الإجراء.

وفي هذا السياق فإن القارىء يستطيع أن يحل هذا الغموض للكلمات الهامة إذا اختلف كاتب معين مع كتّاب آخرين على هذه الكلمات. وعندما تجد أن كاتباً ما يخبرك كيف استُعملت كلمة معينة من قبل كتّاب آخرين، ولماذا اختار هو أن يستعملها بخلاف ذلك، فإنك تستطيع أن تكون متأكداً أن ذلك يعني اختلافاً كبيراً بالنسبة له.

لقد ركّزنا هنا على مفهوم المفردات الفنية ولكن يجب ألا تأخذها بمعناها الضيق جداً. إن مجموعة صغيرة نسبياً من الكلمات تعبر عن الأفكار الأساسية للكاتب ومفاهيمه الرئيسية وتؤلف مفرداته الخاصة. إنها الكلمات التي تحمل تحليلاته ومناقشاته. وإذا كان يقوم بتواصل أصلي فإن بعضاً من هذه الكلمات على الأرجح استُعمل من قبله بطريقة خاصة بالرغم من أنه قد يستعمل الكلمات الأخرى بأسلوب أصبح تقليدياً في ذلك الحقل. وفي كلتا الحالتين فإن هذه الكلمات هي الأكثر أهمية بالنسبة له. ويجب أن تكون هامة بالنسبة لك كقارىء أيضاً. وبالإضافة إلى ذلك فأي كلمة أخرى غير واضحة المعنى بالنسبة لك هي كلمة هامة بالنسبة لك.

إن الصعوبة بالنسبة لمعظم القراء تكمن في أنهم ببساطة لا يعيرون اهتماماً كافياً للكلمات ليتبينوا صعوبتها. إنهم يفشلون في تمييز الكلمات التي لا يفهمونها بشكل كافٍ من الكلمات الأخرى التي يفهمونها. وكل الأشياء التي اقترحناها لمساعدتك في إيجاد الكلمات الهامة في الكتاب لن تمكنك من الكشف إلا إذا قمت بجهد متأنٍ لمعرفة الكلمات التي تكوِّن المصطلح. والقارىء الذي يفشل في التفكير بها أو على الأقل في ملاحظة الكلمات التي لم يفهمها يكون متوجهاً نحو معضلة.

إذا كنت تقرأ كتاباً يستطيع أن يزيد من فهمك فإنه يكون من المعروف لديك أن بعض كلماته غير مفهومة بالنسبة لك. وإذا عاملت هذه الكلمات ككلمات عادية وكلها على نفس المستوى العام من إمكانية الفهم كما لو أنها كلمات مقالة في إحدى الصحف فلن يمكنك التقدم نحو فهم وتفسير الكتاب. ويكون ذلك كما لو أنك تقرأ صحيفة. لأن الكتاب لا يستطيع أن ينير لك الموضوع إذا لم تحاول فهمه. إن معظمنا مدمنٌ على القراءة غير الفعّالة. والخطيئة الظاهرة للنشاط غير الفعّال أو للقارىء غير المجد هي عدم انتباهه للكلمات وبالتالي فشله في الوصول إلى تفاهم مع الكاتب.

إيجاد المعاني

إن تبين الكلمات الهامة هو فقط بداية الهدف. إنه إيجاد المواقع والأمكنة في النص حيث يجب عليك أن تنطلق في العمل. ولا يزال هناك القسم الثاني من القاعدة الخامسة للقراءة. دعنا الآن نتناول هذا القسم من القاعدة. دعنا نفترض أنك وضعت الخطوط والإشارات على الكلمات التي لم تفهمها في النص. ماذا بعد ذلك؟

هناك احتمالان رئيسيان. إما أن الكاتب قد استعمل هذه الكلمات بمعنى واحد في الكتاب أو أنه قد استعمل هذه الكلمات بمعنيين أو أكثر ناقلاً معانيه من مكان إلى آخر. في الاحتمال الأول فإن الكلمات تقف لمصطلح واحد. إن المثال الجيد لاستعمال الكلمات الهامة بحيث تكون مقتصرة على معنى واحد يوجد في كتابات أقليدس. وفي الاحتمال الثاني فإن الكلمات تقف لمصطلحات عديدة.

وعلى ضوء هذه الخيارات فإنك يجب أن تتبع الإجراءات التالية: **أولاً** حاول أن تحدد ما إذا كان للكلمة معنى واحد أو معاني متعددة. وإذا كان لها أكثر من معنى، حاول أن تكتشف كيف ترتبط هذه المعاني. وأخيراً لاحظ الأماكن حيث تستعمل الكلمة بمعنى معين أو بمعنى آخر، وحاول أن تلاحظ

ما إذا كان سياق الكتاب يعطيك المفتاح لمعرفة الانتقال في المعنى. وهذه الأخيرة تمكّنك من تتبع الكلمة في تغير معانيها مع نفس المرونة التي تميز استعمال الكاتب لها.

ولكن يمكن أن تشُك، في أن كل الكلمات واضحة ما عدا الشيء الأساسي. وكيف يجد المرء ما هي هذه المعاني. والجواب بالرغم من أنه بسيط، يمكن أن يظهر بأنه غير مرضٍ. ولكن الصبر والممارسة سوف يظهران لك خلاف ذلك. والجواب هو: يجب أن تكتشف المعنى في الكلمات التي لا تفهمها باستعمال معاني الكلمات الأخرى التي تفهمها من سياق النص. وهذه يجب أن تكون الطريقة بغض النظر عن الدوّامة التي تبدو لك في البداية.

وأسهل طريقة لتوضيح ذلك هي في دراسة التعريف. إن التعريف يفهم من خلال الكلمات وإذا لم تفهم أي كلمة من الكلمات التي استعملت في التعريف، فمن الواضح أنك لن تستطيع فهم المعنى للكلمة التي تسمي ما يجب أن يُعرّف. إن كلمة «نقطة» هي كلمة أساسية في الهندسة. وقد تظن أنك تعرف ماذا تعني (في الهندسة) ولكن أقليدس يريد أن يكون متأكداً من أنك تستعملها بطريقة واحدة فقط. إنه يخبرك ماذا يعني من خلال تعريف الشيء الذي سيستعمله فيما بعد في الكلمة التي تسميه. إنه يقول «إن النقطة هي ذلك الشيء الذي ليس له أجزاء». كيف يساعدك ذلك لتصل إلى تفاهم معه؟ إنه يفترض أنك تعرف كل كلمة أخرى في الجملة بدقة كافية. إنك تعرف أن أي شيء له أجزاء هو كلٌ مركب. وأنت تعرف أن كل شيء مركب يكون عكسه ذلك الشيء البسيط. وليكون بسيطاً يجب أن لا يكون له أجزاء. وأنت تعرف أن كلمة يكون تعني أن الشيء المشار إليه يجب أن يكون مستقلاً بمفرده لنوع ما. ويتبع ذلك إن كان يوجد شيء لا وجود مادي له ودون أجزاء فإن النقطة كما يقول أقليدس هي شيء غير مادي.

إن هذا التوضيح هو شيء نموذجي للعملية التي من خلالها تكتسب المعاني. إنك تعمل في المعاني التي تعرفها. فإذا كانت كل كلمة تستعمل في

التعريف يجب أن تعرّف فإنه لن يوجد شيء يمكن أن يعرّف. وإذا كانت كل كلمة في كتاب تقرأه غريبة عليك كلياً، تماماً مثلما هي الحالة في كتاب مكتوب كلياً بلغة أجنبية لا تعرفها فإنك لن تستطيع أن تتقدم في ذلك.

وهذا ما يعنيه بعض الأشخاص عندما يقولون إن الكتاب مكتوب كله باللغة الإغريقية بالنسبة لهم. إنهم ببساطة لم يحاولوا أن يفهموه مما يمكن تبريره بأنه مكتوب باللغة الإغريقية. ولكن معظم الكلمات في كتاب إنكليزي هي كلمات مألوفة وهذه الكلمات تحيط بالكلمات الغريبة، والكلمات الفنية، والكلمات التي تسبب للقارىء بعض الصعوبات. إن الكلمات المحيطة بالكلمات التي تسبب لك صعوبات هي القرينة للكلمات التي تود تفسيرها. والقارىء لديه كل المواد التي تلزمه للقيام بهذه المهمة.

نحن لا نتظاهر بأن هذه المهمة سهلة. نحن فقط نصرّ على أن هذه ليست مهمة مستحيلة. وإذا كانت مستحيلة فلن يوجد أحد يستطيع أن يقرأ كتاباً من أجل إحراز الفهم. والحقيقة أن الكتاب الذي يستطيع أن يعطيك الرؤيا أو ينوّرك يشير إلى أنه من المحتمل أن يحتوي كلمات لا تستطيع فهمها مباشرة. وإذا لم تستطع أن تتفهم هذه الكلمات من خلال جهدك الشخصي فإن نوع القراءة الذي نتحدث عنه مستحيل. وإنه لمن المستحيل أن تعبر من الفهم الأقل إلى الفهم الأكثر إلا من خلال عملك وجهدك في دراسة الكتاب.

ولا توجد هناك قاعدة يمكن الإشارة إليها للقيام بهذا العمل. إن العملية يمكن أن تنجز من خلال شيء يشبه التجربة والخطأ في فعل ذلك أو أنها مثل الطريقة التي تجمع بها قطع اللغز Puzzle التي يجمعها اللاعبون لتكوين الصورة المطلوبة من خلال جمع هذه القطع إلى بعضها. إن الأجزاء الأكثر التي تضعها مع بعضها هي الأسهل من أجل إيجاد الأمكنة للقطع الباقية إذا لم يكن يوجد سوى قطع قليلة منها. إن الكتاب يأتي إليك مع عدد كبير من الكلمات الموضوعة في مكانها. إن الكلمة في مكانها هي مصطلح. إنها موضوعة بالتحديد في ذلك المكان ومن خلالها يمكنك مع الكاتب أن تتقاسما

استعمالها. والكلمات المتبقية يجب أن توضع في مكانها. وأنت تقوم بذلك من خلال هذه الطريقة أو تلك. إن الفهم الأفضل للصورة التي تكونها الكلمات في مكانها وتكشف جزئياً عنها هو الأسهل لاستكمال الصورة من خلال إيجاد العبارات للكلمات المتبقية. وكل كلمة توضع في مكانها تجعل التوافق الثاني أسهل.

وبالطبع سوف تقع في أخطاء أثناء هذه العملية. سوف تظن بأنك استطعت تدبر أين تتعلق هذه الكلمة وكيف تلائم المعنى لتكتشف فيما بعد أن كلمة أخرى تؤدي بك إلى إجراء سلسلة من التعديلات. إن الأخطاء سوف تصحح لأنها إذا لم توجد فإن الصورة لن تكتمل. وعندما تحصل على أية تجربة في عملية الوصول إلى تفاهم سرعان ما تكون قادراً على اختبار نفسك وسرعان ما تعرف أنك قد نجحت في هذا العمل أو لا ولن تفكر بسعادةٍ أنك قد فهمت عندما تكون في الحقيقة بخلاف ذلك.

إننا في مقارنتنا بين الكتاب وبين لعبة قطع اللغز Puzzle قد وضعنا افتراضاً ليس صحيحاً في الحقيقة. لأن لعبة اللغز الجيدة هي بالطبع تلك التي تنسجم فيها كل القطع مع بعضها وتظهر الصورة من خلالها بشكل تام. إن الشيء نفسه صحيح بالنسبة للكتاب النموذجي الجيد، ولكن لا يوجد في الحقيقة مثل هذا الكتاب. في الجزء الذي يكون فيه الكتاب جيداً فإن مصطلحاته تكون قد جمعت مع بعضها من قبل الكاتب ومن خلالها يكون عمل القارىء مثمراً في تفسيرها. وهذه مثل حالة أية قاعدة قراءة أخرى، فإن الكتب الرديئة هي الأقل قراءة من الكتب الجيدة. والقواعد لا تنطبق عليها إلا لتظهر لك كم هو سيء ذلك الكتاب. وإذا استعمل الكاتب الكلمات بشكل مبهم فإنك لا تستطيع أن تجد ما يريد هذا الكاتب قوله وتستطيع فقط أن تقول إن الكاتب غير دقيق في استعماله.

ولكن يمكنك أن تسأل، عندما يستعمل الكاتب الكلمة في أكثر من معنى واحد ألا يستعملها بشكل مبهم؟ أليس شيئاً غير معتاد على النطاق العملي بالنسبة للكاتب أن يستعمل كلماته بمعاني متعددة، وبشكل خاص الكلمات الأكثر أهمية؟

إن الجواب بالنسبة للسؤال الأول هو لا. وبالنسبة للسؤال الثاني نعم. إن استعمال كلمة بشكل مبهم هو أن تستعملها بمعاني متعددة دون التمييز أو الارتباط بين معانيها. مثلاً: يمكن أن نكون قد استعملنا كلمة «هام» بشكل مبهم في هذا الفصل، لأننا لم نكن دائماً واضحين في قصدنا ما إذا كانت الكلمة تعني هاماً بالنسبة للكاتب أم لك كقارىء. إن الكاتب الذي يفعل ذلك لم يضع وسيلة يمكن من خلالها أن يتفاهم القارىء معه. لكن الكاتب الذي يميز بين المعاني المتعددة التي يستعمل من خلالها كلماته الحرجة ويمكّن القارىء من أن يضع تمييزاً فعالاً يقدم مصطلحاً.

ويجب ألا ننسى أن كلمة واحدة يمكن أن تقدم مصطلحات متعددة. وطريقة واحدة لتتذكر ذلك هي في التمييز بين مفردات الكاتب وبين مصطلحاته. وإذا وضعت قائمة بالكلمات الهامة بشكل عامودي في جانب، وفي الجانب الآخر معانيها الهامة. يمكنك من خلالها أن تلحظ العلاقة بين المفردات والمصطلحات.

هناك عدة تعقيدات أخرى. ففي المقام الأول، فإن الكلمة لها عدة معانٍ متميزة يمكن استعمالها بمعنى واحد أو بمجموعة مشتركة من المعاني. دعنا نأخذ كلمة «قراءة» مرة ثانية كمثال. ففي بعض الأماكن قد استعملناها من أجل قراءة أي نوع من الكتب. ومن طرف آخر فإننا قد استعملناها في قراءة الكتب من أجل التعلم أكثر من استعمالنا لها في القراءة من أجل التسلية. ويبقى هنالك أننا قد استعملناها في القراءة من أجل التنوّر أكثر من استعمالنا لها من أجل الحصول على المعلومات. والآن إذا رمزنا لذلك، كما فعلنا من قبل، فإن هذه المعاني المتميزة من أجل كلمة «قراءة» نرمز لها آ.س، ب.س، ج.س وعلى هذا فالاستعمال الأول الذي ذكرناه يكون آ.ب.ج.س والمعنى الثاني ب.ج.س والمعنى الثالث ج.س. وبكلمات أخرى إذا كانت المعاني المتعددة مرتبطة، فإن المرء يمكن أن يستعمل كلمة واحدة لتقوم مقام كل هذه المعاني، ولتقوم أيضاً مقام بعض هذه المعاني فقط، وأيضاً من أجل معنى واحد فقط في

الوقت الواحد. وطالما بقي كل استعمال محدداً فإن الكلمة التي استعملناها تكون تعريفاً.

ومن ناحية ثانية، توجد مشكلة المترادفات. فتكرار كلمة واحدة باستمرار شيء مربك وممل باستثناء كتابة الرياضيات، وهكذا فالكتّاب الجيدون غالباً ما يستعملون كلمات مختلفة لها نفس المعنى أو معنى مشابه جداً من أجل الكلمات الهامة في نصوصهم. وهذه الحالة هي المناقضة للحالة حيث تقوم كلمة واحدة مكان عدة تعابير. وهنا فإن العبارة ذاتها تعرض من خلال كلمتين أو أكثر تستعملان بشكل مترادف.

ونستطيع أن نرمز لذلك من خلال الرموز حيث تكون س، ع كلمتان مختلفتين مثل التنوّر والتبصّر وليكن الرمز آ يستعمل لنفس المعنى الذي تعبّر عنه كل منهما وهي تحديد إحراز الفهم. وهكذا فإن آ.س، آع تقدمان نفس العبارة بالرغم من أنهما كلمتان مختلفتان ونحن نتحدث عن القراءة من أجل التبصّر والقراءة من أجل التنوّر ونحن نشير إلى نفس النوع من القراءة، لأن العبارتين قد استعملتا في المعنى ذاته والكلمتين مختلفتين لكن يوجد لك كقارىء عبارة واحدة يجب أن تلتقطها.

وهذا بالطبع شيء هام، فإذا افترضنا أنه في كل مرة يغير الكاتب كلماته فإنه يغير بذلك عباراته وأنّك سوف ترتكب خطأ كبيراً كأن تفترض أنه في كل مرة يستعمل بها الكاتب كلماته نفسها فإن عباراته تبقى نفسها. تذكر هذا جيداً عندما تضع قائمة بمفردات الكاتب ومصطلحاته في عمودين مختلفين. فأنت سوف تجد علاقتين. فمن ناحية إن كلمة واحدة يمكن أن تتعلق بعدة عبارات، ومن ناحية ثانية فإن عبارة واحدة يمكن أن تتعلق بعدة كلمات.

يستتبع ذلك أن العبارة يمكن التعبير عنها بعدة كلمات أو بكلمة واحدة أيضاً. وكل العلاقات التي تنشأ بين الكلمات والعبارات توجد أيضاً بين العبارات والأسلوب. إن أسلوبين يمكن أن يعبرا عن نفس العبارة، كما يمكن لأسلوب واحد أن يعبر عنه بعدة عبارات حسب الطريقة التي تستعمل فيها الكلمات.

وبشكل عام فإن الكلمات المتعددة هي أقل غموضاً على الأرجح من الكلمة الواحدة، لأنها مجموعة من الكلمات كل كلمة منها تكون قرينة لبقية الكلمات، إن كلمة واحدة يرجح أن يكون لها معنى واحد، وهذا يبين على الأرجح لماذا يستبدل الكاتب عدة كلمات محكمة بدلاً من كلمة واحدة إذا أراد أن يكون متأكداً من أنك حصلت على المعنى الصحيح.

إن توضيحاً واحداً يجب أن يكون كافياً لنتأكد من أنه قد حصل تفاهم بيننا حول القراءة، فإننا نستبدل عبارة مثل «القراءة من أجل التنوّر» بكلمة واحدة هي «القراءة». ولنكون متأكدين أكثر، فإننا يمكن أن نستبدل تلك العبارة أكثر إحكاماً مثل «عملية المرور من الفهم الأقل للفهم الأكثر» من خلال عمليات وفعاليات ذهنك عن الكتاب. توجد هنا عبارة واحدة فقط، عبارة تشير إلى نوع القراءة التي تتناولها معظم صفحات هذا الكتاب. لكن هذه العبارة الواحدة وقد عُبّر عنها بكلمة واحدة، وبجملة صغيرة، وبجملة أكبر.

لقد كان هذا فصلاً صعب الكتابة، ومن المحتمل أن يكون صعب القراءة أيضاً. والسبب في ذلك واضح. فالقاعدة عن القراءة التي بحثناها هنا لا يمكن جعلها واضحة تماماً دون الدخول في كل أنواع التوضيحات المنطقية وتوضيحات القواعد عن الكلمات والعبارات، لقد قمنا في الحقيقة بتوضيحات قليلة. وكي نغطي هذا الموضوع بشكل ملائم لهذه المسائل فإن ذلك سوف يستغرق منا فصولاً عديدة. وقد مسسنا فقط النقاط الأساسية. ونأمل أن نكون قد قلنا ما فيه الكفاية لنجعل هذه القاعدة دليلاً مفيداً عند التطبيق. وكلما وضعتها أكثر قيد التطبيق كلما لاحظت أكثر نوعية تعقيدات المسألة. قد تكون راغباً في أن تعرف شيئاً عن الاستعمال الأدبي والمجازي للكلمات. كما قد ترغب في أن تعرف أكثر عن المستخلصات والكلمات المتماسكة وعن التسميات الخاصة والتسميات الشائعة. وسوف تصبح مهتماً في عملية التعريف بكاملها، والفرق بين تعريف الكلمات وتعريف الأشياء ولماذا بعض الكلمات من المتعذر تعريفها وأيضاً المعاني المحددة وهكذا.

سوف تبحث عما يعرف «بالاستعمالات العاطفية للكلمات» أي استعمال الكلمات لتزيد الانفعالات، ولتحرك البشر نحو القيام بالأفعال أو لتغير قناعاتهم، كأن تفرقها عن نقل المعرفة. ويمكن أن تصبح مهتماً في العلاقة بين الكلام العادي المنطقي وبين الحديث الغريب والضعيف ـ أحاديث المرضى النفسيين حيث على الأغلب تحمل كل كلمة العجيب وغير المتوقع ولكن أيضاً ذات دلالات أقل إمكانية من حيث تعذر التعريف.

إذا أظهرت ممارسة القراءة التحليلية اهتمامات أكثر، فسوف تكون في موقع إشباعها من خلال قراءة كتب عن هذه الموضوعات الخاصة وسوف تربح أكثر من خلال قراءة مثل هذه الكتب، لأنك سوف تقرأها وفي ذهنك أسئلة ولدت من تجربتك الخاصة في القراءة. إن دراسة القواعد والمنطق، أي العلم الذي وضع هذه القواعد، هي شيء عملي فقط إلى المدى الذي تستطيع أن تربطهما بالتطبيق والممارسة.

وقد لا ترغب في الذهاب أبعد من ذلك، ولكن حتى إذا لم ترد ذلك، فإنك سوف تجد أن فهمك لأي كتاب سوف يزداد بشكل كبير إذا تصديت لصعوبات إيجاد كلماته الهامة، وتحديد تغير معانيها، والتوصل إلى تفاهم معها. ونادراً ما يفعل هذا التغير الصغير في عادة ما ذلك التأثير الكبير.

الفصل التاسع

تحديد رسالة الكاتب

ليس فقط التوصل إلى تفاهم مع الكاتب ولكن جعل العروض التجارية التي تحدث بين التجار مثل العروض التي تحدث في عالم الكتب. والذي يعنيه البائع أو الشاري من خلال العرض هو نوع من الاقتراح، أو نوع من العرض أو القبول.. وفي الصفقات الشريفة فإن الشخص الذي يقدم عرضاً هو بمعنى ما يعلن عن نيته التصرف بطريقة معينة. وهناك يُتطلب أكثر من الاستقامة في المفاوضات الناجحة. والعرض يجب أن يكون واضحاً وذا جاذبية طبعاً. وبعد ذلك فإن المتجرين يتوصلون إلى تفاهم.

إن العرض الذي يقدمه الكتاب هو أيضاً نوع من الإعلان. إنه تعبير عن رؤية الكاتب لشيء ما. إن الكاتب يؤكد شيئاً يعتقد أنه صحيح، أو أنه ينكر شيئاً يحكم عليه بأنه خطأ. إنه يؤكد أن هذا الشيء أو ذاك هو الحقيقة. إن عرضاً من هذا القبيل هو إعلان عن معرفة، وليس عبارة عن نوايا. والكاتب يمكن أن يعلمنا عن نواياه من بداية المقدمة. وفي الكتب التفسيرية فإنه عادة يعدنا بأن يعلِّمنا شيئاً ما. ولنجد ما إذا كان الكاتب يستمر في وعوده، فإننا يجب أن ننظر إلى عروضه.

وبشكل عام فإن الطلب في القراءة هو عكس الطلب في التجارة والأعمال. فرجال الأعمال عادة يتوصلون إلى تفاهم بعد أن يبحثوا في ماهية العروض. ولكن يجب على القارىء عادة أن يتوصل إلى تفاهم مع الكاتب أولاً، قبل أن يجد ما يهدف إليه، وما هي الحكمة التي يعلن عنها. وهذا هو السبب في أن القاعدة الخامسة من قواعد القراءة التحليلية تُعنى بالكلمات

والعبارات، والقاعدة السادسة التي نناقشها الآن تعنى بالجمل والعروض. وهناك القاعدة السابعة التي ترتبط ارتباطاً شديداً مع القاعدة السادسة. وقد يكون الكاتب صادقاً في الإعراب عن نفسه في موضوع يتعلق بالحقيقة أو بالمعرفة. ويجب علينا عادة أن نكمل هذه الثقة. ولكن إذا لم نكن مهتمين حصراً بشخصية الكاتب، فإنه يتوجب علينا ألا نرضى بمعرفة ما هي آراؤه. إن عروضه ليست إلا تعابير عن آرائه الشخصية إلا إذا دعمت بالمسببات. وإذا كان الكاتب أو الموضوع الذي يعالجه هو الذي نهتم به وليس فقط الكاتب، فإننا نريد أن نعلم ليس فقط ما هي عروضه ولكن أيضاً لماذا يظن أنه يجب أن يقنعنا لقبولها.

ولهذا السبب تبحث القاعدة السابعة في المناقشات من كل الأنواع. وتوجد هناك أنواع عديدة من المسببات، وطرق عديدة لدعم ما يقوله المرء. ومن الممكن في بعض الأحيان أن تناقش أن شيئاً ما هو صحيح، وفي أحيان أخرى لا يمكن الدفاع إلا عن احتمال حدوث هذا الشيء أو ذاك. ولكن كل نوع من المناقشات يتألف من عدد من الجمل التي ترتبط ببعضها بطريقة معينة. وهذا يُقال عنه بسبب ذلك. وكلمة «سبب» هنا توضح السبب المعطى.

إن وجود المناقشات يشار إليه بكلمات أخرى تتعلق بالجمل. مثلاً إذا كان هذا الشيء كذلك فإن ذلك الشيء هو الموضوع. أو حيث أن هذا هو الموضوع فتلك هي النتيجة. أو إنه يستتبع هذا أن تكون تلك هي الحالة. وأثناء الفصول الأولى من هذا الكتاب حدث مثل هذا التسلسل. ولهؤلاء الذين لم يعتادوا في المدارس، فإننا نلاحظ أنه من الضروري إذا كنا نريد أن نستمر في التعلم والاكتشاف، أن نعرف كيف نجعل الكتب تعلِّمنا بشكل جيد. وإذا كانت هذه هي الحالة (إذا كنا نريد أن نستمر في التعلم) فإنه يتوجب علينا أن نعرف كيف نتعلم من الكتب وبغياب المدرسين.

إن المناقشات هي دائماً مجموعة متسلسلة من الجمل تقدّم من خلالها أرضية لأسباب يستنتج منها. إن الفقرة هي على الأقل مجموعة من الجمل،

التي تعبِّر عن مناقشة. إن المقدمة المنطقية أو مبادىء المناقشة يمكن ألا يكون منصوصاً عليها في البداية دوماً، لكنها مصادر النتيجة. وبالتالي فإذا كانت المناقشة صحيحة فإن النتيجة تؤخذ من هذه المقدمات. وهذا لا يعني بالضرورة أن تكون النتائج صحيحة، حيث أن واحدة أو كل المقدمات التي تدعم النتيجة تكون مقدمات خاطئة.

توجد هناك عوامل قواعدية بالإضافة إلى قواعد منطقية لتسلسل هذه القواعد من أجل التفسير. نحن نذهب من العبارات للعروض للمناقشات، من خلال ذهابنا من الكلمات (أو أشباه الجمل) إلى الجمل ومجموعات الجمل (أو الفقرات). ونحن نبني بداية بالوحدات الأبسط فالوحدات الأكثر تعقيداً. والعنصر الهام الأصغر في الكتاب هو بالطبع الكلمة الواحدة. وإنه لمن الصحيح ولكن من غير المناسب أن نقول إن الكتاب يتألف من الكلمات. إنه أيضاً يتألف من مجموعة من الكلمات تؤخذ كوحدات.

إن القارىء الفعال لا ينتبه فقط إلى الكلمات ولكنه ينتبه أيضاً إلى الجمل والفقرات. ولا توجد طريقة أخرى لاكتشاف عبارات الكاتب وعروضه ومناقشاته.

إن الحركة في هذه المرحلة من القراءة التحليلية ـ حيث التفسير هو هدفنا ـ تبدو في الاتجاه المعاكس من الحركة في المرحلة الأولى، حيث الهدف هو تبين الهيكل الأساسي للكتاب ـ لقد ذهبنا هناك من الكتاب بمجمله إلى أجزائه الرئيسية، ثم أقسامه الثانوية. وكما يمكن أن نتساءل فإن هاتين الحركتين تلتقيان في مكان ما. فالأجزاء الرئيسية للكتاب وأقسامه الرئيسية تتضمن عروضاً عديدة في المعتاد وعدة مناقشات. ولكن إذا استمريت في تقسيم الكتاب إلى أجزائه الرئيسية، فإنه يمكنك على الأقل أن تقول «نص هذا الجزء على النقاط التالية». والآن فإن كلاً من هذه النقاط هي على الأرجح عروضٌ وبعض هذه العروض قد أخذت مع بعضها لتشكل مناقشات.

وهكذا فإن كلتا العمليتين، تبين هيكل الكتاب وتفسيره، تلتقيان في مستوى عروض الكتاب ومناقشاته. فأنت تعمل نزولاً نحو العروض والمناقشات من خلال تقسيم الكتاب إلى أقسامه الرئيسية. وأنت تعمل صعوداً نحو المناقشات من خلال رؤية كيفية تشكلها من عروض وتعابير غير محدودة. وعندما تنجز هاتين العمليتين يمكن أن تقول إنك تعرف محتويات الكتاب.

الجمل مقابل العروض

لقد لاحظنا شيئاً آخر في القواعد التي سنبحثها في هذا الفصل. وكما هي الحالة في قاعدة الكلمات والمصطلحات، نحن هنا أيضاً نعالج العلاقة بين اللغة والفكر. إن الجمل والفقرات هي وحدات قواعدية. إنها وحدات اللغة. والعروض والمناقشات وحدات منطقية، أو هي وحدات فكر ومعرفة.

ونحن نواجه هنا مشكلة مشابهة لتلك التي واجهناها في الفصل الأخير. لأن اللغة ليست وسيلة كاملة للتعبير عن الأفكار، لأن كلمة واحدة يمكن أن تكون لها عدة معانٍ كما أن كلمتين أو أكثر يمكن أن يكون لها المعنى نفسه. ولقد رأينا كم هي معقدة العلاقة بين مفردات الكاتب ومصطلحاته. فكلمة واحدة يمكن أن تعرض معاني عديدة. ومعنى واحد يمكن أن يُقدَم بعبارات عديدة أو كلمات مختلفة.

إن علماء الرياضيات يصفون العلاقة بين الزر والعروة في معطف جيد الصنع كالعلاقة التامة بين واحد وآخر. ويوجد زر لكل عروة، وعروة لكل زر من الأزرار. لكن العلاقة بين الكلمات والتعابير لا تقف كالعلاقة بين الزر والعروة. والخطأ الكبير الذي يمكن أن ترتكبه هو في تطبيق هذه القواعد على افتراض أنها علاقة واحد لواحد توجد بين عناصر لغة ما وبين عناصر الفكر أو المعرفة.

وفي الحقيقة يكون من الحكمة أن تجعل الافتراضات سهلة حتى عن الزر والعروة. إن أكمام معظم بذلات الرجال تحمل أزراراً دون أن يكون لها

عراوي. وإذا لبست معطفاً لفترة فإنه يمكن أن يكون له عُرى دون أن يقابلها أزرار.

دعنا نوضح ذلك في حالة الجمل والعروض. فليست كل جملة في الكتاب تعبِّر عن عرض. لسبب واحد هو أن بعض الجمل يمكن أن تعبر عن أسئلة. إنهم يعرضون مشكلة أكثر من أن يوجدوا إجابات. إن العروض هي أجوبة لأسئلة. إنها إعلان عن معرفة أو رأي.

وهذا هو السبب الذي يجعلنا ندعو الجمل التي تعبِّر عنها جملاً إعلانية، ونميز الجمل التي تسأل الأسئلة بأنها جمل استفهامية. وجمل أخرى يمكن أن تعبِّر عن آمال أو نوايا. إنها يمكن أن تعطينا بعض المعرفة عن هدف الكاتب، لكنها لا توضح المعرفة التي يحاول أن يشرحها.

والأكثر من ذلك ليست كل الجمل الإعلانية أو التصريحية يمكن أن تُقرأ كما لو أنها تعبِّر عن عرض واحد. وهناك على الأقل سببان لذلك. السبب الأول يكمن في حقيقة أن الكلمات غامضة ويمكن أن تستعمل في جمل عديدة. وهكذا فمن المحتمل للجملة الواحدة أن تعبر عن عروض مختلفة إذا كان هناك انتقال في التعابير التي توحي بها الكلمات. «إن القراءة هي تعلُّم» وهذه جملة بسيطة. ولكن إذا عنينا في مكان ما بكلمة «تعلُّم» (اكتساب المعلومات)، وعنينا في مكان آخر بهذه الكلمة أنها «تطوير للفهم»، فإن العرض لا يكون هو نفسه لأن المصطلح قد تغير بالرغم من أن الجملة بقيت نفسها.

والسبب الثاني هو أنه ليست كل الجمل بسيطة مثل «إن القراءة هي تعلُّم». عندما تكون كل كلماتها قد استعملت بشكل غير مبهم. إن الجملة البسيطة عادة تعبّر عن عرض واحد. ولكن حتى لو كانت كلماتها قد استعملت بشكل غير مبهم، فإن الجملة المركبة تعبّر عن عرضين أو أكثر. إن الجملة المركبة هي مجموعة من الجمل، ترتبط مع بعضها بحروف مثل «و» أو «إذا» و«بالتالي» و«ليس فقط»، «بل أيضاً». ويمكن أن تكون على حق في أن تستنتج

أنه يصعب رسم خط بين الجملة الطويلة المركبة وبين الفقرة القصيرة. إن الجملة المركبة يمكن أن تعبّر عن عدد من العروض تتعلق مع بعضها بشكل من المناقشة.

إن مثل هذه الجمل من الصعب تفسيرها. دعنا نأخذ جملة هامة من كتاب ماكيافيلي «الأمير» لنريك ماذا نعني:

«إن الأمير يجب أن يحوي الخوف بطريقة هي إذا لم ينجح بالحب فإنه يتجنب الحقد؛ لأنه يستطيع أن يبقى مُخافاً منه في حين كونه غير مكروه والذي سوف يكون دائماً طالما هو بعيد عن ملكيات مواطنيه وبعيداً عن نسائهم».

إن هذه الجملة قواعدياً هي جملة واحدة، بالرغم من أنها جملة مركبة تماماً. إن الفاصلة المنقوطة وكلمة «لأنه» تشير إلى الكسر الرئيسي بها. إن العرض الأول وهو أن الأمير يجب أن يلهم الخوف بطريقة ما.

في بداية كلمة «لأنه» نحصل على الجملة التالية ويمكن أن نجعل جملة مستقلة من خلال قولنا: «إن السبب في ذلك في أنه يمكن أن تبقى» وهكذا دواليك. وهذه الجملة تقدم على الأقل عرضين: 1) إن السبب لماذا يجب على الأمير أن يلهم الخوف بطريقة معينة هي في أنه يستطيع أن يبقى مخافاً منه طالما هو ليس مكروهاً. 2) ويمكنه أن يتجنب الكره طالما بقيت يداه بعيدتين عن ممتلكات مواطنيه ونسائهم.

من المهم أن نميز العروض المختلفة التي يمكن أن تحتويها الجملة المركبة. ومن أجل أن نتفق أو نختلف مع مكيافيلي، يجب علينا أولاً أن نفهم ما يقوله. ولكنه يقول ثلاثة أشياء في هذه الجملة الواحدة. ويمكن أن نعتقد أن مكيافيلي على خطأ عندما يوصي الأمير بالإرهاب على أية أرضية. ولكن يمكن أن تُقر قوله اللاذع في أن من الأفضل للأمير أن يُعلي الحقد مع الخوف، ويمكن أيضاً أن تتفق معه في أن يبقي يديه بعيدتين عن موضع ممتلكاتهم

ونسائهم، فهو شرط أساسي كي لا يكون مكروهاً. وطالما تتبين العروض المختلفة في الجملة المركبة، فإنك لن تكون قادراً على وضع حكمك المتميز على ما يقوله الكاتب.

إن المحامين يعرفون هذه الحقيقة جيداً. لأنه يجب عليهم أن يدرسوا الجمل بعناية ليعرفوا ما يدّعى من قبل المدعي وما ينكر من قبل المدعى عليه. إن جملة بسيطة مثل «أحمد قد وقّع العقد في 24 آذار تبدو بسيطة بما فيه الكفاية، لكن عدة أشياء تقال فيها، وبعض هذه الأشياء يمكن أن تكون صحيحة وبعضها يمكن أن تكون خاطئة. ويمكن أن يكون أحمد قد وقّع العقد لكن ليس في 24 آذار، ويمكن أن تكون هذه الحقيقة هامة. وبالمختصر حتى في الجملة القواعدية البسيطة يمكن في بعض الأحيان أن تعبر عن افتراضين أو أكثر.

لقد قلنا ما فيه الكفاية لنشير إلى ما نعنيه بالفرق بين الجمل وبين العروض. إنهما لا يتصل أحدهما بالآخر وحسب، بل إن جملة واحدة يمكن أن تقدم عدة عروض، إما من خلال الغموض أو التعقيد، ولكن عرضاً واحداً يمكن أيضاً أن يعبر عنه بجملتين أو عدة جمل مختلفة. وإذا التقطت عباراتنا من خلال الكلمات والجمل التي استعملناها كمترادفات، فسوف تعرف أننا نقول الشيء نفسه عندما نقول: «إن التعليم والتعلّم وظيفتان مرتبطتان ببعضهما». أو نقول: «إن إنشاء الاتصال وتلقيه هما عمليتان مرتبطتان ببعضهما».

سوف نتوقف عن شرح النقاط القواعدية والمنطقية ونلتفت إلى القواعد. والصعوبة في هذا الفصل هي مثل صعوبة الفصل السابق لذا سنتوقف عن الشرح. وعوضاً عن ذلك سوف نفترض أنك تعرف بعض القواعد. ولا نعني بالضرورة أنك تفهم كل شيء عنها. ولكن يجب أن تُعنى بموضوع ترتيب الكلمات في الجملة وعلاقتها ببعضها البعض. إن بعض المعرفة بالقواعد هو شيء لا يمكن التخلي عنه بالنسبة للقارىء. ولن يكون بإمكانك أن تعالج

العبارات والعروض والمناقشات ـ عناصر الفكر ـ قبل أن تستطيع التغلغل تحت سطح اللغة. وعلى طول المدى الذي تكون فيه الكلمات والجمل والفقرات غامضة وغير محللة. فإنها تكون حاملة للاتصال أكثر من أن تكون وسيلة له. وفي هذه الحالة فإنك سوف تقرأ كلمات لكن لن تتلقى معرفة.

وهذه هي القواعد، إن القاعدة الخامسة للقراءة كما تتذكر من الفصل السابق هي:

القاعدة الخامسة: أوجد الكلمات الهامة وتوصل إلى تفاهم مع الكاتب. وهكذا يمكن أن يعبر عن القاعدة السادسة.

القاعدة السادسة: أشّر على الجمل الأكثر أهمية في الكتاب واكتشف ما تحتويه العروض.

القاعدة السابعة: تبين مواضع أو ركّب المناقشات الأساسية في الكتاب من خلال إيجادها وارتباطها بالجمل. وسوف ترى فيما بعد لماذا لم نقل الفقرات في صياغة هذه القاعدة.

وبالمصادفة فإن هذه القواعد الجديدة تنطبق كما هي القواعد السابقة على التوصل إلى تفاهم مع الكاتب ـ على الأعمال التفسيرية. إن القواعد عن العروض والمناقشات مختلفة تماماً عندما تقرأ الأعمال الشعرية ـ القصة، المسرحية، القصيدة. وسوف نبحث التغيرات المطلوبة عندما نطبقها على مثل هذه الأعمال فيما بعد.

إيجاد الجمل الهامة

كيف يمكن للمرء أن يجد الجمل الأكثر أهمية في كتاب؟ وكيف يفسّر بعد ذلك هذه الجمل لاكتشاف العرض أو العروض التي تحتويها؟

ومرة ثانية نركز على ما هو هام. ولنقل إن وجود عدد قليل نسبياً من

الجمل الهامة في كتاب لا يعني أنه يجب ألا نلقي بالاً إلى بقية الجمل. فالواضح أنك يجب أن تفهم كل جملة. ولكن معظم الجمل مثل معظم الكلمات لن تسبب لك صعوبة. كما أشرنا إلى ذلك في نقاشنا عن سرعة القراءة، فإنك سوف تقرأ هذه الجمل بسرعة نسبياً. ومن خلال وجهة نظرك كقارىء، فإن الجمل الهامة بالنسبة لك هي الجمل التي تتطلب جهداً في التفسير، لأنها غير مفهومة من النظرة الأولى. فأنت تفهمها بشكل كاف لتعرف أنها تتطلب مزيداً من الفهم. إنها الجمل التي تقرأها ببطءٍ أكثر وبتأنٍ دون بقية الجمل. ويمكن ألا تكون الجمل الأكثر أهمية بالنسبة للكاتب ولكنها على الأرجح كذلك، وهي تحتاج لوضع الإشارات عليها لضرورة قراءتها بتأنٍ كبير.

ومن وجهة نظر الكاتب، فإن الجمل الهامة هي تلك التي تعبِّر عن حكمه والتي تتعلق فيها كل مناقشات الكتاب. إن الكتاب عادة يحتوي أكثر من جملة للمناقشة أو سلسلة من المناقشات. والكاتب يمكن أن يشرح كيف توصل إلى وجهة النظر تلك، إنه يمكن أن يناقش الكلمات التي استعملها. كما يمكن أن يعلق الكاتب على كتابات وأعمال الآخرين. ويمكن أن ينغمس في كل أنواع المناقشات المحيطة والداعمة. ولكن جوهر تواصله مع القارىء يقع في التأكيدات الرئيسية والإنكارات التي ينص عليها والأسباب التي تقف وراء ذلك. ولتتبين هذه الجمل يجب أن تراها كما لو أنها ارتفعت من الصفحة بشكل بارز.

إن بعض الكتّاب يساعدونك في فعل ذلك، إنهم يضعون خطاً تحت الجمل من أجلك. إنهم إما أن يخبروك أن هذه أو تلك نقطة هامة عندما ينصّون عليها، أو يضعون بعض العلامات والمؤشرات لجعل جملهم تلك بارزة. وبالطبع لا يوجد ما يساعد أولئك الذين لا يكونون على انتباه جيد أثناء القراءة. ولقد قابلنا قراءً وتلاميذ لا يعيرون انتباهاً لمثل هذه العلامات. إنهم بالأحرى يستمرون في القراءة عوضاً عن أن يقفوا لفحص الجمل الهامة بعناية.

وتوجد كتب قليلة تقود عروضها من خلال الجمل التي تحتل مكاناً

خاصاً في تسلسل وأسلوب الموضوع التفسيري. ومرة ثانية يعطينا أقليدس مثالاً واضحاً عن ذلك. إنه لا ينص فقط على تعاريفه ومسلَّماته وبديهياته وعروضه الرئيسية منذ البداية، بل إنه يضع عناوين لكل عرض يريد إثباته. ويمكن ألا تفهم كل ما ينص عليه ويمكن ألا تتبع مناقشاته. ولكن لا تضيع الجملة الهامة أو مجموعة الجمل الهامة التي يثبتها.

إن «البحث اللاهوتي الشامل» لتوما الأكويني كتاب آخر أسلوبه واضح في التفسير من خلال الجمل الهامة التي يكتبها بشكل بارز. إنه يبدأ بطرح أسئلة. وكل قسم يبدأ بسؤال. كما أنه يوجد مؤشرات عديدة للأجوبة التي يحاول أن يدافع عنها. ومجموعات مطوَّلة من الاعتراضات على الإجابات ينص عليها. والموضوع الذي يبدأ به توما مناقشاته وعرض وجهة نظره تبدأ بعبارة «أنا أجيب على ذلك». ولا يوجد أي عذر إذا لم تكن قادراً على تبيُّن الجمل الهامة في مثل هذا الكتاب ـ هذه الجمل التي تعبِّر عن الأسباب بالإضافة إلى النتائج ـ ومع ذلك فإنه يبقى كل شيء غير واضح لهؤلاء القراء الذين يقرأون كل شيء بنفس السرعة، إما بسرعة أو ببطء. لأن ذلك يعني أن الأشياء متساوية بعدم الأهمية.

وبعيداً عن الكتب التي تعير أسلوبها أو شكلها اهتماماً وتتطلب انتباهاً أكثر من قبل القارىء فإنه لا يزال من وظيفة القارىء أن يلقي أضواء على الجمل الهامة وأن يؤدي هذه المهمة بنفسه، هناك أشياء عديدة يمكن أن يفعلها. وقد ذكرنا واحدة منها على كل حال. إذا كان القارىء حساساً للفرق بين المقاطع التي يستطيع أن يفهمها حالاً وتلك المقاطع التي لا يستطيع فهمها فإنه على الأغلب سوف يكون قادراً على إيجاد الجمل التي تحمل عبء الجزء الرئيسي من المعنى. وربما بدأت تدرك كم هو أساسي الجزء الهام من قراءتها والذي تُربكك معرفته. إن الشك والحيرة هما بداية الحكمة في التعلم من الكتب بالإضافة إلى التعلم من الطبيعة. وإذا لم تسأل نفسك أي سؤال عن معنى المقطع الذي تقرأه، فإنك لا تستطيع أن تتوقع أية تبصرات أو رؤية أنت لا تملكها أصلاً.

هناك مفتاح آخر من أجل الجمل الهامة وهو في إيجاد الكلمات التي تشكلها وتتألف منها. وإذا كنت قد قمت بالتأشير على الكلمات الهامة فإن هذه الكلمات يجب أن تقودك إلى الجمل التي تستحق انتباهاً أكثر من قبلك. وهكذا فالمرحلة الأولى من القراءة التفسيرية تمثل تهيئة للمرحلة الثانية. ولكن العكس يمكن أن يكون صحيحاً أيضاً. حيث يمكن أن تؤشّر على كلمات معينة بدلاً من أن تصبح محتاراً في معنى الجملة. وإننا في الحقيقة إذا ثبتنا هذه القواعد في تسلسل معين فإن ذلك لا يعني أنك يجب أن تتبعها بهذا التسلسل. إن التعابير تشتمل على عروض كما أن العروض تحتوي على تعابير. وإذا عرفت معنى التعابير التي تعبر عنها الكلمات فإنك تكون قد حصلت على العروض التي تقدمها الجملة. وإذا عرفت العروض الموضحة من خلال الجملة فإنك تكون قد توصلت إلى المعنى أيضاً.

ويوجد مفتاح أخير أيضاً لتبيّن العروض الرئيسية. يبدو في المناقشات الرئيسية في الكتاب، وإما أن تكون هذه العروض في المقدمات المنطقية أو في النتائج. وهكذا إذا تحريت عن هذه الجمل التي تشكل ترتيباً معيناً ـ هذا الترتيب الذي تكون له بداية ونهاية ـ فإنك على الأغلب تكون قد وضعت إصبعك على الجمل الهامة.

لقد قلنا الترتيب الذي يكون له بداية ونهاية. فكل مناقشة يعبر عنها البشر بكلمات تأخذ وقتاً لوضعها والنص عليها. إنك يمكن أن تقول الجملة بسرعة وبنفس واحد ولكن يوجد أيضاً وقفات في المناقشات. فيجب أن تقول شيئاً واحداً أولاً في الشيء الثاني وهكذا. إن المناقشة تبدأ في مكان ما، وتذهب إلى مكان ما، وتخرج من مكان ما. إنها حركة الفكر. إنها يمكن أن تبدأ من النتيجة في الحقيقة ثم تتراجع لتعطي أسبابها. كما يمكن أن تبدأ من الإثبات والأسباب وثم تعطيك النتيجة التي تتبع ذلك.

وهنا بالطبع فإن المفتاح لن يعمل إلا إذا عرفت كيف تستعمله. ويجب أن تتبين المناقشة عندما ترى واحدة. بالرغم من بعض التجارب المخيبة

للأمل، إلا أن الإصرار في رأينا أن العقل البشري حساس تجاه المناقشات مثلما العين حساسة تجاه الألوان. هو الشيء الذي يجب النظر إليه، (وقد يوجد بعض الأشخاص الذين تكون أذهانهم عمياء تجاه المناقشات). ولكن العين لن ترى إذا بقيت مغمضة. والعقل لن يتبع المناقشة إذا لم يكن متيقظاً.

يعتقد كثير من الأشخاص أنهم يعرفون كيف يقرأون لأنهم يقرأون بسرعات مختلفة. ولكنهم يتوقفون ويقرأون ببطء الجمل التي يعتقدون خطأً أنها جمل هامة. إنهم يتوقفون عند الجمل التي تعجبهم أكثر من أن يتوقفوا عند الجمل التي تحيرهم. وفي الحقيقة فهذه واحدة من أكثر المعيقات في قراءة الكتب التي هي غير معاصرة تماماً. وأي كتاب قديم يحتوي على حقائق تدهشنا نوعاً ما، لأنها تختلف عما نعرفه. ولكن عندما نقرأها لنفهمها فإن ما نبحث عنه هو شيء آخر غير الروائية. وقد يكون اهتمامك بالكاتب بحد ذاته، أو بلغته، أو بالعالم الذي كتب من خلاله شيء، واهتمامك بفهم أفكاره هو شيء آخر. إنه هذا الاهتمام الذي نناقش قواعده هنا هو ما يرضي. وليس فضولنا عن الموضوعات الأخرى التي تبحث في أمور هي غير أفكار الكاتب.

دعنا نفترض أنك وجدت الجمل الرئيسية. فإنه لا تزال هناك خطوة أخرى مطلوبة للقاعدة السادسة التي تنص على: أنك يجب أن تكتشف العرض أو العروض التي تتضمنها هذه الجمل. وهذه طريقة أخرى للقول بأنك يجب أن تعرف ما تعنيه الجملة. فأنت تكتشف التعابير من خلال اكتشاف ما تعنيه الكلمة باستعمال معين. وأنت تكتشف العروض بشكل مشابه لتفسير كل الكلمات التي تشكل الجملة، وبشكل خاص الكلمات الأساسية.

ومرة أخرى أنت لا تستطيع أن تفعل ذلك إلا إذا كنت تعرف قليلاً من القواعد: يجب أن تعرف وظيفة الصفات وظروف الزمان والمكان، وكيف تؤدي الأفعال وظيفتها بالعلاقة مع الأسماء، وكيف تقيد الكلمات المعنى وتقصيره أو تجسم المعاني التي تشير إليها.. إلخ. كما يجب عليك أن تكون قادراً على تحليل الجمل حسب قواعد الإعراب بالرغم من أنه ليس من

الضروري أن تفعل ذلك حسب الطريقة الرسمية. وبالرغم من عدم التركيز على ذلك في المدارس، فإننا نفترض أنك تعرف الكثير عنه. ونحن نعتقد أنه بإمكانك أن تفعل ذلك بالرغم من أنك قد تكون بطيئاً وتنقصك الممارسة في بدايتك لفن القراءة.

يوجد فقط اختلافات بين إيجاد المصطلح الذي تعبر عنه الكلمات وبين العروض التي تعبر عنها الجمل. والاختلاف الأول هو أنها تستخدم سياقاً أكبر في حالة العروض التي تعبر عنها الجمل. فأنت تجلب كل الجمل المحيطة وتحملها للجملة موضوع السؤال، تماماً كما تستخدم الكلمات المحيطة لتفسير كلمة معينة. وفي كلتا الحالتين فأنت تنتقل مما تفهمه لتوضح تدريجياً ما يبدو لك غير مفهوم للوهلة الأولى.

والاختلاف الثاني يكمن في حقيقة أن الجمل المركبة تعبّر عادة عن أكثر من عرض واحد. وأنت لا تكون قد أكملت تفسير الجملة الهامة حتى تكون قد فصلت منها كل العروض المختلفة وربما المترابطة. إن المهارة في إنجاز ذلك تأتي من خلال الممارسة. خذ بعضاً من الجمل المركبة في هذا الكتاب وحاول أن تضع بكلماتك أنت كل الأشياء التي تم تأكيدها، وعدد هذه الأشياء واربط بينها.

«تضع العروض بكلماتك أنت» إن هذا أفضل اختبار نعرفه لتعلم ما إذا كنت قد فهمت العرض أو العروض في الجملة. وإذا سُئلت أن تشرح ما يعنيه الكاتب في جملة معينة، وكان كل ما تستطيع أن تفعله هو أن تعيد كلمات الكاتب مع تبديل جزئي في تسلسلها، فإن الأفضل لك أن تشكك في معرفتك ما يعنيه. والشيء النموذجي في ذلك هو أن تكون قادراً على أن تقول الشيء الذي يعنيه الكاتب بكلمات مختلفة كلياً. والفكرة بالطبع أن تكون تقريبية إلى درجات مختلفة. ولكن إذا لم تستطع الخروج كلياً عن كلمات الكاتب فإنه يبدو أن الكلمات فقط قد مرّت منا لكاتب إليك وليس أفكاره أو معرفته. وتكون بذلك قد تكلّمت كلماته وليس فكره. لقد كان يحاول أن ينقل المعرفة إليك وكل ما تلقيت منه هو كلمات.

إن عمليات الترجمة من اللغات الأجنبية للإنكليزية هي ملائمة للاختبار الذي اقترحناه. فإذا لم تستطع أن تصوغ بجملة إنكليزية ما تقوله الجملة الفرنسية، فيجب أن تعلم أنك لم تفهم معنى الجملة الفرنسية. ولكن حتى لو كنت تستطيع ذلك، فإن ترجمتك تبقى على المستوى الحرفي: لأنك حتى عندما تكون قد شكلت نسخة إنكليزية مطابقة للجملة الفرنسية، فأنت لا تزال لا تعرف ما يحاول أن يوضحه كاتب الجملة الفرنسية.

إن الترجمة من جملة إنكليزية إلى جملة إنكليزية أخرى ليست حرفية فقط. والجملة الجديدة التي شكلتها هي ليست فقط نسخة حرفية عن الأصل، فإذا كانت صحيحة فإنها تكون عند ذلك نقلاً صادقاً للفكر وحده. لهذا السبب تكون مثل هذه الترجمة الاختبار الأفضل الذي تستطيع أن تطبقه على نفسك إذا كنت تريد أن تكون متأكداً من أنك قد تمثّلت عقلياً العرض ولم تبتلع الكلمات فقط. وإذا فشلت في الاختبار تكون قد كشفت فشلك في الفهم. وإذا كنت تقول إنك تعرف ما يعنيه الكاتب، ولكنك لا تستطيع إلا أن تكرر جمل الكاتب لتُظهر أنك قد فهمت فإنك عندها لن تكون قادراً على تمييز عروض الكاتب إذا قدمت إليك بكلمات أخرى. إن الكاتب نفسه يمكن أن يعبر عن نفس العرض بكلمات مختلفة أثناء عملية الكتابة. إن القارىء الذي لا يرى العروض من خلال الكلمات التي توضحها الجمل المتساوية هو على الأرجح يراها وكأنها نصوص لعروض مختلفة. تصور شخصاً لا يعرف أن «2 2 = 4» وأن «4 – 2 = 2» هي رموز مختلفة لنفس العلاقة الرياضية ـ العلاقة في أن الأربعة مضاعف الاثنين أو الاثنين هي نصف الأربعة. وسوف تستنتج أن ذلك الشخص لا يفهم المعادلة. ونفس الاستنتاج يظهر مع أي شخص آخر لا يستطيع أن يخبر متى تكون النصوص المتماثلة لنفس العرض قد صنعت، أو عندما لا يستطيع هو نفسه أن يقدم نصوصاً متماثلة عندما يُطالب بفهم العرض الذي تقدمه الجملة.

إن هذه الملاحظات لها ثقل على القراءات المتزامنة الموجهة لموضوع

واحد. إن الكتّاب المختلفين يقولون الشيء نفسه بكلمات مختلفة، أو أشياء مختلفة مستعملين الكلمات نفسها تقريباً. والقارىء الذي لا يستطيع أن يرى من خلال اللغة والمصطلحات والعروض التي تقدمها فإنه لن يكون قادراً على المقارنة بين هذه الأعمال المترابطة مع بعضها. وبسبب ألفاظها المختلفة، فإنه على الأرجح يسيء قراءة الكتّاب كما لو أنهم غير متفقين. أو يهمل الاختلافات الحقيقية بسبب التشابه اللفظي في نصوصهم.

ويوجد اختبار آخر لفهمك العرض في الجملة التي تقرأها. هل يمكنك أن تشير إلى بعض التجارب التي مررت بها والتي يوصف بها العرض، أو تلك التي يكون العرض فيها ملائماً بطريقة ما؟ هل يمكنك أن تضرب مثالاً عن حقيقة عامة قد لفظت بإشارة إلى مرحلة معينة لها؟

إن تخيل هذه الحالة المحتملة هو غالباً جيد بقدر استذكار الحقيقة الفعلية. إذا لم تكن تستطيع أن تفعل أي شيء لتضرب مثلاً أو توضح عرضاً إما بطريقة ذهنية أو بالإشارة إلى التجربة الفعلية، فيجب عليك أن تكون متشككاً في معرفة ما قد قيل.

ليست كل العروض قابلة لمثل هذا الاختبار بشكل متساوٍ. ويمكن أن يكون من الضروري أن تكون لك تجربة خاصة لا يمكن أن يقدمها إلا مخبر من أجل التأكد من أنك قد التقطت وفهمت عروضاً علمية معينة. لكن النقطة الرئيسية واضحة في ذلك. إن العروض لا توجد في الفراغ. إنها تشير إلى العالم الذي نعيش فيه. وإذا لم تستطع أن تظهر بعض المعرفة في الحقائق الفعلية أو الممكنة التي يشير إليها العرض أو إلى شيء مشابه إلى حد ما فإنك تكون مُتلاعباً بالكلمات ولا تبحث في الأفكار والمعرفة.

دعنا نعطي مثالاً واحداً عن ذلك. إن عرضاً أساسياً في الميتافيزياء يعبَّر عنه بالكلمات التالية: «لا شيء يؤثر إلا ما هو عملي». لقد سمعنا تلاميذ عديدين يكررون هذه الكلمات كما لو أنها حكمة مرضية. إنهم يظنون أنهم

يتحررون من واجبهم تجاهنا أو اتجاه الكاتب من خلال هذا التكرار اللفظي التام.

ولكن الشيء المخجل واضح عندما نسألهم أن يوضحوا هذا العرض بكلمات أخرى. ونادراً ما يستطيعون القول مثلاً إذا لم يوجد الشيء فإننا لا نستطيع أن نفعل أي شيء. بالرغم من أن هذا هو عبارة عن ترجمة آنية واضحة ـ واضحة على الأقل لأي شخص يفهم العرض في معناه العام.

وإذا قلنا أن العشب لا ينمو إلا ضمن السياق الممكن فقط وأن حساب البنك لا يزداد فقط على حساب الازدياد الممكن. فإننا نعلم عندها أنه قد تم فهم ما قيل.

إن عيب غلبة اللفظ على المعنى يمكن أن يعرّف على أنه عادة سيئة باستعمال الكلمات دون النظر إلى الأفكار التي يجب أن توضحها ودون معرفة التجربة التي يجب أن تشير إليها. إنها لعب بالكلمات وكما يشير الاختباران اللذان اقترحناهما فأن البصم خطيئة مغرية لأولئك الذين يفشلون بالقراءة التحليلية. وهؤلاء القراء لا يذهبون أبعد من الكلمات. يحوزون على ما يقرأونه من خلال الذاكرة اللفظية التي يستذكرونها دون جدوى. وواحدة من التبعات وضعت من قبل أساتذة معنيين ومعاصرين ضد الفنون الحرة في أنها تنحو نحو اللفظية والبصم في حين تبدو الحالة عكس ذلك. إن الفشل في القراءة ـ البصم التام ـ لهؤلاء الذين لم يتم تدريبهم على فنون القواعد والمنطق يُظهر كم هو واضح في نتائج مثل هذه الموضوعات، عبودية الكلمات عوضاً عن اتقان السيادة عليها.

إيجاد المناقشات

لقد صرفنا وقتاً كافياً على العروض. دعنا الآن نلتفت للقاعدة السابعة من القراءة التحليلية، والتي تتطلب من القارىء أن يعالج مجموعات من الجمل. لقد قلنا سابقاً إن هناك سبباً لعدم صياغة هذه القاعدة التفسيرية من خلال القول

بأنه يجب على القارىء أن يجد الفقرات الأكثر أهمية. والسبب في ذلك أنه لا يوجد اختراع موضوع بين أيدي الكتّاب لمعرفة كيفية بناء الفقرة. إن بعض الكتّاب الكبار مثل مونتاين ولوك وبروست يكتبون فقرات طويلة جداً وهناك كتّاب آخرون مثل ميكيافيلي وهوبس وتوليستوي يكتبون فقرات قصيرة نسبياً. وفي أيامنا الحالية وتحت تأثير أساليب الكتابة في الصحف والمجلات فإن معظم الكتاب ينحون لقطع فقراتهم لتلائم القراءة السريعة والسهلة. وهذه الفقرة مثلاً هي على الأغلب طويلة جداً. ولو أردنا أن نرفق بقرائنا لكان من المتوجب علينا أن نبدأ فقرة جديدة عندما كتبنا «إن بعض الكتّاب الكبار».

إن الموضوع ليس موضوع طول الفقرة فقط. وما يقلق هنا موضوع العلاقة بين اللغة والفكر. إن الوحدة المنطقية التي توجه القراء من خلالها للقاعدة السابعة هي المناقشة - ترتيب وتسلسل العروض التي تعطي الواحدة الأسباب للأخرى. وهذه الوحدة المنطقية ليست متعلقة بتكامل لأي وحدة كتابة متميزة، كما تتعلق العبارات بالكلمات والجمل، والعروض بالجمل. إن المناقشة يمكن أن يعبّر عنها بجملة مركّبة واحدة. أو بعدد من الجمل التي هي جزء من فقرة واحدة فقط. وقد تتطابق المناقشة مع الفقرة في بعض الأحيان، ولكن من الممكن أيضاً أن يحدث أن المناقشة الواحدة تجري ضمن العديد من الفقرات.

وهناك صعوبة أخرى: هناك فقرات عديدة في أي كتاب لا تعبر عن أية مناقشة على الإطلاق وربما لا تعبر حتى عن جزء من مناقشة واحدة. إنها الفقرات التي يمكن أن تتألف من مجموعة من الجمل التي تستفيض بالإثبات أو تقرر كيف جُمع الإثبات. مثلما توجد جمل ذات أهمية ثانوية لأنها عبارة عن استطرادات أو ملاحظات جانبية فقط. وهذه يجب أن تقرأ بسرعة نوعاً ما.

لهذا نحن نقترح صياغة جديدة للقاعدة السابعة كما يلي:

أوجد إذا استطعت الفقرات التي تضع المناقشات الهامة في الكتاب،

ولكن إذا لم يعبر عن هذه المناقشات فإن هدفك هو أن تنشىء هذه المناقشات من خلال اقتطاع جملة من هذه الفقرة وجملة من تلك حتى تكون قد جمعت سلسلة من الجمل التي تنص على العروض وتؤلف المناقشة.

بعد أن تكون قد جمعت الجمل الرئيسية فإن إنشاء الفقرات يجب أن يكون سهلاً نسبياً. وهناك طرق عديدة لفعل ذلك. فأنت تستطيع أن تفعل ذلك من خلال الكتابة على قطعة من ورق العروض التي تشكل مع بعضها مناقشة. ولكن هناك طريقة أفضل ـ كما اقترحنا سابقاً ـ في أن تضع أرقاماً على الهامش بالإضافة إلى إشارات أخرى لتشير إلى المواضع حيث تحدث الجمل التي يجب أن ترتبط مع بعضها في تسلسل معين.

إن الكتّاب يساعدون قرّاءهم تقريباً في هذا الموضوع من خلال جعل المناقشة واضحة. إن مؤلفي الكتب التفسيرية الجيدة يحاولون كشف أفكارهم وليس إخفاءها، رغم أنه ليس كل الكتّاب الجيدين يفعلون ذلك. إن بعضهم مثل اقليدس وغاليليو ونيوتن (الكتّاب الذين يكتبون بأسلوب هندسي أو رياضي) يقتربون كثيراً من الشيء المثالي في وضع فقرة واحدة لكل منها مناقشة. معظم الكتّاب الذين لا يكتبون بالطريقة الرياضية يقدمون مناقشتين أو أكثر في الفقرة الواحدة. أو أن يكون لهم مناقشة واحدة تجري ضمن عدة فقرات.

في أجزاء كأن يكون الكتاب غير مبني بإحكام تصبح الفقرات مسهبة أكثر. وعليك غالباً أن تبحث خلال عدة فقرات في الفصل لتجد الجمل التي تستطيع أن تبنى أيضاً لمناقشة واحدة. كما أن بعض الكتب تجعل بحثك عبثاً، والبعض الآخر لا يجعل هذا البحث مشجعاً.

إن الكتاب الجيد عادة يلخص نفسه كلما تطورت المناقشات. وإذا كان الكاتب يلخص مناقشات في نهاية الفصل، أو في نهاية قسم محكم، فإنك قادرٌ أن تنظر إلى الصفحات التي بين يديك لتجب المواد التي جمعها مع بعض

في الخلاصة. في كتاب «أصل الأنواع» يلخص داروين كل مناقشاته من أجل القارىء في الفصل الأخير الذي عنوانه «الخلاصة والنتائج». فالقارىء الذي قرأ الكتاب بأكمله يستحق هذه المساعدة. والشخص الذي لم يقرأ الكتاب لا يمكنه استعمالها.

وبالمصادفة إذا تفحَّصت الكتاب جيداً قبل أن تقرأه قراءة تحليلية فإنك سوف تعرف ما إذا كانت توجد فيه مقاطع خلاصة، فإذا عرفت أين تقع في الكتاب. فيمكنك أن تستخدمها الاستخدام الأفضل عندما تفسر الكتاب.

وعلامة أخرى على الكتاب غير المبني بإحكام هي خلوة من خطوات المناقشة. وفي بعض الأحيان يمكن حذفها بدون ضرر أو عدم ملائمة لأن الأجزاء المتبقية يمكن أن تُزَوّد عموماً من قبل المعرفة العادية للقراء. ولكن في بعض الأحيان يكون حذفها أو اقتطاعها مضللاً ويمكن أن تكون الغاية من حذفها التضليل. وواحد من أكثر الألاعيب المألوفة في البلاغة أو الدعاوة هو أن تترك أشياء معينة دون النص عليها، أشياء هي ملائمة جداً للمناقشة ولكن يمكن أن تشكل تحدياً إذا وضعت بشكل صريح. في حين أننا لا نتوقع مثل هذه الأدوات من قبل الكاتب الجاد الذي يكون هدفه تعليمنا وهكذا، فإنه من المميز للقارىء المتأني أن يجعل كل خطوة من خطوات المناقشة واضحة.

ومهما يكن نوع الكتاب فإن واجبك تجاهه يبقى نفسه. فإذا كان الكتاب يحتوي مناقشات فإنك يجب أن تعرف ما هي وأن تكون قادراً على أن تضعها بما يسمى قشرة الجوزة. وأية مناقشة جيدة يمكن أن توضع في قشرة الجوزة هذه. وهناك بالطبع مناقشات تبنى على مناقشات. وأثناء عملية التحليل المحكم عليك أن تثبت شيئاً ما لإثبات الشيء الآخر وهذه يمكن أن تستعمل بدورها لوضع نقاط أبعد من ذلك. إن وحدات التسبيب هي على كل حال مناقشات مفردة. وإذا كنت تستطيع أن تجد ذلك في أي كتاب تقرأه فإنك لن تُضيِّع على الأرجح التسلسل الأكبر.

هذا كله شيء حسن، يمكنك أن تقوله، ويمكن أن تعترض على أنه إذا لم تعرف تركيب المناقشة كما يفعله درّاس المنطق أو المنطقيون فكيف للفرد أن يتوقع إيجادها في كتاب، أو الأسوأ، أن ينشئها عندما لا ينص عليها الكاتب تماماً في فقرة واحدة؟

والجواب على ذلك يجب أن يكون واضحاً وهو أنك يجب أن لا تعرف عن المناقشة «كما يفعل المنطقيون» هناك بعض المنطقيين القليلين نسبياً في العالم إما من أجل الأفضل أو من أجل الأسوأ. ومعظم الكتب التي توضح المعرفة وتستطيع أن تعلمنا تحتوي على مناقشات. إنها تتوجه إلى القارىء العادي وليس للمتخصصين بالمنطق.

ولا تحتاج إلى مقدرة منطقية عالية لتقرأ هذه الكتب. وَلْنُعد ما قلناه سابقاً، من أنَّ طبيعة العقل البشري مثل ذلك إذا كان يعمل بشكل كامل أثناء عملية القراءة، فإذا توصلت إلى تفاهم مع الكاتب وتوصلت إلى عروضه فيمكنك أن ترى مناقشاته أيضاً.

هناك، على كل حال، أشياء قليلة يمكن أن تقولها ويمكن أن تساعد في تطبيق هذه القاعدة من قواعد القراءة. ففي المكان الأول تذكر أن كل مناقشة لها عدد من الإفادات. وهذه تعطي الأسباب لوجوب قبولك النتيجة التي يعرضها الكاتب. فإذا وجدت النتيجة أولاً فابحث عندها عن الأسباب. وإذا وجدت الأسباب أولاً فابحث عما تعود إليه.

وفي المكان الثاني ميز بين نوع المناقشات التي تشير إلى حقيقة أو أكثر كإثبات لبعض التعميمات وتبيين النوع الذي من خلاله تعرض مجموعة من البيانات العامة لإثبات بعض التعميمات الأبعد. والنوع الأول يشار إليه عادة بأنه استقرائي والنوع الثاني يشار إليه بأنه استنتاجي. ولكن الأسماء ليست هي الهامة، فالمهم هو قدرة التمييز بين الاثنين.

يلاحظ هذا الاختلاف في أدبيات العلوم في التأكيد بين إثبات العرض من

خلال التسبيب وبين إنشاء التجربة. وفي كتاب «علمين جديدين» لغاليليو يتحدث الكاتب عن الشرح من خلال النتائج التي تم التوصل إليها في تجربة الإثبات الرياضي. وفصل النتائج لكتاب «عن حركة القلب» يكتب عالم وظائف الأعضاء «وليم هارفي» «لقد تمَّ الإظهار من خلال الأسباب والتجربة أن الدم يتدفق من خلال ضربات بطنيّ القلب للرئة والقلب ويُضخ إلى كامل الجسم». ومن الممكن في بعض الأحيان دعم العروض بكل من الأسباب المأخوذة من القواعد العامة ومن خلال إثبات التجربة. أما في الأحيان الأخرى فإن طريقة واحدة من المناقشات تكون متاحة.

وفي الاعتبار الثالث لاحظ ما هي الأشياء التي يقول الكاتب إنها يجب أن تكون مفترضة، وأنه يستطيع إثباتها أو بالأحرى تأكيدها وما لا نحتاج لإثباته لأنه ثابت بذاته. إنه يحاول بصدق أن يخبرك ما هي كل افتراضاته، أو يمكنه فقط أن يكون صادقاً بأن يتركك تجدها منفرداً. ومن الواضح أنه لا يمكن إثبات كل شيء. كما لا يمكن تعريف كل شيء. وإذا كان يجب إثبات كل عرض، فإنه لن توجد بداية لأي إثبات. مثل هذه الأشياء هي البديهيات والمسلمات، والافتراضات المطلوبة من أجل إثبات العروض الأخرى. وإذا تم إثبات هذه العروض فإنه يمكن استخدامها بالطبع كمقدمات لإثباتات أخرى.

كل سطر من مناقشة يجب أن يبدأ من مكان ما. وأساساً يوجد طريقان أو مكانان يمكن البدء عندهما: مع افتراضات متفق عليها بين الكاتب والقارىء. أو بما يدعى الإثبات الذاتي للعرض والذي لا يمكن أن يُنكر من قبل كل من الكاتب أو القارىء. ففي الحالة الأولى فإن الافتراضات يمكن أن تكون أي شيء طالما أنَّ هناك اتفاق قائم بين الكاتب والقارىء. وفي الحالة الثانية فإن الموضوع بحاجة إلى بعض التعليقات هنا.

لقد أصبح مألوفاً في أيامنا الحالية أن نشير إلى عروض الإثبات كما لو أنها حشو؛ فالشعور الذي يكمن خلف العبارة هو أحياناً شعور بقلة الاحترام والتفاهة أو شك بأنه شعوذة أن الأرانب تسحب من قبعة الساحر. وأن تضع

الحقيقة من خلال تعريف كلماتك، ثم تسحبها كما لو أنك تدهش لوجودها هناك. وهذا، على كل حال، ليس هو الحال دائماً.

وعلى سبيل المثال هناك فرق واضح بين عرض مثل «إن أب الأب هو جد» وبين عرض مثل «إن الكل أكبر من كل أجزائه» إن العبارة الأولى هي حشو فالعرض محتوى في تعريف الكلمات. إنه يخفي بضعف اشتراطاً لفظياً. «عدنا نقول إن آباء الآباء هم أجداد» لكن هذا بعيد عن أن تكون الحالة مع العرض الثاني. دعنا نحاول أن نرى لماذا الأمر على هذه الحال.

إن العبارة «أن الكل أكبر من كل أجزائه» تعبر عن فهمنا لأشياء كما لو أنها كما هي، وللعلاقة مع بعضها، والتي تكوِّن نفسها، بغض النظر كيف استعملنا الكلمات أو كيف وصفنا اختراعنا اللغوي. المحدود الكمي ينشأ ويكون له أجزاء محددة. ومثلاً فهذه الصفحة يمكن أن تقطع إلى جزئين أو إلى أربعة إجزاء. الآن كما نفهم المحدد الكلي (وهو أي شيء محدد كلياً) وكما نفهم الأجزاء المحددة للكلي المحدد فنفهم أن الكل هو أكبر من الجزء، أو أن الأجزاء أقل من الكل إلى الحد الذي تكون فيه المسألة لغوية فقط، فنحن لا نستطيع أن نعرّف الكلمتين «الكل» و«الجزء». وهما تعبران عن مفهوم غير معرّف أو فطري. كما لو أننا غير قادرين على معرفتهما بشكل منفصل، وكل ما نستطيع أن نفعله أن نعبّر عن فهمنا للكل والجزء من خلال العبارة التي تربط الكل بالأجزاء.

إن العبارة هي بديهية أو مثبتة ذاتياً أن عكسها يظهر حالاً. فيمكن أن يستعمل كلمة «جزء» لهذه الصفحة، وكلمة «كل» لنصف هذه الصفحة بعد قطعها إلى نصفين، ولكننا لا نعتقد أن الصفحة قبل قطعها هي أقل من نصف الصفحة التي بين أيدينا بعد أن قطعناها. وعلى كل حال نحن نستخدم اللغة، وفهمنا للكل المحدد وللأجزاء المحددة كما لو أننا مجبرون على قول إننا نعرف أن الكل أكبر من الجزء، وإن ما نعرفه هو العلاقة بين الكل الموجود وأجزائه وليس شيئاً عن استعمال الكلمتين ومعانيهما.

مثل هذا العرض المثبت ذاتياً حالة الشيء الذي لا يمكن إثباته ولكنه أيضاً حقيقة غير معرضة للإنكار. وهما مؤسسان على التجربة المعتادة وحدها والتي هي جزء من المعرفة البديهية المعتادة لأنهما مرتبطان بالجزء غير المنظم من المعرفة؛ هما غير متعلقين بالفلسفة أو الرياضيات أكثر من ارتبطاهما بالعلم أو التاريخ. ولهذا السبب دعاهما اقليدس بالمصادفة «بالمفاهيم العامة». إنهما أيضاً تعليميان، بالرغم من أن لوك مثلاً لا يعتبرهما كذلك. إنه لا يجد اختلافاً بين العرض الذي لا يعلّم الحقيقة مثل ذلك الذي يتعلق بالأجداد وبين العرض الذي يعلّم ـ ذلك الذي يعلّمنا شيئاً نحن لا نعرف بدونه ـ كذلك الشيء الذي يتعلق بالجزء والكل. وهؤلاء المحدثون الذين يشيرون إلى مثل هذه العروض على أنها حشو يقعون في الخطأ ذاته. أنهم لا يرون أن بعض العروض التي يدعونها «حشواً» تضاف إلى معرفتنا بينما البعض الآخر لا يضيف شيئاً لهذه المعرفة.

إيجاد الحلول

هذه القواعد الثلاث للقراءة التحليلية ـ عن العبارات والعروض والمناقشات ـ يمكن أن توصل إلى رأس القاعدة الثامنة والتي تغطي الخطوة الأخيرة من تفسير محتويات الكتاب. والأكثر من ذلك إنها تربط المرحلة الأولى من القراءة التحليلية (تبيّن هيكل الكتاب) مع المرحلة الثانية من هذه القراءة (تفسير محتويات الكتاب).

إن الخطوة الأخيرة في محاولة اكتشاف ما يبحث فيه الكتاب أي اكتشاف المسائل الرئيسية التي حاول أن يحلها المؤلِف من خلال كتابه (وكما تتذكر فإن هذه قد تمت في القاعدة الرابعة) والآن بعد أن توصلت إلى تفاهم مع الكاتب والتقطت عروضه ومناقشاته عليك أن تدرك ما وجد من حلول من خلال تساؤلك لبعض الأسئلة: ما هي المسائل التي حاول الكاتب أن يحلها ونجح في حلها؟ وأثناء حل هذه الأسئلة، هل أنشأ مسائل جيدة؟ وما هي المعضلات التي فشل المؤلف في حلها (المعضلات القديمة والجديدة) وما هي هذه

الأسئلة التي يعرف الكاتب أنه قد فشل في حلها؟ إن الكاتب الجيد مثل القارىء الجيد يجب أن يعرف ما إذا كانت المشكلة قد حلّت أم لا، بالرغم من أن ذلك بالطبع يكلف القارىء جهداً أقل في معرفة الحالة.

إن هذه الخطوة الأخيرة في القراءة التفسيرية تُغطى بالقاعدة الثامنة التي تنص:

القاعدة الثامنة: أوجد ما هي حلول الكاتب. وعندما تطبق هذه القاعدة والقواعد الثلاث التي تسبقها في القراءة التفسيريَّة، فسوف تكون متأكداً بشكل معقول من أنك قد قمت بجهدك لفهم الكتاب. وإذا كنت قد بدأت في كتاب أعلى من مستواك، فإنك ستكون قد قطعت شوطاً طويلاً، والأكثر من ذلك أنَّك قادرٌ الآن على اتمام قراءتك التحليلية للكتاب. إن المرحلة الثالثة والأخيرة من هذا العمل سوف تكون سهلة نسبياً. ويجب عليك أن تبقي عينيك مفتوحتين وذهنك متيقظاً وفمك مغلقاً. وحتى هذه النقطة أنت كنت تتبّع الكاتب. ومنذ هذه النقطة وما يليها سوف تكون لديك الفرصة لتناقشه وتعبر عن نفسك.

المرحلة الثانية من القراءة التحليلية

لقد وصفنا الآن المرحلة الثانية من القراءة التحليلية. وهناك طريقة ثانية لقول ذلك وهي أنّنا قد وصفنا الآن مواداً للإجابة على المجموعة الثانية من الأسئلة التي يجب أن تسألها عن الكتاب، أو في الحقيقة عند أي شيء تقرأه. وأنت تتذكر أن السؤال الثاني هو «ما هو الشيء الذي قيل بالتفصيل وكيف قيل؟» إن تطبيق القواعد من الخامسة وحتى الثامنة بشكل واضح يساعد في الإجابة على هذا السؤال. فعندما توصلت إلى تفاهم مع الكاتب ووجدت عروضه الرئيسية ومناقشاته وتعرفت إلى حلوله للمعضلات التي واجهها، فأنت تعرف ما يقوله في كتابه كما أنك مستعد لتستمر في طرح السؤالين الأساسيين الأخيرين عن الكتاب.

وحيث أننا الآن قد أكملنا مرحلة ثانية من عملية القراءة التحليلية، دعنا نتوقف للحظة ـ كما فعلنا سابقاً ـ لنكتب هذه القواعد من أجل المراجعة.

المرحلة الثانية من القراءة التحليلية
قواعد إيجاد ما يقوله الكتاب (تفسير محتوياته)

5 ـ التوصل إلى تفاهم مع الكاتب من خلال تفسير كلماته الرئيسية.

6 ـ التقاط العروض الرئيسية في الجملة الأكثر أهمية.

7 ـ معرفة مناقشات الكاتب الرئيسية بواسطة إيجادها أو بنائها من خلال تسلسل الجمل.

8 ـ تحديد ما هي المسائل التي حلها الكاتب. وما هي المسائل التي لم يحلها وبالتالي تحديد ما هي المسائل التي يعرف الكاتب أنه فشل في حلها.

الفصل العاشر

نقد الكتاب بشكل ملائم

لقد قلنا في نهاية الفصل السابق إننا قطعنا شوطاً طويلاً. إذ تعلمنا كيف نتبين الكتاب، وعرفنا أيضاً القواعد الأربع في محاولة تفسير محتويات الكتاب. ونحن الآن مهيأون للمرحلة الأخيرة من القراءة التحليلية. وسوف نجني مكافأة جهدنا السابق.

أن قراءة كتاب ما هو نوعٌ من الحوار، ويمكنك أن تعتقد بأنه ليس حواراً على الإطلاق، لأن الكاتب يقول كل الحديث، وليس لديك شيء تقوله. وإذا كنت تعتقد ذلك، فأنت لست مدركاً لكل التزاماتك كقارىء ولا تلتقط فرصك.

وفي الحقيقة فإن القارىء هو صاحب الكلمة الأخيرة. فالكاتب قال قوله، والآن جاء دور القارىء. إن الحوار بين الكتاب وقارئه يبدو بشكل منتظم، فكل فريق يتكلم بدوره، بدون مقاطعات وتسير الأمور على هذا المنوال. وإذا كان القارىء غير مهذب يمكن أن يكون أي شيء إلا حواراً منتظماً. إن الكاتب المسكين لا يمكن أن يدافع عن نفسه. ولا يمكنه أن يقول «انتظر حتى أنهي كلامي قبل أن تبدأ بعدم موافقتي». ولا يمكنه أن يحتج على عدم فهم القارىء له أو أنه ـ أي القارىء ـ لم يرَ النقاط التي أوضحها.

إن الحوار المنتظم بين الأفراد الذين يواجهون بعضهم جيد عندما يجري بشكل مهذب. ونحن لا نعتقد فقط بكياسة الحوار حسب التأدب الاجتماعي، فمثل هذا الحوار ليس هاماً في الحقيقة. وما هو هام في ذلك هو أن (الأتيكيت) الفكري يمكن أن يلاحظ. وبدون ذلك فإن الحوار يكون مشاحنة

أكثر من كونه تناقل معرفة مثمر. ونحن نفترض هنا بالطبع أن الحوار يدور حول شيء جدي، شيء يمكن أن يتفق أو يختلف عليه البشر. ويصبح هاماً عندما يوجه المتحاورون أنفسهم نحوه، وإلا فلن تكون هناك أرباح من المشروع. إن الربح في الحوار الجيد هو الشيء الذي يمكن تعلمه.

إن ما هو صحيح في المناقشة العادية هو أكثر صحة في الحالات الخاصة التي يتحدث من خلالها الكتاب إلى قارئه، ويتحدث بالمقابل القارىء إلى الكتاب. إن الكاتب عرض موضوعه ـ وسوف نأخذ ذلك على محمل لا يحتمل الجدال مؤقتاً ـ ومن الممكن افتراض أن الكاتب أنجز دوره في الحوار بشكل جيد وذلك بالنسبة للكتاب الجيد. فما الذي يمكن أن يفعله القارىء ليقوم بدوره بالمقابل؟ ماذا يجب عليه أن يفعل ليخرج بنتيجة جيدة؟

يقع على القارىء التزام بالإضافة إلى فرصة الحديث ـ والفرصة واضحة ـ ولا شيء يمنع القارىء من اصدار حكمه. وجذور هذا الالتزام تقع أعمق قليلاً في طبيعة العلاقة بين الكتب والقراء.

فإذا كان الكتاب من النوع الذي يوضح حالة معرفة. فهدف الكاتب هو أن يعلِّم. إنه يحاول أن يعلِّم. إنه يحاول أن يقنع قارئه بشيء ما. وجهده يمكن أن يتوّج بالنجاح عندما يقول القارىء: «لقد تعلّمت. وقد أقنعتني أن هذا أو ذاك شيء صحيح، أو أن ذلك شيء ممكن». ولكن حتى إذا لم يقتنع القارىء فإن نية الكاتب وجهده يجب أن يحترما. فالقارىء يدين له بحكم مدروس. وإذا لم يكن بإمكان القارىء أن يقول «أنا موافق» فإنه يجب أن تكون له أرضية لعدم الموافقة أو أن يرجىء حكمه على السؤال.

ونحن لا نقول في الحقيقة أكثر من الشيء الذي قلناه عدة مرات سابقاً في أن الكتاب الجيد يستحق قراءة فعّالة. والقراءة الفعالة لا تقف عند عملية فهم ما يقوله الكتاب. ويجب أن تستكمل بعملية نقد الكتاب والحكم عليه. والقارىء غير المتمرس يفشل في إشباع هذا المطلب، وغالباً ما يفشل في

تحليل الكتاب أو تفسيره. إنه لا يقوم بجهد للفهم. بل وأكثر من ذلك فهو يضيع الكتاب بأن يضعه جانباً وينساه. والأسوأ من أن يُطرِيَهُ بضعف يكمن في ألا يعطيه أي نقد متأنٍ مهما كان نوعه.

قابلية التعلم كميزة

إن ما نعنيه بالتكلم من قبل القارىء ليس شيئاً منفصلاً عن القراءة. إنها المرحلة الثالثة من القراءة التحليلية للكتاب. وتوجد هنا قواعد أيضاً كما توجد في المرحلتين الأوليتين. وبعض هذه القواعد هي مبادىء عامة للأتيكيت الفكري. وسوف نبحث هذه القواعد في هذا الفصل. والقواعد الأخرى هي معايير خاصة في تعريف نقاط النقد التي سوف تناقش في الفصل التالي.

يوجد منحى في التفكير في أن الكتاب الجيد هو فوق النقد من قبل القارىء المتوسط. فالقارىء والكاتب ليسا نديّن. ووجهة نظر الكاتب هذه يجب أن تكون موضوعاً للمحاكمة والنقد فقط من قبل هيئة محلفين أنداد له. تذكر توصيات «باكون» للقارىء «إقرأ ليس لتناقد أو تفحم، ولا من أجل أن تعتقد أو تأخذ الشيء كبديهة، ولا من أجل أن تجد حديثاً أو حواراً، ولكن من أجل أن تثمِّن وتعتبر». أما السير «ولتر سكوت» فيلقي طموحاً ملحاً أكثر على «الذين يقرأون ليتشككوا أو يقرأون ليهزأوا».

توجد حقيقة مأكدة هنا بالطبع، ولكن توجد أيضاً كمية كبيرة من الهراء عن العصمة من الخطأ التي تحاط بها الكتب والولاء الخاطىء الذي ينتجه. إن القراء يمكن أن يكونوا مثل الأطفال، إذ يمكن للكتّاب أن يعلِّموهم، ولكن ذلك لا يعني أنه يجب ألاّ يُسمع منهم. إن سرفانتس يمكن أن يكون أو لا يكون محقاً في قول «لا يوجد كتاب سيء جداً ولكن يمكن أن يوجد به شيء جيد». ولكن الأكثر تحديداً في أنه لا يوجد كتاب جيد بقدر كافٍ بحيث لا يوجد في داخله خطأ.

من الصحيح أن الكتاب الذي ينوِّر قُرّاءه هو بهذا المعنى أعلى منهم يجب

ألا ينتقد من قبلهم حتى يفهموه. وعندما يفهمونه يكونون قد ارتقوا بأنفسهم إلى المساواة تقريباً مع الكاتب. وهم في هذه الحالة مهيأون لممارسة حقوقهم وامتيازاتهم في وضعهم الجديد. وإذا لم يمارسوا قدرتهم النقدية الآن فإنهم سيكونون غير عادلين مع الكاتب. لقد قام الكاتب بما يستطيع ليجعل قراءه مساوين له. ويستحق أن يتصرف قراءة كأنداد له، وذلك بأن ينخرطوا في حوار معه أي أن يقابلوه بالمثل.

عندما نناقش هنا ميزة التعلم، هذه الميزة التي أسيء فهمها دائماً تقريباً. إن الشخص يفكر خطأ في أن يكون قابلاً للتعلم إذا كان سلبياً ومَرِناً. وبالعكس فقابلية التعلم هي ميزة فعالة جداً ولا يوجد شخص قابل للتعلم ولا يمارس قوة حكمه المستقل بحرية. ربما يمكن أن يُمرّن لا أن يُعلّم، والقارىء الأكثر تعلماً هو القارىء الأكثر نقداً. إنه القارىء الذي يستجيب أخيراً للكتاب بأكبر جهد ليقرر فكره بنفسه حول المسائل التي يعالجها الكاتب. نحن نقول أخيراً لأن قابلة التعلم تتطلب أن يُسمع المعلم جيداً، بل الأكثر من ذلك أن يُفهم قبل أن يحاكم. ويجب أن نضيف أيضاً إن مقداراً مطلقاً من الجهد ليس معياراً ملائماً لقابلية التعلم. فالقارىء يجب أن يعرف كيف يحكم على الكتاب تماماً كما يجب أن يعرف كيف يصل إلى فهم لمحتوياته. والمجموعة الثالثة من قواعد القراءة عند هذا الحد سوف تقود إلى المرحلة الأخيرة في موضوع ممارسة التعلم.

دور البلاغة

لقد وجدنا في كل مكان تبادلاً معيناً بين فن التعليم وفن التعلم، وبين المهارات التي يستخدمها الكاتب لتجعل منه كاتباً معتبراً وبين مهارة القارىء التي تجعله يتناول الكتاب بنوع من الأهمية، وقد رأينا كيف أن مبادىء القواعد والمنطق ذاتها تؤسس قواعد الكتابة الجيدة بالإضافة إلى قواعد القراءة الجيدة. والقواعد التي ناقشناها حتى الآن تُعنى بإنجازات الوضوح من جانب الكاتب وإنجازات الفهم من جانب القارىء. وهذه المجموعة الأخيرة من القواعد

تذهب إلى ما هو أبعد من الفهم باتجاه الحكم الانتقادي. وهنا تأتي البلاغة. هناك بالطبع استعمالات عديدة للبلاغة. ونحن عادة نفكر فيها من خلال ارتباطها مع الخطيب صاحب الدعاية Propaganda ولكن لها في الأغلب أهميتها العامة، فإن البلاغة تشترك في كل حالة وتأخذ مكانها في التواصل بين الكائنات البشرية. وإذا كنّا متحدثين فنحن لا نرغب فقط بأن نكون مفهومين بل نحب أن نأخذ الموافقة على كل ما نقوله بمعنى من المعاني. وإذا كان هدفنا أن نتواصل مع الآخرين بشكل جاد، ونغرب في أن نقنعهم ـ بل الأكثر دقة ـ أن نقنعهم بالموضوعات النظرية وأن نحثهم بموضوعات تؤثر إلى أقصى مدى في أفعالهم ومشاعرهم.

وكي نكون جادين في تلقي هذا التواصل فإن على المرء ألا يكون مستجيباً فقط بل يجب أن يكون مستمعاً ومسؤولاً أيضاً. وأنت يجب أن تكون مستجيباً إلى الحد الذي يجعلك تتبع ما قيل وأن تلاحظ النوايا التي تحض عليها. ولكن عليك أيضاً مسؤولية اتخاذ موقف. وعندما تتخذه فهو موقفك وليس موقف الكاتب. فإن اعتبرت أي شخص غير ذاتك مسؤولاً عن حكمك فإنك ستكون عبداً ولست سيداً حرّاً. ومن هذه الحقيقة اكتسبت الفنون الحرة Liberal Arts اسمها.

ومن جانب الخطيب أو الكاتب فإن المهارة البلاغية لديهما تظهر في مدى كيفية إقناع أو حث الآخرين. وحيث أن هذه هي النتيجة النهائية المنظورة، فإن كل العوامل الأخرى في التناقل والتواصل يجب أن تخدمها. إن المهارات القواعدية والمنطقية في الكتابة بوضوح لها ميزة بحد ذاتها، لكنها أيضاً وسائل لغايات ونتائج. وبشكل متبادل من جانب القارىء أو المستمع فإن مهارة البلاغة تكمن في معرفة ردّة فعلنا أمام أي فرد يحاول أن يقنعنا أو يحثنا على فعل ما: وهنا أيضاً فإن المهارة المنطقية والقواعدية التي تمكننا من فهم ما قد قيل تهيّىء الطريق لرد الفعل الانتقادي.

وهكذا ترى أن الفنون الثلاثة ـ القواعد والمنطق والبلاغة ـ تتعاون في تشكيل عملية مُحكمة للكتابة والقراءة. إن المهارة في المرحلتين الأولى والثانية من القراءة التحليلية تبدو من خلال إتقان القواعد والمنطق. أما المهارة في المرحلة الثالثة من القراءة التحليلية فتعتمد على فن البلاغة. إن قواعد هذه المرحلة من القراءة تقع على مبادىء البلاغة التي تُفهم بأعم معانيها. وسوف نعتبرها كقوانين للاتيكيت لتجعل القارىء ليس فقط مهذباً بل وفعالاً أيضاً عندما يحين دوره في الحديث. (بالرغم من أنه لا يلاحظ بشكل عام أن الاتيكيت يخدم دائماً هذين الهدفين، وليس الهدف الأخير فقط).

وأنت على الأغلب ترى ماذا ستكون القاعدة التاسعة في القراءة. وقد نوهنا إليها مرات عديدة. لا تتحدث إلى الكاتب إلا بعد أن تكون قد سمعته بعناية وتأكدت من أنك قد فهمت ما قاله. إذ لا يكفي أن تكون قد رضيت بشكل صادق عن أنك قد أنهيت المرحلتين الأولى والثانية من القراءة، ويمكنك عندها أن تشعر بحرية في التعبير عن نفسك وآرائك. وعندما تُنجز ذلك لن تكون قد حصلت على حق الاتجاه نحو النقد وحسب، ولكن يتوجب عليك أن تفعل ذلك أيضاً.

وهذا يعني بالفعل أن المرحلة الثالثة من القراءة يجب أن تتبع المرحلتين السابقتين من حيث الزمن دائماً. أما المرحلتان الأولى والثانية فمتداخلتان مع بعضهما البعض. وحتى القارىء المبتدىء يمكنه أن يجمعهما مع بعض بشكل ما، والقارىء المتمرس يمكن أن يجمعهما مع بعضهما بشكل تام تقريباً. يمكنه أن يكتشف محتويات الكتاب من خلال تقسيم مجمله إلى أجزائه وفي الوقت نفسه ينشىء الكل من خلال عناصر أفكار الكتاب وما يشتمله من معرفة بالإضافة إلى عباراته وعروضه ومناقشاته. والأكثر من ذلك، فإن عملاً معيناً يُتَطَلَّبُ في المرحلتين الأوليتين يمكن أن يؤدي خلال القراءة التفحصية الجيدة وهذا يشمل القراء المبتدئين أيضاً. ولكن الخبير ليس أقل من

المبتدىء، إذ يجب أن ينتظر أيضاً حتى يفهم قبل أن يبدأ بالنقد.

دعنا نعيد صياغة هذه القاعدة التاسعة على الشكل التالي:

القاعدة التاسعة: يجب أن تكون قادراً على قول ـ مع تأكيد مسبَّب ـ «لقد فهمت» قبل أن تقول أياً من الأشياء التالية: «أتفق»، «أختلف مع الكاتب»، أو «أنا أؤجل الحكم».

هذه الملاحظات الثلاث تستنفذ كل المواقع النقدية التي يمكن أن تأخذها. ونحن نأمل ألا تكون قد وقعت في خطأ أن النقد هو دائماً عدم موافقة. إن هذا خطأ شائع. أن تتفق يعني ممارسة الحكم النقدي من قبلك تماماً مثل عدم الاتفاق. ويمكن أن تكون على خطأ في موافقتك تماماً كأن تكون على خطأ في عدم موافقتك. إن الموافقة دون فهم هي سخف، وعدم الموافقة دون الفهم هي وقاحة.

بالرغم من أنه يمكن ألا يكون واضحاً منذ البداية أن إرجاء الحكم هو أيضاً فعل من أفعال النقد. إنَّه يأخذ موقع أن هناك شيئاً لم يظهر بعد. وأنت تقول إنك لم تقتنع أو لم تحث بطريقة أو بأخرى.

إن القاعدة تبدو واضحة جداً من خلال المنطق المألوف مما يجعلك تتساءل لماذا أخذنا عناء النص عليها بهذه الصراحة. هناك سببان لذلك، ففي المكان الأول، يوجد أشخاص عديدون يقعون في الخطأ الذي ذكرناه آنفاً من خلال اعتبارهم أن النقد هو عدم الموافقة فقط. (وحتى النقد «البنّاء» هو عدم موافقة». وفي الاعتبار الثاني بالرغم من أن القاعدة ظاهرة بوضوح فإن خبرتنا قد علمتنا أن أشخاصاً قليلين يلاحظونها على النطاق العملي. مثل القاعدة الذهبية، إنها تستخرج خدمة سطحية أكثر من الإذعان الذكي.

كل كاتب مر بتجربة معاناة مراجعة ونقد الكتب من قبل النقاد الذين لم يشعروا بأنهم ملزمون بأن يقوموا بعمل خلال مرحلتي القراءة الأولى

والثانية. والنقاد غالباً ما يفكرون في أنه لا يتوجب عليهم أن يكونوا قراء وحكّاماً أيضاً. وكل أستاذ ومحاضر قد عانى تجربة سؤاله أسئلة حرجة تسأل دون أن تكون مبنية على أي فهم لما قد قاله. وأنت بنفسك يمكن أن تتذكر حالات كثيرة كأن يقول شخص لمتحدث بنفس واحد أو بنفسين على الأكثر «أنا لا أعرف ماذا تعني، لكن أظن أنك على خطأ».

ولا توجد عملياً أية نقطة في إجابة نقاد من هذا النوع. والطريقة المهذبة الوحيدة هي أن تسألهم أن يعيدوا ويكرروا لك وجهة النظر التي عرضتها أنت، يمكن أن يقولوا إنها مسألة تحدّ. فإذا لم يستطيعوا أن يفعلوا ذلك بشكل مرضٍ، أو لم يستطيعوا أن يعيدوا ما قلته بمفردات من عندهم فيمكنك أن تعلم عندها أنهم لم يفهموا ويمكنك أن تتجاهل نقدهم كلياً، لأنّ لا علاقة لهم بالموضوع فالنقد يجب أن يكون مبنياً على الفهم. وعندما تجد الشخص النادر الذي يظهر أنه قد فهم ما كنت تقوله تماماً كما تفهمه أنت عندها تستطيع أن تبتهج بموافقته أو تنزعج جداً لمخالفته.

وخلال سنوات كثيرة من قراءة الكتب مع طلاب من نوع آخر، فقد لاحظنا أن هذه القاعدة كانت تتوج بقطع العلاقة بشكل غير ودي أكثر من التقيد بهذه القاعدة. والطلاب الذين لا يفهمون ما يقوله الكاتب يبدو أنهم لا يترددون في وضع أنفسهم نقاداً له. إنهم ليسوا غير متّفقين مع شيء لا يفهمونه فقط، بل إنهم ـ وهذا شيء سيّىء أيضاً ـ غالباً ما يتفقون إلى الحد الذي لا يستطيعون فيه التعبير بوضوح عن الموضوع بمفردات من عندهم. إن مناقشتهم مثل قراءتهم كلها عبارة عن كلمات فقط. وحيث لا يوجد الفهم فإن التأكيدات والإنكارات متساوية من حيث عدم وجود معنى لها وعدم وضوحها. كما أن وضعية الشك أو الانعزال هما موقفان غير ذكيين من قبل القارىء الذي لا يعرف أن يرجىء الحكم عليه.

توجد أيضاً عدة نقاط تتعلق بالتقيد بهذه القاعدة. فإذا كنت تقرأ كتاباً جيداً يتوجب عليك أن تتردد قبل أن تقول «لقد فهمت». وهذا الافتراض

المسبق يقوم على التأكيد على أنه لديك عمل كثير تقوم به قبل أن تستطيع الإدلاء بهذا التصريح بشكل صادق ومؤكد. ويجب عليك بالطبع أن تكون الحكم على نفسك في هذه المسألة، وتتحمل هذه المسؤولية حتى لو كانت قاسية.

وأن تقول «لم أفهم» هو بالطبع حكم حرج ولكن فقط بعد أن تحاول قصارى جهدك فذلك ينعكس على الكتاب أكثر مما ينعكس على نفسك. وإذا قمت بكل شيء يتوقع منك ولا تزال غير قادر على الفهم فقد يكون السبب كامناً في أن الكتاب غير مفهوم. وهذا الافتراض المسبق هو من أجل الكتاب. خصوصاً إذا كان كتاباً جيداً. وفي قراءة الكتب الجيدة فإن الفشل في الفهم هو عادة خطأ القارىء. وهكذا فالقارىء ملزم بأن يبقى مع الهدف المرسوم من خلال المرحلتين الأولى والثانية من القراءة التحليلية ولوقت طويل قبل أن يبدأ بالمرحلة الثالثة. وعندما تقول «لم أفهم» لاحظ نبرة صوتك. وتأكد من أنك تسلم بإمكانية أن يكون ذلك خطأك وليس خطأ المؤلف.

وهناك أيضاً الشرطان اللذان تنضوي عليهما القاعدة ونخصهما بعناية خاصة. فإذا كنت تقرأ فقط جزءاً من كتاب، فإنه من الصعوبة بمكان أن تكون متأكداً من أنك قد فهمت، وبالتالي يجب عليك أن تتردد أكثر عندما تنقد الكتاب. وفي بعض الأحيان يتعلق الكتاب بكتب أخرى من قبل نفس الكاتب ويعتمد عليها من أجل الدلالة التامة. وفي هذه الحالة أيضاً يجب أن تكون أكثر حذراً عندما تقول «لقد فهمت» وأكثر بطءاً عندما ترفع نقدك بسرعة.

إن مثالاً جيداً على مثل هذا الاندفاع فيما يتعلق بالنقطة الآنفة الذكر يتجلى من خلال النقد الأدبي الذي يشمل الموافقة أو عدم الموافقة في كتاب أرسطو «الشعر» بدون تمييز في أن المبادىء الأساسية في تحليل أرسطو من الشاعرية تعتمد في جزء منه على موضوعات شرحها أرسطو في أعماله الأخرى، ودراساته عن علم النفس والمنطق والميتافيزيقا. لقد وافقوا أو لم يوافقوا بدون فهم على بحث كل ذلك.

إن هذا الشيء صحيح بالنسبة لكتّاب آخرين مثل أفلاطون وكانت وآدم سميث وكارل ماركس الذين لم يكونوا قادرين على قول كل شيء يعرفونه أو يفكرون به في كتاب واحد. إن هؤلاء الذين يحكمون على كتاب كانت «نقد الفكر المجرد» بدون أن يقرأوا كتابه «نقد الفكر العملي»، أو يحكموا على كتاب آدم سميث «ثروة الأمم» بدون أن يقرأوا «نظرية في الآراء الأخلاقية»، أو يقرأوا «البيان الشيوعي» لماركس دون أن يقرأوا كتابه «رأس المال» هم على الأرجح يوافقون أو يخالفون في شيء لا يفهمونه بشكل تام.

أهمية تجنب المشاكسة

إن القاعدة الثانية الأساسية في القراءة النقدية واضحة مثل القاعدة الأولى، وكلنها تحتاج إلى نص صريح وهكذا ومن أجل نفس السبب تكون القاعدة العاشرة والتي يمكن أن يعبّر عنها كما يلي:

القاعدة العاشرة: عندما لا توافق، إفعل ذلك بشكل معلل، وليس بشكل فيه خصام أو مشاكسة. ولا توجد جدوى من ربح مناقشة إذا كنت تعرف أو تشك بأنك على خطأ. وبشكل عملي بالطبع يمكنك أن تتقدم إلى الأمام في العالم بوقت قصير. ولكن بصدق إنها سياسة أفضل أن تتأثر في ذلك على المدى الطويل.

لقد تعلمنا هذه القاعدة الأساسية أولاً من أفلاطون وأرسطو في مقطع من «الندوة Symposium» وهذا التبادل يحصل كما يلي:

«قال أغناتون: «لا أستطيع أن أدحضك يا سقراط. دعنا نفترض أن ما قلته صحيح. قل بالأحرى يا أغناتون، إنك لا تستطيع أن تدحض الحقيقة. لأن سقراط قد دحض بسهولة». إن هذا المقطع يأخذ صداه في ملاحظة أرسطو في كتابه «الأخلاق» إنه يقول: «يجب أن تتعلم لتكون أفضل».

«في الواقع ليكن واجبنا من أجل صون الحقيقة أن نحطّم ما يلمسنا عن

قرب، لا سيما وأننا فلاسفة أو محبون للحكمة. وللوهلة كلاهما عزيز علينا ولكن الاعتقاد يتطلب منا أن نشرِّف الحقيقة ونضعها أعلى من أصدقائنا».

إن أفلاطون وأرسطو يعطوننا نصيحة يتجاهلها معظم الناس. إن معظم الناس يعتقدون بأن ربح مناقشة هو الهدف وليس تعلم الحقيقة.

إن الشخص الذي يعتقد أن المحادثة عبارة عن معركة يمكن أن تربح فيها من خلال كونك خصماً فقط ومن خلال المخالفة بشكل ناجح وبغض النظر عما إذا كنت على صواب أو على خطأ. إن القارىء الذي يتناول الكتاب بهذه الروح يقرأه فقط ليجد شيئاً يمكنه المخالفة فيه. لأن المجادلة والمشاكسة هي عظمة نستطيع أن نجدها دائماً لندخل أي صراع. وليس هناك فارق بين ما إذا كانت العظمة هي في الحقيقة استعداداً دائماً للمشاجرة.

وفي المناقشة التي تجري بين القارىء والكتاب في مكان خاص بمكتبه، لا يوجد شيء يمنع القارىء من أن يبدو أنه ربح المناقشة. إنه يمكن أن يميز هذه الحالة. والكاتب ليس موجوداً ليدافع عن نفسه. وإذا كان كل ما يبغيه القارىء هو الرضى الأجوف في أن يبدو بأنه هزم الكاتب، فالقارىء يستطيع أن يفعل ذلك حالاً. ونادراً ما يتوجب عليه أن يقرأ الكتاب من أوله إلى آخره ليحصل على ذلك. ونظرة إلى الصفحات القليلة الأولى تكفي لذلك.

ولكن إذا كان القارىء يدرك أن الربح الوحيد من المحادثة مع أساتذة أحياء أو متوفين هو ما يستطيع أن يتعلمه منهم، وإذا كان يدرك أنه يربح فقط باكتساب المعرفة وليس بإسقاطٌ الآخرين أرضاً، فإنه يمكنه أن يرى عدم جدوى المشاكسة الصرف. ونحن لا نقول إنه يجب على القارىء أن يخالف ليحاول أن يظهر أين وقع الكاتب في خطأ. نحن نقول فقط إن على القارىء أن يكون مهيّأ للموافقة أو المخالفة. ومهما يكن الموقف الذي سيتخذه فيجب أن يكون دافعه شيئاً واحداً فقط وهو الحقائق والحقيقة التي تبحثها المسألة.

إن شيئاً أكثر من الصدق يُتطلب هنا. إنها تذهب بدون قول إن على

القارىء أن يعترف بالنقطة التي يراها. ولكنه يجب عليه أيضاً إلا يشعر بأنه هُزم من خلال موافقته للكاتب عوضاً عن أن يخالفه. وإذا كان يشعر بهذا الشيء فإن المشاكسة تكون متأصلة فيه. وعلى ضوء هذه القاعدة الأساسية، فإن مشكلته تكون مشكلة عاطفية أكثر من أن تكون مشكلة فكرية.

حول قرار عدم الموافقة

إن الميزة الأساسية الثالثة ترتبط مباشرة بالميزة الثانية. إنها تضع شرطاً جديداً قبل البدء بالنقد. إنها توصي بأن تعتبر عدم موافقتك وكأنك قادر على التصميم عليها. وحيث أن القاعدة الثانية تدعوك إلى عدم الموافقة كشخص يخاصم الكاتب فإن القاعدة الثالثة تحذّرك من عدم الموافقة بدون أمل بالنجاح في ذلك. إن المرء يكون دون أمل بنقاش مثمر إذا لم يستطع الاعتراف بأن كل الأفراد المتعقلين يستطيعون أن يوافقوا. لاحظ أننا قلنا «يستطيعون أن يوافقوا». ولم نقل إن كل الأشخاص المتعقلين يجب أن يوافقوا. وحتى لو أنهم لا يوافقون، فهم يستطيعون أن يوافقوا. إن النقطة التي نحاول أن نضعها هي أن عدم الموافقة إجهاد دون جدوى إذا لم يطبّق مع أمل أنه يمكن أن يقود إلى قرار حول المسألة.

هاتان الحقيقتان في أن الناس يجب ألا يوافقوا ويستطيعون أن يوافقوا تظهر أن من خلال تعقيد الطبيعة البشرية. إن الناس حيوانات عقلانية. وعقلانيتهم هي مصدر قوتهم في الموافقة. وحيوانيتهم وعدم كمال أسبابهم التي تنشأ هي السبب في كل عدم الموافقات التي تحدث.

إن الناس هم الخالقون للانفعالات والتحامل. واللغة التي يجب أن يستعملوها لتناقل الأفكار هي وسيلة غير تامة. وفيها غيوم من العواطف وألوان من المصالح بالإضافة إلى أنها وسيلة غير ملائمة وغير شفافة لنقل الأفكار. وهذا إلى المدى الذي يكون فيه الناس عقلانيين فإن هذه العوائق لفهمهم يجب أن تُهزم. وعدم موافقتهم التي تظهر والنتائج التي تأتي من سوء الفهم هما بالتأكيد قابلان للمعالجة.

يوجد بالطبع نوع ثانٍ من عدم الموافقة يرتبط تحديداً بعدم المساواة بالمعرفة. إن الإهمال النسبي غالباً ما يصاحب عدم الموافقة الخاطئة مع التعلم النسبي من الموضوعات التي تفوق معرفتهم. والأشخاص الأكثر تعلماً لديهم الحق في انتقاد الأخطاء التي ترتكب من قبل هؤلاء الذين يفتقرون للمعرفة الملائمة. وعدم الموافقة التي تأتي من هذا النوع يمكن أن تصحَّح أيضاً. وإن عدم المساواة بالمعرفة يمكن دائماً أن تعالج من خلال التعلم.

ويمكن أن تبقى مخالفات أكثر تُطمر بعمق ويمكن أن تبقى بحسم السبب نفسه. ومن الصعب أن نكون متأكدين من ذلك، إذ من المستحيل تقريباً أن نصف هذا السبب. وفي كل الأحوال فإن ما قلناه حتى الآن ينطبق على الغالبية العظمى من عدم الموافقات. ويمكن أن تحلّ من خلال إزالة سوء الفهم أو من الإهمال. وكلا العلاجين ممكن عادة، بالرغم من أنه دائماً صعب. وهكذا فالشخص الذي لا يوافق في أي مرحلة من مراحل المحادثة يجب على الأقل أن يأمل بالوصول إلى موافقة في النهاية. ويجب عليه أن يكون مهيّأً لتغيير رأيه الشخصي كما لو كان يحاول أن يغير رأي الشخص الآخر. ويجب عليه أن يتذكر دائماً إمكانية سوء الفهم أو أنه يمكن أن يكون قد أهمل بعض النقاط. وأي شخص لا ينظر إلى عدم الموافقة كمناسبة لتعليم الآخرين يجب أن ينسى أنه هو أيضاً حالة كونه يُعَلَّم.

إن المشكلة تكمن في أن الكثير من الأشخاص لا يعتبرون أن القضية تتعلق بمسألتي التعليم والتعلم. وهم يظنون أن كل شيء مسألة رأي. أنا لديّ رأيي، وأنت لديك رأيك. وحقوقنا تجاه آرائنا لديها الحرمة كحقوقنا تجاه أملاكنا الشخصية. ومن خلال وجهة نظر كهذه، فإن التواصل بين الأفراد لا يمكن أن يكون مثمراً إذا كان الربح الذي سيكتسب هو في ازدياد المعرفة. إن المحادثة هي أكثر أهمية من مجرد لعب كرة الطاولة للآراء المتعارضة. هذه اللعبة التي لا يستطيع أحد أن يسجل فيها نقاطاً ولا يربح فيها أحد. وكل فرد راضٍ لأنه لا يخسر وهذا يعني أنه ينتهي ولديه نفس الآراء كما كان في البداية.

ونحن لم نكن لنكتب الكتاب ـ ولا نستطيع أن نكتبه ـ إذا كنا نحمل هذه الفكرة. وعوضاً عن ذلك كان يمكن أن نتمسك بأن المعرفة يمكن أن تنقل وليست الآراء الشخصية هي موضع المراهنة، وفي أغلب الحالات إما أن عدم الموافقات هي الظاهرة فقط ـ ويجب أن تزال من خلال التوصل إلى تفاهم والتقاء الأفكار، أو أنها حقيقية وأن المسألة الأصلية يمكن أن تحل على المدى الطويل بالطبع من خلال الاحتكام إلى الوقائع والأسباب. إن القاعدة في العلانية والتي تتعلق بعدم الموافقة هي موضوعات مناقشة. والمناقشة تكون فارغة إذا لم تمارس فافتراض أن هناك فهماً يمكن إحرازه ويدعم بالسبب على ضوء كل الإثباتات الكائنة والتي تحلها المسألة الأصلية.

كيف يمكن أن تطبق هذه القاعدة الثالثة في المحادثة بين القارىء والكاتب؟ كيف يمكن أن توضع كقاعدة للقراءة؟ إنها تُعنى بالحالة التي يجد فيها القارىء نفسه لا يتفق مع شيء مما في الكتاب. إنها تتطلب منه أولاً أن يكون متأكداً من أن عدم الموافقة لا يأتي من سوء الفهم. لنفترض أن القارىء كان متأنياً في ملاحظة أنه يجب ألا يستخلص من القاعدة حكمه النقدي إلا بعد أن يفهم، وأن القارىء راضٍ بأنه لا يوجد سوء فهم هنا. ماذا بعد ذلك؟.

هذه القاعدة تتطلب منه بعد ذلك أن يميز بين المعرفة الأصيلة وبين الرأي الشخصي، وأن يعتبر أن المسألة حيث تعنى المعرفة كمسألة يمكن حلها. وإذا تابع المسألة إلى أبعد من ذلك فهو يمكن أن يتعلم من خلال الكاتب النقاط التي ستغير تفكيره. وإذا لم يحصل هذا الشيء فيمكن للقارىء أن يعدل نقده وأن يكون قادراً على تعليم الكاتب مجازياً على الأقل. إن القارىء يأمل على الأقل أن يكون الكاتب حياً وحاضراً فيمكنه تغيير رأيه.

يمكنك أن تتذكر شيئاً قلناه في نهاية الفصل السابق. إذا لم يعطِ الكاتب أسباباً لعروضه فإنها يمكن أن تعامل فقط كتعابير عن رأيه الشخصي. والقارىء الذي لا يستطيع التمييز بين الجمل المعلّلة للمعرفة وبين التعابير المطلقة دون تعليل هو قارىء لا يقرأ بقصد التعلّم. إنه يكون على الأغلب مهتماً بشخصية

الكاتب ويستعمل الكتاب كحالة من التاريخ. ومثل هذا القارىء هو بالطبع لا يتفق ولا يختلف. إنه لا يحكم على الكتاب بل على مؤلفه.

وإذا كان القارىء يهتم أساساً بالكتاب وليس بالمؤلف ويجب عليه أن يأخذ مسؤولياته النقدية على نحو جاد. وهذا يشمل تطبيق ذلك التمييز بين المعرفة الحقيقية وبين الرأي المجرد عليه كقارىء وعلى الكاتب أيضاً. وهكذا يجب على القارىء أن يفعل أكثر من الحكم بالموافقة أو عدم الموافقة، فعليه أن يعطي أسباباً لذلك. وفي الحالة السابقة فإنه من الكافي بالطبع رد بالمشاركة الفعالة لأسباب الكاتب عن النقاط التي يتفق معه فيها. ولكن عندما لا يتفق فيجب على القارىء أن يعطي الأساس الذي يرتكز عليه بفعل ذلك. وإلا فإنه يعامل موضوعاً معرفياً كما لو أنه رأي مجرد.

وعلى ذلك يمكن أن توضع القاعدة كما يلي:

القاعدة الحادية عشر: إحترم الفرق بين المعرفة وبين الرأي الشخصي من خلال إعطاء أسباب لأي حكم نقدي تضعه.

وبالمصادفة فإننا لا نرغب بأن نُفهم كما لو كنا ندَّعي بأن هناك فرقاً كبيراً بين الحقيقة المطلقة المتاحة لكل الناس. إن عروض الإثبات الشخصي بالمعنى الذي عرّفناه في الفصل السابق تبدو لنا كلاًّ من الحقيقة غير المثبتة وغير المنكرة. وكل المعارف، على كل حال، تنقصها هذه الدرجة من الإطلاق.

وما نعرفه، هو موضوع للتصحيح ونعرفه لأن كل ـ أو على الأقل ـ الوزن للإثباتات التي تدعمه. ولكننا لسنا متأكدين ولا يمكن أن نكون متأكدين من أن الإثباتات الجديدة سوف لن تكون في بعض الأوقات غير صحيحة فيما نعتقد بأنه حقيقي اليوم.

وهذا على كل حال لا يزيل أهمية التفريق بين المعرفة وبين الرأي

المجرد الذي نؤكد عليه. إن المعرفة ـ إذا كنت تسر بذلك ـ تتألف من الآراء التي يمكن الدفاع عنها. آراء لها إثباتات من نوع أو آخر. نحن في الحقيقة نعرف شيئاً بهذا المعنى ويجب أن نؤمن بأننا نستطيع إقناع الآخرين بما نعرفه. والآراء بالمعنى الذي نستخدمه هنا هي حكم غير مدعوم بإثباتات، لهذا السبب استعملنا كلمة «مجرد» و «شخصي» بالارتباط مع كلمة آراء. ونحن لا نستطيع أكثر من أن نكوّن رأياً في أن شيئاً ما هو صحيح عندما لا نملك أدلة أو أسباباً للعبارات أكثر من المشاعر الشخصية أو الإجحاف. نستطيع أن نقول إنه صحيح وأن هذا ما نعرفه عندما نملك إثباتاً موضوعياً يقبله على الأرجح الأشخاص المفكرون.

دعنا الآن نلخص القواعد الأساسية والعامة الثلاث التي ناقشناها في هذا الفصل. إن القواعد الثلاث مجتمعة تضع الشروط للقراءة النقدية والطريقة التي يجب أن يرد القارىء على الكاتب من خلالها.

والقاعدة الأولى تتطلب أن يكمل القارىء هدف الفهم قبل أن يتوغل أكثر. والقاعدة الثانية تناشده ألاّ يستخدم المنازعة والمشاكسة. والقاعدة الثالثة تسأله أن ينظر إلى عدم الموافقة على موضوعات المعرفة كموضوع يمكن معالجته عموماً. وهذه القاعدة تذهب أبعد من ذلك. إنها تأمره أن يضع أسباباً لعدم موافقته وهكذا تكون المسألة كأن لم تُعرض فقط، بل عُرّفت أيضاً. وفي كل ذلك يقع الأمل باتخاذ القرار.

الفصل الحادي عشر

الاتفاق والاختلاف مع الكاتب

إن الشيء الأول الذي يمكن أن يقوله القارىء هو أنه يفهم ما يقوله الكاتب أو أنه لا يفهمه. وفي الحقيقة يجب أن يقول إنه يفهم من أجل أن يقول أكثر من ذلك. وإذا كان لا يفهم ما يقوله الكاتب وجب عليه أن يتريث ويعود لقراءة الكتاب.

وهناك استثناء لآلام الاختيار الثاني. فعبارة «لا أفهم» يمكن أن تكون بحد ذاتها ملاحظة نقدية وما يجعلها كذلك هو أنه يجب على القارىء أن يكون قادراً على دعم عبارته هذه. وإذا كان الخطأ يقع على الكتاب أكثر مما يقع عليه كقارىء، فإن عليه تبين المواقع التي تربكه. ويجب أن يكون قادراً على إظهار عدم انتظام هيكل الكتاب وعدم ترابط أجزائه مع بعضها، ونقصان بعض الموضوعات الوثيقة الصلة بالموضوع. أو ربما أن الكاتب يستخدم كلاماً ذا معنيين في استخدامه للكلمات الهامة مع تلك السلسلة من النتائج المربكة. وإلى المدى الذي يستطيع أن يذهبه القارىء ويدعم به رأيه في أن الكتاب غير واضح فلن تكون لديه التزامات نقدية أخرى.

دعنا نفترض أنك تقرأ كتاباً جيداً. وهذا يعني نسبياً أنه كتاب واضح ومفهوم. ودعنا نفترض أيضاً أنك في النهاية قادر أن تقول «لقد فهمت». فإذا كنت بالإضافة إلى فهمك للكتاب تتفق مع الكاتب فيما يقوله فإن العمل يكون قد انتهى. والقراءة التحليلية قد أنجزت. لقد نوَّرك الكتاب وأقنعك بل حدّثك في شيء. ومن الواضح أن لدينا خطوات إضافية لندرسها في حالة كوننا لا نتفق مع الكاتب أو نرجىء حكمنا على الكتاب. والأخيرة هي الحالة الأكثر اعتياداً.

إلى المدى الذي يتناقش فيه الكتّاب مع قرائهم ـ ويتوقعون أن يرد عليهم قراءهم بهذه المناقشة ـ فإن على القارىء الجيد أن يعرف مبادىء المناقشة. ويجب عليه أن يجادل الكاتب بآرائه بشكل حضاري وذكي. ولهذا السبب توجد الحاجة لمثل هذا الفصل من كتاب عن القراءة. فليس فقط من خلال تتبع مناقشات الكاتب ببساطة بل بالإضافة إلى الالتقاء معه أيضاً يستطيع القارىء أن يصل إلى اتفاق نهائي وذي أهمية مع الكاتب أو أن يختلف معه.

إن معنى الاتفاق أو الاختلاف مع الكاتب يستحق دراسة أكثر من ذلك. فالقارىء الذي توصل إلى تفاهم مع الكاتب والتقط عروضه وأسبابه وشاركه أفكاره هذه العملية موجهة لالتقاء الأفكار مروراً باللغة كواسطة لنقلها. فإن فهم الكتاب يمكن أن يوصف بأنه نوع من الاتفاق بين القارىء والكاتب. إنهما يتفقان على فائدة اللغة للتعبير عن الأفكار. وبسبب هذا الاتفاق فإن القارىء قادر أن يرى، من خلال لغة الكاتب، الأفكار التي يحاول التعبير عنها.

إن القارىء يفهم كتاباً، فكيف يمكنه ألا يتفق معه؟ إن القراءة النقدية تتطلب منه أن يتخذ قراره الشخصي. ولكن ذهنه وذهن الكاتب قد أصبحا واحداً من خلال فهمه الجيد للكتاب. فما هي الأفكار التي بقيت مستقلة؟

هناك بعض الأشخاص الذين يقعون في خطأ وبسبب الصعوبة الظاهرة. إنهم يفشلون في التفريق بين معنيين لكلمة «اتفاق». وبالنتيجة فإنهم يظنون، بشكل خاطىء، أنه حيث يوجد فهم بين الناس فإن الاختلاف مستحيل. وهم يقولون إن كل الاختلافات ترجع ببساطة إلى سوء التفاهم.

إن خطأ من هذا النوع يصبح واضحاً حالما نتذكر أن الكاتب يصدر حكمه على العالم الذي نعيش فيه. إنه يدعي أنه يعطينا معرفة نظرية عن الطرق التي توجد بها وتسلكها الأشياء، أو يعطينا معرفة عملية عن كيفية إنجاز الأعمال. ومن الواضح أن الكاتب يمكن أن يكون على صواب أو على خطأ. وأن ادعاءه يبرر إلى المدى الذي يتحدث فيه عن الأشياء بشكل صحيح، وإلى

المدى الذي يقول فيه ما هو محتمل على ضوء الوقائع والإثباتات. وإلا فإن ادعاءه غير منطقي.

وإذا كنت تقول مثلاً «إن كل الأفراد متساوون» فإننا يمكن أن نفسر قصدك بأن كل الأفراد يمنحون بالمساواة، أثناء الميلاد، الذكاء والقوة والقابليات. وعلى ضوء الحقائق كما نعرفها نختلف معك ونعتقد بأنك على خطأ. ولكن لنفترض أننا أسأنا فهمك ولنفترض بأنك تعني بكلماتك هذه «يجب أن تكون الحقوق السياسية متساوية لكل الأفراد» ولأننا أسأنا فهم ما تقصده، ولأن عدم موافقتنا غير وثيقة الصلة بالموضوع. فلنفترض أن الخطيئة قد صُححت ليبقى هناك احتمالان. فنحن نستطيع أن نتفق أو نختلف. ولكن إذا اختلفنا الآن فهناك مسألة حقيقية بيننا. فنحن نفهم رأيك السياسي، ولكن رأينا عكس ذلك.

إن مسائل عن موضوعات الحقائق أو السياسة ـ مسائل عن الأشياء الموجودة أو التي يجب أن تكون ـ هي حقيقية بهذا المعنى فقط عندما تتأسس على الفهم المعتاد لما قد قيل. إن الاتفاق على استعمال الكلمات شرط لا غنى عنه من أجل صحة الاتفاق أو الاختلاف على حقائق تُبحث وذلك بسبب التقائك مع أفكار الكاتب من خلال تفسير كتابه الذي يجعلك قادراً على اتخاذ رأيك بأن تتفق أو تختلف عن المنحى الذي يريده.

الرأي المسبق والحكم

دعنا الآن ندرس الحالة التي قلت فيها بأنك فهمت ما يريده الكاتب ولكنك لا تتفق معه في الرأي. وإذا حاولت التقيد بالقواعد التي بحثناها في الفصل السابق فإنك لا تتفق معه لأنك تظن أنه يمكن أن يظهر بأنه على خطأ في بعض النقاط. وأنت لا تنادي برأيك المسبق أو تعبر عن عواطفك. ولأن هذا شيء حقيقي من وجهة نظر نموذجية فإن هناك ثلاثة شروط تجب مراعاتها إذا أريد للمناظرة أن تدار بشكل حسن.

الشرط الأول: حيث أن البشر هم حيوانات بالإضافة إلى أنهم عقلاء. فمن الضروري أن نُسلِّم بالمشاعر التي تجعلنا نتخاصم أو تلك التي تظهر أثناء

عملية المناظرة. وإلا فإنك تعطي منفذاً لهذه المشاعر ولا تضع أسباباً. بل إنك قد تعتقد بأن لديك أسباباً في حين أن كل ما لديك هو مشاعر قوية.

الشرط الثاني: يجب عليك أن تضع افتراضاتك بصراحة ووضوح. ويجب عليك أن تعرف ما هو حكمك المسبق. وإلا فإنك لا تستطيع على الأرجح أن تعترف بأن معارضك بالمقابل لديه افتراضات مغايرة، فالمناظرة الجيدة يجب ألا تكون صداماً حول الافتراضات. وإذا كان الكاتب ـ على سبيل المثال ـ يسألك بصراحة أن تأخذ شيئاً ما على أنه بديهي، فإن الحقيقة تكمن في أن ما يعارض ذلك يمكن أيضاً أن يحمل على أنه بديهي، لكن ذلك يجب ألا يمنعك من قبول طلبه. وإذا كان حكمك المسبق يقبع في الطرف المعارض وإذا كنت لا تسلم بأن ذلك هو حكم مسبق، فإنك بذلك لن تعطي أذناً صاغية وعادلة.

ثالثاً وأخيراً: إن محاولة التجرد هي ترياق جيد لعدم الرؤية الذي لا يمكن تجنبه تقريباً في حالة الموافقة، والمناظرة بدون خلاف هي بالطبع مستحيلة، ولكن للتأكد من أنها مجدية وأقل انفعالاً، فإن كلاً من المتناظرين يجب أن يأخذ بوجهة نظر الطرف الآخر. فإذا كنت غير قادر على قراءة الكتاب بتعاطف فإن عدم موافقتك له هي على الأغلب مشاكسة وليست حواراً حضارياً.

هذه الشروط الثلاثة هي مثالياً شروط ضرورية في الحوار الذكي والمثمر. وهي تطبق على القراءة بشكل واضح إلى المدى الذي تحكمه المحادثة بين القارىء والكاتب، فكل واحد منها يحتوي على نصيحة معقولة للقراء الذين يرغبون في احترام كياسة عدم الموافقة.

ولكن المثال هنا، كما في كل مكان، هو شيء تقريبي. والمثالية يجب ألا تُتوقع من الكائنات البشرية. ونحن بأنفسنا نسارع إلى الاعتراف بأننا واعون بما فيه الكفاية لنقائصنا. فنحن قد انتهكنا قواعدنا عن الطريقة الفكرية الجيدة للمناظرة. إذ وجدنا أنفسنا نهاجم كتاباً عوضاً عن أن ننقده، ونشجب الأشياء في حين كان واجبنا دعم أفكارنا، وَندعي بأن آراءنا المسبقة أفضل من آراء الكاتب.

ونحن نستمر في الاعتقاد ـ على كل حال ـ بأن المناقشة والقراءة النقدية يمكن أن تكون بتهذيب جيد. ونحن لهذا السبب سوف نستبدل هذه الشروط النموذجية الثلاثة بمجموعة من الطرق التي من السهل اتّباعها والتي يمكن من خلالها أن نعكس نقد الكتاب. وأملنا أن يقصر القارىء نفسه على هذه النقاط، ليكون على الأرجح أقل انغماساً في تعابير المشاعر أو الأحكام المسبقة.

ويمكن أن توجز النقاط الأربعة من خلال تخيل القارىء وكأنه يناقش الكاتب ويحاوره. وبعد أن يقول القارىء إنه قد «فهم ولكنه لم يوافق»، يستطيع أن يوجه الملاحظات التالية للكاتب: (1) أنت غير منسق في معلوماتك. (2) أنت قاصر في معلوماتك. (3) أنت غير منطقي وحججك غير مقنعة. (4) تحليلك غير مكتمل.

وهذه يمكن ألاتكون مجهدة، بالرغم من أننا نعتقد أنها كذلك. وفي كل الأحوال فهي النقاط الرئيسية التي يضعها القارىء الذي لا يتفق مع الكاتب. إن هذه النقاط ليست مستقلة إلى حد ما. لكن وضعك إحداها لا يمنعك من وضع الأخرى. فواحدة منها أو كلها يمكن أن توضَّح لأن العيوب التي تشير إليها الواحدة منها لا تمنع العيوب الأخرى من الظهور.

ولكن يجب علينا أن نضيف أن القارىء لا يستطيع وضع أي من هذه النقاط دون أن يكون محدداً ودقيقاً في إشارته إلى الحالات التي يكون فيها الكاتب غير منسق أو قاصراً في معلوماته أو غير منطقي. كما أن الكتاب لا يمكن أن يكون غير منسق أو قاصراً بكل معلوماته. إضافة إلى أنه لا يمكن أن يكون غير منطقي بمجمله. والأكثر من ذلك فإن القارىء الذي يضع أياً من هذه الملاحظات يجب عليه أن يكون محدداً من خلال تحديد التسلسل، إضافة إلى وجوب تعليل ملاحظاته وإعطاء أسبابٍ لما يقوله.

الحكم على آراء الكاتب

إن الملاحظات الثلاث الأولى تختلف نوعاً ما عن الملاحظة الرابعة كما

سنرى بعد قليل. دعنا ندرس كلاً من هذه الملاحظات باختصار ومن ثم نعود إلى الملاحظة الرابعة.

1 ـ أن تقول إن الكاتب قاصر في معلوماته هو أنك تعني نقص بعض المعرفة الضرورية لحل المشكلة التي يتصدى لها. ولاحظ هنا أنه إذا لم تكن المعرفة المحرزة من قبل الكاتب ضرورية لحل هذه المشكلة التي يتصدى لها فلا يوجد ضرورة لهذه الملاحظة. ولتثبت ملاحظتك يجب أن تكون أنت بذاتك قادراً على توضيح المعرفة التي تنقص الكاتب وأن تظهر أيضاً كيف هي وثيقة الصلة بالموضوع وكيف تؤثر على النتائج التي توصل إليها الكاتب.

إن بعض التوضيحات كافية هنا. فمثلاً إن داروين تنقصه المعرفة في موضوعات الوراثة التي بحثها العالم مندل وأخصائيو الوراثة من بعده. وإن إهماله لميكانيكية الوراثة هو واحد من العيوب الرئيسية التي يحويها كتابه «أصل الأنواع». كما أن جيبون يفتقر إلى حقائق معينة أظهرتها البحوث التاريخية فيما بعد والتي أدت إلى سقوط روما. إن قصور المعلومات في العلوم والتاريخ عادة يمكن أن يكتشف فيما بعد والتي أدت إلى سقوط روما. إن قصور المعلومات في العلوم والتاريخ عادة يمكن أن يكتشف فيما بعد من خلال الأبحاث. وإن تطوير تقنيات الملاحظة يطيل التقصي ويجعل هذه الأشياء تحدث في معظم الأعمال. ولكن في الفلسفة يمكن أن تحدث خلاف ذلك. فهناك توجد إمكانية الربح والخسارة مع مرور الوقت. إن القدماء مثلاً وضعوا فرقاً واضحاً بين ما يشعر به البشر ويتخيلونه وبين ما يستطيعون فهمه. وفي القرن الثامن عشر كشف دافيد هيوم عن تجاهله لهذا التفريق بين التجسيد والفكرة بالرغم من أنها منشأة بشكل جيد لدى الفلاسفة الذين أتوا قبله.

2 ـ أن تقول إن الكاتب أساء فهمه هو أنك تعني أن الكاتب يؤكد ما ليست هي الحالة. والخطأ هنا يمكن أن يعود إلى قصور معرفته، لكن الخطأ أكثر من ذلك، فهي ـ إساءة الفهم ـ تتألف من وضع تأكيدات مخالفة للحقائقچ إن الكاتب يقترح ـ معتقداً أنه محق في ذلك ـ ما هو في الحقيقة

خطأ أو أقل احتمالاً. إنه يدعي بأن لديه معرفة ليست بحوزته في الواقع. إن نوع القصور يجب أن يشار إليه بالطبع فقط إذا كان ضرورياً للنتائج التي توصل إليها الكاتب. ولتؤيد ملاحظتك يجب أن تكون قادراً على أن تجادل حول الحقيقة ذات الاحتمالات الأعظم للوضعية التي هي بخلاف الحقيقة لدى الكاتب. وعلى سبيل المثال فإن سبينوزا في واحدة من دراساته السياسية يقول إن الديموقراطية هي نموذج أكثر إجازة للحكومة من الملكية. وهذا عكس ما تؤكده الحقائق جيداً في التاريخ السياسي. إن خطأ سبينوزا بهذا الاعتبار له نتائج سلبية في مناقشاته. كما أن أرسطو ذو معرفة قاصرة عن دور العامل الأنثوي في التناسل الحيواني ولذلك أتت نتائجه ناقصة الإثبات في عملية التناسل. وتوما الأكويني افترض خطأ أن قضايا الأجسام المقدسة هي مختلفة بشكل أساسي عن الأجسام الدنيوية أو الأرضية لأنه قال إن الأخيرة فقط تتغير بالموضع فقط وإلا فإنها غير قابلة للتغيير. إن الفيزياء الفلكية المعاصرة قد صححت هذا الخطأ وبذلك تطورت عن علم الفلك في العصور السحيقة والمتوسطة. ولكن هناك خطأ له ضرورة محدودة والنص لا يؤثر في آراء الأكويني الميتافيزيائية حول معقولية الأشياء كما تتشكل من مادة وأشكال.

إن هاتين النقطتين من النقد يمكن أن ترتبطا ببعضهما، فقصور المعلومات كما رأينا يمكن أن يسبب خطأ في التأكيدات. والأكثر من ذلك عندما يسيء الشخص فهمه في اعتبار ما فإنه غير مُلِّم بمعلوماته في نفس الاعتبار. ولكن ذلك يجعل اختلافاً فيما إذا كان العيب سلبياً أو إيجابياً. فإن القصور في المعرفة الضرورية يجعل من المستحيل عليك أن تحل مسائل معينة أو أن تدعم نتائج معينة. والخطأ في الافتراضات يقود على كل حال إلى خطأ في النتائج وفي حلول لا يمكن الدفاع عنها. وأخذ هاتين النقطتين معاً بالإضافة إلى عيوب في المقدمات المنطقية للكاتب يحتاج إلى معرفة أوسع من تلك التي يمتلكها. كما أن إثباتاته وأسبابه هي غير جيدة بما فيه الكفاية من حيث النوعية أو الكمية.

3 ـ وأن تقول إن الكاتب غير منطقي فكأنك تقول إنه ارتكب أخطاء في

التسبيب. وبشكل عام فإن أخطاء من هذا النوع هي على نوعين. النوع الأول: وهو أن يوجد استنتاج غير مرتبط في المقدمات والذي يعني أن ما استنتج لا يتبع ببساطة الأسباب المقدمة لهذا الاستنتاج. والنوع الثاني: هو حدوث عدم الأنساق والذي يعني أن الشيئين اللذين يحاول الكاتب أن يقولهما ـ أي المقدمة والاستنتاج ـ غير منسقين. هنا يجب على القارىء أن يكون قادراً على أن يظهر بشكل دقيق أياً من المناقشات التي ينقصها الإقناع. وأن يبرز العيب الذي يؤثر على الاستنتاجات الرئيسية فالكتاب قد ينقصه الإقناع في اعتبارات غير ضرورية.

إنه أكثر صعوبة لتوضيح النقطة الثالثة، لأن كتباً جيدة قليلة تجعل الانسياب واضحاً للتعليلات. وعندما يحدث ذلك فإنها عادة تتضمن تعليلات محكمة، وذلك يتطلب قارئاً متمرساً ليكتشفها ولكننا نستطيع أن نريك مغالطة منتشرة في كتاب ماكيافيلي «الأمير» حيث يكتب:

«إن الأساسات الرئيسية لكل الدول قديمها وحديثها هي القوانين الجيدة. ولا توجد قوانين جيدة إذا لم تكن الدولة مسلحة بشكل جيد. ويستتبع بعد أنه حيث يوجد تسليح جيد توجد قوانين جيدة».

وذلك ببساطة لا يستتبع الحقيقة في أن القوانين الجيدة تعتمد على قوة التسليح الملائمة، وأنه حيث توجد القوة المسلحة الجيدة فإن القوانين يجب أن تكون بالضرورة جيدة. ونحن نتجاهل الصفة موضع التساؤل الشديد للجدال الأول ونهتم فقط بالاستنتاج غير المرتبط بالمقدمات هنا. وصحيح أن نقول إن السعادة تعتمد على الصحة أكثر من قولنا إن القوانين الجيدة تعتمد على قوة التسليح الفعّال ولكن ذلك لا يستتبع أن كل الأصحاء هم سعداء.

إن هوبس Hobbes يناقش في مكان من كتابه «عناصر القانون» أن الأجسام ليست إلا كميات موضع حركة. وإن عالم الأجسام، كما يقول، ليس له نوعية مهما كانت هذه الأجسام. ثم في مكان آخر يناقش في أن الإنسان بذاته ليس

إلا جسداً أو مجموعة من الأجسام الذرية في موضع الحركة. والآن مع الاعتراف بوجود النوعية الحسية ـ الألوان والرائحة والمذاق وهكذا دواليك ـ فإنه يستنتج أنها ليست إلا حركة الذرات في الدماغ. إن الاستنتاج لا ينسق مع الموضع الذي أخذ سابقاً وهو بالتحديد أن عالم الأجسام في الحركة هو بدون نوعيات. وما قيل عن كل الأجساد في الحركة يجب أن ينطبق على مجموعة خاصة منها بما فيها ذرات الدماغ.

إن النقطة الثالثة في النقد تتعلق بالاثنتين الأخريين. ويمكن للكاتب بالطبع أن يفشل في رسم النتائج التي تشتمل عليها الإثباتات أو تنطوي عليها المبادىء. ولكننا هنا معنيون أساساً بالحالة التي تكون فيها الأسباب ضعيفة بالنسبة للأرضية الجيدة. إن ذلك ممتع ولكنه أقل أهمية، لاكتشاف قصور الإقناع في الأسباب المستخرجة من المقدمات المنطقية التي هي نفسها غير صحيحة، أو من الإثباتات غير الملائمة.

إن الشخص الذي يصل من المقدمات المنطقية المعقولة إلى نتائج غير صالحة، بأحد المعاني، هو شخص ذو معرفة مغلوطة. ولكن ذلك يستحق التمييز في نوع الخطأ الذي يعود إلى الأسباب السيئة من ذلك النوع الذي ناقشناه سابقاً والذي يعود إلى عيوب أخرى خصوصاً المعرفة غير الكافية للتفاصيل الضرورية.

الحكم على كمال الكاتب

إن النقاط الثلاث للنقد والتي درسناها للتو تبحث في منطقية ما كتبه الكاتب وتسبباته أيضاً. دعنا الآن ننتقل إلى الملاحظة الرابعة المعكوسة التي يستطيع القارىء أن يضعها وهي تتعلق بكمال الكاتب في تنفيذه لمخططه.

قبل أن نتقدم إلى الملاحظة الرابعة، يجب ملاحظة شيء واحد. فحيث أنك قلت إنك فهمت وفشلت في إثبات أي من هذه النقاط الثلاث الأولى فإن التزامك يفرض عليك أن تتفق مع الكاتب إلى المدى الذي يذهب إليه.

وليست لديك الحرية أو الرغبة في هذا الموضوع. إنه ليس اختيارك المقدس أن تقرر ما إذا كنت سوف تتفق أو تختلف مع الكاتب.

وإذا لم تكن قادراً على أن تظهر أن الكاتب غير عارف أو أن معرفته مغلوطة أو أنه غير منطقي في القضايا الضرورية فإنك لا تستطيع ألا تتفق معه بهذه البساطة. ويجب أن تتفق معه. ولا يمكنك أن تقول للكاتب كما يقول طلاب كثيرون بالإضافة إلى ما يقوله أشخاص آخرون «أنا لم أجد أي خطأ في مقدماتك ولم أجد أخطاء في أسبابك ولكني لا أتفق مع استنتاجاتك. وكل ما يمكن أن تعنيه بقولك شيءٌ يشبه ذلك، هو أن النتائج لم تعجبك. أنت لا تختلف معه. إنك تعبّر عن مشاعرك أو إجحافك. وإذا استطاع الكاتب إقناعك فيجب أن تعترف بذلك. (وإذا كنت بالرغم من فشلك في إثبات واحدة أو أكثر من النقاط النقدية الثلاث، وشعرت بصدق بعدم اقتناعك، فربما كان يجب عليك ألا تقولَ إنك فهمت في المكان الأول).

إن النقاط الثلاث الأولى تتعلق بعبارات الكاتب وعروضه ومناقشاته. وهذه هي العناصر الثلاث التي استعملها لحل المسائل التي وجّه إليها جهوده. والملاحظة الرابعة في أن الكتاب غير الكامل يقع ضمن دراسة التركيب الكلي للكتاب.

4 ـ أن تقول إن تحليل الكاتب غير كامل هو كأنك تقول إنه لم يحل كل المسائل التي ابتدأ بها، أو انه لم يستخدم مواده إلى أقصى قدر ممكن، وإنه لم يرَ كل ما تتضمنه وما تتشعب عنه، أو انه فشل في وضع تفريق ضروري لمعالجته. وليس كافياً أن تقول إن الكتاب غير كامل. فكل واحد يمكنه أن يقول ذلك عن أي كتاب. إن الإنسان محدود، وكذلك أعماله، وليس هناك من ضير في وضع ذلك وعليه يجب على القارىء تعريف عدم الملائمة بدقة وبكل من جهده الخاص كإنسان عارف أو بمساعدة كتب أخرى.

دعنا نشرح هذه النقطة بشكل مختصر. إن تحليل أنواع الحكومات الذي

بحثه أرسطو في كتابه «السياسة» غير كامل بسبب محدودية زمانه وخطئه في قبول العبودية، فقد فشل في اعتبار أو في تصور أن الدستور الديمقراطي الحقيقي يتأسس من تصويت الجميع. كما أنه لم يستطع أن يتخيل كلاً من الحكومة التمثيلية أو النوع الحديث من الدولة الفيدرالية. وتحليله كان يجب أن يتسع لينطبق على هذه الوقائع السياسية. كما أن كتاب أقليدس «عناصر الهندسة» هو كتاب غير كامل لأن أقليدس فشل في أن يدرس الافتراضات الأخرى عن العلاقة بين الخطوط المتوازية. إن الأعمال الهندسية الحديثة تضع هذه الافتراضات الأخرى وتؤكد على ذلك القصور. وكتاب ديوي «كيف نفكر» هو تحليل غير كامل عن التفكير لأنه فشل في أن يعالج ذلك النوع من التفكير الذي يحدث في أثناء القراءة أو التعلم من خلال التعليم بالإضافة إلى ذلك النوع الذي يحدث من خلال التقصي والاكتشاف. وبالنسبة للإنسان المسيحي الذي يؤمن بالخلود الشخصي فإن كتابات إيبكتيتوس Epictetus أو ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius هي كتابات غير كاملة باعتبار السعادة البشرية.

هذه النقطة الرابعة هي ليست أساساً متيناً لعدم الموافقة. إنها عكسس نقدي فقط إلى المدى الذي يشير إلى المحدودية في إنجازات الكاتب. إن القارىء الذي يتفق مع الكاتب في جزء لأنه لا يجد أسباباً ليضع نقاطاً أخرى من النقد المعكوس ـ يمكنه على كل حال أن يرجىء الحكم على الكل، على ضوء هذه النقطة الرابعة عن عدم كمال الكتاب. إن إرجاء الحكم من جانب القارىء يستجيب لفشل الكاتب في حل المسائل بشكل تام.

إن الكتب الأخرى في نفس الميدان يمكن أن تقارن نقدياً مع مراجع هذه المعايير الأربعة. إن واحداً أفضل من الآخر في جزء منه كما يحكي حقائق أكثر ويقع في أخطاء أقل. وإذا كنا نقرأ للمعرفة، فإن ذلك الكتاب هو الأفضل، وواضح، أيُّهما الأكثر ملاءمة في معالجة موضوع معين. إن كاتباً ما يمكن أن تنقصه المعلومات التي يمتلكها كاتب آخر. ويمكن أن يقع كاتب في خطأ افتراض بينما يكون كاتب آخر متحرراً منها. كما أن كاتباً يمكن أن يكون أقل

إقناعاً من كاتب آخر من حيث التسبيب على أرضية مشابهة. ولكن المقارنة الأكثر عمقاً يمكن أن توضع مع الاعتبار لكمال التحليل الذي يقدمه كل منهم. إن مقياس مثل هذا الكمال يمكن أن يوجد في عدد من التفريقات الصحيحة والهامة التي يمكن أن تحتويها مثل هذه المقارنة. ويمكنك أن ترى الآن كم هو مفيد التقاط تعابير الكاتب. إن عدد العبارات المختلفة يرتبط بعدد هذه التفريقات.

كما يمكنك أن ترى أن الملاحظة النقدية الرابعة تجمع المراحل الثلاث من القراءة التحليلية لأي كتاب. إن الخطوة الأخيرة من التبين الهيكلي هي في أن تعرف المسائل التي يحاول الكاتب أن يحلها. والخطوة الأخيرة من التفسير هي في أن تعرف أياً من هذه المسائل قد حلها الكاتب وأياً منها تركها دون حل. والخطوة الأخيرة من النقد هي في النقطة التي تبحث في الكمال. إنها تلمس التبين الهيكلي إلى المدى الذي تدرس فيه ملاءمة ما قام به الكاتب في صياغة المسائل والتفسير إلى المدى الذي يقيس كم هو مرضٍ ما قام به من أجل حلها.

المرحلة الثالثة من القراءة التحليلية:

لقد أكملنا الآن بطريقة عامة تعداد ومناقشات قواعد القراءة التحليلية. ويمكننا الآن أن ندرج هذه القواعد في تسلسل تحت عنوان ملائم.

أ ـ المرحلة الأولى من القراءة التحليلية:

قواعد تبحث في إيجاد ما يبحث به الكتاب.

1 ـ صنّف الكتاب حسب نوع موضوعه.

2 ـ حدد ما يبحث الكتاب بمجمله، بأقصى قدر من الإيجاز.

3 ـ عدد الأجزاء الرئيسية وتسلسلها وعلاقتها وتبيّن هذه الأجزاء كما تبيّنت الكتاب بمجمله.

4 ـ عرّف المسألة أو المسائل التي يحاول الكاتب حلها.

ب ـ المرحلة الثانية من القراءة التحليلية:

قواعد في تفسير محتويات الكتاب.

5 ـ توصل إلى تفاهم مع الكاتب من خلال تفسير كلماته الرئيسية.

6 ـ التقط عروض الكاتب الرئيسية من خلال بحث أهم جمله.

7 ـ اعرف مناقشات الكاتب من خلال إيجادها أو بنائها في تسلسل الجمل.

8 ـ حدد ما هي المسائل التي حلها الكاتب وما هي المسائل التي لم يحلها وقرر ما هي المسائل التي يعرف الكاتب أنه فشل في حلها.

جـ ـ المرحلة الثالثة من القراءة التحليلية:

قواعد في نقد الكتاب كواسطة لنقل المعرفة.

أ ـ قواعد عامة في الإتيكيت الفكري

9 ـ لا تبدأ في نقد الكتاب حتى تستكمل تبينه من خلال تفسير الكتاب، ولا تقل أنك تتفق أو تختلف أو ترجىء حكمك حتى تستطيع أن تقول «إنك فهمت».

10 ـ لا تختلف بشكل منازع أو مشاكس.

11 ـ أثبت أنك تميز الفرق بين المعرفة وبين الرأي الشخصي الصرف من خلال عرض أسباب جيدة لأي حكم نقدي تقوم به.

ب ـ معايير خاصة لنقاط النقد

12 ـ أظهر عدم معرفة الكاتب.

13 ـ أظهر المعرفة المغلوطة للكاتب.

14 ـ أظهر عدم منطقية الكاتب.

15 ـ أظهر عدم كمال تحليل الكاتب.

ملاحظة: في هذه القواعد الأربع الأخيرة، نجد المعايير الثلاثة الأولى منها هي من أجل الاختلاف مع الكاتب. وإذا فشلت في هذه المعايير الثلاثة فإنه يجب عليك أن تتفق مع الكاتب. وعلى الأقل في قسم مما يقوله. وبالرغم من ذلك يمكن أن ترجىء حكمك على كل الكتاب على ضوء النقطة الأخيرة.

لقد لاحظنا في نهاية الفصل السابع أن تطبيق القواعد الأربع الأولى من القراءة التحليلية يساعدك في الإجابة على السؤال الأساسي الأول الذي يجب أن تسأله عن كل كتاب وهو تحديداً ماذا يبحث الكتاب بمجمله؟ وبنحوٍ مشابه فقد أشرنا في نهاية الفصل التاسع إلى أن تطبيق القواعد الأربع للتفسير يساعدك في الإجابة على السؤال الثاني الذي يجب أن تسأله وهذا السؤال ماذا قيل بشكل مفصل، وكيف قيل؟ وإنه لمن الواضح على الأغلب أن القواعد السبع الأخيرة للقراءة ـ قواعد الإتيكيت الفكري ومعايير موضوعات النقد ـ تساعدك في الإجابة على السؤالين الرئيسيين الثالث وّالرابع اللذين يجب عليك أن تسألهما. وأنت سوف تتذكر أن هذين السؤالين هما: هل هذا صحيح؟ وماذا عن الكتاب؟

إن السؤال هل هذا صحيح؟ يمكن أن يُسأل عن أي شيء يُقرأ. ويمكن تطبيقه على أي نوع من أنواع القراءة، بمعنى أو أكثر من معاني «الحقيقة» ـ رياضية، علمية، فلسفية، تاريخية أو شعرية. ولا يوجد مديح أعلى يمكن أن يُعطى لعمل من أعمال العقل البشري أكثر من إطرائه من خلال مقاييس الحقيقة التي أنجزها، ومن خلال نفس الصفة فإنه لنقده، بشكل معاكس، لفشله بهذا الاعتبار هو بأن تعامله بالجدّية التي تستحقها الأعمال الجادة. والآن في السنوات الحاليّة وللمرة الأولى في تاريخ الغرب يوجد تضاؤل في معيار الجودة هذا. وإن كتباً تحظى باستحسان النقّاد وتلقى انتشاراً شعبياً واسعاً هي الكتب التي تصل إلى مدى الهزء بالحقيقة تقريباً. وأكثر الكتب الخيالية التي تفعل ذلك تكون هي الأفضل. إن قراء عديدين وبشكل خاص الذين يراجعون

المطبوعات الحديثة يستخدمون معايير أخرى في حكمهم ويمدحون أو يشجبون الكتب التي يقرأونها ـ روائيتها وإثارتها وإغراءها وقوتها. أو حتى قدرتها على أن تذهل أو تربك العقل ولكن ليس حقيقتها ووضوحها أو قدرتها على التنوير. ربما أخذوا هذا المسار من خلال حقيقة أن الكثير من الكتابات المعاصرة تبحث فيما هو خارج نطاق العلوم الأصيلة وتعلن عن اهتمام قليل بالحقيقة.

ويمكن للفرد أن يجازف بالقول إن شيئاً حقيقياً في أي معنى للعبارة يمكن أن يحظى مرة أخرى بأن يصبح موضع اهتمام أساسي كما يجب أن يكون: إن كتباً قليلة من هذا النوع تكتب وتطبع وتقرأ.

إذا لم يكن ما تقرأه صحيحاً في بعض المعايير، يجب عليك ألا تذهب أبعد من ذلك. فأنت لا تستطيع أن تقرأ من أجل المعلومات بوضوح دون أن تحدد ما مدى أهميتها أو ما يجب أن تكون عليه هذه الأهمية وتلحقها بالحقائق المعروضة. إن الحقائق نادراً ما ترد بدون بعض التفسير الضمني أو الصريح. إن هذا شيء صحيح خصوصاً إذا كنت تقرأ مختارات من المعلومات التي تختار الحقائق بالضرورة حسب بعض التقييم لأهميتها ووفق بعض مبادىء التفسير. وإذا كنت تقرأ للتنوّر فإنه لا يوجد نهاية للاستعلام، في أي مرحلة من مراحل التعلم، وهي متجددة من خلال السؤال، ماذا عن هذا الشيء؟

هذه الأسئلة الأربعة كما أشرنا سابقاً تلخص الالتزامات الملقاة على عاتق القارىء. والأكثر من ذلك أن الأسئلة الثلاثة الأولى منها تنسق مع شيء في صميم طبيعة الحوار البشري. وإذا كان التواصل غير معقد فإنه من غير الضروري توضيح تركيب الحوار. وإذا كانت اللغة وسيلة تامة للتواصل عوضاً عن أن تكون وسيلة غير شفافة فإنه لن يكون هناك حاجة للتفسير. وإذا كان الخطأ أو الإهمال لا يقيد الحقيقة والمعرفة فيجب علينا ألا نكون محرجين. إن السؤال الرابع يثير التفريق بين المعلومات وبين الفهم. وعندما تكون المادة المقروءة إعلامية بحد ذاتها يظهر لديك التحدي للبحث أكثر عن التنوّر. وحتى عندما تكون قد أخذت شيئاً من التنوّر من خلال ما قرأت فإنك مدعو لمتابعة البحث عن المغزى.

ربما قبل أن نتناول القسم الثالث يجب علينا أن نؤكد مرة أخرى أن قواعد القراءة التحليلية تصف الأداء المثالي لهذه القراءة. وقلائل جداً من القرّاء من قرأوا بهذه الطريقة النموذجية، وهؤلاء الذين فعلوا ذلك طبّقوها على الأغلب على كتب قليلة جداً والمثال على ذلك يبقى على كل حال المقياس الأساسي للإنجاز. وأنت قارىء جيد إلى المدى الذي تستطيع فيه أن تقترب من ذلك.

وعندما نتحدث عن شخص بأنه قارىء جيد فإن هذا النموذج يبقى في أذهاننا. وغالباً ما نعني بالقارىء الجيد الذي يقرأ بكمية أكبر وليس بنوعيّة أفضل. إن الشخص الذي يقرأ كثيراً ولكن ليس بشكل جيد يستحق الإشفاق أكثر من أن يستحق المكافأة. وكما قال توماس هوبس «إن قرأت كتباً عديدة كما يفعل أكثر الناس فإني سأكون قليل الذكاء مثلهم. إن عظماء الكتّاب كانوا دائماً قراءً عظماء. ولكن ذلك لا يعني أنهم قرأوا كل الكتب التي كانت مدرجة في أيامهم كشيء لا غنى عنه. وهم في حالات عديدة قد قرأوا كتباً أقل مما نتطلبه نحن في معظم كلياتنا، ولكن ما قرأوه قرأوه بشكل جيد. ولأنهم أتقنوا قراءة هذه الكتب أصبحوا أنداداً لكتّابها. وقد تأهلوا لأن يصبحوا ذوي سلطات على قدراتهم الشخصية. وفي مجرى الأحداث الطبيعي غالباً ما يصبح الطالب الجيد أستاذاً ويصبح القارىء الجيد كاتباً.

إننا لا ننوي هنا أن نحولك من قارىء إلى كاتب. إننا ننوي أن نذكرك، بالأحرى، بالمفهوم المثالي للقراءة الجيدة من خلال تطبيق القواعد التي وضعناها في قراءة كتاب واحد وليس في أن تصبح عارفاً بشكل سطحي بعدد أكبر من الكتب. هناك بالطبع عدد كبير من الكتب التي تستحق قراءة جيدة. كما يوجد عدد أكبر من الكتب يستحق التفحص فقط. ولتكون قارئاً جيداً بكل معنى الكلمة عليك أن تعرف كيف تستخدم كل المهارات التي تمتلكها مع التمييز في أن تقرأ كل كتاب حسبما يستحق من قراءة تبعاً لميزاته.

الفصل الثاني عشر

مساعدات القراءة الخارجية

إن أياً من مساعدات القراءة التي تندرج خارج الكتاب المزمع قراءته يمكن أن يقال عنها بأنها خارجية. ولن نعني «بالقراءات الداخلية» قراءة الكتاب ذاته وبمعزل عن كل أنواع الكتب الأخرى. كما أننا نعني بالقراءات الخارجية قراءة الكتاب على ضوء الكتب الأخرى. وقد تجنبنا ـ عن عمد ـ حتى الآن ذكر أيٍ من مساعدات القراءة الخارجية. وقواعد القراءة التي أطلقناها هي قواعد القراءة الخارجية. فهذه القواعد لا تشمل الخروج عن نطاق الكتاب لاكتشاف ما يعنيه. وهناك أسباب جوهرية لإصرارنا على أن هدفك الأساسي كقارىء هو أن تأخذ الكتاب إلى مكتبك وتبذل جهداً بمفردك وبقوة عقلك فقط ودون مساعدات خارجية. إن المساعدات الخارجية تشارك في ذلك، وهي ضرورية في بعض الأحيان من أجل الفهم الكامل.

وهناك سبب وحيد لعدم ذكر أي شيء عن القراءات الخارجية حتى الآن وهو أن كلاً من القراءات الداخلية والخارجية تنحو لأن تندمج في عملية الفهم الفعلية في نقد الكتاب. ونحن لا نستطيع أن نساعد في تجربتنا لحمل أهداف تفسير ونقد بل حتى تبيّن الكتاب دون قراءات سابقة. بل يجب علينا أن نقرأ كتباً أخرى قبل هذا الكتاب، لأنه لا أحد يمكنه أن يبدأ وظيفة القراءة من خلال القراءة التحليلية مباشرة. ونحن لا نستطيع أن نحمل تجربتنا عن كلٍ من الكتب الأخرى والحياة بالانتظام الذي يجب أن يكون، ولكننا بالرغم من ذلك نقيس الجمل والنتائج لكاتب ما من خلال ما نعرفه من مصادر أخرى مختلفة. وهكذا فمن المعقول أن نقول إنه يجب ألا يُقرأ الكتاب بمفرده لأنه لا يوجد

كتاب يقف كلياً بمجمله وبمعزل عن الكتب الأخرى.

لكن السبب الرئيسي الذي جعلنا نتجنب المساعدات الخارجية حتى الآن يكمن في أن بعض القرّاء يعتمدون عليها بشكل أساسي، ونحن نريد أن نؤكد بأن هذا شيء غير ضروري. إن قراءة كتاب بوجود الكتاب بيد والقاموس باليد الأخرى فكرة رديئة، بالرغم من أن ذلك لا يعني أنك يجب ألا تستعمل القاموس إطلاقاً من أجل معاني الكلمات الغريبة عليك. إن البحث عن معاني الكتاب الذي يحيرك في كتب التعليقات هو غالباً نصيحة سيئة. وبالإجمال فإنه من الأفضل أن تبذل كامل جهدك قبل البحث عن مساعدات خارجية، لأنك إذا تصرفت من خلال هذه القاعدة بشكل سليم فإنك سوف تلاحظ أنك تحتاج إلى قدر طفيف من المساعدة الخارجية.

إن المساعدات الخارجية للقراءة تقع في أربع فئات. وسوف نبحثها بالتسلسل في هذا الفصل. وهذه الفئات هي: أولاً التجربة الوثيقة الصلة بالموضوع. والثانية هي الكتب الأخرى. والثالثة هي التعليقات والمستخلصات. والرابعة هي كتب المراجع.

كيف وأين تستخدم كل نوع من هذه الأنواع لا يمكن أن يوضع لكل حالة معينة. وبعض الاقتراحات العامة فقط يمكن أن توضع على كل حال. والميزة المعقولة للقراءة تكمن في أنه يجب البحث عن المساعدة الخارجية عندما يبقى الكتاب غير مفهوم إما كلياً أو جزئياً بالنسبة لك، وبعد أن تكون قد قمت بأقصى جهدك حسب قواعد القراءة الداخلية.

وظيفة التجربة الضرورية

يوجد نوعان من التجارب الضرورية التي يمكن أن يشار إليها للمساعدة من أجل فهم كتاب صعب. ونحن قد ذكرنا على كل حال التمييز الذي يشتمل عليه ذلك عندما تحدثنا في الفصل السادس عن الفرق بين الخبرة العادية وبين الخبرة الخاصة. فالخبرة العادية متاحة لكل الناس فقط لأنهم أحياء. أما الخبرة

الخاصة فيجب أن تكون من خلال البحث الفعال المتاح فقط للذين دخلوا في عناء اكتسابها. وأفضل مثال للخبرة الخاصة هي التجربة في المخبر، ولا يتطلب أن يكون المخبر دائماً ضرورياً. فعالم الأنتروبولوجيا يمكن أن يكتسب خبرة خاصة من خلال سفره إلى حوض الأمازون مثلاً ليدرّس أحوال السكان البدائيين للمنطقة التي لم تكتشف بعد. وإنه نتيجة لذلك يكتسب خبرة خاصة وهي ليست متاحة عادة للآخرين، ولن تكون أيضاً متاحة للعديدين، لأنه إذا كان هناك عدد كبير من العلماء الذين غزوا المنطقة فإنها نتيجة لذلك لن تكون استثنائية. وبشكل مماثل خبرة رواد الفضاء على القمر هي خبرة خاصة جداً بالرغم من أن القمر ليس مخبراً بالمعنى العادي للعبارة. ومعظم البشر لا يملكون الفرصة لمعرفة ماذا يشبه العيش على كوكب بدون هواء، وسوف تمر قرون قبل أن يصبح ذلك خبرة معتادة هذا إذا أتيح لها أن تكون كذلك. إن كوكب المشتري أيضاً بتلك التجاويف العديدة والضخمة سوف يبقى «مخبراً» بهذا المعنى لزمن طويل آتٍ ويمكن أن يبقى كذلك دائماً.

إن الخبرة العادية لا تتطلب أن تكون مشتركة من قبل كل فرد من أجل أن تكون خبرة عادية، إن كلمة عادية هي ليست ككلمة عامة. إن خبرة أن تكون طفلاً لأبوين مثلاً ليست مشتركة من قبل كل الكائنات البشرية لأنه يوجد هناك بعض الأيتام منذ الولادة. ورغم ذلك فإن الحياة العائلية هي خبرة عادية، لأن معظم الرجال والنساء في مجرى الحياة الطبيعي قد مروا واشتركوا بها في حياتهم. وليس الفعل الجنسي خبرة عامة بالرغم من أنه خبرة عادية بالمعنى الذي نعطيه لكلمة عادي. لأن بعض الرجال والنساء لم يمارسوه أبداً، ولكن هذه الخبرة مشتركة بين جزء كبير من الكائنات البشرية والتي لا يمكن أن ندعوها عامة. (إن هذا لا يعني أنه لا يمكن دراسة النشاط الجنسي في المخبر، كما تم ذلك فعلاً). . إن خبرة التعلُّم هي ليست عامة أيضاً، لأن هناك رجالاً ونساء لم يذهبوا إلى المدرسة، ولكن هي أيضاً خبرة عادية.

إن هذين النوعين من الخبرة ضروريان أساساً للأنواع المختلفة من

الكتب. والخبرة العادية ضرورية أكثر لقراءة الأدب التخيلي من جهة، ولقراءة الفلسفة من جهة أخرى. فالحكم باحتمال أن يكون ذلك صحيحاً بالنسبة للرواية مؤسس على الخبرة العادية، والكتاب ـ كما نقول نحن ـ إما أن يكون صحيحاً أو غير صحيح بالنسبة لخبرتنا العامة في الحياة كما يحياها معظم الناس بما في ذلك نحن أنفسنا. إن الفيلسوف مثل الشاعر يتوجه إلى الخبرة العامة للبشرية. وهما لا يقومان بعمل في المخبر أو بأبحاث ميدانية. وهكذا فلفهم واختبار المبادىء الرئيسية للفيلسوف لا نحتاج إلى مساعدات خارجية أو خبرة خاصة. إنه يشير إلى المنطق المألوف والملاحظة اليومية للعالم الذي نعيش فيه.

إن الخبرة الخاصة ضرورية أساساً لقراءة الأعمال العلمية. ولكي تفهم وتحكم على المناقشات الاستقرائية في كتاب علمي، يجب عليك أن تكون قادراً على تتبع الإثباتات التي يقررها العالم كأسس في مناقشته. وفي بعض الأحيان فإن وصف العالم للتجربة هو وصف مفعم بالحيوية وواضح ولن يكون لديك صعوبات في ذلك. بينما تساعد التوضيحات والرسوم والأشكال في التعرف إلى الظواهر الموصوفة في أحيان أخرى.

إن كلاً من الخبرة العادية والخاصة ضروري في قراءة كتب التاريخ لأن التاريخ يشترك في كل من الموضوعات التخيلية والعلمية. فمن جهة نجد أن رواية التاريخ عبارة عن قصة لها حبكة وشخصيات وحلقات وتعقيدات الأفعال، بالإضافة إلى الذروة وآثار الحادثة. والخبرة العادية الضرورية لقراءة الروايات والمسرحيات هي ضرورية هنا أيضاً. ولكن التاريخ أيضاً مثل العلم. بمعنى أنه على الأقل هناك بعض الخبرة التي يجب أن يؤسس عليها المؤرخ أعماله وهي هنا خبرة خاصة جداً. إنه يمكن أن يقرأ وثيقة أو وثائق عديدة لا يستطيع القارىء أن يراها دون صعوبات كبيرة. ويمكن أن يكون المؤرخ قد قام بأبحاث شاملة إما حول ما تبقى من الحضارات الماضية أو من خلال مقابلة أحياء في أماكن بعيدة جداً.

كيف يمكنك أن تعرف ما إذا كنت تستخدم خبرتك الاستخدام الأمثل لمساعدتك في فهم الكتاب؟ إن الاختبار المعتمد هو ذلك الذي أوصينا به لاختبار الفهم: إسأل نفسك ما إذا كان بإمكانك أن تعطي مثالاً متماسكاً للموضوع الذي تشعر أنك قد فهمته. وقد سألنا الطلاب مرات عديدة أن يفعلوا ذلك فقط ليكتشفوا أنهم لا يستطيعون أن يقوموا بذلك. إن الطلاب يظهرون بأنهم فهموا النقطة ولكنهم يضيعون تماماً عندما ندعوهم لأن يضعوا أمثلة من عندهم. والواضح أنهم لم يفهموا الكتاب تماماً. إختبر بنفسك هذه الطريقة عندما لا تكون متأكداً من فهمك للكتاب. خذ كتاب أرسطو «الأخلاق» على سبيل المثال. إنه يقول تكراراً المرة تلو الأخرى إن تلك الميزة هي حالة وسط بين متضادين «العيب والتجاوز». إنه يعطي أمثلة متماسكة عن ذلك. هل يمكنك أن تعطي أمثلة أخرى؟ إذا تمكنت من فعل ذلك فإنك تكون قد فهمت نقاطه الرئيسية. وإذا لم تستطع فإنه يجب عليك أن تعود لتقرأ المناقشات مرة ثانية.

الكتب الأخرى كمساعدات للقراءة

سوف يكون لدينا الكثير مما نقوله فيما بعد عن القراءات المتزامنة لموضوع واحد، حيث يكون لدينا أكثر من كتاب يجب أن يُقرأ في موضوع واحد. أما الآن فإننا نريد أن نقول بعض الأشياء عن الرغبة في قراءة كتب أخرى كمساعدات لقراءة كتاب معين.

إن نصيحتنا تطبق بشكل خاص على ما يدعى بالكتب العظيمة. إن الحماس الذي يجعل الناس يباشرون في عملية قراءة الكتب العظيمة غالباً ما يعطي طريقاً لشعور الناس مباشرة بفقدان الأمل وعدم الملائمة. وهناك سبب لذلك بالطبع وهو أن معظم الناس لا يعرفون كيف يقرأون كتاباً واحداً بشكل جيد. ولكن هذا ليس كل شيء، بالإضافة إلى أن القراء يظنون أنهم يجب أن يكونوا قادرين على فهم الكتاب الأول الذي يختارونه دون قراءة الكتب الأخرى التي ترتبط به. إنهم قد يحاولون قراءة «الأوراق الفيدرالية» دون قراءة شيء عن مواد الاتحاد والدستور. أو يمكنهم أن يحاولوا بكل ذلك دون قراءة كتاب

مونتسكيو «روح القوانين» أولاً أو كتاب روسو «العقد الاجتماعي»، ودراسة لوك عن «الحكومة المدنية».

ليس الموضوع فقط وجود كتب عظيمة ترتبط ببعضها، بل إن هذه الكتب قد كتبت بتسلسل معين يجب عدم تجاهله. فالكتّاب المتأخرون تأثروا بالكتّاب المتقدمين. فإذا قرأت الكتّاب المتقدمين أولاً فإن ذلك سوف يساعدك في قراءة وفهم الكتّاب المتأخرين. إن قراءة الكتب المتعلق واحدها بالآخر وبتسلسل معين يستتبع أن الكتب المتأخرة تكون أكثر فهماً وهو الشيء الأساسي والمعقول في ميزة قراءة الكتب الخارجية.

إن استخدام هذا النوع من القراءات الخارجية هو ببساطة يوسع قيمة قراءة كتاب واحد بمفرده وبيئته. ولقد رأينا كيف يجب أن تكون هذه البيئة واستعمالها في تفسير الكلمات والجمل واستخراج التعابير والافتراضات. وكما أن الكتاب بمجمله محيط لأي من أجزائه، فهكذا تقدم الكتب المتعلق بعضها ببعض محيطاً أكبر يساعد في تفسير الكتاب الذي تقرأه.

من الملاحظ غالباً أن الكتب العظيمة تشتمل على مناقشات مطولة. فالكتّاب العظماء هم قراء عظماء أيضاً وطريقة واحدة لفهمهم هي أن تقرأ الكتب التي قرأوها. وقد قاموا كقراء بإجراء محادثات مع الكتّاب الآخرين تماماً كما يقوم كل منا بإجراء محادثات مع الكتب التي يقرأها بالرغم من أنه لن يكتب كتباً أخرى في الغالب.

ولتتبع هذه المحادثات يجب علينا أن نقرأ الكتب العظيمة من خلال علاقتها مع بعضها البعض. وبتسلسل يحترم الزمن التاريخي. إن المحادثة مع الكتاب تأخذ مكانها من حيث الزمن. والزمن شيء جوهري هنا يجب عدم إغفاله. فالكتب يمكن أن تُقرأ من الحاضر باتجاه الماضي أو من الماضي باتجاه الحاضر. بالرغم من أن التسلسل من الماضي باتجاه الحاضر له ميزة معينة في أن تكون طبيعياً أكثر ففي الحقيقة إن التسلسل التاريخي يمكن أن يلاحظ في كلا الطريقتين.

ومن الجدير بالملاحظة أن قراءة الكتب التي يجب أن تتعلق ببعضها تنطبق على قراءة التاريخ والفلسفة أكثر من انطباقها على الأدب التخيلي. وهي أكثر أهمية في حالة قراءة الفلسفة لأن الفلاسفة قرّاء جيدون لنتاج بعضهم البعض. وعلى الأغلب هي أقل أهمية في حالة قراءة القصص والمسرحيات. التي يمكن أن تُقرأ بمفردها إن كانت جيدة. بالرغم من أن النقد الأدبي لا يريد أن يقيد نفسه بفعل ذلك.

كيف تستعمل التعليقات والمستخلصات

إن الفئة الثالثة من المساعدات الخارجية للقراءة تشتمل على التعليقات والمستخلصات. والأمر الذي يجب الالتفات إليه هنا هو أن مثل هذه الأعمال يجب أن تستخدم بحكمة أي يجب أن تستعمل بشكل ضئيل. وهناك سببان لذلك.

السبب الأول هو أن المعلقين ليسوا دائماً على حق في تعليقاتهم على الكتاب. إلا أنه في بعض الأحيان يكون لعملهم فائدة كبيرة، لكن هذا أقل صحة مما نأمل منه. إن كتاب الدليل والكتيبات التي هي متاحة بشكل واسع في مكتبات الكليات الجامعية وفي مراكز بيع الكتب كثيراً ما تطلب من قبل طلاب الثانويات وغالباً ما تكون مضللة وهذه الأعمال تخبر الطالب عن كل ما يجب معرفته عن الكتاب المعطى وظيفة بيتية من مدرِّسة، ولكنها في غالب الأحيان تعطي معلومات خاطئة بشكل مريع في تفسيراتها وبالإضافة إلى ذلك ـ كموضوع خاص ـ فإنهم كثيراً ما يغضبون المدرسين.

وفي معرض الدفاع عن كتيبات التعليقات يجب أن نسلِّم أنها ذات أهمية كبيرة للنجاح في الامتحان. والأكثر من ذلك فبموازنة هذه الحقيقة نجد أن بعض المدرسين يغضبون من الأخطاء الحاصلة في هذه الكتيبات بينما البعض الآخر منهم يستخدم هذه الكتيبات أثناء التدريس.

والسبب الثاني لاستعمال كتب التعليقات بشكل ضئيل هو أنه حتى وإن

كانت تعليقات هذه الكتب صحيحة فإنها لا يمكن أن تكون شاملة. وذلك بمعنى أنك يمكن أن تكون قادراً على اكتشاف المعاني الهامة التي لم يكتشفها كاتب كتب التعليقات. إن قراءة كتب التعليقات وبشكل خاص تلك التي تكون مؤكدة بذاتها تنحو لأن تحد من فهمك للكتاب، حتى لو كان فهمك قد ذهب في الاتجاه الصحيح إلى أبعد مدى. وهكذا فلدينا نصيحة صغيرة نود أن نعطيك إياها حول استعمال كتيبات التعليقات. فهي في الحقيقة تبدو قريبة جداً لميزة القراءات الخارجية. بينما هي قاعدة أساسية للقراءات الداخلية التي يجب اتباعها أثناء القراءة، وهي قراءة تقديم ومقدمة الكاتب قبل أن تقرأ الكتاب، والقاعدة في هذه الحالة هي أنه يجب عليك ألا تقرأ تعليقاً على كتاب قبل أن تقرأ الكتاب ذاته. وهذا ينطبق بشكل خاص على القراءات المدرسية والمقدمات النقدية. إنها سوف تكون ذات فائدة كبيرة إذا قمت بجهدك في قراءة الكتاب أولاً، وعندها يمكن أن تطبقها في الإجابة على الأسئلة التي تحيرك. وإذا قرأت هذه التعليقات أولاً فإنك سوف تشوّه قراءتك للكتاب فيما بعد، وسوف تنحو لأن ترى النقاط التي أثارها الناقد فقط وتفشل في تبين النقاط الأخرى التي يمكن أن تكون بالأهمية ذاتها بالنسبة لك. هناك متعة كبيرة في قراءة مثل هذه المقدمات إذا ما طُبقت بهذه الطريقة. فأنت تكون قد قرأت الكتاب وفهمته، وكاتب المقدمة قد قرأه أيضاً وربما قرأه مرّات عديدة وتكوّن لديه فهمه الخاص للكتاب. وأنت سوف تقترب منه من خلال التعابير الأساسية المساوية له. فإن قرأت مقدمته قبل أن تقرأ الكتاب فسوف تكون تحت رحمته.

وبالانتباه إلى هذه القاعدة، أي قراءة التعليقات بعد قراءة الكتاب، فإنك سوف تفسر الكتاب قبل قراءة الكتيبات. ومثل هذه الكتيبات لن تؤذيك إذا كنت قد قرأت الكتاب أولاً وعرفت أين الخطأ في هذه الكتيبات إذا كان هناك خطأ. ولكن إذا اعتمدت كلياً على هذه الكتيبات ولم تقرأ أبداً الكتاب الأصلي، فإنك سوف تدخل في متاعب كثيرة.

وهناك نقطة أبعد من ذلك، إذا اعتمدت على كتب التعليقات والكتيبات

فقط، فإنك سوف تضيع إذا لم تجد مثل هذه الكتيبات ويمكنك أن تكون قادراً على قراءة كتاب معين بمساعدة كتب التعليقات ولكنك سوف تكون قارئاً سيئاً بشكل عام.

إن قاعدة القراءة الخارجية التي أعطيناها هنا تنطبق أيضاً على المستخلصات والمختارات. فإنها مفيدة فقط في اعتبارين وفي اعتبارين فقط. الأول، إنها سوف تُنعِش ذاكرتك عن محتويات الكتاب إذا كنت قد قرأته. وبشكل مثالي تكون قد قمت بالاستخلاص بنفسك أثناء قراءة الكتاب قراءة تحليلية، ولكن إذا لم تكن قد قمت بذلك فإن المستخلصات والمختارات يمكن أن تكون ذات أهمية كبيرة لك. والثاني، فإن المستخلصات تكون هامة إذا انخرطت في القراءات المتعددة والموجهة لموضوع واحد وترغب في أن تعرف ما إذا كان كتاباً معيناً وثيق الصلة بمشروعك. إن المستخلصات لا تعوِّض أبداً عن قراءة الكتاب، ولكن يمكنها أن تخبرك ما إذا كنت تريد أو تحتاج أن تقرأ الكتاب أم لا.

كيف تستخدم كتب المراجع

توجد أنواع عديدة من كتب المراجع. وفي القسم التالي سوف نقصر أنفسنا على النوعين الأكثر استعمالاً من هذه الكتب. وهما القواميس والموسوعات. وهناك العديد من الأشياء التي نقولها تنطبق على الأنواع الأخرى من كتب المراجع.

أولاً: هناك شيء لا يمكن إدراكه، بالرغم من أنه صحيح وهو أنه يجب الإلمام بقدر كبير من أنواع المعرفة قبل استعمال كتب المراجع بشكل جيد. وهي تحديداً أربعة أنواع من المعرفة يجب إدراكها؟. وهكذا فإن كتب المراجع عبارة عن ترياق ضد الجهل في طريقة واحدة محدودة. إنها لا تستطيع أن تمنع جهلاً كاملاً لكنها لا تستطيع القيام بالتفكير عوضاً عنك.

ولتستعمل كتب المراجع بشكل جيد يجب أن تكون لديك بعض الأفكار

ـ بغض النظر عن مدى كونها مبهمة ـ عمّا تريد أن تعرفه. إن جهلك يجب أن يكون عبارة عن دائرة من الظلام محاطة بالضوء. ومهمتك أن تجلب الضوء إلى هذه الدائرة المظلمة. ولا يمكنك أن تفعل ذلك ما لم يكن الضوء محيطاً بالظلام. وبكلام آخر نقول يجب أن تكون قادراً على أن تسأل كتب المراجع أسئلة واضحة. وهي لن تكون مساعدة لك إذا كنت تتجول وتضيع في ضباب الجهالة.

ثانياً: يجب عليك أن تعرف أين تجد ما تريد معرفته، يجب عليك أن تعرف ما هو نوع الأسئلة التي تسألها، وأياً من كتب المراجع تجيب على ذلك النوع من الأسئلة. وليس هناك من كتب مراجع تجيب على كل الأسئلة. وهذا يعطي الحقيقة عملياً بأنه يجب أن تكون لديك معرفة عامة بكل الأنواع الرئيسية من كتب المراجع لتتمكن من استعمال أي منها بشكل فعّال.

ثالثاً: إن نوع المعرفة المطلوب قبل أن تكون كتب المراجع مفيدة لك هو أنك يجب أن تعرف طريقة العمل المتبعة للإفادة من هذه المراجع. ولن يكون مفيداً لك أن تعرف ما تريد معرفته، وأن تعرف نوع كتب المراجع التي تستعملها، إذاً لم تكن تعرف كيف تستخدم هذه المراجع. وعلى ذلك فهناك فن لقراءة كتب المراجع. تماماً كما يوجد فن لقراءة أي شيء آخر. وهناك فن ملازم لصنع كتب المراجع من خلال ذلك.

إن الكاتب أو الجامع لمثل هذه الكتب يجب أن يكون عارفاً بنوع المعلومات التي يبحث عنها القراء، كما يجب أن ينظّم كتابه لتسد هذه الاحتياجات. والكاتب لن يكون عارفاً دائماً بتخمين هذه الأسئلة، وعلى كل حال، ولهذا السبب وضعت القاعدة في أنك يجب أن تقرأ مقدمة الكتاب وتمهيده قبل أن تقرأ الكتاب ذاته وهذا ما ينطبق بشكل خاص هنا. ولا تحاول أن تستعمل كتب المراجع قبل أن تأخذ نصيحة المحقق للكتب في كيفية استعمالها.

وبالطبع ليس من الممكن الإجابة على كل أنواع الأسئلة في كتب المراجع. وأنت لن تجد في أي كتاب مرجعي الإجابة عن الأسئلة الثلاثة التي سألها الله للملائكة في قصة توليستوي «ما الذي يعيش البشر من أجله». وهي تحديداً «ماذا يعيش داخل الإنسان؟» و«ماذا لم يعط للإنسان؟» وإنك لن تجد الإجابة على سؤال آخر استعمل كعنوان في قصة تولستوي «ما هي مساحة الأرض التي يحتاجها الإنسان؟» وهناك العديد من الأسئلة. وعلى ذلك تكون كتب المراجع مفيدة عندما تعرف نوع الأسئلة التي يمكن الإجابة عنها من خلالها وما هي الأسئلة التي لا تستطيع الإجابة. وهذا ما يؤدي إلى معرفة نوع الأشياء التي يتفق عليها البشر. وهذه الأشياء التي يتفق عليها البشر يمكن أن توجد في كتب المراجع. والآراء غير المدعومة ليس لها مكان هنا، بالرغم من أنه في بعض الأحيان يمكن أن تندرج تحتها.

إننا نتفق على أنه من الممكن أن نعرف متى ولد إنسان ومتى توفي. وحقائق عن مسائل مشابهة، ونتفق أيضاً على أنه من الممكن أن نعرف كلمات وأشياء. وأن نرسم تاريخاً لأي شيء تقريباً. ولكننا لا نتفق على الأسئلة الأخلاقية والأسئلة المستقبلية وأشياء أخرى لا يمكن وجودها في كتب المراجع. ونحن نفترض في زماننا أن العالم المادي اليوم عالم منظّم ويمكن أن تجد كل شيء عنه في كتب المراجع. ولكن ذلك ليس دائماً كذلك، وكنتيجة لذلك فإن التاريخ في كتب المراجع ممتع بحد ذاته، لأنه يمكن أن يخبرنا الكثير عن التغييرات في آراء البشر إلى المدى المعروف.

وكما ترى، فإننا نقترح أن تكون هناك فئة رابعة مطلوبة للاستفادة الواضحة من كتب المراجع. وهي أنه يجب عليك أن تعرف ما تريد معرفته، وفي أي من كتب المراجع يمكن أن تجده، ويجب عليك أن تعرف كيف تجده في الأعمال المرجعية، ويجب أن تعرف ما يعتبر معروفاً من قبل الكاتب أو المحرر. وكل ذلك يشير إلى أنك يجب أن تعرف الكثير قبل أن تستطيع أن تستعمل الأعمال المرجعية. والكتب المرجعية عديمة الفائدة للأناس الذين لا يعرفون شيئاً ولا تقود إلا إلى الحيرة.

كيف تستعمل القاموس

إن القاموس ككتاب مرجعي هو موضوع لاعتبارات ذكرناها في الفقرة السابقة. والقاموس يدعوك أيضاً لقراءات هزلية. إنه يتحدى أي شخص يجلس في لحظات كسولة.

إن القاموس مليء بالمعرفة المبهمة والإضافات الذكية.. وفوق ذلك فإن لهذه الكلمات استخداماتها الوقورة. ولاستنتاج الأفضل من ذلك على المرء أن يعرف كيف يقرأ أنواعاً خاصة من الكتب كالقاموس.

إن سانيانا يعلّق على الإغريق ـ بأنهم الشعب الوحيد غير المثقف في تاريخ أوروبا ـ ولهم صفة مزدوجة. إن الطبقة العامة كانت بالطبع غير مثقفة، ولكن حتى الطبقة القليلة المتعلمة ـ الطبقة العليا ـ هي أيضاً غير مثقفة بمعنى أنه كان عليهم أن يجلسوا عند أقدام أسياد غرباء. والثقافة بذلك المعنى تبدأ مع الرومان الذين ذهبوا إلى المعلمين والمدارس الإغريقية. وبدأوا ينمون من خلال اتصالهم بالثقافة الإغريقية التي هزموها.

وليس مفاجئاً أن أول قاموس كان عبارة عن مسرد لكلمات هوميروس بغرض مساعدة الرومان في قراءة مفردات الإلياذة والأوديسة، بالإضافة إلى الأدب الإغريقي الذي يستخدم مفردات هوميروس المهجورة بنفس الطريقة التي نحتاجها اليوم في قراءة شكسبير أو شوسر.

عُرفت القواميس في العصور الوسطى ولكنها كانت عبارة عن موسوعات للمعرفة الكلامية التي تتألف من المناقشات الخاصة بالعبارات التقنية المستخدمة في محادثات التعليم. كما عرفت قواميس للغات أجنبية في عصر النهضة (يونانية ولاتينية). وكانت ضرورية من خلال الحقيقة التي تجعل العليم المميز لتلك الفترة يتم باللغات القديمة. وحتى ما كان يدعى بلغات العامة ـ الإيطالية والفرنسية والإنكليزية ـ حلّت تدريجياً محل اللغة اللاتينية كلغة تعلم. وكان السعي نحو التعلم امتيازاً للأقلية. وتحت هذه الظروف كانت

القواميس موجهة إلى جمهور محدود وهي أساساً كمساعد للقراءة.

وهكذا فإننا نرى منذ البداية الدافع التعليمي الذي هيمن على صنع القواميس بالرغم من الاهتمام في الحفاظ على نقاء اللغة وتنظيمها. وعلى النقيض من السبب الأخير فإن قاموس اكسفورد الإنكليزي (Oxford English Dictionary) الذي أعد في عام 1857 كان انطلاقة جديدة حيث أنه لم يحاول النص على الاستخدامات ولكنه عوضاً عن ذلك يعرض سجلاً تاريخياً دقيقاً لكل نوع من استخدامات الكلمة ـ الأسوأ بالإضافة إلى الأحسن ـ مأخوذاً من الكتابات الشعبية بالإضافة إلى الكتابات المتأنقة. ولكن الصراع بين صانع القاموس كشخص عيّن نفسه وسيطاً وبينه كمؤرخ يمكن أن يعتبر مسألة جانبية. لأن القاموس مهما كانت طريقة إنشائه هو عبارة عن أداة تعليمية في أساسه.

هذه الحقيقة ضرورية لقواعد استخدام القاموس كمساعد خارجي للقراءة. فالقاعدة الأولى في قراءة أي كتاب هي معرفة نوعه. وهذا يعني ما قَصَدَ الكاتبُ من تأليفه ونوع الأشياء التي تتوقع أن تجدها في ذلك الكتاب. فإذا كنت تنظر إلى القاموس على أنه كتاب تهجئة أو مرشد للفظ فقط فإنك سوف تستخدمه تبعاً لذلك وهذا يعني أنه ليس شيئاً جيداً. وإذا استطعت أن تدرك أنه يحتوي على معلومات تاريخية فنية مبلورة في نمو وتطور اللغة فإنك سوف تلقي اهتماماً ليس إلى تغير المعاني المدرجة إلى جانب كل كلمة وحسب بل إلى ترتيب هذه المعاني وعلاقتها فيما بينها.

وقبل كل شيء إذا كنت مهتماً بتقدم تعليمك، فإنك سوف تستخدم القاموس حسب قصده الأساسي ـ كمساعد في قراءة الكتب التي يمكن أن تكون صعبة جداً بسبب المفردات التي تشتمل على كلمات فنية، أو مهجورة أو على تلميحات أدبية أو حتى كلمات مألوفة استعملت بمعانيي مهملة.

توجد بالطبع مشاكل عديدة يجب أن تحل في قراءة الكتب قراءة جيدة على نحو مختلف عن تلك التي تنشأ من خلال مفردات الكاتب. وقد حذّرنا

من الجلوس لقراءة كتاب وهو في إحدى يدينا والقاموس في اليد الأخرى لا سيما في قراءة كتاب صعب للمرة الأولى. وإذا كان عليك أن تنظر إلى الكلمات العديدة منذ البداية فإنك وبالتأكيد سوف تضيّع وحدة الكتاب وتسلسله. إن الخدمة الأساسية للقاموس تكمن في تلك الحالات عندما تجابه بكلمات فنية أو عندما تجابه بكلمات جديدة عليك كلياً. وحتى في هذه الحالة فنحن لا نوصي بالنظر إليها خلال قراءتك الأولى لكتاب جيد إلا إذا بدت هذه الكلمات هامة بالنسبة للمعنى العام لنص الكاتب.

هذا ما يدعونا لأن نطلق عدة نصائح سلبية. فلا شيء مسخط أكثر من الفرد الذي يحاول أن يناقش في مواضيع عن الشيوعية أو العدالة أو الحرية من خلال الاقتباس من القاموس. فصانعو القاموس يمكن أن يحترموا كسلطات في استعمال الكلمة ولكنهم ليسوا الينبوع النهائي للحكمة. وقاعدة سلبية أخرى هي: لا تبتلع القاموس، ولا تحاول أن تغني كلماتك من خلال التذكر السريع لقوائم فاخرة من الكلمات التي لا ترتبط معانيها بأي من التجربة الفعلية.. وبالمختصر لا تنسى أن القاموس هو كتاب عن الكلمات وليس كتاباً عن الأشياء.

ومع تذكر ذلك نستطيع أن نستنتج من تلك الحقيقة كل القواعد اللازمة لاستعمال القاموس بذكاء، حيث يمكن النظر إلى الكلمات بأربع طرق مختلفة:

1 ـ الكلمات أشياء مادية: الكلمات المكتوبة والأصوات المنطوقة. ويجب من خلال ذلك أن تكون لها طرق موحدة في النطق والتهجية. بالرغم من أن هذه الطرق الموحدة غالباً ما تفسر من خلال التغيرات وبأي حال من الأحوال فإن هذه ليست هامة بشكل أزلي كما يمكن أن يشير إلى ذلك بعض المدرسين.

2 ـ إن الكلمات أجزاء من الكلام، فكل كلمة مفردة تلعب دوراً قواعدياً في تركيب الجملة أو شبه الجملة. والكلمة الواحدة يمكن أن يتغير معناها

خلال الانتقال من استعمال لآخر خصوصاً في لغة غير مصرّفة مثل اللغة الإنكليزية.

3 ـ الكلمات هي إشارات لها العديد من المعاني. وهذه المعاني يتعلق بعضها بالبعض الآخر بطرق عديدة. وفي بعض الأحيان تتداخل هذه المعاني فيكون للكلمة الواحدة معنيان أو أكثر غير مرتبطين ببعضهما البعض. ومن خلال المعاني المتعددة للكلمات يتم الترابط بين كلمات مختلفة لفظاً مثل المترادفات التي تشترك بنفس المعنى بالرغم من أنها مختلفة عن بعضها لفظاً. أو من خلال المتناقضات في الألفاظ التي يتنازعها أكثر من معنى وقد تكون الكلمة دالة على تسميات لشيء واحد أو عدة أشياء متشابهة في بعض الاعتبارات، أو قد تميز بينها ككلمات متماسكة أو مستخلصات (حسب الشيء الذي تشير إليه ونستطيع أن نستشعره أو نحدده ـ في بعض الاعتبارات ـ للأشياء التي نفهمها من خلال التفكير ولكن ليس من خلال ملاحظتنا وما نختبره).

4 ـ الكلمات عبارة عن اصطلاحات: إنها إشارات من صنع البشر، ولهذا السبب فلكل كلمة تاريخ ووظيفة ثقافية اتخذتها أثناء تحولاتها. إن تاريخ الكلمات يبين الجذر الأصلي لها والإضافات التي لحقت بها في أولها أو في آخرها. وهو يشتمل أيضاً على تغيراتها الفيزيائية من خلال اللفظة والتهجية. كا يدل على تغيرات المعنى والاستعمالات المهملة والمهجورة، والاستعمالات الجارية والقياسية والاصطلاحية والعامية.

إن القاموس الجيّد سوف يجيب على هذه الأسئلة المختلفة الأربعة عن الكلمة. وفن استعمال القاموس يتألف من معرفة ما هي الأسئلة التي تسألها عن الكلمات وكيف تجد الجواب. لقد اقترحنا الأسئلة والقاموس بحد ذاته يخبرنا كيف نجد الإجابات. والقاموس كتاب مساعدة ذاتي وتام هو يخبرك ما الذي يجب أن تلقي إليه الاهتمام وكيف تفسر مختصراته المختلفة ورموزه التي يستعملها في إعطائه المعلومات عن الأسئلة الأربعة المختلفة للكلمات. وأي

شخص يفشل في مراجعة الملاحظات الشرحية وقائمة المختصرات الموجودة في بداية القاموس عليه ألا يلوم إلا نفسه إذا لم يستطع استعماله بشكل جيد.

كيف تستعمل الموسوعات

إن هناك العديد من الأشياء التي قلناها عن القواميس تنطبق على الموسوعات أيضاً. فمثل القاموس تدعوك الموسوعة للقراءة الهازلة. إنها شيء مسلّ أيضاً، وهي لطيفة بالنسبة لبعض الناس. ولكن من العبث أن تحاول قراءة الموسوعة من أولها لآخرها وهي في ذلك مثل القاموس. والأشخاص الذين يعرفون الموسوعات ويحفظونها هم في خطر مميت، ويجلبون على أنفسهم اسم «المتعلم الأحمق».

وهناك الكثير من الأشخاص الذين يستعملون القاموس من أجل معرفة لفظ الكلمات وتهجئتها. وبشكل مماثل تستخدم الموسوعة من أجل النظر إلى التواريخ والأماكن والحقائق الأخرى البسيطة. ولكن ذلك هو سوء استعمال للموسوعة. فالموسوعة مثل القاموس هي أداة تعليمية وإعلامية. ونظرة إلى تاريخها سوف تؤكد ذلك.

بالرغم من أن كلمة موسوعة Encyclopedia هي كلمة يونانية، فإن اليونانيين لم تكن لديهم موسوعات وذلك من أجل السبب نفسه الذي جعلهم لا يمتلكون القواميس. والكلمة «الموسوعة» لم تعنِ لديهم كتاباً عن المعرفة أو كتاباً تعتمد عليه المعرفة بل المعرفة بحد ذاتها ـ أي كل المعرفة التي يجب أن يمتلكها الرجل المثقف ـ والرومان هم أول من عرفوا ضرورة الموسوعة. والمثال الأساسي في ذلك هو بليني Pliny.

ومن المهم أن نعرف أن أول ترتيب ألفبائي للموسوعات لم يظهر إلا في عام 1700. ومعظم الموسوعات الشهيرة منذ ذلك الحين هي موسوعات ألفبائية. فهي الأسهل بين كل الترتيبات كما أنها جعلت صناعة الموسوعات تخطو خطوات واسعة.

والموسوعة تقدم مشاكل مختلفة عن القواميس. إن الترتيب الألفبائي هو شيء طبيعي بالنسبة للقاموس. ولكن هل العالم الذي هو موضوع الموسوعات يمكن أن يرتّب بشكل هجائي؟ بالطبع لا. فكيف إذن رُتِّب العالم وتسلسل؟ وهذا يؤدي إلى السؤال كيف نُظِّمت المعرفة؟

إن ترتيب المعرفة قد تبدل عبر القرون، فكلُ المعارف رتبت أولاً حسب علاقتها بالفنون الحرة السبعة. وهي النحو والبلاغة والمنطق أو ما يسمى بالفنون الثلاثة الحرة في العصر الوسيط Trivium مضافاً إليها مجموعة الدراسات المؤلفة من الحساب والهندسة والفلك والموسيقى أو ما يسمى بـ Quadrivium وقد عكست هذا الترتيب موسوعات العصور الوسطى باعتبار أن الجامعات رُتِّبت حسب نفس النظام ودرس طلابها حسب هذا النظام أيضاً وقد كان هذا النظام مفيداً من أجل التعليم.

إن الجامعات الحديثة اختلفت كثيراً عن جامعات العصور الوسطى. وانعكس هذا التغير على الموسوعات الحديثة. وقد قسمت المعرفة التي تعطيها هذه الموسوعات إلى إقطاعات أو تخصصات هي مساوية تقريباً للدوائر العديدة ضمن الجامعات. ولكن هذه الترتيبات بالرغم من أنها تشكل العمود الفقري لهيكل الموسوعة فقد استترت من خلال الترتيب الهجائي للموادّ.

من خلال هذا الأساس - ولنأخذ العبارة من علماء الاجتماع - يمكن للقارىء الجيد أو المستخدم للموسوعة أن يكتشف ما يبحث عنه. ومن الصحيح أنها أساساً معلومات عن الحقائق التي يريدها من هذه الموسوعة، ولكن يجب ألا يكون سعيداً بهذه الحقائق منعزلة. إن الموسوعة تقدم له ترتيباً لهذه الوقائع - وقائع في علاقتها مع الوقائع الأخرى - وإن الفهم كنقيض للمعلومات الخام التي يمكن أن تقدمها الموسوعة يعتمد على الاعتراف بهذه العلاقة.

إن هذه العلاقات في الموسوعات المرتبة هجائياً هي علاقات غامضة إلى حد

بعيد. أما في الموسوعات المرتبة حسب الموضوعات فإن الأضواء ملقاة عليها. لكن هذه الموسوعات لها مثالب عديدة من بينها أن معظم الوقائع لم يعتد القارىء على استعمالها. وبشكل نموذجي فإن أفضل الموسوعات هي التي تحتوي على كلا الترتيبين الهجائي والموضوعي. فتقديمها للمواد بشكل مقالات منفصلة يمكن أن يكون هجائياً، ولكنها تحتوي أيضاً على بعض أنواع الموضوعات الأساسية وخصوصاً في جدول المحتويات. (إن جدول المحتويات هو ترتيب موضوعي للكتاب في حين أن الفهرس هو ترتيب هجائي لها). وإلى المدى الذي نعلمه فإنه لا توجد موسوعة من هذا النوع في هذه الأيام ولكنها تستحق أن يبذل جهد في محاولة لإيجاد مثلها.

إن الافتراض المثالي يكمن في أن يحوز القارىء على المساعدة والمشورة المقدمتين من محرري الموسوعة. فكل موسوعة جيدة تحتوي على توجيهات في كيفية استعمالها بشكل فعال وهذه يجب أن تُقرأ وتتّبع. وغالباً ما تشير هذه التوجيهات إلى أن القارىء يجب أن يبحث في الفهرس قبل أن يتوجه إلى المجلدات المرتبة هجائياً وهنا يخدم الفهرس وظيفة جدول المحتويات. ولكن ليس بشكل جيد، لأنهما يجمعان تحت عنوان واحد راجح للمناقشات في الموسوعة التي يمكن أن تكون منفصلة من حيث المكان لكنها بالرغم من ذلك تقع تحت الموضوع العام نفسه. وهذا يعكس الحقيقة في أنه بالرغم من كون الفهرس مرتباً هجائياً بالطبع فإنه يدعى تحليلياً أيضاً ـ بمعنى أن ما تشتمل عليه المُدْخَلة الواحدة يقع تحت المدخلة الرئيسية ـ وهذا ترتيب موضوعي. لكن الموضوعات نفسها يجب أن تكون في ترتيب هجائي وليس بالضرورة أن يكون أفضل ترتيب. وهكذا فإن فهرس الموسوعة الجيدة مثل البريتانيكا يسير جزءاً من الطريق في الكشف عن ترتيب المعرفة التي يعكسها العمل ولهذا السبب فإن القارىء الذي يفشل باستعمال الفهرس عليه ألا يلوم نفسه إذا لم تخدم الموسوعة احتياجاته.

نذكر نصيحة سلبية مرتبطة باستعمال الموسوعات، تماماً مثل تلك

النصائح التي ترتبط بالقواميس. فالموسوعات مثل القواميس ذات قيمة مساعدة في قراءة الكتب الجيدة ـ أما الكتب السيئة فلا تحتاج عادة لوجود الموسوعة، ولكن كما في السابق من الحكمة أن لا تستعبدك الموسوعة. وهي، مرة أخرى، مثل القاموس لا تستعمل للحد من المناقشات التي تتأسس على الآراء المختلفة. وبالرغم من ذلك فإنها يجب أن تستعمل للحد من المنازعات في موضوعات الوقائع بأكبر سرعة وديمومة مستطاعة، فيجب ألا يثار نقاش حول الوقائع في المكان الأول. والموسوعات تجعل الجهد العابث غير ضروري، لأنها مملوءة بالوقائع. وبشكل مثالي ليس فيها غير الوقائع. وأخيراً وبالرغم من أن القواميس تتفق عادة حول الكلمات، إلا أن الموسوعات قد لا تتفق حول الوقائع. وهكذا إذا كنت مهتماً بموضوع وتريد أن تعتمد في حلّه على المعالجة الموسوعية فلا تقصر نفسك على موسوعة واحدة فقط. إقرأ في أكثر من واحدة وتفضل تلك الموسوعات التي كتبت في أزمنة مختلفة.

لقد أشرنا إلى عدة نقاط بشأن الكلمات التي يجب أن يستعملها مستخدم القاموس. وفي حالة الموسوعة هناك نقاط مماثلة حول الحقائق:

1 ـ الحقائق عبارة عن قول يحتمل الصدق لذاته: والنص على الحقائق يكون باستخدام كلمات مجتمعة مثل «إن أبراهام لينكولن ولد في 12 شباط 1809» أو «إن الرقم الذري للذهب هو 79». وبذا فالحقائق ليست أشياء مادية مثل الكلمات وهي لا تتطلب الشرح لأنهه من خلال المعرفة المتطلبة للفهم يجب عليك أن تعرف أهمية هذه الحقائق وكيف تؤثر في الحقيقة التي تبحث عنها. وأنت لا تعرف كثيراً إن كان كل ما تعرفه هو ماهية هذه الحقائق.

2 ـ الحقائق هي افتراضات صحيحة: إن الحقائق ليست عبارة عن آراء. وعندما يقول شخص إن هذه هي الحقيقة فإنه يعني أن ذلك الشيء متّفق عليه. إنه لا يعني مطلقاً إو إنه يجب ألا يعني مطلقاً أنه هو بالإضافة إلى مجموعة صغيرة من المراقبين يعتقدون أن كذا وكذا هو الحالة. وهذا النوع من صفات الحقائق تعطي للموسوعة لهجتها وشكلها. فالموسوعة التي لا تحتوي على

آراء مدعّمة من قبل محرريها هي موسوعة غير موثوقة. وبالرغم من أنها يمكن أن تقرر آراءً مثل هذه العبارة: «من المعتقد أنه هذه هي الحالة لدى البعض بينما تلك هي الحالة لدى الآخرين». فإن الموسوعة يجب أن تحدد ذلك بوضوح. فالمطلوب من الموسوعة أن تقرر حقائق الحالة لا أن تعرض آراء حولها «إلا ما أشير إليه آنفاً» بالرغم من أنها تحد من شمولية العمل. إنها لا تستطيع أن تدلي بالحقائق بشكل ملائم إذا لم يكن هناك إجماع في الرأي حولها. وإذا كانت تبحث في مثل هذه الأسئلة فقط، فإنها يجب أن تقرر بشكل ملائم اختلاف الرأي حول هذا الموضوع بين الناس.

3 ـ الحقائق هي انعكاسات للواقع: إن الحقائق يمكن: (1) أن تكون إما معلومات فريدة أو؛ (2) تعميمات ليست موضع تساؤل. وفي كلتا الحالتين يجب أن تقدما الأشياء كما حصلت فعلاً. (مولد لينكولن هي معلومة مفردة، والرقم الذري للذهب تعميم ليس موضع تساؤل).

وهكذا فالحقائق ليست أفكاراً أو مفاهيم كما أنها ليست نظريات بمعنى أنها تأملات حول الواقع وبشكل مشابه هي ليست شرحاً للواقع أو جزءاً من الواقع، كما أنها ليست حقيقة حتى يكون هناك اتفاق عام على أنها صحيحة.

وهناك استثناء واحد للعبارة الأخيرة. فالموسوعة يمكن أن تصف نظرية لم يعد يعتقد أنها صحيحة كلها أو في جزء منها، أو يمكن أن تصف نظرية لا يعتقد بأنها صالحة كلياً عندما ترتبط بموضوع أو شخص أو مدرسة موضوع مقاله. وهكذا على سبيل المثال فإن وجهة نظر أرسطو حول موضوعات الطبيعة الإلهية يمكن أن تكون موضوع مقالة عن أفكار أرسطو وإن كان لا يعتقد بصحتها الآن.

4 ـ وأخيراً، فالحقائق هي اصطلاحية إلى حد ما: نقول إن الحقائق تتغير. ونحن نعني بذلك أن بعض الافتراضات التي كانت تعتبر حقائق في عهد ما لم تعد تعتبر حقائق في عهد آخر. وإلى المدى الذي تكون فيه الحقائق

صحيحة وتعرض الواقع فإنها لا تتغير بالطبع لأن الحقيقة بشكل جازم لا تتغير ولا يتغير الواقع أيضاً. ولكن ليست كل الافتراضات التي نأخذها على أنها صحيحة هي فعلاً صحيحة. وعلينا أن نسلِّم بأن أي افتراض تقريباً نعتبره صحيحاً يمكن أن يُخطّأ من خلال الملاحظة الدقيقة والمتأنية والتقصي. وهذه تنطبق بشكل خاص على حقائق العلم.

إن الحقائق ـ إلى حدّ ما ـ محددة ثقافياً. فعالِم الذرة مثلاً يحتفظ بفرضيات تركيبية معقدة في ذهنه عن الواقع والتي تحدد ـ له ـ حقائق معينة مختلفة عن الحقائق المحددة المقبولة لدى الآخرين. وهذا لا يعني أن العلماء لا يمكنهم الاتفاق حول حقيقة ما فيجب الاتفاق مثلاً على أن 2+2=4 وأن الكل أكبر من أي جزء. ولكن الهيئة العلمية يمكن أن لا تتفق مع حقائق عالِم الجزئيات الذرية تماماً مثلما يمكن أن لا يتفق العلماء حول الحقائق القديمة الخاصة بطقوس السحر. (إن هذه الجملة تصعب كتابتها لأننا قصرنا أنفسنا ثقافياً، فنحن ننحو الآن لأن نتفق مع العالم أكثر من اتفاقنا مع الافتراضات القديمة).

إن الموسوعة الجيدة سوف تجيب عن أسئلتك حول الحقائق إذا تذكرت ما قلناه عن الحقائق آنفاً. وإن فن استعمال الموسوعة كمساعد لقراءة هو فن سؤال الأسئلة الملائمة عن الحقائق. وهي مثل القاموس فنحن اقترحنا الأسئلة وعلى الموسوعة أن تقدم الجواب.

ويجب أن تتذكر أيضاً أن الموسوعة ليست أفضل مكان لإحراز الفهم. ويمكن إحراز التبصرات منها عن تسلسل وترتيب المعرفة ولكن ذلك بالرغم من أنه موضوع هام فهو محدود. وهناك العديد من الأمور التي يتطلبها الفهم سوف لا تجدها في الموسوعة.

هناك إغفالان هامان لهذا المبدأ. فالموسوعة لا تحتوي على مناقشات إلا ما يتقرر أنه متفق عليه بشكل واسع كشيء صحيح كاهتمام تاريخي على

الأقل. وهكذا فإن العنصر الرئيسي في الكتابات التفسيرية هو شيء منقوص. ءن الموسوعة لا تحتوي على الشعر أو الأدب التخيلي، بالرغم من أنها قد تحتوي على حقائق عن الشعر والشعراء. وحيث أن التخيل والأسباب متطلبة للفهم فإن هذا يعني أن الموسوعة يجب ألا تكون أداة غير مرضية نسبياً في السعي وراءها.

القسم الثالث

الفصل الثالث عشر

كيف تقرأ الكتب التطبيقية

تكون القواعد في أي حقل أو فن مخيّبة للآمال نتيجة لكونها عامة كثيراً، وعموميتها بالطبع تجعل فائدتها أقل. هذا من جانب.. ومن جانب آخر فإن القواعد العامة هي أكثر القواعد وضوحاً، ولكن من الصحيح أيضاً فإن القواعد الأكثر عمومية هي في الوقت نفسه الأكثر بعداً عن تعقيد الحالة الفعلية التي تحاول من أجلها تطبيق القاعدة عليها.

وقد أوضحنا القواعد العامة للقراءة التحليلية والتي يمكن تطبيقها على أي عمل من الأعمال التفسيرية ـ أي ـ أيَّ كتاب يقصد به توضيح حالة معرفة ـ ولكن الكتب مختلفة، فيمكن أن يكون الكتاب كتاب تاريخ أو كتاب رياضيات أو كتاب دعاية سياسية أو كتاباً في العلوم الطبيعية أو الفلسفية أو دراسة لاهوتية. لذا يجب أن يكون لديك بعض المرونة والتكيّف في اتباع القواعد وتطبيقها. ولحسن الحظ فإنك سوف تشعر وبالتدريج كيف يمكن تطبيق هذه القواعد على الأنواع المختلفة من الكتب.

ومن المهم أن نشير هنا إلى أن قواعد القراءة الخمس عشرة لا تطبّق (بالشكل الذي نصصنا عليه حتى نهاية الفصل الحادي عشر) على الأعمال الأدبية التخيليّة أو الشعرية، لأن شكل الأعمال التخيليّة هو موضوع مختلف عن شكل الأعمال الشرحية والتفسيرية. فالقصص والمسرحيات والقصائد لا تنشأ من خلال الافتراضات الفلسفية والمناقشات. وبمعنى آخر فإن محتوياتها الأساسية هي غير الأسس المنطقية التي تطبق على الأعمال الفلسفية. ونقد الأعمال التخيلية يؤسس على قواعد فلسفية مختلفة. ولذا من الخطأ أن نظن

بأنه لا قواعد على الإطلاق تطبق على الأدب التخيلي. ففي الحقيقة هناك مجموعة موازية من قواعد قراءة لمثل هذه الكتب سوف نشرحها في الفصل التالي. وهذه القواعد مفيدة بحد ذاتها؛ واختبار هذه القواعد واختلافها عن قواعد قراءة الأعمال التفسيرية تلقي أضواءً على قواعد قراءة هذه الأعمال.

ولا تظن أن عليك أن تتعلّم مجموعة جديدة من القواعد من أجل قراءة الأعمال الأدبية التخيلية والشعرية، لأن الارتباط بين النوعين ـ قواعد قراءة الأعمال التفسيرية وقواعد قراءة الأعمال التخيلية ـ من السهل معرفته والنص عليه. لأنها تتألف من الحقيقة الضمنية التي ركّزنا عليها مراراً، وهي أنه عليك أن تسأل أسئلة عندما تقرأ، وبتحديد أكثر عليك أن تسأل أربع أسئلة بغض النظر عن نوعية الكتب التي تقرأها سواء أكانت أعمالاً شعرية أو تاريخية أو علمية أو فلسفية. وقد رأينا كيف أن قواعد قراءة الأعمال التفسيرية ترتبط أو تتطور من هذه الأسئلة الأربعة. وبشكل مماثل فإن قواعد قراءة الأدب التخيلي قد تطورت أيضاً من هذه القواعد الأربعة، بالرغم من أن الاختلاف في طبيعة المادة المقروءة تسبب بعضاً من عدم المطابقة في تطوير هذه الأسئلة.

هذه هي طبيعة الحال في هذا القسم من الكتاب، فلدينا الكثير مما نقوله عن هذه الأسئلة أكثر من قواعد القراءة نفسها. وسوف نشير بين الحين والآخر إلى القواعد الجديدة أو إلى تنقيح أو تكييف القاعدة القديمة.

لقد أوضحنا بشأن الأعمال التفسيرية أن التفريق الأساسي بين الكتب التطبيقية والكتب النظرية ـ أي الفرق بين الكتب التي تتعلق بمشكلة الأفعال والكتب التي تتعلق فقط بأشياء يمكن أن تُعرف ـ يمكن أن تقسم أيضاً ـ وكما أوضحنا سابقاً ـ إلى كتب تاريخ أو علوم (بما فيها الرياضيات) أو إلى كتب فلسفية. كما أن التقسيم العملي يتقاطع ضمن كل هذه الحدود، ولذا نحن نهدف إلى اختبار طبيعة مثل هذه الكتب بتفصيل أكبر لنقترح الخطوط العريضة والتحذيرات التي ترافقها عندما تقرأ مثل هذه الكتب.

نوعان من الكتب التطبيقية

إن أهم شيء يجب تذكّره عن أي كتاب تطبيقي هو أنه لا يستطيع وحده أن يحلّ أي مشكلة عملية يتعلق بها موضوع الكتاب، لأن حل هذه المشكلة يتعلق بالفعل المتخذ بعد قراءة الكتاب. إن الكتاب النظري يستطيع أن يحلّ مشكلته الخاصة حيث أن الموضوع في هذه الحالة يتعلق بالعملية الذهنية فقط وليس بالقيام بالفعل بعد قراءة الكتاب. وعندما تكون المشكلة: كيف تكسب عيشك، وكيف تحصل على أصدقاء، وكيف تؤثر على الأشخاص الآخرين فإن الكتاب لا يستطيع أن يحلّ أياً من هذه المشاكل رغم أنه يقترح أشياء لتقوم بها في سبيل تحقيق هذه النتيجة.

لنأخذ هذا الكتاب على سبيل المثال، إنه كتاب تطبيقي إذا كنت مهتماً بالتطبيقات وكنت تريد أن تحل مشكلة تعلّم القراءة، فإنك لا تستطيع أن تعرف أن هذه المشكلة قد حُلّت بالنسبة لك حتى تكون قد تعلمت كيف تقرأ. ومع ذلك فإن هذا الكتاب لا يحل المشكلة، إنه فقط يستطيع أن يساعدك على حلها، وعليك القيام بالفعل ـ أي ممارسة القراءة ـ ليس فقط في هذا الكتاب بل في كتب كثيرة أيضاً. وذلك بالضبط ما نعنيه عندما نقول أنه لا شيء إلا الفعل يستطيع أن يحل المشكلة العملية، فالأفعال تحدث فقط في عالم الواقع وليس في عالم الكتب.

إن الكتب التطبيقية تنص على القواعد العامة التي يمكن أن تطبق في الظروف الخاصة التي هي من نفس النوع. وإن أي شخص يحاول أن يستعمل هذه الكتب يجب أن يطبِّق هذه القواعد على الحالات الخاصة، وبالتالي عليه أن يمارس حكمته العملية في أداء ذلك العمل.

وبتعبير آخر، إن على القارىء نفسه أن يضيف أشياء من عنده ليجعل تطبيق القاعدة ممكناً في النطاق العملي. ويجب عليه إضافة معرفته ومهارته على الحالات الخاصة التي يطبق فيها القواعد على تلك الحالة.

إن أي كتاب يحتوي على قواعد ـ فرضيات أو أي نوع من التوجيهات العامة ـ سوف يتميز ككتاب تطبيقي. كما أن الكتب التطبيقية يمكن أن تشتمل على أكثر من القواعد، إنها يمكن أن تحاول وضع المبادىء التي هي بالتالي تشكّل القواعد وتجعلها مفهومة. وعلى سبيل المثال فإن هذا الكتاب هو كتاب تطبيقي عن القراءة وقد حاولنا هنا وهناك أن نشرح قواعده بتفسير مبادىء القواعد والبلاغة والمنطق بشكل مختصر. وإن المبادىء التي تشكل القواعد تكون علمية، بمعنى أنها مواد معرفة نظرية جُمعت مع بعضها لتكوّن نظرية عن شيء ما. وهكذا نتكلم عن نظرية بناء الجسور، أو نظرية لعب البريدج، ونقصد بذلك المبادىء النظرية التي تجعل تطبيق القواعد ممكناً.

ولهذا السبب فإن الكتب التطبيقية تقع ضمن مجموعتين أساسيتين، بعضها مثل هذا الكتاب أو أي كتاب عن تعليم الطبخ مثلاً أو دليل للسائقين وهم أساساً ينحون نحو تقديم القواعد للقارئين، بغضّ النظر عن المناقشات التي تشتملها هذه القواعد، وتوجد كتب قليلة لكنها قيّمة من هذا النوع. أما النوع الآخر من الكتب التطبيقية فهي التي تهتم أساساً بالمبادىء التي تولّد هذه القواعد ومعظم الكتب القيّمة في الاقتصاد والسياسة والأخلاق هي من هذا النوع.

إن هذا التمييز ليس حاداً أو مطلقاً بين هذين النوعين، فكل من المبادىء والقواعد يمكن أن توجد في الكتاب نفسه. والفرق هنا هو على ماذا يركّز الكتاب نسبياً، ولن تجد صعوبة في تصنيف الكتب ضمن هاتين المجموعتين. إن الكتب التي تحتوي على القواعد في أي حقل من حقول المعرفة هي دائماً تتميز بأنها كتب تطبيقية. والكتب التي تحتوي على المبادىء يمكن أن ينظر إليها على أنها كتب نظرية، بمعنى أنها ـ وكما رأينا سابقاً ـ تبحث في نظريات من نوع خاص يمكن تطبيقه، كما أن طبيعة المشكلة هي التي تحدد نطاق التطبيق، لأنها دائماً تبحث في حقل من حقول السلوك الإنساني الذي يمكن للناس أن يقوموا به بشكل أحسن أو أسوأ.

إن الافتراض الذي تبحث عنه في كتاب هو أساساً للقواعد هو بالطبع تلك القواعد. ويعبّر عن القاعدة في أغلب الأحيان باستخدام فعل الأمر إلا أنه يمكن أيضاً أن يعبّر عنها بجملة تقريرية. فقاعدة يعبّر عنها بفعل الأمر هي أن تقول «وفّر تسع قطب بأخذ قطبة واحدة في المرة الواحدة» والجملة نفسها يمكن أن يعبّر عنها بجملة تقريرية كأن تقول «قطبة واحدة في المرة الواحدة توفّر تسع قطب». إن كلاً من الجملتين تقترح الحضّ على القيام بالفعل، إلا أن الجملة التي تستخدم فعل الأمر تكون أكثر تأكيداً لكنها ليست بالضرورة الأكثر تذكراً.

وفي كلتا الحالتين إذا وضعت الجملة بشكل تقريري أم بشكل فعل أمر، فإنه يمكنك دائماً أن تميّز القاعدة لأنها توصي بفعل يستحق القيام به لتحقق هدفاً مؤكداً تبغي الوصول إليه. وهكذا ففي قاعدة القراءة مثلاً يتوخى الكاتب أن يصل لاتفاق معك تستطيع من خلاله أن تضع القاعدة كتوصية. فالقراءة الجيدة تشترط الوصول لاتفاق معك، وكملة «جيدة» هي الشيء المشجع الذي يعطي هذه القراءة ما تستحقه وتقتضيه ضمنياً.

إن المناقشة في كتاب تطبيقي من نوع هذا الكتاب سوف يحاول أن يقنعك من خلال إظهار منطقية القاعدة. وقد يلجأ الكاتب إلى المبادىء كي يقنعك أن هذه القاعدة هي قاعدة منطقية، أو يمكنه أن يوضح منطقيتها من خلال إطلاعك على عمل هذه القواعد في الحالات المحكمة. وعليك أن تبحث عن هذين النوعين من المناقشات، إن اللجوء إلى المبادىء هو عادةً أقل إقناعاً، لكن لها ميزة واحدة هي أنها تشرح السبب لوضع القواعد أكثر من الأمثلة على استعمالاتها.

أما النوع الثاني من الكتب التطبيقية فهو النوع الذي يبحث أساساً في مبادىء القواعد بشكل ضمني وإنه يفترض أساساً مناقشات سوف تبدو بالطبع مثل تلك الموجودة في الكتب النظرية البحتة. والافتراضات سوف تقول أن ذلك الشيء هو القضية، في حين أن المناقشات سوف تحاول أن تظهر أن تلك

بالفعل هي القضية التي يجب أخذها بعين الاعتبار.

ولكن يوجد هناك فرق هام بين قراءة مثل هذه الكتب وقراءة الكتب النظرية البحتة. حيث أن المشكلة النهائية التي تتطلب الحل هي مشكلة عملية ـ مشكلة القيام بعمل في حقل ما حيث يمكن للفرد أن يقوم بالعمل بشكل أحسن أو أسوأ ـ وإن قارىء الكتب العملية يجب أن يقرأ ما بين الأسطر أو على الهوامش. إنه يحاول أن يرى القواعد التي لم يُعبَّر عنها ولكن بالمستطاع استنتاجها بالرغم من المبادىء، وعلى القارىء أن يذهب لأبعد من ذلك، كأن يحاول التفكير في القواعد التي يجب أن تطبق على الصعيد العملي. وإذا لم يُقرأ الكتاب على هذا النحو، فإن الكتاب التطبيقي لن يُقرأ على أنه كتاب تطبيقي. وإن الفشل في ذلك يكمن في أن تقرأه باستخفاف. أي أنك لم تفهمه وبالتأكيد لن تستطيع أن تنتقده بشكل ملائم، هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى إذا كان وضوح القواعد ينص على المبادىء فإن ذلك ليس أقل حقيقة من أهمية المبادىء التطبيقية التي توجد في القواعد التي تؤدي إليها أو بالأعمال التي توصي بها.

وهذا يشير إلى أنك يجب أن تفهم كلا النوعين من الكتب التطبيقية. لأنها تشير أيضاً إلى المعايير من أجل الحكم النقدي. ففي حالة الكتاب النظري البحت فإن المعايير تكون الموافقة أو عدم الموافقة ويتعلق ذلك بالحقيقة.. أي حقيقة ما يقال. لكن الحقيقة العملية أو التطبيقية تختلف عن الحقيقة النظرية. فالقاعدة في الحقيقة العملية يجب أن تؤخذ تحت شرطين: الأول إذا كان الفعل صالحاً للتطبيق وثانياً هو أن صلاح القاعدة التطبيقية يوصل إلى النتيجة الحقيقية أي النتيجة التي تتوخاها بدقة.

لنفترض أن النتيجة التي يعتقد الكاتب أنك يجب أن تبحثها عنها لا تبدو لك أنها هي النتيجة التي تريد الوصول إليها كقارىء. ففي هذه الحالة ـ حتى ولو كانت توصيات الكاتب تبدو منطقية على الصعيد العملي ـ بمعنى أنها تؤدي إلى تلك النتيجة، فإنك كقارىء لن تتفق معه كلياً.

وبالتالي سوف يتكون حكمك على كتابه بأنه صحيح أو خاطىء. وإذا لم تقتنع بأن الكتاب يستحق القراءة بتأنٍ، فإن الكتاب يكون له حقيقة عملية ضئيلة بالنسبة لك بغض النظر عن مدى منطقية القواعد بحد ذاتها. لاحظ ماذا يعني ذلك: في الحكم على كتاب نظري فإن على القارىء أن يلاحظ مدى التطابق أو التعارض بين مبادئه الخاصّة أو افتراضاته وبين تلك التي للكاتب. في حين أنه لدى الحكم على كتاب تطبيقي فإن كل شيء يعود إلى النتائج أو الأهداف المتوخاة. فإذا لم تشارك كارل ماركس حماسه للعدالة الاجتماعية، فإن مبدأه الاقتصادي والإصلاحات التي يقترحها تبدو لك على الأرجح أنها خطأ من الناحية التطبيقية أو غير ملائمة عملياً. ويمكنك أن تفكر أن مبدأ إدموند بروك في الحفاظ على الوضع الراهن هي الرغبة الأكثر موضوعية وكل شيء تعتبره أكثر أهمية من إزالة ظلم الرأسمالية. وفي هذه الحالة فإنه على الأرجح يمكنك أن تعتبر كتاباً مثل البيان الشيوعي هو كتاب منافٍ للمنطق وخاطىء. وحكمك الأساسي سوف يكون بمعنى النتائج وليس الوسائل. وليس لدينا أي اهتمام عملي في مدى منطقية الوسائل للوصول إلى تلك، النتائج التي تخالف آراءنا أو التي لن نهتم بها.

وظيفة الإقناع

هذه المناقشة المختصرة تعطيك المفتاح لسؤالين أساسيين يجب أن تسألهما لنفسك في قراءة أي نوع من الكتب التطبيقية. السؤال الأول: ما هو هدف الكاتب؟ أما السؤال الثاني: ما هي الوسائل التي يزمع استخدامها لتحقيق ذلك الهدف؟ وقد يكون من الصعب أن تجيب على هذين السؤالين في حالة كون الكتاب يبحث في المبادىء أكثر من حالة كون الكتاب يبحث في القواعد. فمن المحتمل أن تكون النتائج والوسائل أقل وضوحاً. لكن من الضروري الإجابة عليهما في كلٍ من الحالتين من أجل فهم ونقد الكتاب التطبيقي. وإن هذا يذكرك في عامل واحد للكتابة التطبيقية والذي نوّهنا إليه سابقاً، وهو المزج بين فن الخطابة أو الدعاوة (PROPOGANDA) في كل

كتاب تطبيقي. ولم نقرأ كتاباً عن الفلسفة السياسية ـ مهما بدا نظرياً وأياً كانت المبادىء التي يبحثها ـ لم يحاول أن يقنع القارىء عن أفضل شكل للحكومة. وبشكل مماثل فإن الدراسات الأخلاقية تحاول أن تحدث القارىء عن الحياة السعيدة كما توصي بطرق محددة لبلوغها. أما نحن فقد حاولنا باستمرار أن نقنعك بقراءة الكتب بطريقة معينة من أجل إحراز الفهم المطلوب.

وتستطيع أن ترى لماذا يجب أن يكون كاتب الكتاب التطبيقي على شيء من الخطابية دائماً، حيث أن حكمك النهائي على كتابه سوف ينعكس من خلال قبولك الهدف الذي من أجله اقترح تلك الوسائل ويعود عليه كسبك لنتائجه. وكي يحقق ذلك عليه أن يناقش بطريقة تصل إلى قلبك بالإضافة إلى عقلك، وقد يتلاعب بعواطفك ويحقق توجيه رغباتك.

وليس في الأمر خطأ أو سوء، إذ إنها طبيعة العلاقات العملية التي يجب أن يقتنع بها الأفراد من أجل التفكير والتصرف وفق طريقة معينة. فلا التفكير العملي ولا السلوك هما من طبيعة العقل وحده. فالعواطف لا يمكن أن تترك جانباً، إذ لا يقوم المرء بحكم عملي جاد ولا ينخرط في أي تصرف دون أن يتحرك عاطفياً إلى حدٍ ما. فالعالم يمكن أن يكون عالماً أفضل فيما لو فعلنا ذلك ولكنه بالتأكيد سوف يكون عالماً مختلفاً. وما لم يتبيّن كاتب الكتاب التطبيقي ذلك، فإنه لن يكون كاتباً مؤثراً. وقرّاؤه الذين لم يتأثروا هم ـ على الغالب ـ يبيعون سندات أو بضائع دون أن يعرفوا أنهم يفعلون ذلك.

وأفضل تحصين ضد الدعاية ـ من أي نوع كانت ـ هي في إدراكها كما هي. والخطابية المخبأة أو غير الظاهرة هي الغادرة. وما يدخل القلب دون المرور من خلال العقل يرتد على الغالب ويجعل العقل غير ذي عمل. والدعاية التي من هذا النوع هي كالعقاقير التي لا تدرك بأنك تبتلعها. والتأثير خفي فأنت لا تعلم بعد كل ذلك لماذا تشعر أو تفكر بالطريقة التي تفكر بها.

والفرد الذي يقرأ الكتب التطبيقية بعقلانية ويعرف مفرداتها الرئيسية

وافتراضاتها ومناقشاتها سوف يستطيع دائماً أن يكتشف خطابيتها. وسوف يلقي الضوء على الفقرات التي تستعمل كلمات المشاعر. ويعرف كقارىء بأنه موضع إقناع، ويمكنه أن يفعل شيئاً ويفكر ملياً في تلك المناشدة. لكن القارىء الذي يبدو أنه أصم تماماً عن كل المناشدات لن يقرأ كتباً تطبيقية.

هناك نقطة أخرى هنا تستوجب البحث، إن طبيعة المشاكل التطبيقية ومزجها بالخطابية في كل الكتابات التطبيقية حيث تكون شخصية الكاتب هي أكثر أهمية منها في الكتب النظرية. فأنت لا يهمك أن تعرف شيئاً عن كاتب دراسة في الرياضيات، فمنطقه إما صح أو خطأ، ولا تشكل معرفتنا بكاتبها أي فرق في ذلك. ولكن من أجل أن تفهم وتحكم على دراسة أخلاقية، أو سياسية أو مناقشة اقتصادية، فإنك يجب أن تعرف شيئاً عن شخصية الكاتب، وشيئاً عن حياته وعصره، فمثلاً في قراءة كتاب «السياسة» لأرسطو يكون من المناسب جداً أن تعرف أن المجتمع الإغريقي هو مجتمع قائم على الرق، وبشكل مماثل فإن ضوءاً يجب أن يلقى على كتاب الأمير من خلال معرفة الظروف السياسية الإيطالية في عصر مكيافيلي وعن علاقته بأسرة مدتشي. أو في حالة هوب من خلال كتابه لوفياتان Leviathan فإن هوب قد عاش خلال الحروب الأهلية الإنكليزية وأنه كان متأثراً بشكل مرضي بالعنف الاجتماعي واللانظام.

ماذا تقتضي الموافقة في حالة الكتب التطبيقية

نحن متأكدون أنك تستطيع أن ترى الأسئلة الأربعة التي يجب أن تسألها عن أي كتاب قد تغيرت إلى حد ما في حالة قراءة الكتب التطبيقية. دعنا نحاول أن نوضّح هذه التغيرات.

السؤال الأول: ماذا يبحث الكتاب؟ إن هذا السؤال لم يتغير كثيراً، حيث أن الكتاب التطبيقي هو كتاب تفسيري فإنه لا يزال من الضروري في عملية الإجابة على هذا السؤال أن توضّح تركيب الكتاب وهيكله، وبالرغم من أنَّه عليك دائماً أن تجد ما هي المشكلة التي يعالجها الكاتب (القاعدة الرابعة تغطي

ذلك) فإنه هنا في حالة الكتاب التطبيقي تصبح هذه القاعدة هي المهيمنة. وقد قلنا أنك يجب دائماً أن تدرك أهداف الكاتب. وهذه طريقة أخرى للقول بأنك يجب أن تعلم ما هي المشكلة التي يحاول الكاتب أن يحلّها. يجب أن تعرف ماذا يريد الكاتب أن يفعل؟ لأنه في حالة الكتاب التطبيقي، فإن معرفة ماذا يريده الكاتب تصل بك إلى معرفة ما يريد الكاتب منك أن تفعل، وهذا بالطبع على قدر كبير من الأهمية.

إن السؤال لم يتغير كثيراً أيضاً، فأنت لا زلت مُطالباً من أجل الإجابة على السؤال حول معنى الكتاب أو محتوياته وأن تكتشف تعابير وافتراضات ومناقشات الكاتب. ولكن هنا أيضاً يكمن العامل الأخير والأكثر أهمية لهذا الهدف (غُطيت بالقاعدة (8)). فالقاعدة الثامنة كما تذكر تتطلب بأن تعرف ما هي المسائل التي حلّها الكاتب، وما هي المسائل التي لم يحلّها. وتكييف هذه القاعدة في حالة الكتب التطبيقية قد أوضحت على كل حال. فأنت يجب أن تكتشف وتفهم الوسائل التي يوصي بها الكاتب لتحقيق ما يهدف إليه. وبكلمات أخرى، إذا كانت القاعدة الرابعة قد كُيفت في حالة الكتب التطبيقية لمعرفة ما يريد الكاتب أن يفعله فإن القاعدة الثامنة قد كُيفت بشكل مشابه لمعرفة كيف يجب عليك القيام بذلك.

أما السؤال الثالث، فمن الصحيح أنه قد تغير أكثر من السؤالين الأولين، ففي حالة الكتب النظرية يكون السؤال قد أجيب عليه عندما تقارن وصف إيضاحات الكاتب ـ عن ماذا حدث في العالم ـ مع معرفتك الشخصية لذلك. فإذا كان الكتاب يتفق مع تجربتك الشخصية فيما حدث فإنك يجب أن تذعن للحقيقة التي يظهرها الكتاب النظري. ولكن في حالة الكتاب التطبيقي فإنه بالرغم من أنه توجد بعض المقارنة عن مدى صدق الكتاب، إلا أن الاعتبار الأساسي عما إذا كان هدف الكاتب ـ الذي يعني النتيجة التي يبغي الوصول إليها بالإضافة إلى الوسائل التي يتبعها للوصول إلى تلك النتيجة ـ يتفق مع مفهومك الشخصي عن الشيء الصحيح الذي تبتغيه وما هي أفضل طريقة لإنجازه.

أما السؤال الرابع: ماذا عن الكتاب؟ فقد تغير أكثر من الأسئلة التي سبقته. فإذا تغيرت نظرتك (قليلاً أو كثيراً) بعد قراءة كتاب نظري إلى موضوع ما، فأنت مطالب بتعديل نظرتك العامة عن ذلك الشيء (وإذا لم تحدث تلك التعديلات، فإنك لن تكون قد تعلمت كثيراً من أي شيء في ذلك الكتاب). ولكن هذه التعديلات لا تتطلب بالضرورة القيام بفعل من قبلك.

لكن التوافق مع كتاب تطبيقي يتطلب، على كل حال، القيام بفعل من جانبك. فإذا اقتنعت بالنتيجة التي يرغب الكاتب إيصالك إليها ورأيت أنها تستحق ذلك، وإذا اقتنعت أيضاً بالوسائل التي يوصي الكاتب بها وبأنها ملائمة للوصول إلى تلك النتيجة، فإنه من الصعب أن ترى كيف سترفض العمل بالطريقة التي يأمل الكاتب أن تتبعها.

ونحن ندرك بالطبع أن هذا لا يحدث دائماً، ولكننا نريد أن نميز ماذا يعني ذلك عن عدم الاتفاق مع الكاتب. إنها تعني بأنه بالرغم من الاتفاق الظاهري في نتيجة الكاتب وقبول وسائله، فإن القارىء لا يوافق حقيقة الكاتب ولا يقبلها. أما إذا قبل بالاثنين معاً فإنه لا يستطيع أن يفشل بالقيام بالعمل. دعنا نعطي مثالاً لما نعنيه. بعد قراءتك للقسم الثاني من هذا الكتاب وإذا اعتقدت (1) بأن القراءة التحليلية شيء يستحق القيام به، (2) قبلت قواعد القراءة التي تدعم هذا الهدف. فإنك يجب أن تبدأ محاولة القراءة بالطريقة التي وصفناها، وإذا لم تفعل ذلك فإن السبب يعود ليس لأنك كسول أو تعب، بل لأنك لم تعنِ حقيقة الخطوتين 1 و2.

هناك استثناء ظاهري واحد لهذا الجدل. لنفترض على سبيل المثال أنك قرأت مقالة: كيف تصنع الشوكولاته، وأنت تحب هذه الحلوى وبالتالي وافقت كاتب المقالة بأن النتيجة التي يرمي إليها هي جيدة، ووافقت أيضاً بأن الوسائل التي يستخدمها الكاتب لتحقيق النتيجة ـ وهي هنا خطوات الصنع ـ ولكنك قارىء ذكر لم يدخل المطبخ سابقاً لكي يطهو، ولذا أنت لم تصنع الحلوى، فهل هذا الشيء يضعف وجهة نظرنا؟

إنه لا يضعفها بالرغم من أنه لا يشير إلى التمييز الهام بين النوعين من الكتب التطبيقية التي يجب أن تذكر، مع الاعتبار للنتيجة المزمعة لكاتب مثل هذه الأعمال، فإن هذه تكون في بعض الأحيان عامة وشاملة ـ أو أنها تطبق في بعض الأحيان على جزء معين من الكائنات البشرية. وإذا كانت النتيجة المبتغاة عامة مثل هذا الكتاب الذي يحرص على أن جميع الأفراد وليس بعضهم يجب أن يقرأوا أكثر فإن التضمينات التي بُحثت في هذا القسم تنطبق على القارىء. أما إذا كانت النتائج مختارة وتطبّق فقط على طبقة معينة من الأفراد، فإن القارىء عندها يجب أن يقرر عما إذا كان ينتمي إلى هذه الطبقة أم لا. فإذا كان ينتمي إليها فإن هذه التضمينات تنطبق عليه، وأنه ملزم إلى حد ما بأن يتصرف وفق الطريقة المحددة من قبل الكاتب. وبالمقابل إذا لم يكن منتمياً إلى تلك الطبقة فلن يكون ملزماً كثيراً باتباع تلك الطريقة.

لقد قلنا أنه «لن يكون ملزماً كثيراً» لأن هناك إمكانية كبيرة بأن يخدع القارىء نفسه، أو يسيء فهم دوافعه من خلال قراره بأنه لا ينتمي إلى تلك الطبقة التي تلائمها تلك النتيجة. ففي حالة قارىء مقالة حلوى الشوكولاه، فإن تراخيه وكسله على الأغلب يعبّر عن وجهة نظره بأنه بالرغم من اعترافه بأن الحلوى لذيذة لكن أحداً غيره ـ وربما زوجته ـ يجب أن تصنعها. وفي أية حال فإننا نذعن للرغبة بالنتيجة والوسائل ولكن بطريقة أو بأخرى نُعبّر عن مقاومتنا لتأدية الفعل بأنفسنا. لندع شخصاً آخر يقوم بالعمل إلى حد ما. وهذه بالطبع ليست أساساً مشكلة قراءة، بل هي بالأحرى مشكلة نفسية، وعلى كل حال فإن الحقيقة النفسية تقول لنا كم نحن فعّالون في قراءة الكتب التطبيقية، ولذا نحن ناقشنا هذا الموضوع هنا.

الفصل الرابع عشر

كيف تقرأ الأدب التخيلي

لقد عني هذا الكتاب حتى الآن فقط بنصف ما يقرأ معظم الناس. بل إننا متساهلون بهذا التقدير. فمن المحتمل أن الجزء الأكبر من قراءة أي فرد هو ذلك الوقت الذي ينفق في قراءة الصحف والمجلات والأشياء التي تتعلق بمهنة الفرد. أما فيما يتعلق بقراءة الكتب فإن معظمنا يقرأ القصص التخيلية FICTION أكثر من قراءة الكتب غير التخيلية NONFICTION. بل الأكثر من ذلك فيما يتعلق بالكتب غير التخيلية فإن الكتب الأكثر شعبية هي المواد التي تشبهه الصحف والمجلات والتي تتناول الموضوع بصورة صحفية في المسائل ذات الاهتمامات المعاصرة.

ونحن لم نخدعك بالقواعد التي شرحناها في الفصول السابقة، فقبل أن نشرع في مناقشتها بالتفصيل أوضحنا أننا يجب أن نوجه أنفسنا لوظيفة القراءة الجادة للكتب غير التخيلية. فشرح قواعد قراءة الأدب التخيلي والتفسيري بنفس الوقت قد يكون نوعاً من الخلط بين موضوعين. ولا يمكننا الآن تجاهل الأنواع الأخرى من القراءة أكثر من ذلك.

وقبل المباشرة في هذا الهدف نود أن نؤكد شيئاً هو بالأحرى تناقض ظاهري غريب. فمشكلة معرفة كيف نقرأ الأدب التخيلي هي أكثر صعوبة ومتأصلة أكثر من مشكلة كيف نقرأ الكتب التفسيرية. وبالرغم من ذلك، فإنه يبدو أكثر حقيقة أن مثل هذه المهارة تكتسب بشكل واسع أكثر من قراءة العلوم والفلسفة والسياسة والاقتصاد والتاريخ. فكيف يكون ذلك صحيحاً؟

يمكن بالطبع أن يخدع الناس أنفسهم عن مدى قابليتهم لقراءة الروايات بفهم. ونحن نعرف من خلال تجربتنا في التدريس في أن الناس يُربط لسانهم عندما يسألون ماذا أعجبهم في الرواية. فاستمتاعهم بقراءة الرواية هو شيء واضح بالنسبة لهم ولكنهم لا يستطيعون أن يوضحوا استمتاعهم هذا أو لا يستطيعون أن يقولوا ما هو الشيء في الكتاب الذي سبب لهم هذه السعادة. وهذا يشير إلى أن الناس يمكن أن يكونوا قارئين جيدين للكتب التخيلية دون أن يكونوا نقاداً جيدين. ونحن نشك في أن ذلك هو نصف الحقيقة. لأن القراءة النقدية لأي شيء تعتمد على الفهم الكامل من قبل القارىء. وهؤلاء الذين لا يستطيعون أن يقولوا ما الذي أعجبهم في قراءة الرواية هم على الأغلب لم يقرأوها بشكل أعمق من السطح الظاهر. وعلى كل حال هناك أكثر من هذا التناقض الظاهري، فالأدب التخيلي هو أساساً يُسعِد أكثر من أن يُعلِّم. ومن الأسهل بكثير أن تكون سعيداً من أن تكون قد عُلِّمت، ولكن الأصعب أن تعرف لماذا أصبحت سعيداً، فالجمال أصعب في التحليل من الحقيقة.

ولنجعل هذه النقطة واضحة فإن ذلك يتطلب تحليلاً مكثفاً لتقدير علم الجمال. وهذا ما لا نستطيع فعله هنا. ولكننا على كل حال نستطيع أن نعطي بعض النصائح عن كيفية قراءة الأدب التخيلي. وسوف نبدأ ذلك أولاً بطريقة الرفض أي بأن نقول «لا تفعل» بشكل صريح عوضاً عن إنشاء القواعد. وبعد ذلك سوف نشرح بطريقة التشابه والتناظر أي بترجمة القواعد ـ بشكل مختصر ـ من قراءة الكتب غير التخيلية إلى مماثلاتها في قراءة الأدب التخيلي. وأخيراً سوف نبدأ في الفصل التالي بتفحص مشاكل قراءة أنواع محددة من الأدب التخيلي وهي الروايات والمسرحيات والقصائد الغنائية.

لا تقرأ الأدب التخيلي بالطريقة التالية

من أجل أن نبدأ بطريقة الرفض فإنه من الضروري أولاً أن ندرك الفوارق الأساسية بين الأعمال التفسيرية والأدب التخيلي. وهذه الفوارق سوف تشرح

لماذا لا نستطيع قراءة الرواية كما لو أنها مناقشة فلسفية، أو أن نقرأ القصيدة الغنائية كما لو أنها إثبات رياضي.

إن الفرق الأساسي قد ذكر على كل حال وهو يعود إلى الفرق بين هذين النوعين من الكتابات. فالكتب التفسيرية تحاول أن توضح ـ معرفة عن التجارب التي مر بها القارىء أو يمكن أن يمر بها ـ بينما الكتب التخيلية تحاول أن توصل التجربة نفسها، هذه التجربة التي يستطيع القارىء أن يحصل عليها أو يشترك فيها فقط من خلال القراءة. وإذا نجحوا في ذلك فإنهم يكونوا قد أعطوا القارىء شيئاً لإسعاده. وبسبب هدفهما المختلف فإن هذين النوعين من الكتب تتوجه إلى الذهن والخيال بطرق مختلفة.

ولنختبر الأشياء من خلال ممارسة المنطق والخيال: فلمعرفة أي شيء، يجب علينا أن نستخدم قوى محاكمتنا وتسبيياتنا التي هي فكرية. وهذا لا يعني أننا نستطيع أن نفكر دون استعمال خيالنا، أو أن التجربة المنطقية هي منفصلة كلياً عن التبصر العقلي أو انعكاسه. فالموضوع كله هو موضوع الشيء الذي نركز عليه. فالكتب التخيلية تخاطب أساساً الخيال. وهذا هو أحد الأسباب التي جعلتنا ندعوه الأدب التخيلي. ولأنه أيضاً على النقيض من العلوم أو الفلسفة التي هي فكرية بحتة.

هذه الحقيقة عن الأدب التخيلي تقودنا إلى ما هو على الأغلب أهم النصائح الناهية عن بعض أساليب القراءة لهذا النوع من الكتب والتي نود أن نقترحها. فلا تحاول أن تقاوم التأثير الذي يحدثه الأدب التخيلي في نفسك.

لقد بحثنا بشكل مطول أهمية القراءة بفعالية. وهذا صحيح بالنسبة لكل أنواع الكتب، ولكنه صحيح بطرق مختلفة تماماً في الأعمال التفسيرية عنها في الشعر. فقارىء الأعمال التفسيرية يجب أن يكون متيقظاً دائماً ومتهيئاً للإنقضاض.

ونوع الفعالية الملائمة لقراءة الشعر والأدب التخيلي ليست مماثلة

لذلك. إنها نوع من الموقف المنفعل ـ إذا سمح لنا التعبير بذلك ـ أو على نحو أفضل عاطفة فعالة. فيجب علينا أن نتصرف بمثل هذه الطريقة عندما نقرأ قصة بحيث نترك أنفسنا تنفعل فيها. فنسمح لها بأن تحركنا ونتركها تفعل ما تريده في نفوسنا ثم نجعل أنفسنا منفتحة لها على نحو ما.

نحن ندين بالكثير للأدب التفسيري ـ الفلسفة والعلوم والرياضيات ـ فهي التي شكلت العالم الواقعي الذي نعيش فيه. ولكننا لا نستطيع العيش في هذا العالم إذا لم نكن قادرين من وقت لآخر أن ننطلق بعيداً عنه. ولا نقصد بأن نقول أن الأدب التخيلي هو دائماً أدب الهروب من الواقع. بالمعنى العادي للعبارة، فالفكرة في هذه الحالة تبدو تافهة. فإذا كان من المفروض أن نهرب من الواقع فيجب أن يكون هروبنا أعمق أو أكبر باتجاه الواقع.

هذه هي الواقعية لحياتنا الروحية ولنظرتنا للعالم. واكتشاف هذه الواقعية يجعلنا سعداء والتجربة ترضي وبعمق تلك الأجزاء من أنفسنا التي لا نلمسها عادة. وعلى أي حال فقواعد قراءة الأعمال الأدبية العظيمة يجب أن يكون لها نتائج أو أهداف فقط مثل تلك التجربة العميقة. والقواعد يجب أن توضح كل ما يمنعنا من أن نتحسسها بأكبر عمق نستطيع الوصول إليه.

هذا التفريق الأساسي بين الأعمال التفسيرية والأدب التخيلي يقودنا إلى فرق آخر ـ وذلك بسبب أهدافهما المختلفة بشكل جوهري ـ فهذان النوعان من الأعمال الكتابية يستعملان بضرورة اللغة بشكل مختلف، فكاتب الأدب التخيلي يحاول أن يكبِّر الغموض الكامن للكلمات من أجل أن يكسب بتلك الوسيلة الغنى والقوة الموروثة من المعاني المتعددة، فهو يستعمل المجاز والاستعارة كوحدة في بنائه تماماً مثلما يستعمل كاتب الأعمال الفكرية الكلمات من أجل شحذ معناها المفرد. وما قاله دانتي في الكوميديا الإلهية في أنه يجب قراءة الكلمات كما لو أن لها معانٍ متعددة ومرتبطة في نفس الوقت وهذا يطبّق عموماً على قراءة الشعر والأدب التخيلي. فالمنطق الذي تهدف إليه الكتابة التفسيرية هي إزالة الغموض والوضوح التام. ولا يجب أن يترك شيء بين السطور ـ

ويجب أن يقال كل شيء بأكبر قدر مستطاع من التفسير والوضوح.

وعلى العكس فالكتابة التخيلية تعتمد كثيراً على ما تتضمنه المعاني كإعتمادها على ما قد قيل. فالتعدد في المجاز والاستعارة غالباً يضع محتويات أكثر بين السطور أكثر مما تحتويه الكلمات التي تشكلها. فمجمل القصيدة أو القصة تقول شيئاً لا تقوله كلماتها أو لا تستطيع أن تقوله منفردة.

من هذه الحقيقة نتوصل إلى النصيحة السلبية التالية: «لا تبحث عن العبارات والافتراضات والمناقشات في قراءة الأدب التخيلي». فهذه الأشياء هي أدوات منطقية وليست شاعرية. ففي الشعر والمسرحيات كما علّق ذات مرة الشاعر مارك ڤان دورين أن التعبير هو الوسيلة الأكثر غموضاً. فما تعبّر عنه القصيدة الغنائية مثلاً لا يمكن أن يوجد في أيٍ من جملها. فالكل الذي تتألف منه كل الكلمات، في علاقتها مع بعضها وفي رد فعلها على بعضها، تقول شيئاً لا يمكن أبداً أن يقيد في قيود الافتراضات. وعلى كل حال فإن الأدب التخيلي يحتوي على عناصر مشابهة للعبارات والافتراضات والمناقشات وسوف نبحث ذلك في الحال.

بالطبع نستطيع أن نتعلم من الأدب التخيلي ـ القصائد والقصص وربما بشكل أخص المسرحيات ـ ولكن ليس بنفس الطريقة التي تعلمنا إياها الكتب العلمية والفلسفية. فنحن نتعلم من التجربة التي نتلقاها في حياتنا اليومية. ونستطيع أن نتعلم أيضاً من بديل ذلك أو من الخلق الفني، أي من التجربة التي تنتجها الكتب التخيلية في خيالنا. وبهذا المعنى فإن القصائد والقصص تعلمنا إلى جانب كونها تسعدنا. إن الأعمال التفسيرية لا تقدِّم لنا مع التجربة الروائية، إنها تعلق على مثل هذه التجربة كما حصلنا عليها أو نستطيع الحصول عليها. وهذا هو السبب في صحة قولنا أن الكتب التفسيرية تعلمنا أساساً، بينما الكتب التخيلية تعلمنا بالاستنتاج من خلال خلق تجربة نستطيع أن نتعلم منها. ومن أجل أن نتعلم من مثل هذه الكتب يجب علينا أن نفكر بأنفسنا في هذه التجربة، ولكي نتعلم من العلماء والفلاسفة يجب علينا أولاً أن نحاول فهم

نوع تفكيرهم بالعمل الذي قاموا به.

القاعدة السلبية الأخيرة هي «لا تنقد الأدب التخيلي بواسطة معايير الحقيقة وأنساقها التي تلائم تواصل المعرفة». فالحقيقة في القصيدة الجيدة هي احتمالها واحتمال واقعيتها أو معقوليتها. ويجب أن تكون قابلة للتصديق لكنها لا تحتاج إلى وصف حقائق الحياة أو المجتمع بالطريقة التي يمكن إثباتها بالتجربة أو البحوث. وقد لاحظ أرسطو منذ قرون خلت أن «معايير الصحة للشعر لا تشبه معايير الصحة للسياسة» أو الفيزياء أو علم النفس. إن عدم الدقة الفنية في الذرّة أو الخطأ في الجغرافيا أو التاريخ يجب أن ينقد عندما ترد في كتاب كدراسة في تلك المواضيع. لكن سوء التعبير عن الحقائق لا يشوِّه القصة إذا نجح كاتبها في إحاطتها بالمعقولية. فعندما نقرأ التاريخ فإننا نريد الحقيقة، ونملك الحق في أن نتشكى إذا لم نحصل عليها. وعندما نقرأ رواية فإننا نريد القصة التي يجب أن تكون صحيحة فقط بمعنى أنها يمكن أن تحدث في عالم الشخصيات والحوادث التي خلقها الراوي، وأعاد خلقها في مخيلتنا.

ماذا نفعل في الكتاب الفلسفي عندما نقرأه ونفهمه؟ إننا نختبره من خلال التجربة العادية التي كانت أصل إلهامه وهي المبرر الوحيد لوجوده. ونسأل أنفسنا هل هذا صحيح؟ هل شعرنا بهذا؟ هل فكرنا دائماً بذلك بدون إدراكه؟ هل هذا واضح الآن بالرغم من أنه لم يكن كذلك من قبل؟ هل هي معقدة كما يمكن أن تكون نظرية الكاتب أو شرحه، هل هي أبسط من الأفكار والآراء المشوشة التي كانت لنا سابقاً عن الموضوع؟

إذا استطعنا أن نجيب عن معظم هذه الأسئلة بالإيجاب، فإننا ملزمون باتفاق الفهم الذي يحدث في أنفسنا ولدى الكاتب. وعندما نفهم ونتفق، يجب علينا أن نقول «هذا هو إدراكنا للموضوع. لقد اختبرت نظريتك ووجدت أنها صحيحة».

وليس كذلك في حالة الشعر، فنحن لا نستطيع اختبار عطيل من خلال تجربتنا الشخصية، حتى نكون نحن أنفسنا مغاربة ومتزوجين من سيدات من

البندقية نشك في خيانتهن. ولكن حتى لو كنّا كذلك، فإن عطيل ليس كل مغربي، وديدمونة ليست كل سيدة من البندقية ومعظم الأزواج ليس لديهم الحظ الجيد في معرفة أيا نحو. وفي الحقيقة كلهم عدا واحداً يمكن أن يكون محظوظاً، إنه عطيل الشخصية والمسرحية فهما شيء واحد.

قواعد عامة لقراءة الأدب التخيلي

لنجعل هذه «اللاءات» التي بحثناها في القسم الأخير أكثر مساعدة ولا بد أن نكملها من خلال اقتراحات بنّاءة. وهذه الاقتراحات نستطيع أن نطورها بالتناظر مع قواعد قراءة الأعمال التفسيرية. يوجد ـ كما رأينا ـ ثلاثة مجموعات من هذه القواعد؛ فالمجموعة الأولى تتألف من قواعد لاكتشاف وحدة العمل وعلاقة الجزء بالكل. والمجموعة الثانية تتألف من قواعد لبيان وتفسير مكونات تعابير وافتراضات ومناقشات الكتاب. والمجموعة الثالثة تتألف من قواعد لنقد المبادىء التي طرحها الكاتب وذلك في سبيل الوصول إلى اتفاق أو اختلاف معه. ولقد دعينا هذه المجموعات الثلاث من القواعد هيكلية وتفسيرية ونقدية. ومن خلال التشابه مع هذه القواعد نستطيع أن نوجد مجموعات قواعد مشابهة لها ترشدنا في قراءة الشعر والقصص والمسرحيات.

أولاً ـ نستطيع أن نترجم القواعد الهيكلية ـ قواعد مخطط العمل ـ إلى مشابهاتها في الأعمال التخيلية كما يلي:

1 ـ يجب تصنيف عمل الأدب التخيلي حسب نوعه. فالقصيدة الغنائية تخبرنا عن قصة هي أساساً تعابير عن تجربة شعورية مفردة، بينما الرواية أو المسرحية لها إضاءات أكثر تعقيداً تشمل العديد من الشخصيات وأفعالهم وردود أفعالهم على بعضهم، بالإضافة إلى المشاعر التي يعانون منها أثناء ذلك وكل واحد منا يعرف أن المسرحية تختلف عن القصة من خلال روايتها وبواسطة الأفعال والأحاديث. (هناك بعض الاستثناءات الهامة لذلك سوف نذكرها فيما بعد). إن الكاتب المسرحي لا يستطيع مطلقاً أن يتكلم عن نفسه،

كما يستطيع القاص، ويفعل ذلك مراراً أثناء سرده للرواية. كل هذه الفروق في طريقة الكتابة تدعو إلى فروق في تفتح القارىء للعمل. لذا يجب التمييز أولاً في نوع الأدب التخيلي الذي تقرأه.

2 ـ يجب عليك أن تلتقط الوحدة التي تربط مجمل العمل. وإذا كنت قد فعلت هذا أم لا، فإنه يمكنك أن تختبر ذلك من خلال قدرتك على التعبير عن تلك الوحدة بجملة أو جملتين. إن وحدة الأعمال التفسيرية تكمن كلياً في المشكلة الرئيسية التي تحاول أن تحلها. وهكذا فالوحدة بالمستطاع إيجادها من خلال صياغة هذا السؤال، أو بواسطة الافتراضات التي تجيب عليها. والوحدة للعمل التخيلي ترتبط أيضاً بالمشكلة التي يواجهها الكاتب، ولكن المشكلة ـ كما لمسناها ـ هي في محاولة توضيح تجربة متماسكة، وهكذا فوحدة القصة هي دائماً في حبكتها. وأنت لا تستطيع التقاط القصة كاملة حتى تستطيع أن تلخص حبكتها في سرد موجز ليس في الافتراضات ولا في المناقشات.

لاحظ في أنه لا يوجد هنا تناقض حقيقي بين ما قلناه عن وحدة الحبكة وما قلناه عن وحدة اللغة في الأعمال التخيلية، فحتى القصيدة الغنائية لها حبكة بالمعنى الذي نستعمل فيه العبارة هنا، ولكن الحبكة ليست هي التجربة المتماسكة التي أُعيد خلقها في قارىء العمل، ولتكن ما تكون قصيدة أو مسرحية أو رواية لأنها هي فقط إطارها أو ربما مناسبتها. إنها تكمن في وحدة العمل الذي هو ـ إلى حد بعيد ـ التجربة نفسها، تماماً كما تقف المحصلة المنطقية للأعمال التفسيرية من خلال المناقشات الكلية.

3 ـ ليس المهم فقط أن تختصر الكل إلى وحدته البسيطة، لكن يجب عليك أيضاً أن تكتشف كيف يُبنى الكل من كل أجزائه. إن أجزاء الكتاب التفسيري تُعنى بأجزاء المشكلة الكلية، كما أن الحلول الجزئية تساهم في وضع الحل لمجمل العمل. بينما الأجزاء في الأدب التخيلي هي الخطوات العديدة التي يأخذها الكاتب لتطوير حبكته من خلال الخلق المفصل لشخصيات

الرواية وحوادثها. والطريقة التي ترتب بها الأجزاء في الحالتين مختلفة. ففي العلوم والفلسفة تخضع الأجزاء لتنظيم منطقي. أما في الرواية فيجب على نحوٍ ما أن تلائم الأجزاء المخطط المؤقت وتتقدم من البداية نحو الوسط فالنهاية. ولتعرف هيكل الرواية يجب أن تعرف أين بدأت ـ وبالطبع فإن هذا ليس بالضرورة في الصفحة الأولى ـ ماذا يجري خلالها وأين ينتج منها. يجب أن تعرف الأزمات المختلفة التي تقود إلى الذروة، وأين وكيف حدثت الذروة، وماذا حصل نتيجة لذلك. (ولا نعني بالنتيجة ماذا حصل بعد انتهاء القصة، فلا أحد يستطيع أن يخبرنا بذلك. إننا نعني فقط ماذا حدث من خلال السرد، وبعد أن وصلت الذروة).

هناك نتيجة هامة تتبع النقطة التي أوضحناها الآن. فالأجزاء في الأعمال التفسيرية هي على الأغلب أكثر قراءة بشكل مستقل من أجزاء الكتاب التخيلي. أصدر «إيوكليد» كتابه «العناصر» في ثلاثة عشر جزءاً أو كتاباً كما أسماها، والأول منها يمكن قراءته بمفرده. وهذا يمكن تطبيقه بدرجة أكثر أو أقل على الكتب التفسيرية، أقسامها أو فصولها تؤخذ منفصلة أو بمجموعات جزئية وتكون ذات معنى. لكن فصول الرواية، أو فصول المسرحية، أو مقاطع القصيدة غالباً ما تصبح غير ذات معنى نسبياً عندما تنتزع من مجملها.

ثانياً ـ ما هي القواعد التفسيرية في قراءة الأدب؟ إن اعتبارنا الأول في الفرق بين الشعر والاستعمال المنطقي للغة هو الذي يؤهلنا لأن نترجم القواعد التي توجهنا لإيجاد التعابير والافتراضات والمناقشات. نحن نعلم في أننا من المفروض أن لا نفعل ذلك، ولكن من الأفضل أن نفعل شيئاً مشابهاً لذلك.

1 ـ إن عناصر الأدب التخيلي تكمن في حلقاته وحوادثه، فنحن نستطيع أن نجدها في الشخصيات ـ أفكارهم وأحاديثهم ومشاعرهم وأفعالهم ـ وكل واحدة منها هي عنصر في العالم الذي يخلقه الكاتب. ويسرد الكاتب قصته من خلال معالجته لهذه العناصر، إنها مثل المصطلحات في المقالة المنطقية. وكما تتفق على المصطلحات مع كاتب الأعمال التفسيرية، فإنه يجب عليك هنا أن

تتعرف على تفاصيل الحادثة وشخصياتها. فإنك لن تفهم القصة حتى تتعرف إلى شخصياتها، وحتى تعيش فيها من خلال حوادثها.

2 ـ إن المصطلحات ترتبط بالافتراضات، وعناصر الأعمال التخيلية ترتبط بالرؤية الشمولية أو الخلفية التي تظهر بجلاء ووضوح. إن كاتب الأعمال التخيلية يخلق عالماً من خلاله تعيش شخصياته وتتحرك وتعبر عن وجودها. والقاعدة المناظرة في الأعمال التخيلية والتي توجهك لتجد افتراضات الكاتب تكون على النحو التالي: أدخل ذلك العالم التخيلي واعرفه كما لو كنت مراقباً لمشاهده، كن عضواً في مجتمعه، راغباً في أن تصادق شخصياته قادراً على أن تخمن حوادثه من خلال رؤياه العاطفية، إفعل كل ذلك كما لو كنت تعود صديقاً مريضاً. وإذا استطعت أن تفعل ذلك فإن عناصر العمل التخيلي سوف تقف أمامك كالبيادق المعزولة على رقعة الشطرنج وسوف تتحرك أمامك بشكل أوتوماتيكي وسوف تجد تلك الروابط التي تعطي الحيوية لشخصيات القصة وتجعلهم كما لو كانوا أعضاء في مجتمع حي.

3 ـ إذا كان هناك أي حركة في الكتب التفسيرية فإنها تكون حركة المناقشات والمرور المنطقي من الإثباتات والأسباب للوصول إلى النتائج التي تدعمها تلك الأسباب. ومن الضروري في قراءة مثل هذه الكتب أن تتبع المناقشات. وهكذا بعد أن تكتشف اصطلاحاتها وافتراضاتها فإنك مدعو لأن تحلل مسبباتها. هناك خطوة أخيرة مناظرة في تفسير قراءة الأدب التخيلي. بعد أن تكون قد تعرفت على شخصياتها وانضممت إليهم في العالم الخيالي حيث يقيمون، واتفقت مع قوانين مجتمعهم، وتنفست هواءهم، وتذوقت طعامهم، وسافرت على طرقهم. الآن يجب عليك أن تتبع مغامراتهم. إن المشاهد أو الخلفية والتركيبة الاجتماعية هي (مثل الافتراضات) نوع من الارتباط الساكن لعناصر العمل التخيلي. وحل الحبكة (مثل المناقشات أو التسببيات) هي الارتباط الديناميكي. قال أرسطو: إن الحبكة أو العقدة هي روح القصة وحياتها. وكي تقرأ الرواية جيداً يجب أن تكون أصابعك على نبض راويها،

وأن تكون تلك الأصابع حساسة لكل نبضاتها.

قبل أن نترك هذه المكافآت في العمل التخيلي للقواعد التفسيرية للقراءة، يجب أن نحذرك في أن لا تختبر هذا التناظر بشكل دقيق. فتناظر من هذا النوع يشبه المجاز الذي لن يتكامل إذا ضغطت عليه بشدة. إن الخطوات الثلاث التي اقترحناها توضح الطريق الذي من خلاله يصبح القارىء عارفاً ومتقدماً في الإنجازات الفنية لكاتب الكتاب التخيلي. وبعيداً عن إفساد متعتك في قراءة الرواية أو المسرحية، فإنهم يجب أن يجعلوك قادراً على إغناء متعتك في معرفة مصادر تلك السعادة. وإنك لن تعرف فقط ماذا أعجبك وإنما أيضاً لماذا أعجبك.

هناك تحذير آخر نود الإشارة إليه وهو أن هذه القواعد تطبق أساساً على الروايات والمسرحيات. أما القصائد الغنائية التي لها بعض الخطوط الروائية فإنه يمكن تطبيق تلك القواعد عليها. أما القصائد التي ليس لها تلك الروائية فلا تطبق عليها هذه القواعد.

إن القصيدة هي إعادة عرض تجربة متماسكة وهي بذلك مثل القصة الطويلة، وهي تحاول إعادة خلق تلك التجربة في نفس القارىء وحتى القصيدة القصيرة لها بداية ووسط ونهاية كما يوجد ذلك التتابع المنطقي في أي رواية، مهما كانت مختصرة وسريعة الزوال Fleeting. ورغم أن عدد الشخصيات يمكن أن يكون قليلاً جداً في القصيدة، فإنه يوجد دائماً وعلى الأقل شخصية واحدة هي تحديداً قائل القصيدة.

ثالثاً وأخيراً: ما هي القواعد النقدية في قراءة الكتب التخيلية؟ أنت تذكر طبعاً أننا ميزنا في حالة الأعمال التفسيرية بين المبادىء الأساسية العامة التي تحكم النقد وبين عدد من النقاط الخاصة؛ التي هي ملاحظات نقدية خاصة. مع الأخذ بعين الاعتبار تلك المبادىء الأساسية العامة، فإن القواعد المناظرة يمكن أن ترسم بكفاءة وبترجمة واحدة لتلك المبادىء. فعندما كانت النصيحة

لتلك المبادىء في حالة الأعمال التفسيرية ـ في أن لا تنتقد الكتاب ـ أي أن لا تقول أنك توافق أو لا توافق ـ حتى تقول أولاً أنك تفهم، لذا فالمبدأ الأساسي هنا هو «لا تنتقد الكتابات التخيلية حتى تقدِّر تماماً القيم الجمالية في محاولة الكاتب أن يجعلك تجرِّب وتختبر». هناك نتيجة طبيعية لذلك، وهي أن القارىء الجيد للقصة لا يستجوب العالم الذي خلقه الكاتب، ذلك العالم الذي أعاد خلقه في نفسك. ويجب أن نسلم للفنان بموضوعه وأفكاره وعطائه. قال هنري جيمس في الفن التخيلي: «إن نقدنا يجب أن يطبق فقط على ما قام الكاتب بفعله» وذلك يعني أنَّه يجب علينا فقط أن نكون شديدي الحساسية للقيم الجمالية وللحقائق التي جمعها القاص في قصته، ولنفترض أن الكاتب وضع مكان قصته في باريس فلا نملك أن نعترض ونقول أن من الأفضل أن يجعل مكانها مينابوليس. ولكن لدينا الحق في انتقاد ماذا فعل بالباريسيين وماذا فعل بالمدينة نفسها.

وبكلمات أخرى فإنه يجب علينا أن نتذكر الحقيقة الواضحة وهي أننا نوافق أو لا نوافق في الأدب التخيلي أي إما العمل قد أعجبنا أم لم يعجبنا. ففي حين أن حكمنا النقدي في حالة الكتب التفسيرية تتعلق بحقيقتها، فإن النقد في حالة الأدب بوصفه فناً جميلاً ـ كما تحمله العبارة نفسها ـ تتعلق أساساً في اعتبارنا لجماليتها. والجمالية في أي عمل فني تتعلَّق بالسعادة التي تتولد في نفوسنا عندما نعرف هذه الأعمال جيداً.

والآن دعنا نعيد صياغة هذا المبدأ الأساسي بالطريقة التالية: يجب عليك أولاً قبل أن تعبر عن ماذا يعجبك وماذا لم يعجبك أن تقوم بجهد صادق لتقدير ذلك العمل. ونعني بالتقدير أن تحصل على التجربة التي حاول الكاتب أن يقدمها لك من خلال التأثير على عواطفك وخيالك. وهكذا فإنك لن تستطيع تقدير الرواية بقراءتها بشكل سلبي ـ ففي الحقيقة وكما بيّنا سابقاً، يجب عليك أن تقرأها بحرارة ـ أكثر مما تستطيع أن تفهم الكتب الفلسفية بتلك الطريقة. وإتمام تقديرك وإعجابك، كإتمام فهمك يجب أن يكون بالقراءة الفعالة، وهذا

يعني أداء كل أفعال القراءة التحليلية التي أوضحناها بشكل مختصر.

بعد أن تكون قد أنجزت مثل هذه القراءة، فإنك تصبح مؤهلاً لإعطاء حكمك. وحكمك الأول وبشكل طبيعي سوف يكون في موضوع التذوق. إنك لن تقول فقط أن العمل أعجبك أم لم يعجبك بل أيضاً سوف تقول لماذا. والأسباب التي ستعطيها بالطبع سوف تكون ملائمة نقدياً للكتاب بحد ذاته، ولكن تعابيرها الأولى سوف تكون على الأرجح عنك أنت - تفضيلك وتحيزك - أكثر من أن تكون عن الكتاب نفسه. وهكذا لإنجاز الهدف النقدي يجب أن يكون رد فعلك موضوعياً بأن توضح تلك الأشياء التي سببتها في الكتاب. يجب عليك أن تنتهي من قول ماذا أعجبك أو لم يعجبك ولماذا، لتخلص إلى قول ما هو جيد أو سيء في الكتاب ولماذا.

وكلما استطعت أن تدرك الانعكاسات التي سببت سعادتك في قراءة الأدب والشعر فإنك تكون الأقرب في معرفة الميزة الفنية للأعمال الأدبية بحد ذاته، وسوف تطور تدريجياً معاييرك النقدية. وسوف تجد على الأغلب صحبة رجال ونساء يشابهون تذوقك ويشاركون حكمك النقدي. بل من الممكن أن تكتشف ما نعتقد أنه صحيح والذي هو التذوق الجيد في الأدب والذي يكتسب من قبل كل فرد تعلم القراءة.

الفصل الخامس عشر

اقتراحات من أجل قراءة القصص والمسرحيات والقصائد

لقد كانت القواعد الموازية لقراءة الأدب التخيلي والتي بحثناها في الفصل السابق، قواعد عامة تنطبق على كل أنواع الأدب التخيلي، الروايات والقصص نثراً كانت أم شعراً (بما في ذلك الملاحم). كما أنها تنطبق على المسرحيات، سواء كانت تراجيدية أم كوميدية أو بين بين. وتنطبق أيضاً على القصائد الغنائية بغض النظر عن طولها أو درجة تعقيدها.

ولأن هذه القواعد هي قواعد عامة لذا يجب تكييفها إلى حد ما عندما نطبقها على الأنواع المختلفة من الأدب التخيلي. ونريد في هذا الفصل أن نقترح التكييفات التي يتطلبها هذا النوع من الكتابات. ونقول شيئاً خاصاً عن قراءة القصص والمسرحيات والقصائد، وسوف نضمن أيضاً ملاحظات عن المشاكل الخاصة التي تعرض أثناء قراءة القصائد الملحمية والتراجيديات اليونانية العظيمة.

وقبل أن نبحث هذه الموضوعات، نود على كل حال أن نضع بعض الملاحظات على الأسئلة الأربعة الأخيرة والتي يسألها القارىء الجاد والفعال عن أي كتاب يقرأه، وعندما تُسأل هذه الأسئلة عن عمل من أعمال الأدب التخيلي.

وأنت سوف تتذكر أن الأسئلة الثلاثة الأولى هي: أولاً: ماذا يبحث الكتاب بمجمله؟ ثانياً: ماذا قيل بالتفصيل وكيف؟ والسؤال الثالث هل الكتاب

صحيح بمجمله أو بقسم منه؟ وتطبيقات هذه الأسئلة الثلاثة على الأدب التخيلي قد غطيت في الفصل الأخير، حيث يجاب على السؤال الأول بأن تكون قادراً على وصف وحده في القصة أو المسرحية أو القصيدة ـ تلك الحبكة التي أنشئت بشكل عام لتشمل الحركة في القصيدة ـ كما في القصة أيضاً. يجاب على السؤال الثاني بأن تكون قادراً على إدراك الدور الذي تلعبه الشخصيات المختلفة، أو بأن تعدد بكلماتك المصادفات والحوادث الأساسية التي تشتمل عليها.

ويجاب على السؤال الثالث بأن تصبح قادراً على إعطاء حكمك المعلّل عن الحقيقة الشعرية في العمل. هل هي قصة على الأرجح؟ هل يرضي العمل قلبك وعقلك؟ هل تتحسّس جمالية العمل؟ وفي كل من هذه الحالات هل تستطيع أن تقول لماذا؟

أما السؤال الرابع: ماذا عن الكتاب؟ في حالة الكتب التفسيرية تطبق الإجابة على هذا السؤال من خلال فعل على نحو ما من قبلك. إن كلمة «فعل» هنا لا تعني دائماً الخروج وفعل شيء ما. فقد اقترحنا أن ذلك النوع من الفعل هو التزام من قبل القارىء عندما يوافق على ما يحتويه الكتاب التطبيقي ـ هذه الموافقة على النتائج المبتغاة ـ وأن نقبل بالوسائل الملائمة التي يقترحها الكاتب لتحقيق تلك النتائج. إنّ الفعل بهذا المعنى هو ليس التزاماً عندما يكون الكتاب التطبيقي الذي نقرأه هو كتاب نظري. ففي هذه الحالة يكون الفعل الذهني وحده هو المطلوب. ولكن إذا اقتنعت أن مثل هذا الكتاب صحيح كله أو قسم منه، عند هذا الحد فإنك توافق على النتائج، وإذا كانت تقتضي بعض التعديلات من وجهة نظرك عن الموضوع، عندها يطلب منك إلى حد ما أن تجري هذه التعديلات.

يمكن أن تدرك الآن أنه في حالة أعمال الأدب التخيلي يجب أن يفسر السؤال الرابع والأخير بأسلوب مختلف تماماً. بمعنى أن هذا السؤال غير ملائم في قراءة القصص والأشعار. وبقول أكثر تحديداً، لا يوجد فعل من أي نوع

يجب أن تقوم به عندما تقرأ تحليلاً للقصة أو المسرحية أو القصيدة. لقد أعفيت من كل مسؤولياتك كقارىء عندما تكون قد طبقت القواعد الموازية في القراءة التحليلية لمثل هذه الأعمال، وأجبت على الأسئلة الثلاثة الأولى. لقد قلنا «أكثر تحديداً» لأنه من الواضح أن الأعمال التخيلية غالباً ما تقود القارىء لأن يتصرف بطرق مختلفة. تكون القصص في بعض الأحيان أفضل طريقة للتعبير عن موضوع معين ـ وليكن سياسياً أو اقتصادياً أو أخلاقياً ـ وبذلك يكون أفضل من الأعمال التفسيرية التي تبحث في نفس الموضوع.

إن جورج أورديل في حيوانات المزرعة و 1984 هما كلاهما هجوم قوي ضد الديكتاتورية totalitarianism وقصة «عالم جديد شجاع» لألدوس هكسلي هي نقد بليغ ضد استبدادية التقدم التكنولوجي. وقصة «الدائرة الأولى» لسولجينتسن تخبرنا عن قسوة وحقارة الإنسانية البيروقراطية السوفييتية أكثر ما تخبرنا به مئات الدراسات والتقارير الواقعية.

إن مثل هذه الأعمال قد تفوقت وروقبت مرات عديدة في تاريخ البشرية، والسبب في ذلك واضح كما علّق مرة ي. ب. هوايت: «إن الأسقف لا يخاف الكتّاب البلغاء في وعظهم عن الحرية، إنه يخاف الشاعر المخمور الذي يمكن أن يطلق النكتة التي تستحوذ على أذن السامعين». وبالرغم من ذلك فأن مثل هذه النتيجة العملية لقراءة القصص والقصائد ليست هي جوهر القضية. فالكتابات التخيلية «تستطيع» أن تؤدي إلى فعل، لكنها لا تلزم بذلك، إنها تنتسب إلى دنيا الفنون الجميلة.

إن عملاً من أعمال الفنون الجميلة هو جميل ليس لأنه مصقول ومهذب أو لأنه كامل، بل لأنه نهاية (FINS باللاتينية، تعني النهاية) بحد ذاتها. إنها لا تتحرك باتجاه بعض النتائج أبعد من ذاتها. إنها الجمال كما قال إمرسون الذي هو المبرر الذاتي لوجوده.

وهكذا عندما تأتي لتطبيق هذا السؤال الأخير على أعمال الأدب

التخيلي، يجب أن تفعل ذلك بحذر. فإذا كنت تشعر أنك مكره على أن تخرج وتفعل شيئاً بسبب الكتاب الذي قرأته، إسأل نفسك عما إذا كان الكتاب يحتوي على بعض التعابير بالرغم من أن القصص والقصائد تحتوي على تعابير. لكنها لمدى أكثر أو أقل قد طمرت بعمق. ومن الصحيح أن ننتبه لها وأن نتفاعل معها ولكن يجب عليك أن تنتبه وتتذكر أنك منتبه إليها وأن رد فعلك هو شيء غير القصة أو القصيدة بحد ذاتها. فهذه توجد من خلال نفسها. وكي تقرأها جيداً كل ما عليك أن تفعله هو أن تختبرها.

كيف تقرأ القصص

إن النصيحة البسيطة التي نود أن نعطيك إياها من أجل قراءة القصص هي: إقرأها بسرعة وبانهماك كلي. وبشكل مثالي نقول إن القصة يجب أن تُقرأ بجلسة واحدة بالرغم من أن ذلك لا يكون ممكناً للأشخاص المشغولين وخاصة إذا كانت القصص طويلة. ورغم ذلك فإن هذا الهدف يجب أن يكون تقريباً من خلال تكثيف قراءة القصة الجيدة لأقصر وقت مجدي. وإلا فإنك سوف تنسى ماذا حدث وتفقد وحدة القصة وحبكتها وسوف تضيع في صفحاتها.

إن بعض القراء عندما تعجبهم رواية فإنهم يريدون أن يتذوقوها، وأن يتوقفوا عندها، وأن يطيلوا قراءتها لأكبر مدى ممكن. ولكن في هذه الحالة فإنهم غالباً لا يكونون يقرأون الكتاب بقدر ما يكونون يرضون ـ لمدى أكثر أو أقل ـ مشاعرهم اللاواعية عن أحداث القصة وشخصياتها. وسوف نعود لذلك بعد قليل.

نقترح أن تقرأها بسرعة، وبانهماك كلي. وقد أشرنا سابقاً لأهمية ترك الكتاب التخيلي يفعل فعله عليك. وهذا ما نعنيه في الجملة الأخيرة. أترك الشخصيات يدخلون عقلك وقلبك، شكك بعدم اقتناعك إذا كانت هذه هي الحالة عن أحداث القصة. لا تعترض على شيء فعلته الشخصية قبل أن تفهم

لماذا فعلت ذلك. وإذا حدث ذلك حاول بأكثر ما تستطيع أن تعيش في عالم القصة وليس في عالمك. وعند ذلك تكون ما تفعله الشخصيات مفهوم تماماً. ولا تحكم على ذلك العالم بمجمله حتى تكون متأكداً من أنك عشت فيه إلى الحد الذي استطعته.

إن اتباعك لهذه القاعدة يتيح لك الإجابة على السؤال الأول الذي يجب أن تسأله عن أي كتاب وهو: ماذا يبحث الكتاب بمجمله؟.

فإذا لم تكن قد قرأته بسرعة فإنك سوف تخفق في رؤية وحدة القصة. وإذا لم تكن قد قرأتها بتعمق فسوف تخفق في رؤية التفصيلات. إن القصة ـ كما نوهنا سابقاً ـ تتألف من الشخصيات والحوادث. ويجب عليك أن تتعرف عليهم وأن تكون قادراً على تصنيفهم. ولكن هناك كلمة تحذير. لنأخذ مثلاً رواية الحرب والسلم لتوليستوي، فإن قراء عديدون بدأوا بهذه الرواية العظيمة ولكنهم قهروا بالشخصيات العديدة التي قدموا إليها خصوصاً وأنها تحمل تلك الأسماء الغريبة. وخلال وقت قصير توقفوا عن قراءة الكتاب بحجة أنهم لم يكونوا قادرين على تصنيف كل تلك العلاقات المتشابكة ولم يعرفوا كل تلك الشخصيات. وهذا هو شيء صحيح عن كل رواية كبيرة، وإذا كانت الرواية جيدة جداً فإننا نود أن تكون كبيرة لأقصى حد ممكن.

إن هذا لا يحدث دائماً لمثل هؤلاء القراء الجبناء لأن هذا ما يحدث تماماً لهم عندما ينتقلون للسكن في حي آخر من المدينة، وعندما يذهبون إلى مدرسة جديدة أو إلى وظيفة جديدة، أو حتى عندما يصلون إلى حفلة. إنَّهم لا يتوقفون في مثل هذه الظروف، وهم يعلمون أنهم بعد وقت قصير تبدأ الأشخاص بأن تصبح مرئية لهم من بين ذلك الحشد، وسوف يظهر أصدقاء من تلك الوجوه غير المألوفة من الزملاء الموظفين، أو من الزملاء الطلبة، أو من ضيوف الحفلة؛ يمكن أن لا نتذكر اسم كل شخص قابلناه في الحفلة، ولكننا سوف نذكر اسم الرجل الذي تحدثنا إليه لساعة من الزمن، أو الفتاة التي ارتبطنا معها بموعد في الليلة التالية، أو الأم الذي يذهب طفلها إلى نفس

المدرسة التي يذهب إليها أطفالنا. ونفس الشيء يحدث في الرواية. يجب علينا ألا نتوقع بأن نذكر اسم كل الشخصيات فالعديد منهم يكوّنون الأشخاص الخلفية الذين يوجدون فقط لتنطلق من خلالهمم الشخصيات الأساسية. وعلى كل حال فإننا في الوقت الذي ننتهي فيه من قراءة رواية الحرب والسلم أو أي رواية كبيرة أخرى فإننا نعرف من هو الهام من الشخصيات ولن ننساه. إن بيير وناتاشا والأميرة ماري ونيقولا هي أسماء تأتي مباشرة إلى الذاكرة بالرغم من مرور سنوات على قراءتنا لكتاب توليستوي.

ونحن أيضاً بالرغم من كثرة الحوادث نعلم سريعاً ما هو المهم منها. فالكتّاب عادة يعطون مساعدة كبيرة بهذا الخصوص، إنهم لا يريدون أن يضيع القارىء عن ما هو ضروري لفك الحبكة، لذا فهم يلوّحون بها بطرق متعددة. لكن ما نريد توضيحه هو أنك يجب أن لا تكون قلقاً إذا كانت كل الحوادث غير واضحة من البداية. وهي علمياً ليست واضحة في البداية. إن القصة مثل الحياة نفسها، ففي الحياة لا نتوقع أن نفهم الأحداث حين وقوعها، على الأقل بوضوح تام، لكننا إذا نظرنا وراءنا إليها فإننا نفهمها عندئذٍ. لذا فقارىء القصة عندما ينظر إليها بعد أن ينهيها سيفهم علاقة تلك الأحداث وترتيب أفعالها.

كل هذا يأتي إلى نفس النقطة: يجب عليك أن تنهي القصة من أجل أن تكون قادراً أن تقول لقد قرأتها بشكل جيد. وعلى كل حال ـ قد يكون ذلك متناقضاً ظاهرياً ـ وهي أن القصة تنحو لأن تكون مثل الحياة في صفحتها الأخيرة. إن الحياة تستمر، لكن القصة لا تستمر، فشخصياتها ليست لديها الحيوية خارج الكتاب، وتخيلك ماذا حدث لهم قبل الصفحة الأولى وبعد الصفحة الأخيرة هو جيد فقط للقارىء التالي؛ وفعلياً فإن كل هذا التفكير غير ذي معنى. لقد كتبت مقدمات استهلالية عن هملت لكنها كلها مضحكة ridiculous.

يجب ألا نسأل ماذا حصل لبيير وناتاشا بعد أن انتهت الحرب والسلم. لقد ارتضينا بما كوّنه شكسبير وتوليستوي لأنهما على نحو ما محدودان من حيث الزمن ولا نريد أكثر.

إن الأغلبية العظمى من الكتب التي تقرأ هي قصص من نوع أو نوع آخر. والأشخاص الذين لا يستطيعون القراءة يستمعون للقصص، بل حتى أننا نخترعها لأنفسنا إذا لم نجدها. والأدب التخيلي يبدو أنه ضروري للكائنات البشرية. فلماذا هذه الضرورة؟.

هناك سبب واحد للإجابة على سؤال لماذا الكتابة التخيلية هي ضرورة إنسانية؟ وذلك لأنها ترضي احتياجات عدة واعية ولاواعية. ويمكن أن تكون هامة فقط إذا لامست وعينا العقلي، كما تفعل الكتب التفسيرية. لكن الأدب التخيلي هام أيضاً لأنه يصل إلى لاوعينا أيضاً.

وعلى أبسط مستوى ـ ومناقشة هذا الموضوع يمكن أن تكون معقدة جداً ـ نحن نحب أو لا نحب أنواعاً معينة من الأشخاص أكثر من سواهم، دون أن نكون دائماً متأكدين لماذا؟ وإذا عوقب مثل هؤلاء الأشخاص أو كوفئوا في القصة، فإنه يمكن أن يتولد لدينا مشاعر أقوى إما مع الكتاب أو ضده أكثر من مزاياه الفنية. وعلى سبيل المثال فإننا غالباً ما نسر عندما ترث إحدى شخصيات القصة نقوداً، أو تحصل على ثروة جيدة. وعلى كل حال فإن هذا ينحو لأن يكون صحيحاً فقط إذا كانت الشخصية ملائمة لمزاجنا بمعنى أننا نستطيع أن نتطابق معه أو معها. ونحن لا نعترف لأنفسنا بأننا نرغب في أن نرث نقوداً، ونجد أنه من الملائم أكثر أن نقول لقد أعجبنا الكتاب.

وربما نرغب كلنا في أن نُحَبّ أكثر مما نحن عليه. فقصص عديدة عن الحب ـ بل ربما أغلبها ـ تعطينا السعادة حتى أننا نتطابق مع الشخصيات المحبوبة. فهم أحرار بينما نحن غير أحرار. ولكن يمكن أننا لا نودّ الاعتراف بذلك، لأننا إذا اعترفنا بذلك فإنه يمكن أن نشعر بشكل واعٍ أن حبنا نحن غير ملائم.

وكل واحد منا تقريباً لديه سادية ومازوشية في اللاشعور وهذه غالباً ما تُرضى من خلال الروايات، حيث نستطيع أن نتطابق مع المنتصر أو الضحية

أو حتى مع الاثنين. وفي أي حال من الأحوال نكون ميالين للقول ببساطة أن هذا النوع من الكتب قد أعجبنا دون تحديد أو معرفة لماذا. وأخيراً نحن نشك في أن الحياة كما عرفناها غير عادلة. فلماذا يعاني الأناس الطيبون وينجح الأشرار، نحن لا نعلم ولا نستطيع أن نعلم. وهذه الحالة المشوشة وغير السارة تعتدل وهذا ما يجعلنا راضين تماماً.

وفي القصص ـ أي في الروايات والقصائد الروائية والمسرحيات ـ توجد عادة العدالة. والأشخاص يحصلون على ما يستحقونه، فالكاتب الذي هو مثل الإله بالنسبة لشخصياته يرى أن هذه الشخصيات تكافأ أو تعاقب حسب مزاياها الحقيقية. هذه هي الحالة عادة في القصص الجيدة أو المُرضية على الأقل. وأحد أهم الأشياء المثيرة في القصص الرديئة هي أن الأشخاص فيها عوقبوا أو كوفئوا دون إيقاع أو سبب. والكتّاب العظماء لا يقعون في هذه الأخطاء. فهم قادرون على إقناعنا بأن العدالة ـ العدالة الشاعرية كما ندعوها ـ قد حصلت.

هذا شيء حقيقي حتى في التراجيديات القوية، حيث تحدث أشياء فظيعة للأناس الطيبين، ولكننا نرى أن البطل ولو أنه لا يستحق قَدَره فإنه على الأقل قادر على أن يفهمه. وإذا فقط عرفنا فإننا نستطيع أن نقاوم ما يخبئه لنا القدر.

«أريد أن أعرف لماذا» هذا هو عنوان قصة لشيروود أندرسون، ويمكن أن تكون عنواناً لقصص عديدة. فالبطل المأساوي يعلم لماذا وغالباً ما يكون ذلك بالطبع بعد تدمير حياته. ونحن نستطيع أن نشاركه رؤياه دون مشاركته معاناته.

وهكذا يجب علينا التأني في نقدنا الأدب التخيلي لتمييز تلك الكتب التي ترضي بشكل خاص احتياجاتنا اللاواعية ـ تلك الاحتياجات التي تجعلنا نقول: «لقد أعجبني الكتاب بالرغم من أنني حقيقة لا أعرف لماذا» ـ وهذه الأخيرة هي بدون شك قصص عظيمة.

هذه القصص التي أرضت احتياجاتنا اللاواعية، هي قصص عظيمة عاشت

وباستمرار لأجيال وقرون. وطالما بقي الإنسان إنساناً فهذه القصص سوف ترضيه وتعطيه شيئاً هو بأمس الحاجة إليه ألا وهو الإيمان بالعدالة والتفهم والراحة النفسية. نحن لسنا متأكدين أن العالم الواقعي هو عالم جيد، لكن عالم القصص العظيمة هو عالم جيد على نحو ما، لذا فإننا غالباً ما نود أن نعيش هناك ولأطول مدة ممكنة.

ملاحظة عن الملاحم

من المحتمل جداً أن الكتب الأقل قراءة في الإرث الكبير للعالم الغربي هي قصائد الملاحم الرئيسية، وبشكل خاص الإلياذة والأوديسة لهوميروس والإنيادة لفرجيل والكوميديا الإلهية لدانتي والفردوس المفقود لملتون. هذا التناقض الظاهري يتطلب بعض التعليق.

إن الحكم على عدد صغير من الملاحم والذي أنجز بنجاح خلال الألفين وخمسمئة عام الماضية ليس باليسير. فمن الواضح أن الملاحم الشعرية الطويلة هي أصعب ما يستطيع الإنسان كتابته وهذا لا يكون بإرادة المحاولة، فمئات من الملاحم قد شُرع بها، وبعضها على سبيل المثال بربليود لوردورث ودون جوان لبايرون قد نمتا لأجزاء كبيرة دون أن تكون قد انتهت في الواقع. والنجاح الكبير للشاعر الذي يستطيع أن يواصل الهدف لإتمامها. والمجد الأكبر يعود للشاعر إذا استطاع تقديم عمل على نمط هذه الملاحم الخمس التي ذكرت للتو. ولكنَّه بالتأكيد ليس من السهل قراءتها. وهذا لا يعود فقط لأنها كُتبت شعراً بل لوجود ترجمة نثرية متوفرة لها ما عدا الفردوس المفقود. وتأتي صعوبتهم من سموهم ومن طريقة معالجة مواضيعهم. وأي من هذه الملاحم الرئيسية تلقي جهداً كبيراً على القارىء جهد في الانتباه والانخراط في الموضوع والتخيل. والجهد الذي تتطلبه قراءتها هو في الحقيقة كبير جداً. وأغلبنا لا يعرف مدى الخسارة التي نتكبدها من جراء عدم بذل ذلك الجهد. لأن الكسب الذي نحصّله من قراءتنا الجيدة لهذه الملاحم ـ قراءة تحليلية كما ينبغي أن نقول ـ هو كسب كبير جداً وعلى الأقل أكبر من الكسب الذي نحصل

عليه من قراءة أي كتاب آخر، وبالتحديد أي كتاب تخيلي آخر. وعلى كل حال، لسوء الحظ فإن هذه الفائدة لا تكتسب من قبل القراء الذين لا يبذلون الجهد الصادق في قراءة هذه الكتب.

ونحن نأمل أنك سوف تبدأ هذه المحاولة بقراءة هذه الملاحم الشعرية الخمس العظيمة ونأمل بأن تنجح في أن تقرأها كلها وحتى النهاية ونحن متأكدين بأنه لن يخيب أملك إذا فعلت ذلك. بل سوف تكون قادراً على التمتع بها. إن هوميروس وفرجيل ودانتي وملتون هم الكتاب الذين قرأ لهم كل شاعر بصرف النظر عن بقية الكتاب الآخرين الذين قرأوا لهم. وهذه الملاحم إلى جانب الكتاب المقدس تشكل العمود الفقري لأي برنامج قراءة جاد.

كيف تقرأ المسرحية

المسرحية خيال، إنها قصة، وإلى الحد الذي يكون ذلك صحيحاً فإنها يجب أن تقرأ كما تقرأ القصة. وربما يجب على القارىء أن يكون خلاّقاً أكثر في خلق الخلفية، أي العالم الذي تعيش وتتحرك الشخصيات من خلاله، لأنه لا يوجد وصف في المسرحيات مثل الوصف الذي يعزز الرواية. لكن المعضلات هي أساساً متشابهة.

وعلى كل حال يوجد هناك فرق واحد هام بين القصة والمسرحية، فإنك عندما تقرأ مسرحية، تقرأ عملاً ما. لأن المسرحية التامة (أي العمل المسرحي الذي أراد منك الكاتب أن تفهمه) يُفهم فقط عندما يمثل على خشبة المسرح. إنها في ذلك مثل الموسيقى يجب أن تسمع، لذا فالمسرحية تفتقر إلى ذلك البعد الجسدي عندما نقرأها في كتاب. ويجب على القارىء أن يضع ذلك البعد في اعتباره من قبله. والطريقة الوحيدة لأن تفعل ذلك هي أن تتظاهر بأنك تراها تُمثّل، لذا فعندما تكتشف كيف تدور المسرحية بمجملها وبتفصيلاتها وعندما تجيب عن الأسئلة الأخرى التي يجب أن تسألها عن كل قصة عند ذلك حاول أن تُخرج المسرحية ـ تصور أن لديك نصف دزينة من الممثلين الجيدين

ينتظرون أوامرك وأنت تقول لهم كيف يجب أن يقولوا هذا السطر وكيف يمثلون ذلك المشهد وتشرح أهمية الكلمات القليلة وكيف أن ذلك الفعل أو السلوك هو ذروة العمل ـ فإنك سوف تنال تسلية كبيرة وسوف تعلم أكثر عن المسرحية.

وهذا مثال على ذلك سوف يظهر ما نعنيه. ففي مسرحية هاملت Sceneii, Act II، يعلن بولونيوس للملك والملكة أن هاملت مخبول بسبب حبه لأوفيليا التي ازدرت تقدم الأمير لخطبتها. والملك والملكة يشكون من ذلك، عندئذٍ يقترح بولونيوس أن يختبىء هو والملك خلف الستارة من أجل استراق السمع بين هاملت وأوفيليا. هذا الاقتراح يحدث في الفصل الثاني، المشهد الثاني، وفي السطور 160 ـ 170. ويدخل هاملت حالاً وهو يقرأ. وحديثه لبولونيوس مُبهم عندما يقول بولونيوس: (وهكذا، هذا جنون والآن يوجد طريقة في ذلك). وفيما بعد في أول الفصل الثالث يدخل هاملت وهو يقدم مناجاته المشهورة لنفسه بادئاً: «أن تكون أو لا تكون» ويقتطع ذلك برؤية أوفيليا، ويتكلم معها بشكل معقول لفترة ولكن فجأة يصيح: «هاها هل أنت مخلصة؟» (الفصل الثالث، المشهد الأول، السطر 103). والآن يكون السؤال، هل استرق هاملت السمع عندما قال بولونيوس قبل ذلك إنه والملك قد خططوا للتجسس عليه؟ وربما هو سمع أيضاً بولونيوس يقول إنه سوف يحرر ابنته منه؟ إذا كان ذلك صحيحاً فإن حديث هاملت مع كل من بولونيوس وأوفيليا له معنى معيناً. وإذا كان هاملت لم يسترق السمع فإن الحبكة في هذه الحالة سوف تعني شيئاً آخر. ولم يترك شكسبير أي توجيهات بهذا الشأن. ويجب على القارىء (أو المخرج) أن يقرر ذلك بنفسه وقراره بذلك سوف يكون مركزياً لفهم المسرحية.

إن مسرحيات عديدة لشكسبير تتطلب هذا النوع من الفعالية من جانب القارىء. والنقطة التي نود دائماً التركيز عليها هي أنه بغض النظر عن مدى الوضوح الذي يضعنا فيه كاتب المسرحية، يبقى السؤال ماذا يتوقع منّا كاتب

المسرحية أن نراه؟ فنحن لا نستطيع أن نتساءل ماذا نسمع من كلمات المسرحية حيث أنها لم تستعمل بعد. فإنك لا تكاد تقرأ المسرحية بشكل جيد تماماً حتى تتظاهر بأنك سوف تضعها على خشبة المسرح. وإذا لم تفعل ذلك فالأفضل أن تقول بأنك قرأت المسحرية قراءة جزئية.

لقد ذكرنا سابقاً أن هناك استثناءات مهمة للقاعدة وهي أن الكاتب المسرحي لا يستطيع أن يتحدث للقارىء مباشرة كما يستطيع كاتب الرواية أن يفعل (إن التحقيل في توم جونز هو مثال للتوجه المباشر للقارىء في إحدى القصص العظيمة) واستثناءات من هذا النوع يفصلها خمسة وعشرون قرناً من الزمن تقريباً.

فالكاتب المسرحي الإغريقي أريسطوفان كتب مثالاً واحداً لما يدعى الكوميديا القديمة التي وصلتنا. فمن وقت لآخر في المسرحية الأريسطوفانية يقوم البطل الرئيسي في المسرحية بالابتعاد عن الشخصية التي يؤديها، وربما يتحرك إلى الأمام باتجاه الجمهور ويلقي خطاباً سياسياً لا يتعلق بتاتاً بالبناء الدرامي. وقد لوحظ أن هذه الخطب هي تعبير عن مشاعر الكاتب للشخصية، وهذا ما يحدث أحياناً في أيامنا هذه ولكن ربما ليست بنفس الفعالية التي قام بها أريسطوفان (وهذا ما يُظهر بأنه لم تضيع أية أداة فنية مفيدة).

مثال آخر لذلك هو برنارد شو الذي افترض أن مسرحياته يجب أن لا تمثّل فقط بل أَمَل بأن تُقرأ أيضاً لذا قام بطبعها. مثل مسرحية Heartbreak House حيث قام بطبعها قبل أن تمثل وأرفق الطبعة بمقدمة طويلة شرح من خلالها معنى المسرحيات وقال للقارىء كيف يجب أن يفهمها (وقد ضمّنها أيضاً توجيهاتٍ مسرحية مكثفة في النسخ المطبوعة) وقراءة مسرحيات شو بدون المقدمة التي كتبها هو، يعني أن تدير ظهرك عن قصد إلى أداة مساعدة هامة لفهمها. وقد قام كتّاب مسرحيون معاصرون بمحاكاة برنارد شو في هذه الأداة لكنهم لم ينجحوا بذلك كما نجح هو.

ونصيحة صغيرة أخرى يمكن أن تكون مساعدة خصوصاً في قراءة شكسبير. فقد عرضنا لأهمية قراءة المسرحيات من بدايتها لنهايتها بجلسة واحدة قدر الإمكان من أجل تحسسها بمجملها، ولكن حيث أن غالبية المسرحيات هي بنصوص شعرية وحيث أن الشعر مبهم إلى حد ما في الأماكن وفي تغيرات اللغة التي حصلت منذ عام 1600 لذا فإنه من المرغوب فيه أن تقرأ المقاطع المحيرة بصوت عالٍ. إقرأ ببطء كما لو كان هناك جمهور يسمعك وبتعبير آخر. . عليك أن تحاول أن تجعل الكلمات ذات معنى عندما تقرأها. وفقط عندما تفشل في ذلك عليك أن تعود إلى قائمة المفردات أو الملاحظات.

ملاحظة عن التراجيديا

إن معظم المسرحيات لا تستحق القراءة وهذا باعتقادنا لأنها غير كاملة، فهي لم تؤلف لكي تقرأ بل لتمثّل. وتوجد هناك أعمال تفسيرية عديدة، وروايات عديدة رائعة بالإضافة إلى القصص والقصائد الغنائية، ولكن يوجد فقط بعض المسرحيات العظيمة. وعلى كل حال فإن هذه المسرحيات القليلة (تراجيديات أسخيليوس وسوفوكليس ويوربيدس ومسرحيات شكسبير وكوميديات موليير وأعمال بعض الكتاب المسرحيين المعاصرين) هي في الحقيقة أعمال رائعة لأنها تحتوي في طياتها على بعض أعمق وأغنى تَبَصّرات ورؤيا استطاع الإنسان أن يعبّر عنها في كلمات.

وفي هذه التراجيديات الإغريقية والتي كانت تقدَّم ثلاث منها في العرض الواحد وتبحث غالباً في موضوع عام ـ عدا حالة واحدة وهي أوريستا لأغنيلوس ـ فإن مسرحيات مفردة أو فصول منها قد عاشت على مر السنين.

إن أصعب مشكلة يجب أن تحل بالنسبة للقارىء المبتدىء هي أنه من المستحيل تقريباً أن تمثل المسرحيات ذهنياً، وبالإضافة إلى ذلك فإننا لا نعلم كيف كان المخرجون الإغريق يخرجونها، كما أن المسرحيات الإغريقية غالباً ما كانت تبنى على قصص كانت معروفة جيداً من قبل المشاهدين، ولكننا نحن

لا نعرفها إلا من خلال نص المسرحية فقط. من المهم أن نعرف قصة أوديب مثلاً بالإضافة إلى المسرحيات العظيمة لسوفوكل. كتعليق عن قصة مألوفة. ومن ناحية أخرى فإنه شيء مختلف تماماً أن نحاول أن نتخيّل القصة المألوفة من قبل الإغريق لأوديب والتي أنتجت خلفية تلك المسرحية.

وبالرغم من ذلك فإن هذه المسرحيات كانت من القوة بحيث انتصرت على هذه العقبات بالإضافة إلى الأشياء الأخرى. ومن الضروري أن نقرأها جيداً لأنها ليست فقط يمكن أن تخبرنا أكثر عن الحياة كما لا نزال نحياها، ولكنها أيضاً تقدم نوعاً من الإطار الأدبي للعديد من المسرحيات الأخرى التي كتبت بعد ذلك بزمن طويل مثل مسرحيات راسين وأونيل على سبيل المثال.

إن الشيء الأول الذي يجب أن نتذكره أن جوهر التراجيديا هو الوقت أو بالأحرى الافتقار إليه. فلا يوجد مشكلة يمكن ألا تحل في أي تراجيديا إغريقية إذا وجد هناك وقت كافٍ ولكن لا يوجد منه مطلقاً ما هو كافٍ. فالقرارات والاختيارات يجب أن تصنع في دقائق ولا يوجد وقت كافٍ للتفكير وتقييم النتائج. وحيث أن الأبطال التراجيديين هم عرضة للخطأ فإن القرارات تكون خاطئة. ومن السهل علينا أن نرى ماذا يجب أن يحدث ولكن هل نستطيع أن نكون قادرين على الرؤية في الوقت المناسب؟ وهذا هو السؤال الذي يجب دائماً أن تسأله في أثناء قراءة أي تراجيديا إغريقية.

أما النصيحة الصغيرة الأخرى وهي أننا نعرف شيئاً واحداً عن تمثيل المسرحيات الإغريقية وهو أن الممثل التراجيدي كان ينتعل حذاء عالياً في قدميه يرفعه إنشات عديدة عن الأرض وهو يرتدي قناعاً أيضاً ولكن أعضاء الكورس لا ينتعلون مثل هذه الأحذية بالرغم من أنهم في بعض الأحيان يرتدون الأقنعة. وللمقارنة بين البطل التراجيدي من جهة وأعضاء الكورس من جهة أخرى أهمية كبيرة، لذا يجب عليك دائماً أن تتخيل عندما تقرأ الكلمات التي ينطق بها الكورس أنها كلمات قيلت من قبل أشخاص هم في نفس مكانتك، بينما الكلمات التي ينطق بها البطل التراجيدي تنبثق من فم مارد، من شخص

هو لا يتراءى لك أكبر من الحياة فقط بل هو فعلاً كذلك.

كيف تقرأ القصائد الغنائية LYRIC POETRY

إن أبسط تعريف للشعر (في المعنى المحدد والمتضمن في عنوان هذا القسم) هو إلى حد ما ما يكتبه الشاعر. وهذا يبدو واضحاً ما فيه الكفاية. وفوق ذلك هناك من يجادل في هذا التعريف، حيث يقولون إن الشعر هو نوع من التدفق العفوي للذاتية المميزة التي يمكن أن يُعبَّر عنها بكلمات مكتوبة، ولكن يمكن أيضاً أن تأخذ شكل الفعل الجسدي أو الصوت الموسيقي إلى حدٍ ما، أو تقتصر فقط على المشاعر. وبالطبع يوجد شيء من الصحة في ذلك يلاحظه الشعراء دائماً. وهناك مفهوم قديم جداً يقول إن الشاعر يلمس أعماق نفسه ليقدم قصيدته، وأن ذلك المكان في نفسه غامض وهو «بئر الإبداع» ضمن ذهنه أو روحه. وبهذا المعنى للعبارة، فإن الشاعرية تصنع من قبل أي شخص وفي أي زمان في جلسة حساسية متوحدة. ولكن بالرغم من اعترافنا أنه توجد نواة الحقيقة في هذا التعريف، فإن معنى العبارة الذي سنستخدمه بما سيتبع هو أضيق بكثير من ذلك. ومهما يكن أصل الحافز الشاعري، فإن الشعر بالنسبة لنا يتألف من كلمات بل الأكثر من ذلك كلمات رتبت إلى حدٍ ما وفق قواعد مضبوطة ومنتظمة.

إن التعريفات الأخرى للعبارة تحتوي بشكل مماثل نواةً لحقيقة أن الشعر (ومرة أخرى الشعر الغنائي أساساً) لا يكون شعر حقيقي حتى يحرّض للقيام بفعل (هو ثوري عادة) أو حتى يُكتب بإيقاع، أو حتى يستخدم لغة متخصصة تدعى «الأسلوب الشاعري». وفي تلك الجملة مزجنا عن عمد بعض المفاهيم الحديثة والقديمة للشعر. والنقطة التي نركّز عليها في كل هذه التعريفات وفي دزينة أخرى من التعريفات يمكن أن نوردها على أنها ضيقة جداً، تماماً مثل ذلك التعريف الذي بحثناه في الفقرة السابقة وهو عام جداً (على الأقل بالنسبة لنا).

بين مثل هذه التعريفات العامة جداً والأخرى الضيّقة جداً يقع الجوهر المركزي الذي يعترف به معظم الناس، إذا كانوا يشعرون بشكل منطقي للقضية بأنها شعر. وإذا حاولنا أن ندون بدقة ممَّ يتألف هذا الجوهر المركزي فإننا على الأغلب سوف نقع في مشاكل، لذا فإننا لن نحاول ذلك، بالرغم من أننا متأكدون أنك تعرف ما نعنيه. إننا متأكدون من أن تسعة من عشرة أو ربما تسعةً وتسعين بالمئة سوف يتفقون معنا أن س من الناس هو شاعر وأن ع من الناس ليس بشاعر. وهذا كافٍ تماماً بالنسبة لنا من أجل أهدافنا في الصفحات التالية.

إن معظم الناس يعتقدون أنهم لا يستطيعون قراءة القصائد الغنائية وبشكل خاص الحديثة منها. إنهم يظنون أنها غالباً ما تكون صعبة وغامضة ومعقدة وتتطلب انتباهاً وجهداً كبيرين لا تستحق بذله من قبلهم. وهنا نود أن نقول شيئين: الأول أن القصائد الغنائية وحتى الحديثة منها لا تتطلب دائماً ذلك الجهد والعمل الذي يمكن أن تتصوره إذا شرعت في قراءتها حالاً. ثانياً إنها غالباً ما تستحق أي جهد ترغب في بذله عليها. ونحن لا نعني أنك يجب أن لا تتأثر بالقصيدة. فالقصيدة الجيدة يمكن أن تتأثر بها وتعيد قراءتها وتفكر بها مراراً لبقية حياتك، وسوف لن تتوقف عن إيجاد أشياء جديدة فيها، وسعادة وبهجة جديدة بالإضافة إلى أفكار جديدة عنك وعن العالم أيضاً. ونحن نعني أن الهدف الابتدائي هو أن تجلب القصيدة وتجعلها قريبة منك وأن تبذل جهدك فيها وهذا ليس صعباً كما يمكن أن تعتقد.

والقاعدة الأولى التي يجب اتباعها في قراءة القصائد هي أن تقرأها من أولها إلى آخرها بدون توقف، وبغض النظر فيما إذا كنت تعتقد بأنك تفهمها أم لا. وهذه القاعدة هي نفسها التي اقترحناها للعديد من أنواع الكتب المختلفة، ولكنها أكثر أهمية في قراءة القصيدة منها في قراءة الكتب الفلسفية أو الدراسات العلمية، بل حتى أكثر أهمية منها في قراءة الروايات والمسرحيات.

وفي الحقيقة فإن المشاكل التي يبدو أن بعض الأشخاص يعانون منها أثناء قراءة القصائد ـ خصوصاً تلك الصعبة والحديثة منها ـ تتوقف على عدم

معرفتهم بهذه القاعدة الأولى في قراءة القصائد. وعندما يواجهون بقصيدة لـ ت.س.إليوت أو ديلان توماس أو بعض الشعراء الغامضين المعاصرين فإنهم يتقدمون إلى القصيدة برغبة ولكنهم يتوقفون فجأة عند السطر الأول أو المقطع الأول. فهم لا يفهمونها حالاً، ويظنون أنهم يجب أن يفهموها. إنهم يحتارون بالكلمات ويحاولون فكّ الخصل المعقدة لبناء الجملة. وفي الحال يتوقفون عن ذلك مستنتجين أن الشعر الحديث حسب ظنهم هو صعب جداً عليهم.

ليست القصائد الحديثة فقط هي الصعبة، فالعديد من القصائد الجيدة في اللغة هي معقدة ومؤثرة في لغتها وأفكارها. إلى جانب أن قصائد عديدة تبدو بسيطة تحتوي على قدر كبير من التعقيد تحت سطحها.

ولكن كل قصيدة غنائية جيدة لها وحدة، وإذا لم نقرأ القصيدة كلها وبجلسة واحدة فإننا لن نستطيع فهم وحدتها ولا نستطيع أن نكتشف إلا بالمصادفة على الأرجح المشاعر الأساسية أو التجربة التي تشير إليها. وعلى الأخص فإن جوهر القصيدة لا يوجد مطلقاً في السطر الأول منها ولا حتى في المقطع الأول ولا في أي جزء من أجزائها، إنها لا توجد إلا بمجمل القصيدة.

أما القاعدة الثانية في قراءة القصائد هي «إقرأ القصيدة من بدايتها وحتى النهاية مرة ثانية، ولكن إقرأها هذه المرة بصوت عالٍ. وقد اقترحنا ذلك سابقاً في حالة المسرحيات الشعرية كمسرحيات شكسبير. إن القراءة بصوت عالٍ تشكل عاملاً مساعداً في حالة المسرحيات، لكنها في حالة القصائد شيء أساسي. وسوف تجد أثناء قراءة القصيدة بصوت عالٍ أن كل فعل في سبيل لفظ الكلمات يجبرك أن تفهمها بشكل أفضل.

ولن تستطيع أن تمر على عبارة غير مفهومة أو حتى سطرٍ واحدٍ بسهولة إذا لم تلفظه. وآذانك سوف تؤذى بالتركيز الخاطىء الذي يمكن أن تضيعه عيناك. وسوف يساعدك إيقاع القصيدة وقافيتها ـ إذا كانت تحتوي على قافية ـ في الفهم ويجعلك تضع التركيز حيث يجب أن يكون. وأخيراً فإنك سوف

تكون قادراً على أن تفتح نفسك للقصيدة، وتتركها تفعل فعلها في نفسك كما ينبغي أن يكون.

هذان الاقتراحان الأوليان في قراءة القصائد هما الأكثر أهمية من أي شيء آخر. ونحن نعتقد أن القراء الذين يظنون أنهم لا يستطيعون قراءة الشعر، سوف يجدون صعوبة قليلة فيما بعد إذا طبّقوا هاتين القاعدتين. لأنك إذا فهمت وحدة القصيدة ولو كان هذا الفهم غير واضح تماماً فإنك تستطيع أن تبدأ في سؤال القصيدة الأسئلة هذا بالإضافة إلى الأعمال التفسيرية التي هي سر تفهم القصيدة.

إن الأسئلة التي تسألها في الأعمال التفسيرية هي أسئلة قواعدية ومنطقية. بينما الأسئلة التي تسألها في القصيدة هي أسئلة بلاغية، بالإضافة إلى أنها يمكن أن تكون أيضاً أسئلة إعرابية. فأنت لا تتوصل إلى شروط في القصيدة وإنما عليك أن تكتشف كلماتها الأساسية. وأنت لا تستطيع اكتشاف هذه الكلمات إلا من خلال التمييز القواعدي. لماذا تقوم كلمات معينة في القصيدة في التحديق في وجهك؟ هل يكون ذلك بسبب الإيقاع الذي يجعلها كذلك أم بسبب القافية، أو هل هي الكلمات المكررة؟ هل تبدو مقاطع متعددة وكأنها تحمل نفس الأفكار؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل تشكل هذه الأفكار نوعاً من التسلسل؟ إن أي شيء من هذا النوع تستطيع أن تكتشفه بحيث يساعدك في فهم القصيدة.

وفي معظم القصائد الجيدة يوجد بعض الأنواع من الصراع. إنه في بعض الأحيان صراع بين بطلين مسميين، بين شخصيهما أو صورتهما أو أفكارهما. وبعد ذلك يوصف ذلك الصراع الذي يدور بينهما.

وإذا كان الأمر كذلك فإنه من السهل اكتشافه. وغالباً ما يكون هذا الصراع ضمني وغير منصوص عليه. فمثلاً إن عدداً كبيراً من القصائد القيّمة ـ بل حتى الغالبية العظمى منها ـ هي صراع بين الحب والزمن أو بين الحياة والموت أو بين جمال أشياء زائلة وبين الخلود. ولكن هذه الكلمات يمكن ألا

تذكر في القصيدة نفسها.

في الصفحات 231 ـ 232 أمثلة عن أشعار لشكسبير.

هناك نصيحة صغيرة متبقية في قراءة القصائد. إن قرّاء مثل هذه الأعمال بشكل عام يشعرون أنهم يجب أن يعرفوا أكثر عن الكتّاب وأزمانهم أكثر مما يعرفوه حقاً. ونحن نضع إيماناً أكثر في التعليقات والنقد والسير الذاتية. ويمكن أن يكون ذلك بسبب تشككنا بقدرتنا على القراءة. فتقريباً كل شخص يستطيع أن يقرأ أي قصيدة، إذا بذل جهداً فيها. وأي شيء تكتشفه عن حياة الكاتب وعصره هو شيء صحيح ويمكن أن يكون مساعداً، لكن المعرفة الواسعة لسياق القصيدة لا يضمن أن القصيدة نفسها سوف تكون مفهومة. وكي تفهم القصيدة يجب قراءتها مرات ومرات. فقراءة أي قصيدة عظيمة هو عمل يحتاج للحياة بطولها وهذا ليس بمعنى أننا يجب أن نعيد قراءتها طوال حياتنا ولكنها بالأحرى كقصيدة عظيمة تستحق أن نعود إليها في زيارات عديدة. وخلال الإجازات ومن قصيدة معينة فإننا نتعلم منها أكثر مما ندرك ذلك.

الفصل السادس عشر

كيف تقرأ التاريخ

إن التاريخ مثل الشعر كلمة لها معانٍ متعددة. ولكي نكون ذوي نفع في هذا الفصل يجب أن نتفق على هذه الكلمة ـ أي أن نشرح كيف سنستخدم كلمة تاريخ.

وقبل كل شيء هناك فرق بين التاريخ كحقائق والتاريخ كسجل مكتوب عن هذه الحقائق. ومن الواضح أننا نستخدم الكلمة بالمعنى الثاني لها. حيث أننا نُعنى بالقراءة وأنت لا تستطيع أن تقرأ الحقائق. ولكن يوجد أنواع عديدة من السجلات المكتوبة التي تدعى تاريخية. إن مجموعة من الوثائق التي تتعلق بحادثة معينة أو بفترة زمنية معينة تدعى تاريخ تلك الحادثة. كما أن تكييفاً لمقابلة شفهية مع شخص، أو مجموعة من تلك التكييفات يمكن أن تدعى بشكل مماثل تاريخ لتلك الحادثة التي شارك بها ذلك الشخص أو أولئك الأشخاص. إن كتاباً يعالج أغراضاً مختلفة تماماً مثل المذكرات الشخصية أو مجموعة من الرسائل يمكن أن تُبنى كتاريخ زمني. والكلمة يمكن أن تطبق بل إنها بالفعل قد طبقت تقريباً على كل أنواع الكتابات التي تبدأ بفترة زمنية، أو في سياق حادثة يهتم بها القارىء.

إن المعنى الذي سنستخدم فيه كلمة تاريخ فيما سيتبع هو أضيق أو أعم من أيٍ من هذه المعاني. إنه أضيق لأننا نريد أن نقصر أنفسنا أساساً على الرواية التي تقدم إلى حد ما بشكل رسمي لفترة أو حادثة أو سلسلة من الحوادث التي جرت في الماضي.. وهذا هو الاستعمال التقليدي للعبارة، ولن نعتذر عن ذلك. ومرة أخرى كتعريفنا للقصائد الغنائية، فإننا نعتقد أنك سوف

تتفق معنا أن هذا هو المعنى العادي للعبارة ونحن نريد أن نواصل باستخدام المعنى العادي هنا.

ولكن المعنى هو أيضاً أعم أكثر من أي تعريف للعبارة الجارية في أيامنا هذه. فنحن نظن، بالرغم من عدم اتفاق كل المؤرخين معنا، أن جوهر التاريخ هو الرواية حيث أن الحروف الخمسة الأخيرة من الكلمة «STORY» تساعدنا في فهم المعنى الأساسي. فحتى مجموعة من الوثائق «كمجموعة» تروي قصة. ويمكن أن تكون تلك القصة غير واضحة ـ أي ألا يحاول المؤرخون ترتيب الوثائق بنظام ذي معنى ـ ولكن ذلك يكون ضمنياً بالنسبة لهم بغض النظر عما إذا كانوا قد نظّموه أم لا. وإلا فإننا نعتقد أن تلك المجموعة لا تدعى تاريخاً لزمانها.

وعلى كل حال فإنه من غير المهم أن يتفق معنا كل المؤرخين حول مفهومنا عن ماهية التاريخ. ويوجد هناك كمية ضخمة من نوع ذلك التاريخ الذي نبحثه وأنت تريد أو يجب عليك أن تقرأ على الأقل بعضاً منه. وسوف نساعدك لإنجاز هذا الهدف.

الحيرة التي تحتويها الحقائق التاريخية

من المحتمل أنك كنت عضواً في هيئة محلفين تستمع إلى شهادة في قضية بسيطة مثل حادث اصطدام سيارة. أو من المحتمل أنك كنت عضواً في هيئة محلفين قد قررت فيما إذا كان شخص قد قتل شخصاً آخر أم لا. إذا قمت بأحد هذين العملين فإنك تعرف مدى صعوبة إعادة بناء الماضي من خلال ذكريات شخص شاهد فعلياً ماذا حصل حتى ولو كانت تلك حادثة واحدة جرت في الماضي.

إن المحكمة تهتم بالأحداث التي جرت الآن تقريباً وبحضور شهود أحياء. بالإضافة إلى ذلك توجد قواعد إثبات متشددة، فالشاهد لا يستطيع أن يخمّن أي شيء، ولا يستطيع أن يحزر أو يفترض أو يقدّر (إلا تحت شروط

مضبوطة بإحكام شديد). وبالطبع يفترض ألا يكذب الشاهد.

ومع كل الأثبات المتأنية يوجد تقاطع المعلومات. فهل كنت متأكداً تماماً كعضو في هيئة المحلفين بحيث أنك تعلم تماماً ما حصل؟

إن القانون يفترض أنك لا تكون متأكداً تماماً. إنه يفترض أن هناك دائماً بعض الشكوك في ذهن المحلفين. وكقضية تطبيقية من أجل أن تقرر المحاكمة بهذه الطريقة أو تلك فإنها تقول إن الشك يجب أن يكون معللاً إذا كان من شأنه أن يؤثر على قرارك. وبكلمات أخرى فإن الشك يجب أن يكون كافٍ ليقلق وعيك.

إن المؤرخين أو أغلبهم يهتمون بالأحداث التي حصلت في الماضي البعيد. وكل شهود تلك الأحداث هم أموات عادة. وكل الإثباتات التي يعطونها لا تعطى في قاعة المحكمة، أي أنها لا تُحكم بقواعد متشددة ومتأنية. مثل هؤلاء الشهود هم غالباً يحزرون ويفترضون ويقدرون ويخمّنون. ولا نستطيع أن نرى وجوههم لنحكم فيما إذا كانوا يكذبون أم لا (هذا إذا كنّا نستطيع أن نعرف ذلك تماماً عن أي شخص). كما أننا لا نستطيع أن نقاطع معلوماتهم. ولا توجد ضمانة هل كانوا يعرفون عمّ يتحدثون. وإذا كان من الصعب أن تكون متأكداً من أن أحداً يعرف الحقيقة في قضية بسيطة نسبياً، كأن يُقرر من قبل المحلفين في قاعة المحكمة، فإنك تعرف كم هو أصعب أن تعرف ماذا حدث حقيقة في التاريخ. إن الحقيقة التاريخية هي واحدة من أكثر الأشياء حيرة في العالم بالرغم من أننا يمكن أن نشعر بقسوة هذه الكلمة.

وبالطبع نستطيع أن نكون متأكدين من بعض أنواع الحقائق التاريخية. فأميركا حصلت فيها الحرب الأهلية التي بدأت بإطلاق النار على فورت سمتر في 12 نيسان 1861 وانتهت باستسلام الجنرال «لي» إلى الجنرال غرانت في محكمة أبوماتوكسس في 9 نيسان 1865 وكل واحد يوافق على هذه التواريخ. وإنه من غير المرجح أن تكون كل التقاويم الأميركية غير صحيحة في ذلك

الوقت بالرغم من أنها لا تكون مستحيلة تماماً.

ولكن كم نكون قد تعلمنا إذا عرفنا تماماً متى بدأت الحرب الأهلية ومتى انتهت. في الحقيقة إن هذه التواريخ مُختلف عليها (ليس بمفهوم أن التقاويم خطأ) بل بمعنى أن الحرب بدأت فعلاً بانتخاب لنكولن في خريف 1860 وانتهت باغتياله بعد خمسة أيام من استسلام الجنرال لي. وآخرون يقولون إن الحرب قد بدأت قبل ذلك بكثير - قبل ذلك التاريخ بخمس أو عشر أو عشرين سنة قبل 1861 - ونحن نعرف أن القتال قد استمر فعلياً في الأجزاء النائية من الولايات المتحدة التي لم يصلها خبر نصر الشماليين وقد استمر هذا القتال حتى أيار وحزيران وتموز من عام 1865. ويوجد أيضاً هؤلاء الذين يشعرون أن الحرب الأهلية لم تنته بعد وأنها لن تنتهي حتى يتحرر ويتساوى الزنوج الأميركيون أو حتى يعمل الجنوب على الانسحاب من الاتحاد، أو حتى تحصل الحكومة الفيدرالية على حقها في التحكم في كل الولايات وتقبل من قبل كل الأميركيين في كل مكان.

وأخيراً نحن نعلم أن أحداً يمكن أن يقول عما إذا كان إطلاق النار على فورت سمتر هو بداية الحرب الأهلية أم لا، وهذا لم يحدث في 12 نيسان 1861. إن ذلك صحيح (ضمن الاحتمالات التي أشرنا إليها من قبل). ولكن لماذا أُطلقت النار على سمتر؟ من الواضح أن هذا سؤالاً ثانياً، وهل كان ممكناًتجنّب الحرب بعد هذا الهجوم؟ وإذا حصل ذلك هل نهتم بأن هجوماً قد حدث في يوم ربيعي منذ أكثر من قرن مضى؟ إذا كنا لا نهتم بذلك - ونحن لا نهتم بهجومات عدة على حصون حصلت دون شك ولا نعمل عنها شيئاً - فهل يكون إطلاق النار على سمتر قد بقي حقيقة تاريخية هامة؟

نظريات التاريخ

غالباً ما نصنّف التاريخ؛ قصة الماضي، ضمن التخيل أكثر مما نصنفه ضمن العلوم. هذا إذا كان يجب أن نربطه بأحدهما أصلاً. وإذا لم يكن كذلك

فإنه من الممكن أن يوضع التاريخ في مكان ما بين هذين التقسيمين الأساسيين لأنواع الكتب، وعندها يجب الاعتراف أن التاريخ هو أقرب إلى الكتب التخيلية منه إلى العلوم.

إن هذا لا يعني بأن المؤرخ يخترع حقائقه مثل الشاعر أو الراوي. وعلى كل حال فإنه يمكن أن ندخل بمشاكل إذا أصررنا وبقوة على أن كاتب الكتب التخيلية يخترع حقائقه. إنه يخلق عالماً، كما قلنا سابقاً. لكن هذا العالم الجديد لا يختلف كلياً عن عالمنا ـ وفي الحقيقة فإنه من الأفضل ألاّ يكون كذلك ـ والشاعر هو رجل عادي وله منطق عادي أيضاً وفيه ومن خلاله تعلّم. إنه يرى أشياء نحن نستطيع أن نراها (إنه يمكن أن يرى أفضل، أو بطريقة مختلفة كلياً). وشخصياته تستعمل نفس الكلمات التي نستعملها (وإلا فإننا يمكن ألا نؤمن بهم). وفي الأحلام فقط يمكن للكائن البشري أن يخلق عوالم جديدة وغريبة، وحتى في أكثر الأحلام غرابة فإن حوادثها وما يخلقه الخيال يُخترع من عناصر وتجربة الحياة اليومية توضع في الغالب بطريقة جديدة وغريبة.

وبالطبع فإن المؤرخ الجيد لا يخترع الماضي، إنه يعتبر نفسه مسؤولاً وملزماً ببعض المفاهيم أو معايير الدقة أو الحقائق. وبالرغم من ذلك فإنه من الهام أن نتذكر أن المؤرخ يجب عليه دائماً أن يخترع شيئاً. فعليه مثلاً أن يجد مخططاً عاماً، أو يفترض سباقاً للأحداث، أو يُفترض أنه يعرف لماذا فعل الأشخاص في روايته الأشياء التي فعلوها.

ويمكن أن يكون للمؤرخ نظرية عامة أو فلسفة معينة حتى يجعل تاريخه يتلاءم مع ذلك ـ مثل أن تحكم العناية الإلهية العلاقات البشرية ـ أو يمكنه أن يتجنب أي سلوك من هذا النحو بافتراض أنه شيء حصل من الخارج أو من الأعلى، وعوضاً عن ذلك غالباً ما يصر على أنه من يقرر الحوادث الحقيقيّة التي حدثت. وفي هذه الحالة فإنه غالباً ما يُجبر على أن يضع أسباباً للحوادث أو دوافع للأفعال. ومن المهم أن تتبين بأي طريقة يعمل المؤرخ الذي تقرأ له. إن الطريقة الوحيدة التي يمكن بها أن تتجنب أخذ أي من هذين الموقفين هو أن

تفترض أن الناس لا يقومون بأفعال بسبب أهداف معينة، أو أن هذه الأهداف ـ إذا وجدت ـ هي غير مكتشفة وبكلمات أخرى، أنه ليس هناك نمط واحد للتاريخ إطلاقاً.

لقد تبنّى تولستوي مثل هذه النظرية عن التاريخ. وبالطبع فهو لم يكن مؤرخاً فقد كان روائياً. لكن العديد من المؤرخين تبنوا وجهة نظر مماثلة، بشكل خاص في العصور الحديثة. ويظن تولستوي أن أسباب الفعل الإنساني متشعبة جداً ومعقدة جداً ومختفية بعمق في الدوافع اللاواعية التي من المستحيل أن تعرف منها لماذا حدث هذا الشيء.

ونظراً لاختلاف نظريات التاريخ، ولأن نظرية المؤرخ تؤثر على وضعه للحوادث، لذا فإنه من الضروري أن تقرأ أكثر من وصف تاريخي للحادثة أو للفترة فيما إذا أردنا أن نفهمها. وفي الحقيقة فإن هذه هي القاعدة الأولى في قراءة التاريخ. وهي الأكثر أهمية إذا كانت الحادثة التي نهتم بها لها أهمية عملية بالنسبة لنا. فمعرفة الأميركيين لشيء عن تاريخ الحرب الأهلية الأميركية ذو أهمية عملية كبيرة لكل الأميركيين. فنحن لا زلنا نعيش في آثار ذلك الصراع الكبير والمؤسف. إننا نعيش في عالم ساعدت على صنعه ولكننا لا نستطيع أن نفهمه إذا نظرنا إليه من خلال أعين شخص واحد، أو طرف واحد، أو من خلال زمرة واحدة من المؤرخين الأكاديميين الحديثين. ومنذ وقت قريب فتحنا تاريخاً جديداً للحرب الأهلية ولاحظنا أن كاتبها قد قدمها ك «تاريخ موضوعي متجرد عن الحرب الأهلية من وجهة نظر الجنوب». ويظهر أن الكاتب جادٌّ ويمكن أن يكون الأمر كذلك، ويمكن أن يكون ذلك ممكناً. وعلى أي حال نريد أن نعترف أن كل تاريخ مروي يجب أن يكتب من خلال بعض وجهات النظر. ولكن لكي نحصل على الحقيقة فإنه يجب علينا أن ننظر إليها من أكثر من وجهة نظر واحدة.

الشمول في التاريخ

نحن لسنا قادرين دائماً أن نقرأ أكثر من تاريخ واحد للحادثة الواحدة.

وعندما نكون كذلك يجب أن نعترف بأنه ليس لدينا فرصة كبيرة لمعرفة حقيقة ما قد حصل ـ المسألة موضع السؤال ـ وعلى كل حال فهذا ليس هو السبب الوحيد لقراءة التاريخ. فقد يكون ذلك مطلوباً فقط من المؤرخ المحترف والذي يكتب التاريخ بنفسه، هذا الرجل عليه أن يقوم بفحص متقاطع لمصادره من خلال اختبارها بجدية وجهد واحدة مقابل الأخرى. ويجب عليه أن لا يترك حجراً دون أن يديره إذا كان عليه أن يعرف عن موضوعه ما يجب أن يعرف. ونحن كقراء عاديين للتاريخ نقف في مكان ما بين المؤرخين المحترفين وبين الهواة غير المسؤولين الذين يقرأون التاريخ للتسلية.

لنأخذ توسيديدس على سبيل المثال، ويمكن أن تكون عارفاً أنه كتب التاريخ المعاصر والرئيسي لحرب بيلوبونيسيان Peloponnesian في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد. بمعنى أنه لا يوجد أي شيء يمكننا أن نتفحص عمله من خلاله. ماذا يمكننا أن نتوقع معرفته منه؟

إن اليونان الآن بلد صغير، والحرب التي حصلت فيه منذ خمسة وعشرون قرناً مضت يمكن أن يكون لها تأثير حقيقي ضئيل على حياتنا في أيامنا هذه. وقد مات منذ زمن طويل كل من حارب في هذه الحرب، وكل الأشياء الصغيرة التي حاربوا من أجلها قد ماتت أيضاً منذ وقت طويل. وحتى المدن التي انتصرت أو خسرت قد تفتت إلى غبار. وفي الحقيقة إذا وقفنا لنفكر فيها فإن كل الذي بقي تقريباً من هذه الحرب هو رواية ثوسيديدس عنها. وإلى الآن فإن تلك الرواية ما زالت هامة، لأن قصة ثوسيديدس ـ ويمكننا أن نطلق عليها كلمة قصة ـ كان لها تأثير على التاريخ التالي للبشرية. فقادة الحقبة التالية قرأوا ثوسيديدس ووجدوا أنفسهم في وضع ضعيف بالمقارنة مع المدينة ـ الدولة اليونانية المقسمة. فقد قارنوا بين موقفهم الشخصي وبين موقف أثينا أو إسبارطة. واستخدموا ثوسيديدس كعذر ومبرر بل وحتى كسلوك يجب اتّباعه. وكانت النتيجة جديرة بالملاحظة وهي أن تاريخ العالم قد تغير من خلال الجزء الصغير من وجهة النظر التي أخذها ثوسيديدس في القرن الخامس

قبل الميلاد. وهكذا فنحن نقرأ ثوسيديدس ليس لأنه وصف تماماً ماذا حصل قبل أن يؤلف كتابه، بل لأنه وإلى حد ما قد حدد ماذا حصل بعد ذلك. فنحن نقرأه لمعرفة ماذا يحصل الآن ولو كان ذلك يمكن أن يبدو غريباً.

كتب أرسطو «أن الشعر هو أكثر فلسفية من التاريخ» وقد عنى بذلك أن الشعر هو أكثر عمومية، وأكثر شمولية. والقصيدة الجيدة هي حقيقية ليس فقط في زمانها ومكانها، بل أيضاً في كل الأزمنة والأماكن. ولها معنى وتأثير على كل الناس. والتاريخ ليس له مثل هذه الشمولية، فهو مربوط بحوادثه بطريقة لا يرتبط بها الشعر. ولكن التاريخ الجيد هو أيضاً شامل. قال ثوسيديدس نفسه إنه كان يكتب تاريخه كي لا يكرر رجال المستقبل الأخطاء التي شاهدها والتي عانى منها شخصياً ومن خلال معاناة بلده. لقد وصف ذلك النوع من الأخطاء البشرية التي يمكن أن يكون لها معنى لرجال آخرين سواء كانوا يونانيين أم غير يونانيين. وهكذا فإن بعضاً من الأخطاء التي ارتكبها الأثينيون والإسبارطيون قبل 2500 سنة أو على الأقل أخطاء مماثلة لا تزال ترتكب حتى الآن كما ارتكبت مراراً منذ أيام ثوسيديدس.

إذا كانت نظرتك للتاريخ محدودة، وإذا كنت تقرأه لتكتشف فقط ماذا حصل حقيقة، فإنك لن تتعلم الشيء الأساسي الذي أراد ثوسيديدس أو أي مؤرخ جيد أن يعلمك إياه. وإذا قرأت ثوسيديدس جيداً، فإنه يمكنك أن تقرر أن تتوقف عن محاولة اكتشاف ماذا حصل حقيقة في الماضي.

إن التاريخ هو قصة عن شيء مهّد السبيل للحاضر. فالحاضر هو الذي يهمنا والمستقبل أيضاً. وهكذا فأنت تستطيع أن تعلم من المؤرخين شيئاً عن المستقبل أيضاً حتى من مؤرخ مثل ثوسيديدس عاش قبل أكثر من ألفي سنة مضت.

دعنا نضع هذين الاقتراحين لقراءة التاريخ. الأول هو: إقرأ أكثر من تأريخٍ واحدٍ للحادثة أو الفترة التي تهمك إذا استطعت؛ والثاني هو: إقرأ

التاريخ ليس فقط لتعلم ماذا حدث حقيقة في زمان ومكان معينين في الماضي ولكن أيضاً لتعلم الطريقة التي يتصرف بها البشر في كل الأزمنة والأوقات ولا سيما الآن.

أسئلة عليك أن تسألها لكل كتاب تاريخي

بالرغم من حقيقة أن معظم كتب التاريخ هي أقرب إلى الخيال منها إلى العلم، فإنه بالإمكان قراءتها كأعمال تفسيرية، وهكذا يجب أن تكون. ومن ثم يجب علينا أن نسأل نفس الأسئلة التي نسألها للكتب التفسيرية. ونظراً للطبيعة الخاصة للتاريخ فإننا يجب أن نسأل هذه الأسئلة بشكل مختلف قليلاً ويجب أن نتوقع أنواعاً من الإجابات مختلفة قليلاً. فبقدر ما يتعلق به السؤال الأول فإن كل تأريخ لديه موضوعاً خاصاً ومحدداً. ومن المدهش أن القراء غالباً لا يجهدون أنفسهم بمعرفة ما هو هذا الموضوع. وبشكل خاص فإنهم غالباً لا يلاحظون بدقة ما هي الحدود التي وضعها الكاتب لنفسه.

فتأريخاً للحرب الأهلية هو ليس تأريخاً للعالم في القرن التاسع عشر. وهو على الأغلب لن يكون تأريخاً للغرب الأميركي في الستينات من القرن التاسع عشر. فيجب أن لا نهمل حالة التعليم الأمريكي في ذلك العقد، أو حركة المستكشفين الأمريكيين أو تقدم الحرية الأمريكية. فإذا كان علينا قراءة التاريخ جيداً فإنه من الضروري أن نعرف وبدقة عن ماذا هو؟ وماذا يشتمل؟. وبالتأكيد إذا كان علينا نقده فيجب أن نعرف الجانب الآخر. والكاتب لا يُلام إذا لم يفعل ذلك.

ومع الاعتبار للسؤال الثاني، فإن المؤرخ يقص قصة، وتلك القصة بالطبع حدثت في زمن معين. لذلك فإن خطوطها العامة قد تحددت وليس علينا بعد ذلك أن نبحث عنها. ولكن يوجد أكثر من طريقة لقص القصة ويجب علينا أن نعرف كيف اختار المؤرخ أن يقص قصته. هل قسّم المؤرخ عمله إلى فصول تتماثل مع السنوات أو العقود أو الأجيال؟ أو هل قسّمها حسب عناوين

أخرى من اختياره الخاص؟ هل يبحث التاريخ الاقتصادي لتلك الفترة في فصل واحد؟ وغطى حروبها وحركاتها الدينية وإنتاجها الأدبي في فصول أخرى؟ وأي من هذه الفصول هي الأكثر أهمية بالنسبة إليه؟ إذا اكتشفنا ذلك، وإذا استطعنا أن نقول أي من عوامل هذه القصة التي يقصها تبدو أكثر جوهرية بالنسبة إليه فإننا نستطيع أن نفهمه بشكل أفضل. ويمكننا أن لا نتفق معه على حكمه عما هو أساسي، ولكننا مع ذلك لا نزال نستطيع التعلم منه.

إن نقد التاريخ يأخذ شكلين، نحن نستطيع أن نحكم ـ ولكن بعد أن نكون قد فهمنا ما قيل ـ إن عمل المؤرخ يفتقر إلى الاحتمال. والناس لا يتصرفون على ذلك النحو، فنحن نستطيع أن نشعر وحتى عندما يوثّق المؤرخ نصوصه بإعطائنا فكرة عن مصادره، وحتى لو كانت هذه المصادر مناسبة حسب معرفتنا، فإننا نستطيع أن نشعر أن المؤرخ قد أساء فهم تلك المصادر، وأنه قد حكم عليها بطريقة خاطئة، ربما يعود ذلك إلى عدم كفاءته في فهمه للطبيعة الإنسانية أو للعلاقات الإنسانية بشكل جيد. ونحن ننحو لأن نشعر ذلك مثلاً عند المؤرخين القدماء الذين لم يضمّنوا مناقشتهم لأعمالهم الموضوعات الاقتصادية.

ونحن نميل إلى التفكير الآن، أن الناس يتصرفون خارج اهتمامهم الذاتي. وأن أموراً فيها الكثير من النبل تعزى إلى البطل التاريخي يمكن أن تجعلنا مفعمين بالشك.

ومن ناحية أخرى، فإننا يمكن أن نفكر أن المؤرخ قد أساء استعمال مصادره ويحدث ذلك بشكل خاص إذا كان لدينا معرفة خاصة عن الموضوع. ويمكن أن نشعر بالسخط إذا اكتشفنا أن المؤرخ لم يقرأ كتاباً معيناً قرأناه نحن. ويمكن أن يكون قد أُسيء إفهامه حقائق الموضوع. وفي هذه الحالة فإنه لن يستطيع أن يكتب تأريخاً جيداً عن تلك الحالة. ونحن نتوقع أن يكون المؤرخ قد أُعلم جيداً عن ذلك الموضوع.

إن النقد الأول وهو على كلٍ حال الأكثر أهمية، هو أنه يجب على المؤرخ الجيد أن يدمج معاً موهبة القاصّ وموهبة العالم. وعليه أن يعرف على الأرجح ماذا حدث بالإضافة إلى ما قد حدث فعلاً حسب ما قاله بعض الشهود أو الكتاب.

ويأخذ السؤال الأخير بعين الاعتبار «ماذا عن الكتاب؟» من الممكن أن نقول هنا إنه لا يوجد أي نوع من أنواع الآداب له تأثير أكبر على تصرفات الناس أكثر من التاريخ. وإن المدن الفلسفية الفاضلة لها تأثير ضئيل، ونحن كلنا نريد أن يكون العالم أفضل، ولكن نادراً ما نأخذ بتوصيات كتّاب لا يفعلون أكثر من وصف، وعلى الأغلب وصف لاذع، للفرق ما بين الواقعي والمثالي.

إن التاريخ الذي يخبرنا عن أفعال الناس في الماضي غالباً ما يقودنا إلى أن نقوم بتغيير وتحسين وضعنا في الحياة. وبشكل عام فإن رجالات الدول قد تعلموا من التاريخ أكثر من أي حقل آخر من حقول المعرفة. فالتاريخ يقترح ما هو محتمل لأنه يصف أشياء قد حدثت فعلاً. وإذا كان ذلك قد حدث، فمن الممكن أن يحدث مرة أخرى ـ أو ربما نستطيع تجنب حدوثه.

إن الجواب الأساسي على سؤال «ماذا عن الكتاب؟» يقع في اتجاهات الأفعال العملية والسياسية. ولهذا السبب تلقى أهمية كبيرة على قراءة التاريخ بشكل جيد. ولسوء الحظ فإن القادة غالباً ما يتصرفون من خلال بعض المعرفة للتاريخ إلا أن ذلك ليس كافياً. وبعالم صغير وخطر كما أصبح عالمنا فإنها تكون فكرة جيدة لكل منا أن نبدأ بقراءة التاريخ بشكل أفضل.

كيف تقرأ التراجم والسير الذاتية

السيرة الذاتية عبارة عن قصة شخص حقيقي. وهذا الإرث الجامع لشيئين (القصة والتاريخ) يؤدي لأن نتناوله بصفة مركبة.

وسوف يعترض بعض كتاب التراجم على هذا الوصف. لكن السيرة

الذاتية هي عبارة عن سرد روائي لحياة، أو تاريخ رجل أو امرأة أو مجموعة من الناس. لذا تطرح الترجمة مشاكل عديدة ومشابهة للتاريخ. وعلى القارىء أن يسأل أسئلة من نفس النوع ـ ما هو هدف الكاتب؟ ما هي معايير الحقيقة؟ بالإضافة بالطبع إلى الأسئلة التي يجب أن تسأل عن أي كتاب.

وتوجد أنواع عديدة من التراجم. والترجمة الكاملة definitive biography تنحو لأن تكون العمل النهائي والشامل والملمّ بحياة شخص هام لدرجة أنه يستحق الترجمة الكاملة. والتراجم الكاملة لا يمكن أن تكتب عن أشخاص ما زالوا على قيد الحياة. وهي نادراً ما تكتب قبل أن تكون قد ظهرت قبلها عدة تراجم غير تامة عن ذلك الشخص وغالباً ما تكون كلها غير وافية. ويتم مراجعة كل المصادر وتُقرأ كل الرسائل، وتفحص كمية كبير من التواريخ المعاصرة من قبل كاتب الترجمة. وحيث أن القدرة على جمع المواد هي إلى حد ما مختلفة عن موهبة تأليفها في كتاب جيد، فإن التراجم التامة ليست دائماً سهلة القراءة. وهذا شيء سيّىء، فالكتاب يجب ألاّ يكون مملاً. وواحدٌ من أعظم التراجم على الإطلاق هو كتاب بوسويل «حياة جونسون» وهو ممتع باستمرار، إنه بالتأكيد ترجمة تامة ومتكاملة وممتعة بالرغم من وجود تراجم أخرى عن الدكتور جونسون.

إن التراجم الكاملة definitive biography تكوّن جزءاً من التاريخ ـ تاريخ فرد وزمنه من خلال ما رآه بأم عينيه. لذا يجب أن تقرأ كتاريخ. والتراجم المرخص بها Authorised biography ليست من نفس النوع على الإطلاق. فهذه الأخيرة يسمح بها عادة من قبل ورثة أو أصدقاء بعض الأشخاص ذوي الأهمية، وهذا النوع يكتب بعناية بحيث تسلط الأضواء على الأخطاء التي ارتكبها الشخص موضوع الترجمة والنجاحات التي حققها بأفضل الأضواء الممكنة. وفي الحقيقة تكون مثل هذه التراجم جيدة جداً في بعض الأحيان لأن الكاتب لديه ميزة تسمح له بالوصول إلى كافة المواد الوثيقة الصلة بموضوعه والتي هي بحوزة من يسيطر عليها، وهذه الميزة كقاعدة لا يحققها بقية الكتّاب.

ولكن لا يمكن الوثوق بالترجمة المرخصة بنفس الطريقة التي نستطيع الوثوق بها من الترجمة الكاملة. وعوضاً عن قراءتها ببساطة كالتاريخ فإنه يقع على عبء القارىء تفهم أن الترجمة المرخصة يمكن أن تكون متحيزة، وهذه هي الطريقة التي يُفترض أن القارىء يفكر بها، لأن هذه الطريقة هي التي يرغب بها أقرباء وأصدقاء الشخص موضوع الترجمة أن يُعرف بها للآخرين وللعالم.

إن الترجمة المرخصة نوع من التاريخ، لكنها تأرِّخ بشكل مختلف. فنحن قد نكون شغوفين بأن نعرف ماذا يريد الأشخاص المعنيون أن يعرف الناس من الحياة الخاصة للشخصية موضع الترجمة، ولكن يجب أن لا نتوقع أن نعرف ما إذا كانت تلك الحياة الخاصة حقيقية أم لا؟ وغالباً ما تخبرنا قراءة التراجم المرخصة عن الزمن الذي كتبت خلاله وعن العادات والتقاليد التي كانت سائدة خلال ذلك الزمن، بالإضافة إلى السلوكيات والآراء التي كانت مقبولة في ذلك الحين. ومن خلال تخمين القارىء وقليلاً من استنتاجاته يستطيع أن يعرف ما لم يكن سائداً. ولكن يجب ألا نتأمل في اكتشاف الحياة الحقيقية لأي كائن بشري أكثر مما نأمل في معرفة القصة الحقيقية لحرب ما من خلال قراءة البلاغات الرسمية الصادرة عن طرف واحد من أطراف هذه الحرب. وكي نحصل على الحقيقة يجب أن نقرأ كل البلاغات ونسأل كل الأشخاص الذين كانوا هناك وأن نستخدم عقولنا لنصل إلى الحقيقة من خلال كل ذلك التشويش. إن الترجمة الكاملة تقوم بهذا العمل، أما في حالة الترجمة المرخصة فعلى القارىء الكثير ليفعله بهذا الخصوص (وهو أيضاً ما يجب أن يفعله القارىء في حال قراءة تراجم أشخاص ما زالوا أحياء).

بقيت تلك التراجم التي لا تصنّف ضمن التراجم التامة أو التراجم المرخصة. وربما يمكننا أن نطلق عليها التراجم العادية Ordinary biography، ففي مثل هذه الأعمال نتوقع من الكاتب أن يكون دقيقاً وعارفاً بالحقائق التي يتناولها. ونحن نريد قبل كل شيء أن نشعر بأننا نستعرض حياة شخص حقيقي في زمن ومكان آخر. إن الكائنات البشرية فضولية بطبعها وخصوصاً إذا كان الأمر يتعلق بالأشخاص الآخرين.

وبالرغم من أن مثل هذه الكتب غير جديرة بالثقة مثل التراجم المحددة definitive biographies لكن قراءتها شيء جيد، وإن العالم يبدو أفقر بدون كتاب إسحاق والتون «حيوات» الذي يحكي عن أصدقائه، وبدون كتب جون رون وجورج هربرت (وقد عُرف والتون بشكل أفضل من خلال كتابه سنارة الصيد أو جون تندال بكتابته عن صديقه ميشيل فراداي في كتاب فراداي المكتشف).

إن لبعض التراجم هدف وعظي فهي تهدف إلى هدف أخلاقي. ولم تعد تُكتَبُ مثل هذه التراجم الآن ولكنها كانت شيئاً عادياً في السابق (بالرغم من أنها لا زالت تُكتَب للأطفال بالطبع) وكتاب بلوتارش «حياة النبلاء الإغريق والرومان» تدرج ضمن هذه الأعمال. فقد أخبرنا بلوتارش قصص عن حياة رجال عظماء إغريقيين ورومان من أجل أن يساعد معاصريه في أن يكونوا عظماء أيضاً، وليساعدهم أيضاً في أن يتجنبوا الأخطاء التي يقع فيها العظماء غالباً أو على الأقل هذا ما أراده. إنَّ كتاب الحيوات كتاب رائع، وبالرغم من أن أخباره لم تعد هي الوحيدة عن هذا الموضوع فنحن الآن لم نعد نقرأه من أجل ما فيه من معلومات عن التراجم بل من أجل وجهة نظر بالحياة بشكل عام.

إن موضوعه عن أشخاص مسلّين جيدين أو سيئين ولكنهم ليسوا غير مبالين. وقد لاحظ بلوتارش هذا بنفسه. فقد كان همه الأول في كتابه هذا تعليم الآخرين ولكن أثناء العمل اكتشف أكثر فأكثر أنه هو بنفسه قد ربح وتحفز على إيواء هؤلاء الأشخاص واحداً بعد الآخر في منزله.

وبالمصادفة فإن كتاب بلوتارش التاريخي الآخر قد أثّر على التاريخ اللاحق. وعلى سبيل المثال فإن بلوتارش يُظهر الإسكندر الأكبر أنه يكوِّن حياته على طريقة آخيل (الذي علم عنه عن طريق هوميروس) لذا فإن فاتحين آخرين حاولوا أن يكوّنوا حياتهم على الطريقة التي ذكرها بلوتارش عن الإسكندر.

إن التراجم الذاتية Autobiography تعرض مشاكل مختلفة ومهمة. فالناحية

الأولى موضوع التساؤل عما إذا كان أحدٌ قد كتب ترجمة ذاتية صحيحة. وإذا كان من الصعب أن نعرف عن حياة أي شخص آخر، فإنه من الصعب أيضاً أن يعرف هو عن حياته الشخصية أيضاً. وبالطبع فإن كل التراجم الذاتية قد كتبت عن حياة غير مكتملة لصاحبها.

إن الإغراء في الكتابة لدرجة أقل أو أكثر من الحقيقة (والثانية أفضليتها أكبر)، حيث لا يوجد شخص آخر يعارضك، إن هذا الإغراء لا يقاوم. وكل شخص لديه أسرار لا يستطيع إفشاءها، وكل شخص لديه بعض الإضاءات عن نفسه. وعلى كل حال وبالرغم من أنه لا يمكن كتابة سيرة ذاتية صحيحة بشكل كامل، أو غير صحيحة بشكل كامل، تماماً كما أنه لا يوجد شخص كاذب بشكل مطلق، لذا فكل ترجمة ذاتية تقول شيئاً عن كاتبها إلا إذا كان هناك شيءٌ يريد الكاتب أن يخفيه.

ومن المتعارف عليه أن اعترافات روسو وبعض الكتب الأخرى التي كتبت بنفس الوقت (في منتصف القرن الثامن عشر) هي أولى السير الذاتية. هذا إذا أهملنا اعترافات أوغسطين. وعلى سبيل المثال مقالات مونتاين.

ففي الواقع ما يكتبه أي شخص في أي موضوع هو نوع من السيرة الذاتية، فيوجد هناك الكثير من أفلاطون في كتابه الجمهورية، والكثير من ميلتون في الفردوس المفقود والكثير من غوته في فاوست. بالرغم من عدم قدرتنا على الإشارة بإصبعنا إليها تماماً. وإذا كنا مهتمين بالإنسانيات فسوف ننحو هذا النحو بحدود معقولة عندما نقرأ كتاباً وأعيننا جزئياً على شخصية كاتبه.

وهذا الشيء يجب أن لا يكون في الاعتبار الأول ويمكن أن يؤدي إلى المبالغة فيما يسمى إثارة الشفقة لفكرة خاطئة. ولكن يجب أن نتذكر أن الكلمات لا تكتب نفسها، وأن الكلمات التي نقرأها قد وجدت وكتبت من قبل شخص حي. إن أفلاطون وأرسطو قد قالوا أشياء متشابهة وأشياء غير متشابهة أيضاً ولكن حتى لو أنهما اتفقا على كل شيء تماماً، فإنهما لا يستطيعان أن

يكتبا نفس الكتاب لأنهما شخصان مختلفان. ويمكن أن تعرف عن توما الاكويني في شيء هو غير معروف تقريباً، مثل البحث اللاهوتي الشامل.

وهكذا فإن السيرة الذاتية الرسمية تعني قليلاً أنها بشكل ما اتجاه أدبي جديد. ولا يوجد أحد يستطيع أن يكون بعيداً كلياً عن كتابه. لقد قال مونتاين: «لم أعد أستطيع أن أصنع كتابي، أكثر مما صنعني الكتاب. كتاب هو ممزوج جوهرياً بكاتبه بشكل ذاتي وهو متكامل مع حياته. وقد أضاف أن أي فرد يراني في كتابي ويرى كتابي فيَّ». وهذا شيء صحيح ليس فقط بالنسبة لمونتاين فقد قال وايتمان في كتابه أوراق العشب: «من يلمس هذه يلمس إنسان».

وهناك شيء إضافي نلمع إليه في قراءة التراجم والسير الذاتية. وهو أنه بالرغم من أن مثل هذه الكتب وبشكل خاص السير الذاتية تكشف كثيراً عن كتّابها فإننا يجب ألا نصرف وقتاً طويلاً محاولين اكتشاف أسرار الكاتب التي لا نجدها فيما يقوله بوضوح.

وبعيداً عن هذا، فالحقيقة أن مثل هذه الكتب هي غالباً شاعرية أو استطرادية أو فلسفية وإنها نوع خاص من التاريخ. ونريد أن نضيف أيضاً أنك إذا كنت تريد الحقيقة عن حياة شخص ما، فإنك يجب أن تقرأ كل ما تستطيع أن تجد من تراجمه بما في ذلك الاعتبارات الشخصية لحياته إذا ما كان قد كتب سيرته الذاتية. إقرأ التراجم كتاريخ وكسبب للتاريخ وخذ كل التراجم مع حبّة ملح ويجب ألاّ تنسى أن تناقش الكتاب حتى تستطيع أن تفهم تماماً ما يقوله. كأن تتساءل: ماذا يهدف إليه الكتاب؟ وأخيراً إن التراجم مثل التاريخ يمكن أن تسبب مواقف عملية أو أخلاقية، ويمكن أن تكون ملهمة لأنها قصة حياة... حياة هي عادة ناجحة إلى حد ما، ونحن لنا أيضاً حياتنا نديرها كما نرغب.

كيف نقرأ عن الأحداث الجارية

لقد ذكرنا في شرحنا أن فن القراءة التحليلية يطبق على كل شيء علينا أن نقرأه وليس فقط على الكتب، والآن نريد أن نعدّل هذه الفكرة قليلاً بأن نقول أن القراءة التحليلية ليست دائماً ضرورية، فهناك أشياء كثيرة نقرؤها ولا

تستدعي الجهد والمهارة المطلوبة في قابلية القراءة على المستوى الثالث، وبالرغم من أن قواعد القراءة لا تطبق دائماً فإن هناك أسئلة أربعة يجب أن تُسأل عن أي شيء نقرأه. وهذا يعني بالطبع أن هذه الأسئلة يجب أن تُسأل عندما نواجه أي نوع من المواد الواجب قراءتها والتي نخصص لها الوقت الكبير ونعني بذلك الصحف والمجلات والكتب التي تبحث في الأحداث الجارية وما شابه ذلك.

وهكذا فإن التاريخ لم يتوقف منذ مئات أو آلاف السنين والحياة مستمرة والناس رجالاً ونساء يستمرون في الكتابة عما يحدث وعن كيفية تغير الأشياء. ولكن لن يوجد تاريخ حديث عظيم كعظمة ما كتبه ثيوسديدس وسنترك للأجيال القادمة الحكم على ذلك. ولكننا نحن لدينا التزامات كبشر وكمواطنين في أن نفهم العالم من حولنا.

والمشكلة تظهر في أن نعلم ماذا يحدث فعلاً الآن؟ وقد اخترنا كلمة فعلاً بشكل مقصود في جملتنا السابقة. إن الكلمة الفرنسية لجريدة السينما newsreel هي كلمة actualités والمفهوم الكلي لأدبيات الأحداث الجارية هي على نحو ما مثل كلمة الأخبار، كيف نحصل على الأخبار؟ وكيف نعلم أنها صحيحة؟

ويمكنك أن ترى أننا نواجه نفس المشكلة التي واجهناها في قراءة التاريخ، فنحن لا يمكن أن نكون متأكدين أننا نحصل على الحقائق بمعنى أننا لن نستطيع أن نكون متأكدين عما يحصل الآن تماماً كما أننا لسنا متأكدين في أننا حصلنا على الحقائق التي جرت في الماضي، ولكن علينا أن نحاول أن نلمّ بالحقائق الجارية الآن قدر الإمكان.

إذا كنا نستطيع أن نسمع بالمصادفة كل ما يحدث حالياً، كل المناقشات التي تدور على الأرض، وننظر في قلب كل إنسان حي فإنه يمكن لنا أن نكون قادرين على الحصول على حقائق الأحداث الجارية. إن كوننا بشر يعني أننا

محدودون، وبالتالي يجب أن نعتمد على خدمات المراسلين الصحفيين، فالمراسلون هم الأناس المفروض أنهم يعلمون ماذا يحدث في منطقة صغيرة ويرسلونها بشكل قصة صحفية إلى المجلات أو ينشرونها في كتب وما يمكن أن نعلمه يعتمد عليهم.

إن الصحفيين ـ ومن أي نوع كانوا ـ هم نظرياً الزجاج الصافي الذي تظهر الحقيقة من خلالهم أو التي تشع الحقيقة من خلالهم. لكن العقل البشري ليس زجاجاً صافياً وليس عاكساً جيداً أيضاً، وعندما تشع الحقيقة من خلاله فإن العقل ليس هو المصفّي الجيد، إنها تفصل ما يعتبر غير حقيقي أو غير واقعي. فالصحفي يجب ألا يرسل ما يعتقد أنه خطأ ولكن يمكنه هو نفسه أن يقع في الخطأ. لذا فإن الشيء الأكثر أهمية والذي يجب أن نعلمه عندما نقرأ تقريراً عن الأحداث الجارية هو أن نتساءل من يكتب هذا التقرير؟

وما نقصده هنا ليس المعرفة الذاتية بشخص الصحفي بقدر ما هي معرفة العقلية التي يحملها أو نوع التفكير الذي يفكر فيه. والأنواع عديدة وتقع في مجموعات، ولمعرفة نوع المصفّي الذي يملكه الصحفي فإن علينا أن نسأل مجموعة من الأسئلة. هذه المجموعة من الأسئلة تتعلق بنوع المادة التي تتعامل مع الأحداث الجارية وهذه الأسئلة هي:

1 ـ ماذا يريد أن يثبت الكاتب؟

2 ـ من يريد أن يقنع؟

3 ـ ما هي المعرفة الخاصة التي يفترضها؟

4 ـ ما هي اللغة الخاصة التي يستعملها؟

5 ـ هل هو يعلم فعلاً عن ماذا يتحدث؟

وبشكل عام فإنه من الأفضل أن نفترض أن كل الكتب عن الأحداث الجارية تريد أن تثبت شيئاً معيناً وعلى الأكثر من السهل جداً أن نكتشف

ما هو هذا الشيء. إن التقريظ الذي يوضع على الغلاف الأخير من الكتاب يناقش هذا الشيء في مثل هذه الكتب، وإذا لم يظهر ذلك على الغلاف الأخير فقد يوجد في التقديم الذي يضعه الكاتب لكتابه.

وبعد السؤال ماذا يريد الكاتب أن يثبت؟ يأتي السؤال «من يريد الكاتب أن يقنع؟» وهل يوجه الكتاب إلى هؤلاء الذين يعرفون؟ وهل أنت كقارىء تقع ضمن هذه الفئة؟ وهل الكتاب موجّه لمجموعة صغيرة من الأشخاص يمكن أن يفعلوا شيئاً وبسرعة حول الظرف الذي يصفه الكاتب؟ أم أن الكتاب موجّه لكل شخص؟ وإذا لم تكن تتبع هذه الفئة الذي يُوجَّه الكتاب لها فبإمكانك ألاّ تقرأه.

وعليك فيما يلي أن تكتشف المعرفة الخاصة التي يفترض الكاتب نفسه أنه يعرفها. وإن كلمة معرفة هنا تغطي أرضيات كثيرة ومختلفة. إن رأياً أو رأياً مسبقاً يمكن أن يكون خياراً أفضل. فمعظم الكتّاب يكتبون إلى القراء الذين يتفقون معهم بالرأي. وإذا كنت تختلف مع رأي الكاتب بشكل جذري فإن قراءة كتابه تكون مُجهدة ومُغضبة.

إن معرفة أن الكاتب يفترض أنك تشاركه الرأي هو صعب في بعض الأحيان. وقد قال باسيل ويلي في القرن السابع عشر «. . من الصعب غالباً أن نكون نقاداً واعين ولا نقهر في معرض الافتراضات المعتادة لآرائنا «فإن العقائد تؤخذ كحقائق» وهي لا ترى إلا كعقيدة ولكن ليس كحقيقة وذلك بعد جهد عقلي كبير وهو عادة من خلال مساعدة معدّل أول من الميتافيزيقية». ويتابع باقتراحه في أنه من الأسهل أن نكتشف العقائد التي تؤخذ كحقائق لعصور مختلفة عن عصرنا، وذلك ما حاول فعله في كتابه. أما فيما يتعلق بقراءة كتب عن عصرنا فإننا لا نملك على أية حال ميزة المسافة التي تفصل العصور، لذلك علينا أن نرى من خلال مصفيات وليس فقط من خلال فكرة الكاتب الصحفي وإنما من خلال أفكارنا وأذهاننا.

ويجب أن نسأل أيضاً هل كان الكاتب يستعمل لغة خاصة؟ وهذا شيء هام بشكل خاص في الصحف والمجلات ولكنها تنطبق على الكتب التي تبحث في التاريخ المعاصر. إن كلمات معينة تحرّض وتُستعمل كمثيرات خاصة من قبلنا، لاستجابات لنا يمكن أن لا تكون محرضة لقارىء منذ قرن مضى. وكمثال على مثل هذه الكلمات كلمة شيوعية أو شيوعي، إننا كقراء يجب أن نضبط مثل هذه الاستجابة أو على الأقل أن نعرفها عندما تحدث.

وأخيراً يجب أن نتكلم عن السؤال الأخير من هذه الأسئلة الخمسة التي من المحتمل أن يكون أصعبها من حيث الإجابة «هل يعرف الكاتب ـ الذي تقرأ كتابه ـ ما هي الحقائق التي يبحثها؟» هل هو عالم بالأفكار الخاصة والسرية وقرارات الأشخاص الذين يكتب عنهم؟ هل الكاتب يعرف كل ما يجب أن يعرفه من أجل أن يعطينا سرداً عادلاً ومتوازناً للحالة التي يبحث فيها. وبعبارة أخرى، إننا قد لا نستبعد احتمال تحيز الصحفي. وليس هذا هو الشيء الوحيد الذي يجب أن يلقى العناية، فقد سمعنا في الآونة الأخيرة ما يعرف «بإدارة الأنباء» فإن من الهام أن ندرك أن هذا لا ينطبق فقط علينا كأفراد من الجمهور ولكن أيضاً على الصحفيين الذين يفترض أن يكونوا من العارفين في حين أنهم ليسوا كذلك. وبأكبر درجات حسن نيّته ومع كل الرغبة في تقديم حقيقة ما يجري حول القضية المبحوثة فإن الصحفي يمكن أن يكون غير عالم بذلك، مع الأخذ بعين الاعتبار الأمور السرية من معاهدات وما إلى ذلك. ومن الممكن أن يكون هو نفسه عالماً بذلك أو غير عالم، وفي الحالة الأخيرة فإن طريقة من أجل قرائه سوف تكون محفوفة بالمخاطر.

إنك سوف تلاحظ أن هذه الأسئلة الخمسة مختلفة عن الأسئلة التي يجب أن تسألها في أي كتاب شرحي وتفسيري، فإن معرفة لغة الكاتب على سبيل المثال ليست سوى محاولة الاتفاق معه حول تعابيره وتعريفاته. ولكن لأن الكتب المعاصرة والمواد الأخرى التي تبحث في العالم المعاصر تلقي علينا مشاكل خاصة كقراء، لذا فقد وضعنا هذا السؤال بصيغة أخرى.

وقد يكون من المفيد أن نجمع الاختلافات ونحذر منها أكثر من أن نضع قواعد لقراءة هذا النوع من الكتب. والتحذير هو Caveat lector «ليكن القارىء حذراً». إن القارىء يجب ألا يكون حذراً في قراءة أرسطو أو دانتي أو شكسبير. ولكن كاتباً لكتاب معاصر يمكن أن يكون ـ وهذا ليس بالضروري ـ ذو اهتمام بفهم القارىء للأحداث بطريقة معينة. وإذا لم يكن الكاتب كذلك، فإن مصادر معلوماته يمكن أن يكون لديها مثل هذا الاهتمام. يجب أن تعرف هذا الاهتمام وتأخذه في الحسبان في كل ما تقرأ.

ملاحظة حول المختارات

هناك نتيجة لتفريقنا الأساسي التالي ـ التفريق بين القراءة للمعلومات والقراءة للفهم ـ وهذا يوضح كل ما ذكرناه حول موضوع القراءة. وهو أن نقرأ من أجل المعلومات وبغرض الفهم حيث نجد كيف يفسِّر الآخرون الحقائق. دعنا نوضح ماذا نعني:

في جزء كبير نحن نقرأ الصحف والمجلات بل وحتى المواد الإعلانية من أجل المعلومات التي تحتويها. وكمية هذه المواد ضخمة، لدرجة أنه لا أحد يستطيع أن يقرأ إلا جزءاً صغيراً منها. والضرورة كانت الأم لعدد من الاختراعات الجيدة في حقل مثل هذه القراءات.

إن مجلات الأخبار على سبيل المثال مثل «التايم» و«النيوزويك» تقوم بوظيفة هامة لأغلبنا من خلال قراءة الأخبار واختصارها إلى عناصرها الأساسية من المعلومات. فإن الرجال الذين يكتبون هذه المجلات هم في الدرجة الأولى قراء، ونمّوا فن القراءة من أجل المعلومات إلى مستوى هو ما بعد المتوسط لقدرة القارىء العادي.

وهذا نفسه صحيح فيما يتعلق بمجلة «المختار» التي تتخصص في تلخيص كثير من المواد التي تلقى الاهتمام في المجلات العامة المعاصرة في عدد صغير الحجم. وبالطبع فإن أفضل المقالات كأفضل الكتب لا يمكن أن

تلخص دون أن يضيع منها شيء. وإذا كانت مقالات مونتابن على سبيل المثال قد ظهرت في الدوريات المعاصرة فإنه من النادر أن نقرأ ملخصات عنها. إن الخلاصة في هذه الحالة تكون مفيدة فقط إذا حرضتنا على قراءة الأصل. وفي المتوسط فإن التلخيص يكون ملائماً وفي بعض الأحيان قد يكون أفضل من الأصل لأن المقالات في غالبها هي مقالات إعلامية.

إن المهارة التي تقدمها مجلة المختار والدوريات المشابهة هي وقبل كل شيء مهارة القراءة وبعد ذلك فقط هي مهارة الكتابة ببساطة ووضوح. إنها تقدم لنا ما يمكن أن يقدمه قليل منا فقط ملكوا التقنية ـ حتى لو كان لدينا الوقت ـ للقيام بها بأنفسنا. إنها تقتطع لنا المعلومات الجامدة لصفحات وصفحات من مواد أقل غنىً.

ومع كل ذلك لا يزال يجب علينا أن نقرأ الدوريات التي تنجز هذه المختارات وتخبرنا عن الأحداث الجارية والمعلومات وحتى إذا كنا نرغب في أن نحوز هذه المعلومات فإننا لا يمكن أن نتجنب هدف القراءة بغض النظر عن مدى جودة هذه المختارات وهدف قراءتها. وفي التحليل الأخير نجد أنه هو نفس الهدف الذي يقدمه الناشرون ويجعلونه متاحاً في مجالات كبيرة. لقد وفروا علينا عناء القراءة إلى المدى الذي يهمنا باعتبارنا معنيين ولكنهم لم يوفروا علينا ولا يستطيعون كلياً حل كل معضلات القراءة. بمعنى الوظيفة التي تقدمها والثمار التي تجنيها إذا استطعنا أن نقرأ مختاراتهم من المعلومات بالإضافة إلى قراءتهم المسبقة من أجل تقديم المختارات إلينا.

وهذا يشمل القراءة من أجل الفهم كما هو من أجل المعلومات. ومن الواضح فإن المقالة الأكثر تكثيفاً تكون الأكثر اختياراً. ويجب ألا نقلق من هذا الموضوع كثيراً إذا ما لخصت الألف صفحة إلى تسعمائة. ولكن إذا ما لخصت الألف صفحة إلى عشر صفحات أو حتى إلى صفحة واحدة فإن السؤال عن الذي تبقّى يصبح حرجاً. وهكذا فإن التكثيف الأكبر هو ما يجب أن نعلمه نحن أكثر عن شخصية الملخِّص. إنه نفس التحذير الذي ذكرناه سابقاً ويطبق

هنا وبقوة أكبر. وفي نهاية المطاف ربما يجب عليك أن تقرأ ما بين السطور لملخِّص خبير. ولا يمكنك أنت أن تعود للأصل لتجد ما بقي دون تلخيص ويجب أن تبعد هذا عن موضوع التكثيف ذاته. وعلى ذلك فإن قراءة المختارات هي في بعض الأحيان الأكثر صعوبة وإلحاحاً من حيث القراءة في كل ما يمكن أن تقرأه.

الفصل السابع عشر

كيف تقرأ العلوم والرياضيات

قد يبدو عنوان هذا الفصل فصلاً، فنحن لا نريد أن نعطي نصيحة في كيفية قراءة كل نوع من أنواع العلوم والرياضيات. وسوف نقصر حديثنا على نوعين فقط: الأول هو الكلاسيكيات الكبرى في العلوم والرياضيات في تاريخنا. والثاني شعبيّة العلوم المعاصرة.

وما سنقوله ينطبق غالباً على قراءة المواد المتخصصة والمبهمة والموضوعات المحددة، ولكننا لا نستطيع أن نساعدك في قراءتها. وذلك لأننا وببساطة غير مؤهلين لذلك.

والسبب الثاني هو أنه حتى نهاية القرن التاسع عشر تقريباً كانت الكتب العلمية الرئيسية موجهة للقارىء العادي، وكتّابها أمثال جاليليو ونيوتن وداروين كانوا يفضلون أن يُقرأوا من قبل المتخصصين، ولكن لم تكن توجد مؤسسات متخصصة في تلك الأيام والتي دعاها أنشتاين «الطفولة السعيدة للعلوم». إن الشخص الذكي والقارىء الجيد يُفترض فيه أن يقرأ الكتب العلمية كما يقرأ التاريخ والفلسفة، فلم يكن هناك تمييز سريع وحدود فاصلة لا يمكن عبورها. وكان هناك اعتبار للقارىء العادي الذي يُقبل على الكتابات العلمية المعاصرة، أما في أيامنا هذه فإن معظم العلماء المعاصرين لا يهتمون أبداً بالقارىء العادي وبماذا يفكر فيه بالإضافة إلى أنهم لا يفكرون بالوصول إلى القارىء العادي.

إن العلم اليوم ينحو لأن يُكتب من قبل الخبراء ومن أجل أن يقرأه الخبراء لأن الإيصال الجيد للموضوعات العلمية تفترض معرفة متخصصة من

جانب القارىء والتي لا يمكن قراءتها كلياً من قبل القارىء غير المتخصص بالحقل العلمي الذي يبحثه المقال. ولهذا الموضوع ميزة واضحة، فهو على الأقل يهدف إلى تقدم العلوم بسرعة أكبر. إن العلماء عندما يتحدثون بينهم عن خبراتهم يستطيعون الوصول بسرعة إلى أقصى ما وصل إليه العلم، إنهم يكتشفون المعضلات في الحال ويبدأون بمحاولات لحلها. لكن ومن جانب آخر فإن ثمن ذلك يبدو واضحاً، إذ أنك أنت كقارىء ذكي لكن غير متخصص والذي نتوجه إليه بهذا الكتاب قد وُضِعت تماماً خارج الصورة.

وفي الحقيقة فإن هذا الموضوع يأخذ شكله المتطرف في العلوم عنه في أي موضوع آخر وهو موجود في كل حقول المعرفة الأخرى، فقلما يكتب الفلاسفة إلى شخص آخر عدا الفلاسفة أنفسهم، ويكتب الاقتصاديون للاقتصاديين وحتى المؤرخون قد بدأوا يستخدمون نوعاً من الاختزال في اتصالاتهم مع المؤرخين الآخرين والذي كان لزمن طويل مقتصراً على العلوم لما لهذه الطريقة من اختراق للسرد العادي الذي يكتب لكل شخص.

ماذا يفعل القارىء العادي في هذه الظروف؟ إنه لا يستطيع أن يكون خبيراً في كل حقل من الحقول لذا يجب عليه أن يعتمد على شعبيّة العلوم، وبعض هذه الأنواع جيدة وبعضها الآخر سيء. إن الشيء الهام هو أن يكون القارىء قادراً على قراءة هذه الموضوعات بتفهم.

تفهم المبادرات العلمية

إن واحداً من أسرع الموضوعات العلمية نمواً هو تاريخ العلوم. وقد لمسنا تغيرات ملحوظة في هذا الحقل خلال السنوات الأخيرة. ولم يمض زمن طويل منذ أن تجلت نظرة العلماء الجدية إلى مؤرخي العلوم الذين نُظر إليهم على أنهم مؤرخون لموضوع معين لأنهم غير قادرين على توسيع آفاقه. ونظرة العلماء إلى مؤرخي العلوم يمكن أن تلخص بالملاحظة القيّمة التي لخصها جورج برنارد شو بقوله «هؤلاء الذين يفعلون، وهؤلاء الذين يدرِّسون».

ولهذه المواقف تعابير قلما تسمع في هذه الأيام، فدوائر تاريخ العلوم أصبحت محترمة اليوم. وعلماء مبدعون يدرسون ويكتبون عن تاريخ موضوعاتهم. ومثال ذلك ما يدعى بـ «صناعة نيوتن». ففي أيامنا الحالية تقوم بحوث مكثفة وموسّعة في دول عديدة على أعمال وشخصية إسحاق نيوتن، ونصف دزينة من الكتب قد طبعت أو أعلن عنها، والسبب في ذلك أن العلماء الآن مهتمون أكثر من ذي قبل بموضوع طبيعة المبادرة العلمية في ذاتها.

ونحن لا نتردد في أن نوصي بمحاولة قراءة الكتب الكلاسيكية العلمية العظيمة في تاريخنا. وفي الحقيقة ليس هناك أي عذر في عدم محاولة قراءتها فليس هناك كتاب منها صعب حتى الاستحالة ولا حتى كتاب نيوتن «الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية» ـ هذا إذا كنت راغباً ببذل الجهد ـ.

والنصيحة المساعِدة القصوى التي نود أن نعطيك إياها هي، أنه مطلوب منك وبواحدة من قواعد قراءة الكتب التفسيرية أن تحدد وبوضوح قدر الإمكان المشكلة التي أراد الكاتب أن يحلها. وهذه القاعدة في القراءة التحليلية هي ملائمة لكل الأعمال التفسيرية، ولكنها ملائمة بشكل خاص في حقل العلوم والرياضيات.

وهناك أسلوب آخر لقول هذا الكلام، فأنت كقارىء عادي لست ملزماً بقراءة الكتب العلمية الكلاسيكية لتصبح عالماً بموضوعاتها بالمعنى المعاصر. فأنت تقرؤها لتفهم تاريخ وفلسفة العلوم وهذه في الحقيقة مسؤوليتك كإنسان علماني من خلال العلم. إن الطريقة الأساسية التي تستطيع أن تتحرر من هذه المسؤولية هي أن تصبح عارفاً بالمشاكل والمعضلات التي حاول العلماء حلها ـ معرفة المشكلة وأيضاً معرفة خلفياتها.

ولتتبع معايير التطور العلمي والطرق التي من خلالها تداخلت الحقائق والمبادىء والإثباتات في نشاط العقل البشري حيث عمل العقل بنجاح تام.

وهذا يكفي بحد ذاته وربما لتعدل نظرتك عن دراسة تاريخ العلم. وبالإضافة إلى ذلك فإن مثل هذه الدراسة سوف تبدد عدم وضوح بعض الأمور العلمية، والموضوع الأهم في ذلك هو النشاط العقلي الذي هو أساس التعليم، والهدف المركزي الذي تم تمييزه دائماً منذ عهد سقراط حتى أيامنا هذه والذي هو تحرير العقل من خلال طرح الأسئلة.

اقتراحات من أجل قراءة الكتب العلمية الكلاسيكية

نعني بالكتب العلمية: تقارير عن النتائج في حقل من حقول الأبحاث بغض النظر عما إذا كانت قد نفذت كتجارب في المخبر أو من خلال ملاحظة الطبيعة. وتصف المشكلة العلمية دائماً الظواهر بأقصى قدر ممكن من الدقة وتستشف العلاقات المتداخلة بين أنواع عديدة من الظواهر.

ولا يوجد في الكتب العلمية الكبيرة أي نوع من البلاغة الخطابية أو من الدعاية بالرغم من افتراض وجود تحيّز من خلال الافتراضات التمهيدية. ويمكنك أن تكتشف ذلك وتدرجه في حسابك من خلال تمييز افتراضات الكاتب وما يجريه من مناقشات. إن الكاتب العلمي الأكثر موضوعية هو الكاتب الأكثر وضوحاً عندما يطلب منك أن تأخذ هذا الموضوع أو ذاك بشكل مسلّمة. كما أن الموضوعية العلمية لا تخلو من التحيز المبدئي بل إنها قد تحرز من خلال الاعتراف الصريح بها.

إن العبارات الرئيسية في الأعمال الأدبية هي عادة ما يُعبّر عنه بكلمات غير معتادة أو بكلمات فنية ويمكن تمييزها بسهولة، ويكون القارىء من خلالها مهيئاً لالتقاط فرضيات الكاتب. فالفرضيات الرئيسية هي افتراضات عامة، مع الأخذ بعين الاعتبار أن العلم ليس حوادثاً تاريخية بل على العكس تماماً فالعلماء عكس المؤرخين ينحون للابتعاد عن نطاق الزمان والمكان. فهم يحاولون أن يظهروا كيف تبدو الأشياء عموماً وكيف تسلك الأشياء عموماً.

هناك على الأرجح صعوبتان رئيسيتان في قراءة الكتب العلمية. ويعد

الأخذ باعتبار المناقشات ـ فالصعوبة الأولى هي أن العلم ذو طبيعة استقرائية بمعنى أن المناقشات قد نشأت من خلال الافتراضات العامة وبالرجوع إلى الإثبات من خلال الملاحظة ـ إن أي حالة تظهر من خلال التجربة أو من خلال سلسلة من التقصيات المتأنية. وهناك نوع من المناقشات يدعى «مناقشات استدلالية». هذه المناقشات تبنى على افتراضات مثبتة من خلال افتراضات أخرى موجودة بشكل ما. إن العلم لا يختلف عن الفلسفة لكن المناقشات الاستقرائية هي ميزة العلم.

وكي نفهم المناقشات الاستقرائية في الكتب العلمية يجب علينا أن نتتبع الإثباتات التي يقررها العلماء كأساس لمناقشاتهم وهنا تكمن الصعوبة الأولى. ومن سوء الحظ أن هذا ليس ممكناً إلا من خلال وجود الكتاب في أيدينا، وإذا فشل الكتاب في الكشف عنها فلا يوجد سوى مصدر واحد للقارىء وهو أن يجرب بنفسه، فقد يلزمه أن يلحظ إثبات التجربة في المخبر، أو عليه أن ينظر إلى قطعة من الأدوات مشابهة لما ذكره الكتاب أو عليه أن يذهب إلى المتحف ليلاحظ عينات أو أشكال.

إن أي إنسان يرغب في اكتساب المعرفة بتاريخ العلوم يجب عليه ألا يقرأ النصوص الكلاسيكية فقط ولكن أن يلم بها من خلال الخبرة المباشرة على التجارب الحرجة في ذلك التاريخ. ويوجد تجارب كلاسيكية كما توجد كتب كلاسيكية. كما أن العلم الكلاسيكي يصبح واضحاً أكثر لهؤلاء الذين رأوا بأم أعينهم ومارسوا بأيديهم ما وصفه العلماء العظماء من خطوات أدت لاكتشافاتهم.

وهذا لا يعني أنك لا يمكن أن تبدأ بدون المرور بكل الخطوات المتبعة. خذ كتاباً مثل كتاب لافوازيه «عناصر الكيمياء» وقد طبع الكتاب في عام 1789 وهذا الكتاب لم يعد يعتبر ككتاب مدرسي في الكيمياء ومع ذلك فليس من الضروري أن يدرسه الطالب من أجل اجتياز امتحان الثانوية العامة في الكيمياء. مع كل ذلك فإن الكتاب كان طريقة ثورية في زمانه ولا زالت

مفاهيمه في عناصر الكيمياء بمجملها هي نفسها في زماننا المعاصر هذا. والنقطة في ذلك أنك لا يجب أن تقرأ الكتاب من أوله لآخره وبدقة لتحصل على هذه الانطباعات عنه. فمقدمته على سبيل المثال بما تحويه من تركيز على أهمية الطريقة في العلم لا زال لها بعض البريق في كل فرع من العلوم الفيزيائية كما قال لافوازيه «يجب أن تتألف من ثلاثة أشياء وهذه الأشياء الثلاثة هي: سلسلة الحقائق التي هي موضوع العلم والأفكار التي تقدم هذه الحقائق والكلمات التي تعبّر عن هذه الحقائق. وحيث أن الأفكار تحفظ وتتواصل من خلال الكلمات فإنه وبالضرورة التي تتبع ذلك لا يمكننا تطوير لغة أي علم بدون تطوير العلم نفسه. وبالطرف المقابل أيضاً لا نستطيع تطوير العلم بدون تطوير اللغة أو المفردات التي تعود إليها».

وهذا بالضبط ما فعله لافوازيه. لقد طور الكيمياء بتطوير لغتها وكما فعل نيوتن قبل قرن من ذلك الزمن فقد طور الفيزياء بتنظيم وترتيب لغتها. في معرض تطوير حسابات الاختلاف والتكاملات ـ كما يمكننا أن نتذكر ـ.

وذكر الحسابات يقود إلى الصعوبة الأساسية التالية في قراءة الكتب العلمية وهذه المشكلة هي مشكلة الرياضيات.

مواجهة مشكلة الرياضيات

إن أشخاصاً عديدين يخافون من الرياضيات ويظنون أنهم لا يستطيعون قراءتها على الإطلاق. ولا أحد يعلم تماماً لماذا تجري الأمور على هذا النحو. وبعض علماء النفس يظنون أن هناك «عمى الرموز» وهي عدم القدرة على اعتماد المرء على هذا النظام الصارم للرموز وضبطها. وقد يكون هناك شيء من هذا ما عدا بالطبع مدلولات الكلمات أيضاً، وهذه المدلولات هي تقريباً عدم معرفة انضباط هذه المدلولات وربما هناك صعوبة أكثر في اتباعها، وبعض الناس يظنون أن الصعوبة تكمن في تدريس الرياضيات. وإذا كان الأمر على هذا النحو فإننا يمكن أن نعتمد على جهود كثيرة تبذل من أجل الإجابة

على سؤال كيف ندرِّس الرياضيات بشكل أفضل.

وتقع المشكلة جزئياً في أنه لم يُقَلْ لنا أو لم يُقل بشكل مبكر وكافٍ أن الرياضيات هي لغة يمكن أن نتعلمها كأيٍّ لغة بما في ذلك لغتنا. وفي حين أننا يجب علينا أن نتعلم لغتنا مرتين أولاً عندما نتعلم كيف نتكلم وثانياً عندما نتعلم كيف نقرؤها. أما الرياضيات فإننا يجب أن نتعلمها مرة واحدة لأنها كلها عبارة عن لغة مكتوبة.

وكما ذكرنا سابقاً، فإن تعلم لغة جديدة مكتوبة يشمل مشاكل القراءة الابتدائية عندما نأخذ تعليمات القراءة في المدارس الابتدائية وتظهر مشكلتنا في مجموعة مركزة من الرموز الاعتباطية الموجودة على الصفحة والمفروض فينا أن نتذكر العلاقات المحددة بين هذه الرموز وحتى أفضل القراء يستمرون في القراءة ـ في بعض الأحيان ـ على المستوى الابتدائي. وعلى سبيل المثال، عندما تصادفنا كلمة لا نعرف معناها ونضطر للبحث عنها في القاموس، أو تحيرنا في قواعد الجملة علينا أيضاً أن نقرأ على المستوى الابتدائي. وعندما نستطيع أن نحل هذه المشكلات فإننا نستطيع أن نقرأ على مستوى أعلى.

وحيث أن الرياضيات عبارة عن لغة فإن لها مفرداتها وقواعدها التي يجب أن يُلِمّ بها القارىء المبتدىء، من حيث الرموز والعلاقة فيما بينها التي يجب أن يتذكرها المتعلم. والمشكلة مختلفة لأن اللغة مختلفة أيضاً ولكنها نظرياً ليست مختلفة كثيراً وهي مثل تعلم الإنكليزية أو الفرنسية أو الألمانية على المستوى الابتدائي وهي في الحقيقة وعلى هذا المستوى أسهل من تعلم اللغات التي ذكرناها.

وكل لغة هي وسيلة للاتصال بين البشر في الموضوعات التي يكون الفهم المتبادل واضحاً بينها وموضوعات المحادثة هي عادة عبارة عن حقائق وعلاقات شعورية، ومثل هذه الموضوعات ليست مفهومة تماماً لأي شخصين

مختلفين، ولكن شخصين مختلفين يستطيعان أن يفهما شيئاً ثالثاً بعيداً عنهما ومنفصلاً شعورياً عن كل منهما مثل الدارة الكهربائية أو المثلث المتساوي الساقين أو القياس المنطقي. وعندما تستقصي هذه الأشياء ببعض التضمين الشعوري فإننا نقع في مشكلة الفهم. والرياضيات تتيح لنا تجنب ذلك، فلا يوجد تضمين شعوري في عبارات وافتراضات ومعادلات الرياضيات عندما تستعمل هذه بشكلها الملائم.

ولم يُقَلْ لنا أو بالأحرى لم يُقل لنا بشكل مبكر عن الرياضيات كم هي جميلة وكم من الممكن أن تكون مرضية فكرياً. ومن المحتمل أن لا يكون الوقت قد مضى لأي فرد ليرى ذلك إذا بذل بعض الجهد.

يمكنك أن تبدأ بكتاب اقليدس «عناصر الهندسة» وهو واحد من الكتب الأكثر إشراقاً وجمالاً من أي كتاب قد كُتب.

دعنا ندرس مثلاً المسائل الخمسة الأولى من الكتاب الأول «العناصر» (وإذا كان متوفراً لديك نسخة من الكتاب أنظر إليها). إن مسائل مبادىء الهندسة نوعان:

1 ـ نصوص المسألة في شكل رقمي.

2 ـ نظريات رياضية عن العلاقة بين الأرقام أو أجزائها.

إن بناء المسائل يتضمن شيئاً يجب أن يُفعل، كما أن النظريات تتضمن شيئاً يجب أن يُثبت. وفي نهاية بناء المسألة الإقليدية سوف تجد الأحرف Q.E.F. وهي اختصار للعبارة Quod erat faciendum أي كائنة أو مطلوبة. وفي نهاية النظرية الإقليدية فإنك سوف تجد الأحرف Q.E.D. والتي هي اختصار للعبارة Quod erat demonstradum أي ما يطلب إثباته.

إن المقدمات الثلاثة الأولى في الكتاب الأول من العناصر هي مسائل شكل. لماذا تكون على هذا النحو؟ الجواب الأول حاجة الأشكال للإثبات من

خلال النظرية. وهي ليست غالباً في المسألة الأولى ولكننا نستطيع أن نراها في المسألة الخامسة والتي هي النظرية. وهي تنص على أن زوايا القاعدة في المثلث المتساوي الساقين هي زوايا متساوية. إنها تشتمل استعمال المسألة الثالثة. وحيث أن المسألة الثالثة تعتمد على شكل الافتراض الثاني، والثاني يعتمد على شكل الأول نستطيع أن نرى أننا نحتاج الأشكال الثلاث من أجل المسألة الخامسة.

ونستطيع أيضاً أن نفسِّر الأشكال بأنها تخدم هدفاً آخر. إنها تحمل تشابهاً واضحاً للمسلَّمات أو البديهيات وكلاً من المسلّمات والأشكال يؤكد إمكانية إجراء العمليات الهندسية عليه. ففي حالة المسلَّمات فإن الإمكانية مفترضة، أما في حالة المسائل فهي مثبتة. والإثبات يشمل بالطبع المسلّمات. وهكذا يمكننا أن نتساءل مثلاً عما إذا كان أي شيء مشابه للمثلث المتساوي الأضلاع كالذي عُرِّف في التعريف رقم 20 وبدون أن نزعج أنفسنا هنا عن السؤال الشائك حول وجود الموضوعات الرياضية، فإننا نستطيع أن نرى على الأقل أن المسألة الأولى تُظهر أن هناك افتراضاً بوجود أشياء مثل الخطوط المستقيمة والدوائر ويتبع ذلك وجود أشياء مثل المثلث المتساوي الأضلاع.

دعنا نعود الآن للمسألة الخامسة والتي هي عبارة عن نظرية تساوي زاويتا القاعدة في المثلث المتساوي الساقين، وعندما نصل إلى النتيجة من خلال سلسلة من الخطوات تشمل الإحالة إلى مسائل سابقة وإلى مسلمات أيضاً فإن المسألة تكون قد أثبتت.

إنها تبين أنه إذا وجد شيء صحيح ـ وبالتحديد هي الفرضية التي عالجناها في المثلث المتساوي الساقين ـ فإن ذلك يعني أن هناك أشياء أخرى صحيحة أيضاً وهذه هي النتيجة. وتؤكد المسألة العلاقة بين «إذا كان هذا قد حصل، فتلك تكون النتيجة». وهي لا تؤكد حقيقة الفرضية ولا تؤكد أيضاً حقيقة النتيجة إلا إذا كانت الفرضية صحيحة. وإن هذا الارتباط بين الفرضية والنتيجة التي لا تُرى صحيحة حتى تُثبت المسألة، إنها بشكل أكثر دقة هي

صحة العلاقة التي تُثبت ولا شيء غيرهما.

هل من المبالغة أن نقول إن هذا شيء جميل؟ نحن لا نظن ذلك. وما نجده هنا عبارة عن تفسير منطقي لمسألة محددة وما يجذبنا إليه هو وضوح التفسير والطبيعة المحددة للمسألة.

إن الحديث العادي بل حتى الحديث الفلسفي الجيد من الصعب أن تُحدد مسائله بمثل هذه الطريقة. واستعمال المنطق في حالة المسائل الفلسفية يصعب وصفها بمثل هذا الوضوح.

أنظر إلى الفرق بين مناقشة المسألة الخامسة كما وضحت هنا وأبسط قياس منطقي مثل التالي:

كل الحيوانات نهايتها الموت.

البشر حيوانات.

إذن البشر نهايتهم الموت.

هناك شيء مرضٍ عن ذلك أيضاً. ويمكننا أن نعامل الفلسفة كما لو أنها قطعة من مُسبِّبات رياضية مفترضين أن هناك أشياء مشتركة بين الحيوانات والبشر، وأن الحيوانات تموت وبعد ذلك تُتبع النتيجة بمثل ذلك التأكيد الموجود بين زوايا المثلث. ولكن المشكلة هنا هي أنها عن الحيوانات والبشر، حيث نفترض شيئاً ما عن أشياء حقيقية، شيء يمكن أن يكون صحيحاً أو غير صحيح ويجب علينا أن نتفحص افتراضاتنا بطريقة لا نتّبعها في الرياضيات، فمسائل اقليدس لا تعاني من هذا الشيء، ولا يهم في الحقيقة بالنسبة إليه أن توجد أشياء كالمثلث المتساوي الساقين، وإذا كان يوجد ذلك، حيث يقول، إذا عُرِّفت بكذا وكذا طريقة فعندها ينتج عن ذلك أن زاويتا القاعدة متساوية. ولا يمكن أن يكون هناك شك بعد ذلك مهما كان الأمر سواء الآن أو إلى الأبد.

هذا الاستطراد عن اقليدس قد أخرجنا قليلاً عن طريقنا، حيث كنا نعلّق على وجود الرياضيات في الكتب العلمية والتي تعتبر واحدة من العوائق الرئيسية في قراءة هذه الكتب. وهناك شيئان نود التعليق عليهما في هذا المجال:

أولاً ـ يمكنك أن تقرأ على الأقل مبادىء الرياضيات بشكل أفضل مما تظن ـ وقد اقترحنا على كل حال أن تبدأ فيما كتبه اقليدس ـ ونحن واثقون من أنك إذا حاولت ذلك لعدة أمسيات فسوف تقهر مخاوفك عن هذا الموضوع. وبعد ذلك يمكنك أن تقرأ أعمال الرياضيين الإغريقيين الكلاسيكيين الآخرين مثل أرخميدس وأبولونيوس ونيكوماشوس وهذه ليست كتباً صعبة جداً، وبالإضافة إلى ذلك فإنه يمكنك أن تتجاوز بعض فقراتها.

ثانياً ـ إن النقاط التي نود أن نتوقف عندها هي أنه إن كان قصدك أن تقرأ كتاب الرياضيات من أجل الرياضيات فإنه يجب عليك أن تقرأه بالطبع من البداية وحتى النهاية، وبوجود قلم في يدك من أجل الكتابة على الهوامش بل حتى في سياق النص وهذا أمر أكثر أهمية في قراءة الرياضيات عنه في قراءة أي نوع آخر من الكتب. ولكن قد يكون قصدك غير ذلك كأن تقرأ الكتب العلمية التي تحتوي على الرياضيات في نصوصها، وفي هذه الحالة فإن تجاوزها دون قراءة غالباً ما يكون فيه بعض الشجاعة.

خذ كتاب نيوتن «المبادىء» على سبيل المثال، إن الكتاب يحوي قضايا كثيرة من كل الأنواع من مسائل ونظريات، ولكن لا يوجد ضرورة لقراءتها كلها بعمق خصوصاً لدى قراءتها للمرة الأولى. إقرأ نصوص الافتراضات وتصفح الإثبات لتأخذ فكرة كيف تم ذلك؟ إقرأ نصوص القضايا المساعدة للبرهان والنتيجة الطبيعية التي وصلت إليها. إقرأ أيضاً الحواشي والشروح التي هي أساسية في المناقشات وعلاقتها مع الافتراضات والعمل ككل. وسوف تأخذ فكرة عن مجمل العمل إذا فعلت ذلك وتكتشف كيف أن النظام الذي أنشأه

نيوتن قد بني ـ ماذا أتى أولاً وماذا أتى ثانياً وكيف تلاءمت الأشياء فيما بينها.

إقرأ كل العمل بهذه الطريقة وتجنب الأشكال إذا كانت تزعجك ـ كما يفعل قراء عديدون ـ أنظر إلى الأشكال التي تجمع بين شيئين ولكن تأكد من إيجاد وقراءة المسالك التي عبرها نيوتن للوصول إلى النقاط الرئيسية. وواحدة من هذه تأتي في نهاية الكتاب، بل في خاتمة الكتاب الثالث تحديداً، وعنوانه «نظام العالم» هذا الشرح العام كما دعاه نيوتن ليس فقط إجمالاً عما حدث من قبل ولكنه أيضاً وضع المسألة العظمى لكل ما ورد في الفيزياء بعد ذلك.

إن كتاب نيوتن «البصريات» هو كتاب علمي كلاسيكي آخر ومن الممكن أن تكون راغباً في محاولة قراءته، ويشتمل عملياً على القليل من الرياضيات، بالرغم من أن النظرة الأولى له تظهر أنه ليس كذلك بسبب الأشكال الكثيرة المنثورة بين طياته. لكن هذه الأشكال غالباً ما توضح وتصف تجارب نيوتن من خلال ثقوب من أجل أن تمر أشعة الشمس في الحجرة المظلمة مع موشور يعترض سبيلها خلال قطعة من الورق الأبيض الموضوعة بشكل تظهر الألوان المتعددة مشعة من خلالها. ويمكنك بسهولة أن تعيد هذه التجارب بنفسك وهو شيء مُسلٍ أن تقوم بذلك لأن الألوان جميلة ووصف التجارب واضح جداً. وقد تكون راغباً ـ بالإضافة إلى وصف التجارب ـ في قراءة نصوص النظريات المختلفة وافتراضاتها، والمناقشات التي حصلت في نهاية كل جزء من الأجزاء الثلاثة، حيث أجمل نيوتن نظرياته واقتراحاته ونتائجه. إن الجزء الثالث مشهور لأنه يحتوي على نصوص لنيوتن عن المبادرات العلمية نفسها والتي تستحق القراءة.

إن الرياضيات غالباً ما تستخدم من قبل كُتّاب العلوم وبشكل أساسي لأنها تحتوي على نوعية عالية من الدقة والوضوح والمحدودية العلمية التي وصفناها. ويستطيع القارىء عادة أن يفهم شيئاً دون الغوص بعمق في الرياضيات ـ ككتب نيوتن مثلاً ـ وعلى العكس من ذلك وحتى لو كانت الرياضيات مرعبة بالنسبة لك فإن غيابها من أعمال محددة يسبب لك مشاكل

أكبر. وحالة كتاب جاليليو «علْمان جديدان» وبحثه في قوة المواد والحركة فإن هذه الأعمال صعبة بشكل خاص على القارىء المعاصر لأنها ليست رياضية أساساً، بل على العكس لقد قُدّمت بشكل حوار.

إن شكل الحوار بالرغم من أنه ملائم للمسرح ومفيد في الفلسفة عندما يستخدم في موضوعات كالتي استخدمها أفلاطون إلا أنه غير ملائم للعلوم، ولذا فمن الصعب أن تكتشف ماذا يقوله جاليليو. وبالرغم من أنك ـ إن تفعل ذلك ـ سوف تكتشف أنه يوضح أشياء ثورية.

وليست كل كلاسيكيات العلوم بالطبع تستخدم الرياضيات أو تحتاج لأن تستخدمها. إن أعمال أبقراط أبي الطب الإغريقي ليست أعمال رياضية، وقد تقرأها لتكتشف وجهة نظر أبوقراط عن الطب وتحديداً فن إبقاء الناس بصحة جيدة أكثر من معالجتهم عندما يمرضون، وهذه ـ لسوء الحظ ـ فكرة غير شائعة في أيامنا هذه. ولا مقال وليم هارفي عن دورة الدم رياضياً أو كتاب وليم جلبرت عن المغنطة. فإن هذه الكتب يمكن قراءتها بدون صعوبة كبيرة إذا تذكرت دائماً أن واجبك الأساسي أن لا تكون ضليعاً في الموضوع، بل أن تتفهم المشكلة المعروضة.

ملاحظة عن شعبية العلوم

هناك شيء نضيفه عن قراءة الموضوعات العلمية المبسطة. ومن خلال التعريف هناك أعمال (كتب أو مقالات) تكتب للجمهور العريض وليست فقط موجهة للمختصين. وهكذا إذا اهتممت بقراءة الكلاسيكيات العلمية فلن تواجه صعوبات في قراءة هذا النوع من المقالات وذلك لأنها وبالرغم من كونها من العلوم فإنها تتجنب المشكلتين الرئيسيتين التي تواجه قارىء أمهات الكتب العلمية (الكلاسيكية والحديثة). والمشكلة الأولى أنها تتضمن وصفاً قليلاً نسبياً عن التجارب (بل بالعكس إنها تظهر نتائج هذه التجارب). أما المشكلة الثانية فهي أنها تشتمل على القليل نسبياً من الرياضيات (إلا إذا كانت كتباً شعبية عن الرياضيات بحد ذاتها).

إن المقالات العلمية المبسطة هي عادة أسهل للقراءة من الكتب العلمية المبسطة لكن الأمر ليس هكذا دائماً. وفي بعض الأحيان فإن هذه المقالات جيدة جداً، وعلى سبيل المثال هناك مقالة وجدت في (الأمريكي العلمي) والتي هي عبارة عن مجلة شهرية أو مجلة علوم دورية أسبوعية أكثر تقنية. وبالطبع فإن هذه المطبوعات وبغض النظر عن مدى جودتها ومقدار العناية أو المسؤولية في تحريرها، تطرح المشكلة التي ناقشناها في نهاية الفصل الأخير. وإننا في قراءتها نكون تحت رحمة المحررين الذين ينتقون المعلومات من أجلنا. فإذا كان المحررون جيدين فنحن محظوظون وإذا كان العكس فلن يكون لدينا مصدر آخر.

ليس من السهل قراءة الموضوعات العلمية المبسطة كما تقرأ القصة، وحتى مقالة من ثلاث صفحات في DNA لا تحتوي على تقارير تجارب ولا على أشكال ومعادلات رياضية تتطلب جهداً من قبل القارىء، ولا تستطيع أن تقرأها من أجل الفهم دون أن يكون ذهنك متيقظاً. وهكذا فإن مطلب القراءة الفعالة هو الأكثر أهمية هنا عنه في أي نوع آخر.

حدد الموضوع واكتشف العلاقة بين الكل والأجزاء تفهم المعاني والحبكة بالإضافة إلى الفرضيات ومناقشاتها. تعمق في تحقيق فهمك للمادة قبل أن تنتقدها وتقيّم أهميتها. وعند هذا الحد فإن هذه القواعد معروفة ولكنها تطبّق هنا بعزم خاص.

المقالات الصغيرة هي عادة إعلامية وبهذا فهي تتطلب جهداً أقل من التفكير الفعال من قبلك. ورغم ذلك يجب عليك أن تقوم بجهد لتتفهم وتتابع تسلسل الموضوع من قبل الكاتب، ولكنك غالباً لا تحتاج كقارىء أن تذهب أبعد من ذلك. وفي حالة الكتب المبسطة مثل كتاب هوايت هيدز «مقدمة للرياضيات» أو كتاب لينكولن بارنيت» دكتور أينشتاين والكون» وكتاب باري كمنز «الدائرة المغلقة» فإن هناك شيئاً أكثر مطلوب منك. وهذا شيء صحيح لكتاب مثل كتاب كمنز عن موضوع ذي أهمية خاصة مثل ـ الأزمة البيئية ـ

وأهميته لكل فرد منا الآن، فالكتاب معقد ويتطلب انتباه مركز. لكن هذا الكتاب بمجمله يحتوي على تضمينات لا تغيب عن ذهن القارىء المتأني. وبالرغم من أنه ليس كتاباً تطبيقياً بالمعنى الذي وصفنا سابقاً في الفصل الثالث عشر، فإن استنتاجاته النظرية لها نتائج هامة. وموضوع الكتاب «الأزمة البيئية» يشير إلى ذلك. إن البيئة موضوع التساؤل هي بيئتنا والأزمة جارية بشكل ما ومن غير المحتمل تجنبها حتى ولو أن الكاتب لم يقل ذلك بصراحة ـ وإنه بالفعل قد أشار إليها ـ وإن ذلك يعني أن الأزمة تشملنا نحن. إن الشيء الذي يجب فعله في الأزمة هو عادة أن تتصرف بطريقة معينة أو أن تتوقف عن التصرف بطريقة معينة. وهكذا وبالرغم من أن كتاب كمنز هو أساساً كتاب نظري فإن له أهمية تذهب إلى أبعد من ذلك في عالم التطبيق.

إن هذا لا يعني أن كتاب كمنز هو كتاب هام بينما كتابا هوايت هيدز وبارنيت ليسا هامين. فعندما كتب كتاب «دكتور أينشتاين والكون» ككتاب نظري (لقد كتب الكتاب للقارىء العادي) عن تاريخ أبحاث الذرة كان الناس يعرفون بالأخطار المورثة من الفيزياء الذرية كما قدمت أساساً ولكن ليس بالشكل المكتشف حالياً من القنبلة الذرية. ولكن حتى لو لم يعد الناس اليوم يخافون من حدوث حرب ذرية أو نووية لا يزال ما يمكن أن ندعوه الضرورة العملية لقراءة كتاب نظري أو ما يشابهه، والسبب في ذلك أن الفيزياء الذرية أو النووية هي الإنجاز الأعظم في عصرنا الحالي. وتعد بأشياء كثيرة للبشرية بنفس الوقت الذي تثير أخطار عظيمة، والقارىء المطلع أو المهتم يجب أن يعلم كل شيء عن هذا الموضوع.

وهناك موضوع آخر ذو إلحاح مختلف وهو ما بذله هوايت هيدز من جهد في كتابه «مقدمة للرياضيات». إن الرياضيات هي واحدة من الألغاز المعاصرة، بل ربما هي الأولى في ذلك وتحتل منزلة في مجتمعنا مشابه لما كانت تحتله الألغاز الدينية في الأزمان الغابرة. وإذا أردنا أن نعرف شيئاً عن عصرنا الحالي فيجب أن نعرف ما هي الرياضيات وكيف يعمل ويفكر الرياضيون.

إن كتاب هوايت هيدز بالرغم من أنه لا يبحث في العمق كثيراً في الفروع المبهمة للموضوع إلا أنه بليغ بشكل ملحوظ عن مبادىء الرياضيات ومسبباتها. وإذا لم يفعل شيئاً آخر فإنه يظهر للقارىء المهتم أن الإنسان الرياضي إنسان عادي وليس بساحر. وأن هذا الاكتشاف هام لأي قارىء يرغب في توسيع آفاقه لأبعد من المدى المتوسط عن الأفكار والتجارب.

الفصل الثامن عشر

كيف تقرأ الفلسفة

إن الأطفال يسألون أسئلة كبيرة «لماذا نحن بشر؟» «ما الذي يجعل القطة تموء؟» «ما هو أول اسم للعالم؟». إن ما يخرج من أفواه الأطفال إن لم تكن حكمة فإنه على الأقل بحث عنها. والفلسفة كما قال أرسطو تبدأ بالتساؤل. إنها تبدأ بالتأكيد في سن الطفولة وتتوقف لدى معظمنا في تلك المرحلة أيضاً.

إن الطفل هو متسائل طبيعي، ولا يعود ذلك إلى عدد الأسئلة التي يسألها ولكن إلى تلك السمة التي تفرّقه عن البالغين. والبالغين لا يفتقرون إلى الفضول الذي يبدو صفة إنسانية أصيلة ولكن فضولهم يؤثر على نوعية تساؤلاتهم، إنهم يريدون أن يعرفوا عما إذا كان الشيء هكذا، وليس لماذا. لكن أسئلة الأطفال لا يمكن أن تكون محدودة لذلك النوع الذي يمكن الإجابة عنه من خلال دوائر المعارف.

ما الذي يحدث بين فترة الحضانة وفترة الجامعة ليغلق تدفق الأسئلة؟ أو بالأحرى ليحولها إلى قنوات الأسئلة الفاترة عن فضول البالغين لموضوعات الحقائق؟ إن عقلاً يضج بالأسئلة لا يقدّر قيمة أفضل الأجوبة. وإنه من السهل أن تتعلم الإجابة. ولكن لتطوير عقل نشيط محب للبحث والتحقيق، مفعم بأسئلة حقيقية عميقة فإن هذه قصة أخرى.

لماذا يجب علينا تطوير مثل هذه العقول في حين أن الأطفال يولدون ومعهم هذه العقلية؟ وعلى طول المدى فإن على البالغين إلى حد ما أن يفذوا فضول الأطفال في عمقها الأصلي.

من الممكن أن تكون المدرسة نفسها هي التي تجعل العقل كسولاً من

خلال التعليم بطريقة الاستظهار دون الفهم ومن الممكن أيضاً أن يكون الخطأ خطأ الآباء، فنحن غالباً ما نقول لهم أنه لا يوجد جواب حتى عندما يكون الجواب متاحاً، أو أن نطلب من الأبناء أن لا يسألوا أسئلة أخرى. ونحن نكتم سخطنا عندما تربكنا أسئلة لا يمكن الإجابة عليها. كل هذه الأمور لا تشجع الطفل ويمكن أن يتولد لديه انطباع بأن الطفل غير المهذب هو الذي يستقصي من خلال الأسئلة. إن التساؤل الإنساني لا يموت. ولكن يمكن أن ينخفض لنوع من الأسئلة التي تُسأل من قبل معظم طلبة الجامعة الذين يصبحون مثل البالغين يسألون أسئلة للاستعلام.

ولا نملك حلاً لهذه المشكلة، ونحن بالتأكيد لسنا مندفعين لنعطيك جواباً عن الأسئلة العميقة والمترددة التي يصوغها الأطفال. ولكننا نريد أن تلاحظ شيئاً مميزاً عن الكتب الفلسفية العظيمة بأنها تسأل نفس النوع من الأسئلة العميقة التي يسألها الأطفال. إن القدرة على الاحتفاظ بنظرة الأطفال للعالم وبنفس الوقت فهم البالغين لها هو شيء نادر جداً. والفرد الذي يملك هذه القدرة هو على الأرجح قابل للمساهمة بشيء هام جداً لتفكيرنا.

إنه من غير المطلوب منا أن نفكر مثل الأطفال من أجل أن نتفهم الوجود والأطفال غالباً لا يفعلون ذلك ولا يستطيعون أن يفهموه، هذا إذا كان يوجد في الواقع من يستطيع ذلك. ولكن يجب علينا أن نكون قادرين على الرؤية كما يرى الأطفال، وأن ندهش كما يدهشون وأن نتساءل كما يتساءلون. إن الحياة المعقدة للبالغين تبعدهم عن الحقيقة. والفلاسفة العظماء كانوا دائماً قادرين على توضيح التعقيدات وأن يروا اتجاهاتها البسيطة ـ الأشياء البسيطة التي وضعوها والتي كانت صعبة جداً قبل ذلك. وإذا كان علينا أن نتبعهم أيضاً فإنه يجب علينا أن نكون بسطاء في أسئلتنا بساطة الأطفال أو حكماء في إجاباتنا حكمة البالغين.

ما هي الأسئلة التي يتساءلها الفلاسفة؟

ما هي هذه الأسئلة الطفولية البسيطة التي يسألها الفلاسفة. إننا عندما

نكتب هذه الأسئلة على الورق فإنها لا تظهر كأسئلة بسيطة لأن الإجابة عليها صعبة جداً. وهكذا فإن هذه الأسئلة هي بسيطة ابتداءً بمعنى أنها أسئلة أساسية.

خذ الأسئلة التالية عن الوجود مثلاً، ما هو الفرق بين الوجود والعدم؟ ما هي الأشياء العادية التي هي موجودة فعلاً؟ وما هي خصائص كل شيء موجود؟ هل هناك طرق مختلفة للأشياء الممكن وجودها؟ هل هناك نماذج مختلفة للوجود؟ هل توجد بعض الأشياء بالفكر فقط، أو للفكر فقط، في حين توجد أشياء أخرى خارج الذهن وهل هي معلومة من قبلنا أو هي قابلة للاستعلام؟ هل كل شيء موجود هو موجود مادياً، أم أن هناك أشياء موجودة بمعزل عن المادة المصنوعة منها؟ هل تتغير الأشياء، أو هل هناك أي شيء له حصانة؟ هل أي شيء موجود بالضرورة، أيجب أن نقول أن كل شيء موجود يمكن أن يكون غير موجود؟ هل عالم الوجود المحتمل أكبر من العالم الموجود فعلاً؟

هذا هو نوع الأسئلة التي يسألها الفلاسفة عندما يكونون مهتمين باكتشاف طبيعة الوجود بذاته ودنيا الوجود. إن هذه الأسئلة سهلة من حيث وضعها أو فهمها لكن الإجابة عليها صعب جداً وفي الحقيقة هناك فلاسفة خصوصاً في عصرنا الحالي يقرّون بأن مثل هذه الأسئلة لا يمكن الإجابة عليها بأي طريقة مرضية.

هناك مجموعة أخرى من الأسئلة الفلسفية تُعنى بالتغير أو اللائق عوضاً عن الوجود وعن الأشياء من خلال تجربتنا التي يمكن أن تعزى للوجود بدون تردد، ويمكن أن نقول أن هذه الأشياء موضوعٌ للتغير. إنهم يأتون للوجود ثم يرحلون بعيداً، في حين أن معظمهم في الوجود يتحرك من مكان إلى آخر والعديد منهم يتغير بالكمية وبالنوعية أيضاً. إنهم يصبحون أكبر أو أصغر، أثقل أو أخف، أو مثل نضوج التفاحة أو طبخ قطعة اللحم فإنهم يتغيرون في اللون.

ما يشمل أي تغيير؟ في كل عملية تغيير، هل يبقى شيئاً بدون تغيير بالإضافة لبعض الاعتبارات التي تبقي الأشياء التي تخضع للتغيير. عندما تتعلم شيئاً لم تكن تعرفه من قبل فإنه من المؤكد أنك تغيرت من حيث المعرفة التي

اكتسبتها ولكنك وبالوقت نفسه فإنك أنت نفس الشخص الذي كنت عليه قبل ذلك، وإذا لم تكن هذه هي الحالة لا يمكن أن يقال عنك أنك تغيرت من خلال عملية التعلم. هل هذا صحيح بالنسبة لكل التغيرات؟ وعلى سبيل المثال هل هو صحيح بالنسبة للتغيرات الملحوظة مثل الميلاد والموت ـ للدخول في الحياة والانقطاع عنها ـ أو مطبق فقط على التغيرات الأقل أهمية مثل الحركة المحلية والنمو أو البدائل النوعية. كم نوع من التغيرات يوجد؟ هل توجد نفس العناصر الأساسية أو الشروط التي تدخل في كل عمليات التغير وهل نفس المسببات فعّالة في كل التغيرات؟ وماذا نعني بسبب التغير؟ هل هناك أنواع مختلفة من المسببات مسؤولة عن التغيير؟ هل أسباب التغير هي نفسها مثل الوجود أو العدم؟

إن مثل هذه الأسئلة تُسأل من قبل الفيلسوف الذي يعنى بالتحول من كونه محتملاً إلى كونه موجوداً محاولاً ربطهما معاً. ومرة أخرى فإن هذه ليست أسئلة صعبة لقراءتها أو فهمها، بالرغم من أنها صعبة جداً من حيث الإجابة بحُسن ووضوح. وفي كل الحالات يمكنك أن ترى كيف يُكَوِّنون مع الموقف الطفولي البسيط نظرتنا تجاه العالم وخبرتنا عنه.

ونحن ـ لسوء الحظ ـ لا نملك متسعاً كافياً هنا لنبحث في كل أنواع الأسئلة بعمق أكثر. ولا نستطيع سوى أن نطرح بعض من الأسئلة الأخرى التي يطرحها الفلاسفة ويحاولون الإجابة عليها. هناك أسئلة ليست فقط عن الوجود أو إمكانية الوجود ولكن أيضاً عن الضرورة وكبح الشهوات، عن المادي والمعنوي، وعن الجسدي وغير الجسدي، عن الحرية واللاحتمية، وعن قوة العقل البشري، وعن طبيعة ومدى المعرفة البشرية وعن الحرية والإرادة.

كل هذه الأسئلة هي تأملية أو نظرية بمعنى أن هذه التعابير هي التي استخدمناها في التمييز بين عالم النظرية والواقع العملي، ولكن الفلسفة كما تعلم ليست مقتصرة على الأسئلة النظرية فقط.

خذ الخير والشر مثلاً. إن الأطفال يهتمون كثيراً بالفرق بين الجيّد والسيء وسوف تعاني آراءهم كثيراً إذا وقعوا بخطأ في هذا المجال. ولكننا لا نتوقف عن هذا التساؤل وعن هذا الاختلاف حتى عندما نكبر. هل هناك تفريق شامل وصحيح بين الخير والشر؟ هل هناك أشياء محددة هي خير بشكل مؤكد ودائم وأخرى هي دائماً سيئة ومهما كانت الظروف؟ أم هل كان هاملت على صواب عندما قال لمونتابن «لا يوجد شيء هو جيد أو سيء ولكن تفكيرنا يجعله كذلك».

إن الخير والشر ليسا بالطبع مثل الصح والخطأ وهذان الزوجان من التعابير يشيران إلى صنوف مختلفة من الأشياء. خصوصاً إذا كنا نشعر أن ما هو صحيح هو جيد. فنحن لا نشعر أن ما هو خطأ هو شر. ولكن كيف يمكن أن نفرق بينهما؟

إن كلمة الخير هي كلمة فلسفة هامة لكنها أيضاً هي كلمة هامة في أي مفردات معاصرة أيضاً، ومحاولة أن نقول ماذا تعني هي ممارسة فكرية وسوف تدخلك في الفلسفة دون أن تعرف ذلك. هناك أشياء عديدة جيدة، أو كما نفضّل أن نقول هناك خير متعدد ومن الأفضل أن نرتب هذا الخير، هل بعضه أهم من الآخر؟ وهل يعتمد جزء منه على الآخر؟ هل هناك ظروف يتصارع الخير فيها بحيث تحصل على خير على حساب الخير الآخر؟

ومرة أخرى نحن لا نملك المتسع هنا لنذهب بتركيز أكثر خلال هذه الأسئلة. ويمكننا فقط أن نثير بعض من الأسئلة أكثر والتي تنتمي إلى الواقع العملي. يوجد أسئلة ليست فقط عن الخير والشر والصحيح والخطأ وترتيب للخير ولكن أيضاً عن الواجبات والالتزامات، عن الفضيلة والأخلاق، عن السعادة، وعن سبب الحياة أو هدفها، عن الحقوق والالتزامات للعلاقات الإنسانية والتفاعل الاجتماعي، وعن الدولة وعلاقتها بالفرد، عن خير المجتمع وشكل الحكم العادل وعن العدالة الاجتماعية وعن السلم والحرب.

لقد ناقشنا مجموعتين من الأسئلة تحددان أو تبينان قسمين أساسيين من الفلسفة أما أسئلة المجموعة الأولى فهي عن الوجود أو ما سيوجد وهي تعنى فيما يحصل في العالم مثل هذه الأسئلة التي تعود لقسم من الفلسفة يدعى النظري أو التأملي. وأسئلة المجموعة الثانية تعنى بالخير والشر، الصحيح والخطأ وتبحث فيما يجب عمله أو يُسعى إليه وهي تتعلق بقسم من الفلسفة تدعى أحياناً التطبيقية أو العملية. والأفضل والأدق أن تدعى «معيارية».

إن الكتب التي تتحدث عن كيف تفعل شيئاً مثل كتب تعليم الطهي أو كتب تعليم السواقة لا تحتاج لأن تحاول أن تكون طاهياً جيداً أو أن تقود السيارة بشكل جيد، إنها تفترض أنك تريد أن تقوم بعمل ما وتخبرك كيف تنجح في جهودك.

وبالمقابل فإن كتباً تهتم بالفلسفة المعيارية تعنى أساساً بالأهداف التي يجب على البشر أن يبحثوا عنها، أهداف مثل كيف تعيش حياة سعيدة أو تأسيس مجتمع جيد وهي بخلاف كتب تعليم الطهي وكتب تعليم السواقة لا تذهب أبعد من وصف وبتعابير عامة جداً في الوسائل التي يجب أن تستخدمها لإنجاز هذه الأهداف.

إن كتاباً في الفلسفة النظرية أو التأملية هو نوع من الميتافيزيقية إذا عُني أساساً في الأسئلة عن الوجود. إنه عمل في طبيعة الفلسفة إذا عني فيما يمكن أن يحدث ـ مع طبيعة وأنواع التغيرات من حيث شروطها وأسبابها. أما إذا عنيت أساساً في المعرفة ـ أي في أسئلة تتعلق فيما يتضمن معرفة أي شيء مع أسباب وسِعَة ومدى المعرفة البشرية، ومع المؤكدات وغير المؤكدات ـ عندها يكون هذا الكتاب عمل في نظرية المعرفة وفي التحول من الفلسفة النظرية للفلسفة المعيارية. فإن التمييز الأساسي بين الأسئلة عن الحياة السعيدة وما هو صحيح أو خطأ في سلوك الأفراد حيث تندرج جميعها في قسم علم الأخلاق. والأسئلة عن المجتمع الجيد وفي سلوك الأفراد وفي العلاقة بينه وبين المجتمع تندرج تحت قسم السياسة أو الفلسفة السياسية.

من أجل الإيجاز فيما سنناقشه لاحقاً دعنا نطرح الأسئلة عن ماذا يحدث في العالم أو ما الذي يجب أن نبحث عنه «أسئلة النوع الأول». ويجب أن نميز أنه يوجد «أسئلة من النوع الثاني» التي يمكن أن تسأل. إن أسئلة المعرفة من النوع الأول، أسئلة عن محتوى تفكيرنا عندما نحاول الإجابة عليها، أسئلة عن الطرق التي نحاول فيها التعبير عن أفكارنا في لغة ما.

هذا التمييز بين أسئلة النوع الأول والثاني مفيد لأنه يساعدنا في إيضاح ماذا حدث للفلسفة في أيامنا هذه. إن أغلبية الفلاسفة المحترفين في أيامنا لم يعودوا يؤمنون بإمكانية الإجابة عن الأسئلة من النوع الأول من قبل الفلاسفة. فأغلبهم يوجهون اهتماماتهم نحو الأسئلة من النوع الثاني وفي أغلب الأحيان نحو ما يمكن أن تحمله اللغة للتعبير عن الأفكار.

هذا كله نحو الخير لأنه من غير المؤذي أن تكون انتقادياً. والمشكلة بجملة واحدة هي الابتعاد عن الأسئلة الفلسفية من النوع الأول والتي هي على الأرجح أكثر الأسئلة اهتماماً من قبل القراء. وفي الحقيقة فإن الفلسفة اليوم مثل العلوم المعاصرة أو الرياضيات لم تعد تكتب للقارىء العادي. والأسئلة من النوع الثاني هي غالباً ومن خلال التعريف التي تروق لجمهور أضيق. والفلاسفة المحترفين مثل العلماء لا يهتمون بآراء أي شخص باستثناء الخبراء. وهذا ما يجعل الفلسفة المعاصرة صعبة القراءة على غير الفلاسفة وهي بمثل صعوبة العلوم بالنسبة لغير المختصين بها. ونحن لا نستطيع أن ننصحك عن كيفية قراءة الفلسفة المعاصرة طالما هي تهتم في النوع الثاني من الأسئلة الفلسفية. وعلى كل حال هناك كتب فلسفية يمكنك أن تقرأها بل نعتقد أنه يجب عليك أن تقرأ هذه الكتب التي تسأل الأسئلة التي دعوناها النوع الأول من الأسئلة الفلسفية. ومن غير المصادفة أن هذه الكتب قد كتبت للقارىء العادي أكثر من أن تكون قد كتبت للفلاسفة.

وحتى عام 1930 أو أكثر قليلاً فإن الكتب الفلسفية قد كتبت للقارىء العادي. لقد أَمُلَ الفلاسفة في أن يُقرأوا من قبل نظرائهم، لكنهم اهتموا أيضاً في أن يُقرأوا من قبل أي قراء عاديين رجالاً ونساءً. حيث أن الأسئلة التي يطرحونها ويحاولون الإجابة عليها تتعلق بكل فرد ـ وبرأيهم ـ أن كل فرد يجب أن يعلم بماذا يفكر الفلاسفة.

وكل الكتب الكلاسيكية في الفلسفة من أفلاطون وما بعده قد كتبت عن وجهة النظر هذه، وهذه الكتب يمكن تناولها من قبل القارىء العادي. ويمكنك أن تنجح في قراءتها إذا أردت. وكل شيء نود أن نقوله في هذا الفصل يُعنى بمساعدتك على فعل ذلك.

في الطرق الفلسفية

من الهام أن نعرف ماذا تشتمل عليه الطرق الفلسفية ـ على الأقل من خلال الأسئلة والإجابات عليها. لنفترض أنك فيلسوف يشغل ذهنه بواحدٍ من الأسئلة الطفولية البسيطة التي ذكرناها سابقاً، سؤالٌ عن خواص أي شيء موجود على سبيل المثال، أو سؤالاً عن طبيعة وأسباب التغير. كيف تتناولها؟

إذا كان سؤالك علمياً، فإنك تعلم أنه لكي تجيب عليه يجب عليك أن تقوم ببعض الأبحاث الخاصة، إما من خلال تطوير تجربة لاختبار إجابتك أو من خلال ملاحظة مجموعة واسعة من الظواهر. وإذا كان سؤالك تاريخياً، فإنك تعلم أنه يجب عليك أيضاً أن تقوم ببحث بالرغم من أنه من نوع مختلف، لأنه لا يوجد تجربة تخبرك كيف وجدت كل هذه الأشياء بشكلها المعتاد، وبدقة مع الأخذ بعين الاعتبار ما هو موجود. ولا يوجد نوع خاص من الظواهر التي يمكنك أن تلاحظها ولا وثائق تبحث عنها من أجل قراءتها لكي تجد ما هي التغيرات الحاصلة أو لماذا تتغير الأشياء؟ كل ما تستطيع أن تفعله هو أن تعكس السؤال، وبالمختصر لا يمكنك أن تفعل شيئاً سوى التفكير.

بالطبع أنت لا تفكر بالفراغ، فالفلسفة عندما تكون جيدة فهي ليست

تأملاً خاماً. إن التفكير المبتعد عن التجربة، والأفكار لا تجمع مع بعض في أي طريقة كانت. بل إنه توجد اختبارات صارمة لمدى صلاح الإجابات على الأسئلة الفلسفية، وهذه الاختبارات معتمدة على التجربة العادية وحدها ـ على التجربة المتكونة لديك باعتبارك إنساناً عادياً وليس فيلسوفاً. فأن تعرف جيداً من خلال التجربة العادية مع الظواهر الخاضعة للتغير ـ كأي إنسان آخر ـ كل شيء في العالم يعلن عن التحول واللاستقرار. وإلى الحد الذي تذهب إليه تجربة التغير فأنت في وضع من يجب أن يفكر عن طبيعتها وأسبابها، إن عظماء الفلاسفة وما يميزهم عن سواهم هو أنهم يفكرون بالمسألة بشكل جيد ويصيغون أكثر الأسئلة تداخلاً والتي يمكن أن تُسأل عنها، ثم يحاولون أن يجدوا الأجوبة عليها بتأنٍ ووضوح.

لكن من خلال أية وسائل؟ ليس من خلال التقصي، وليس من خلال الحصول على المزيد من التجربة أكثر مما تملكهُ البقية، بل من خلال التفكير بعمق أكثر منا عن التجربة.

إن فهم ذلك ليس كافياً. ويجب علينا أن نميز أن ليس كل الأسئلة التي يسألها الفلاسفة وحاولوا الإجابة عليها هي صحيحة فلسفياً. وهم أنفسهم لم يكونوا عارفين بذلك دائماً وتجاهلهم وأخطاءهم في هذا الاعتبار الحرج يمكن أن يسبب للقارىء غير المتبصر صعوبات جمّة. ولتجنب مثل هذه الصعوبات فإنه من الضروري أن نكون قادرين على تمييز الأسئلة الفلسفية الصحيحة من غيرها والتي يبحث فيها الفلاسفة أيضاً، ويمكن للفيلسوف أن يضل ويعجز عن رؤية أن مثل هذه الأسئلة يمكن أن يُجاب عليها من خلال تقصٍّ علمي، بالرغم من أنه غالباً لا يعرف ذلك في الوقت الذي يكتب فيه كتاباته.

ومثال على ذلك الأسئلة التي كان يسألها الفلاسفة القدماء عن موضوع الفرق بين الأجسام الأرضية والسماوية. ومن ملاحظتهم غير المدعومة بالتلسكوبات، فقد ظهر لديهم أن الأجسام السماوية يتغير مكانها فقط، ولم يظهر أنها تأتي للوجود وتذهب أيضاً، مثل النبات والحيوان ولا يظهر عليها

أيضاً أنها تتغير من حيث الحجم والنوعية.

لأن الأجسام السماوية كانت موضوع نوع واحد من التغير ـ الحركة المحلية ـ بينما الأجسام الأرضية تتغير من خلال اعتبارات أخرى أيضاً، وقد استنتج القدماء أن هذه الأجسام قد تألفت من أنواع مختلفة وهم لم يخمنوا، وعلى الغالب لم يحدسوا، لكن ابتداع التلسكوب أظهر أن الأجسام السماوية يمكن أن تعطي معرفة أبعد مما نستطيع أن نعرفه من خلال التجربة العامة. وهكذا فإنهم أخذوا كسؤال ما فكّروا أنه ملائم للفلاسفة الإجابة عنه في حين كان يجب أن يحتفظوا به للاستقصاء العلمي.

وهذا التقصي بدأ مع استعمال جاليليو للتلسكوب واكتشافاته عن أقمار كوكب المشتري. وهذا قاد إلى القانون الثوري الذي وضعه كليبر وهو أن موضوع الأجرام السماوية هي تماماً كالأجسام على الأرض، وهذا بدوره شكّل الأرضية لصياغة نيوتن ميكانيكية الفضاء حيث تطبق نفس قوانين الحركة بدون كفاءة كل الأجسام في أي مكان تكون فيه في هذا الكون.

وفي المجمل وبعيداً عن الالتباس الذي يمكن أن ينتج فإن الخطأ أو نقص المعلومات عن الموضوعات العلمية، حيث أن المريخ في كتابات الفلاسفة الكلاسيكيين هو غير ملائم فلسفياً والسبب في ذلك أن الأسئلة الفلسفية هي غير الأسئلة العلمية أو التاريخية، وذلك ما نهتم فيه عندما نقرأ الكتب الفلسفية. ومن خلال المخاطرة في أن نكرر أنفسنا فإننا يجب أن نؤكد أنه لا توجد طريقة أخرى غير التفكير للإجابة على مثل هذه الأسئلة. فإذا كنا نستطيع أن نبني تلسكوب أو ميكروسكوب لفحص خواص وجودنا فإننا يجب أن نفعل ذلك بالطبع ولكن لا يمكن وجود مثل هذه الأدوات.

نحن لا نريد أن نعطيك الانطباع في أن الفلاسفة فقط يقعون بمثل هذه الأخطاء التي نبحثها هنا، افترض أن عالماً قد وجَّه بسؤال عن نوع الحياة التي يفترض بالمرء أن يحياها ـ هذا سؤال من نوع ما يسمى بالفلسفة المعيارية ـ والطريقة الوحيدة للإجابة على هذا السؤال هي من خلال التفكير. ولكن العالم

يمكن أن لا يعرف هذا بل يفترض أن هناك نوع من التجربة أو البحث سوف يعطيه الإجابة. فقد يقرر أن يسأل ألف شخص ما هو نوع الحياة التي يرغبون أن يحيوها ووضع العالم إجابته على ضوء إجابات هؤلاء الأشخاص، لكن يجب أن يكون واضحاً، أن إجابته في هذه الحالة يمكن أن تكون غير وثيقة الصلة بالموضوع كتأملات أرسطو عن الأجرام السماوية.

في الشكل الفلسفي

بالرغم من أنه لا يوجد غير طريقة فلسفية واحدة، فإنه يوجد على الأقل خمسة أشكال تفسيرية استخدمت من قبل الفلاسفة العظماء في التاريخ الغربي. كما أن طلاب وقراء الفلسفة يجب أن يكونوا قادرين على التمييز بينها ومعرفة محاسن ومساوىء كل من هذه الأشكال.

1 ـ الحوار الفلسفي:

إنه الشكل الفلسفي التفسيري الأول، الأول في الزمان وفي الفعالية، هو الذي تبناه أفلاطون في حواره. الشكل حواري، بل حتى عامي. عدد من الرجال يناقشون موضوعاً مع سقراط (أو في الحوارات اللاحقة مع متكلم عرف بالغريب الأثيني) بعد قدر ضئيل من الارتباك والتلعثم يضع سقراط سلسلة من الأسئلة والتعليقات تساعد في شرح الموضوع، وفي أيدي معلم مثل أفلاطون فإن هذا الشكل مساعد، بمعنى أنه يتيح للقارىء بل في الحقيقة يقوده إلى أن يكتشف الأشياء بنفسه وعندما يُغنى هذا الشكل من خلال دراما عميقة ـ ففي بعض الأحيان يمكننا أن نقول من خلال كوميديا عميقة ـ لقصة سقراط فإنها تصبح قوية بشكل كبير.

نقول معلم مثل أفلاطون، لكن لا يوجد شخص مثل أفلاطون. وبعض الفلاسفة حاولوا الحوار ـ وعلى سبيل المثال شيشرون وبركلي ـ لكن مع بعض النجاح. إن حواراتهم كانت منبسطة غير رنانة وغالباً غير مقروءة. وهذا معيار عظمة أفلاطون في كونه قادراً على كتابة حوارات فلسفية ذكية وجذابة

وعميقة، ولا تقارن مع أي كتاب أنتج من قبل أي شخص في أي موضوع.

والآن يمكن لذلك أن يكون علامة التلائم مع هذا الشكل في الفلسفة حيث أنه لا يوجد شخص عدا أفلاطون قادرٌ على معالجة هذا الشكل بفعالية. وقد فعل أفلاطون ذلك. وعلّق هوايت هيد مرة «إن كل الأعمال الفلسفية ليست سوى هوامش لأفلاطون»، وقد قال الإغريق أنفسهم «في أي اتجاه أدرت وجهك تجد أفلاطون عائداً من هذا الاتجاه». وهذان الرأيان يجب ألا يساء تفسيرهما.

فأفلاطون نفسه ليس له نظام فلسفي ولا تعاليم - وحتى لو لم توجد تعاليم فيجب أن نستمر نحن في الكلام. فسؤال الأسئلة بالنسبة لأفلاطون وسقراط من قبله قد أدت إلى إيجاد أكثر الأسئلة أهمية التي حاول الفلاسفة من بعدهما أن يبحثوا فيها.

2 - البحث الفلسفي والمقالة الفلسفية:

كان أرسطو أفضل تلاميذ أفلاطون، درس على يديه لمدة عشرين سنة. وقد قيل عنه أنه كتب الحوارات الفلسفية ولكن لم يبق منها شيء كامل. وما بقي منها بحوث ومقالات صعبة عن عدد من الموضوعات المختلفة. لقد كان أرسطو مفكراً جيداً، ولكن صعوبة ما بقي من أعماله قادت إلى القول أن ما بقي منها عبارة عن ملاحظات لمحاضراته وكتبه الأصلية، إما ملاحظاته الشخصية أو ملاحظات أخذت من تلاميذ سمعوه يتكلم. ولا نعرف حقيقة الموضوع ولكن في أية حال فقد كانت بحوث أرسطو شكلاً جديداً في الفلسفة.

إن الموضوعات التي طرحها أرسطو في بحوثه والأشكال المختلفة التي اختارها في تقديم نتائجه قد ساعدت في تأسيس فروع ومفاهيم الفلسفة للقرون التالية. فقد أوجد ما يدعى بـ «الأعمال الشعبية» وأغلبها حوارات لم يصل منها إلينا سوى أجزاء. «كالمجموعات التوثيقية». والمجموعة الأساسية عرفت بمجموعة 158 دستور منفصل للدول الإغريقية التي لم يصل إلينا منها سوى دستور أثينا، الذي أنقذ على ورق البردي في عام 1890. وأخيراً هناك البحوث

الأساسية مثل الفيزياء والميتافيزيقيا والسياسة والشاعرية، وهي أعمال فلسفية محضة إما نظرية أو معيارية مثل كتاب «عن الروح» الذي هو خليط من النظرية الفلسفية والتقصي العلمي المبكر، وبعض منها مثل البحث البيولوجي هي أعمال علمية في موضوع التاريخ الطبيعي.

بالرغم من أن عمانويل كانت قد تأثر بأفلاطون بالمعنى الفلسفي لكنه اختار شكل أرسطو الشرحي. وبحوثه هي أعمال منجزة في هذا الفن وهو غير أرسطو في هذا المجال. لقد نصا على نفس المشكلة أولاً ودخلا الموضوع من بدايته إلى نهايته في جدية وفعالية، وعالجا المشاكل الخاصة أثناء البحث أو في نهايته. إن وضوح كلاً من كانت وأرسطو يمكن أن يقال عنه أنه يتألف من المتبع في طرح الموضوع، فنحن نرى بداية فلسفية ووسطاً ونهاية. ونحن أيضاً نرى وخصوصاً في حالة أرسطو قد حصلنا على عدد من وجهات النظر واعتراضات الآخرين عليها، من كلٍ من الفلاسفة والأشخاص العاديين. وهكذا ـ من وجهة نظر ما ـ فإن شكل البحث مشابه لشكل الحوار لكن عنصر الدراما مفقود في بحوث أرسطو وكانت. ووجهة النظر الفلسفية قد نمت باتجاه التفسير أكثر من كونها من خلال تعارض الآراء كما في حالة أفلاطون.

3 ـ تلاقي الآراء المتعارضة

إن الشكل الفلسفي الذي تطور في العصور الوسطى قد اكتمل بتوما الاكويني من خلال كتابه «البحث اللاهوتي الشامل» «Summa theologica» وله مثيل في كل من بحثناهم سابقاً. طرح أفلاطون أكثر المشاكل الفلسفية الحاحاً، وسقراط أيضاً طرحها ـ كما لاحظت ـ من خلال حواراته في ذلك النوع من الأسئلة الطفولية البسيطة لكن العميقة بالوقت نفسه. وأرسطو طرحها أيضاً ـ كما أشرنا ـ بتمييزه بين اعتراضات الفلاسفة الآخرين وردوده عليهم.

إن الشكل الاكويني هو مزيج من طرح الأسئلة وتلاقي المتعارضات. والبحث قد قسم إلى أجزاء وبحوث وأسئلة ومقالات، وشكل كل المقالات

واحد. الأسئلة طرحت والأجوبة المعارضة (المخطئة) لها قد أعطيت والمناقشات قد استخرجت من خلال دعم الأجوبة الخطأ.

إن الدقة والنظام لهذا الشكل يوجه للأفراد ذوي العقل المنتظم، ولكن هذه ليست هي الصفة الهامة للتفلسف الأكويني، بل بالأحرى إن سهولة تمييز توما الاكويني للصراعات وتقريره لوجهات النظر المختلفة ومحاولته لتلافي كل التعارضات المحتملة للحل الذي اقترحه. والفكرة هي أن الحقيقة تستخرج على نحو ما من خلال التعارض والصراع الذي كان معتاداً في القرون الوسطى. فالفلاسفة في عصر الاكويني قبلوا أن يحضروا الدفاع عن وجهات نظرهم ومجادلاتهم للحوار شفهياً أمام الجمهور الذي يحضر عادة كمجموعات من التلاميذ والأشخاص المهتمين الآخرين. إن حضارة العصور الوسطى كانت بالأساس حضارة شفهية وذلك أن الكتب كانت قليلة ومن الصعب الحصول عليها والافتراضات لم تكن تعتبر صحيحة إلا إذا خضعت لاختبار في حوار مفتوح. ولم يكن الفلاسفة مفكرين معتزلين، بل كانوا يواجهون معارضيهم في مكان السوق الفكري كما يقول سقراط. وهكذا فإن البحث اللاهوتي الشامل كان مُشرباً بروح المناظرة والمناقشة.

4 ـ ترتيب الفلسفة

في القرن السابع عشر نمت أربعة أشكال للشروحات الفلسفية بواسطة فيلسوفين متميزين. لقد ذهل ديكارت وسبينوزا بالنجاح الموعود للرياضيات في تنظيم معرفة الإنسان عن الطبيعة، لذا فقد حاولا تنظيم الفلسفة ذاتها بشكل مماثل للنظم الرياضية.

لقد كان ديكارت رياضياً عظيماً وبالرغم من أنه أخطأ ببعض الأمور، فقد كان فيلسوف الشكل وما حاول أن يفعله هو أن يلبس الفلسفة ثياب الرياضيات معطياً إياها التأكيد والتركيب ـ مثلما فعل اقليدس قبل ألفي سنة في الهندسة ـ ولم يكن ديكارت غير ناجح تماماً في ذلك، وإلحاحه على الوضوح والتمييز في

التفكير قد عدّل إلى حد ما جو التشويش الفكري الذي كان سائداً في أيامه.

وقد كتب أيضاً البحوث الفلسفية بطريقة قد تقترب أو تبتعد عن الشكل التقليدي بما في ذلك مجموعة من الردود على الاعتراضات على آرائه.

لقد حمل سبينوزا هذا المفهوم إلى مدى أبعد، فكتابه «علم الأخلاق» قد كتب بشكل رياضي من كل النواحي، افتراضاته واثباتاته ونتائجه وبراهينه وشروحاته وما شابه ذلك. وعلى كل حال فإن موضوعاً مثل الميتافيزقا والأخلاق لا تعالج بشكل مرضٍ بهذه الطريقة الملائمة للهندسة والموضوعات الرياضية الأخرى أكثر من الموضوعات الفلسفية. وعلامة ذلك أنك أثناء قراءة سبينوزا فإنه يمكنك أن تتجاوز صفحات كثيرة دون قراءة تماماً مثلما يمكنك أن تتجاوز الصفحات وأنت تقرأ نيوتن. ولا يمكنك أن تفعل نفس الشيء وأنت تقرأ كانت أو أرسطو بل وحتى أفلاطون فأكثر ما يمكنك أن تفعله هو أن تتجاوز أقساماً من مسرحية أو قصيدة شعر.

وبما أنه لا يوجد قواعد مطلقة لفن النثر، وبالرغم أنه مما يدعو التساؤل إذا كان ممكناً كتابة أعمال فلسفية مرضية بشكل رياضي كما حاول أن يفعل سبينوزا، أو أعمال علمية مرضية في شكل حوار كما حاول جاليليو أن يفعل. والحقيقة أن هذين الشخصين قد فشلا إلى حد ما في توصيل ما كانا يرغبان به، وعلى الأرجح أن الشكل الذي اختاراه كان السبب الرئيسي لفشلهما.

5 ـ شكل الحكمة

لا يوجد شكل آخر في التفسير الفلسفي يستحق أن يذكر أكثر من شكل الحكمة، بالرغم من أنه ليس بأهمية الأشكال الأربعة السابقة. هذا الشكل الفلسفي اختاره نيتشه في عمل مثل «هكذا تكلم زرادشت» وقد اختير أيضاً بواسطة عدد معين من الفلاسفة الفرنسيين الحديثين. إن سبب شعبية هذا الشكل خلال القرن الماضي هو حصوله على اهتمام واسع بكتب الحكمة وشكلها من قبل الكتاب الغربيين.

هذا الشكل يدين أيضاً إلى كتاب باسكال «الفكر» لكن وبالطبع لم يكن باسكال ينوي أن يترك عمله العظيم على شكل عبارات قصيرة مبهمة. وقد مات قبل أن ينهي كتابه ـ الكتاب على شكل مقالة ـ.

إن الميزة الكبرى لشكل الحكمة في الفلسفة أنه يساعد على الاكتشاف. ويأخذ القارىء انطباعاً بأن الكلام قد حُمِّل أكثر مما قد قيل فعلاً، لأنه يقوم على الأغلب بعمل ذهني أكثر ـ من حيث ربط الجمل وبناء المناقشات ـ من قبله هو. وفي الوقت نفسه فإن هذه هي الميزة الكبرى لهذا الأسلوب والذي هو في الحقيقة ليس تفسيرياً على الإطلاق. والقارىء يلمس الموضوع ويقترح الحقيقة عنه ومن ثمة يطرق موضوعاً ثانياً بدون إثبات مناسب لما قال، وهكذا فبالرغم من أن شكل الحكمة ممتع للقراء الذين لديهم بعض الشاعرية إلا أنه مجهد للفلاسفة الجادين الذين يحاولون تتبع ونقد أفكار الكاتب.

وعلى حد علمنا لا توجد أشكال أخرى في التفاسير الفلسفية قد استخدمت في الغرب. (وعملاً كعمل لوكر تيبوس عن «طبيعة الأشياء» هو استثناء لذلك فقد كتب أصلاً بقالب شعري، ولكن إلى الحد الذي يذهب إليه هذا الشكل فإنه لا يختلف عن أية مقالة فلسفية، وعلى أية حال فإننا نقرأ عادة في أيامنا الحالية على شكل ترجمات نثرية) وهذا يعني أن كل الفلاسفة المشاهير قد استخدموا أسلوباً أو آخر من هذه الأساليب الخمسة، وفي بعض الأحيان بالطبع فإن الفلاسفة يحاولون بأكثر من أسلوب واحد. وإن البحث أو المقالة هي على الغالب الشكل الأكثر اعتياداً في الماضي والحاضر. إنها تتراوح من الأعمال الرسمية الصعبة والعليا مثل أعمال كانت إلى المقالات والرسائل الفلسفية الشعبية. وكما أن الحوار صعب الكتابة والشكل الهندسي صعب أن يكتب وأن يقرأ أيضاً. وأسلوب الحكمة هو غير مرضٍ في القراءة من وجهة نظر فلسفية، وأسلوب توما الاكويني لم يعد يستخدم بكثرة في أيامنا الحالية. ربما لأنه لم يعد مقبولاً من قراء هذا العصر ولكن هذا يبدو مخجلاً بعد الأخذ بعين الاعتبار كل ميزاته.

ربما أصبح واضحاً من مناقشاته حتى الآن أن أهم شيء يجب اكتشافه في قراءة أي كتاب فلسفي هو السؤال أو الأسئلة التي يحاول الإجابة عليها. هذه الأسئلة يمكن أن توضع بوضوح أو يمكن أن تكون غامضة إلى حد ما، وفي كل من الحالتين يجب عليك كقارىء أن تحدد ما هي هذه الأسئلة، وكيفية محاولة الكاتب الإجابة على هذه الأسئلة ستكون متأثرة جداً بضبط مبادئه. وهذه يمكن أن تحدد أيضاً، ولكن هذه ليست دائماً القضية. لقد استشهدنا بكتابات باسيل ويلي عن صعوبة وأهمية اكتشاف الافتراضات المخبأة وغير الموضحة من قبل الكاتب، وأن لا نقول شيئاً من عندنا. وهذا يطبق على أي كتاب وينطبق بشكل خاص وبقوة على الأعمال الفلسفية.

إن الفلاسفة الكبار لا يمكن أن يُحاسبوا في أنهم أخفوا افتراضاتهم بشكل غير شريف. أو في أن يكونوا غير واضحين في تعاريفهم ومسلماتهم. إنها بالتحديد علامة الفيلسوف الكبير أنه يجعل الأشياء أوضح مما يستطيعه غيره من الكتاب. وهكذا فلكل فيلسوف كبير مبادىء محددة تحكمه وتتضمن أعماله، وهذه من السهل رؤيتها إذا تضمنها الكتاب الذي تقرأه. ولكن يمكن أن لا يفعل ذلك محتفظاً بمعالجتها لكتاب آخر، أو يمكن أن لا يعالجها بصراحة بل يسمح لها أن تنتشر في كل كتاب من كتبه.

من الصعب أن نعطي أمثلة على هذه المبادىء المضبوطة، وأي شيء نقدمه فإنه سوف يناقش على الأغلب من قبل الفلاسفة وليس لدينا متسعاً أن ندافع عن ما نقدمه. وبالرغم من ذلك فإنه يمكننا أن نذكر الأفكار المسيطرة لأفلاطون في عرضه على مناقشة الموضوعات الفلسفية وهي الأكثر أهمية لكل النشاطات البشرية. مع أنه نادراً ما يصرح بهذه الفكرة في الحوارات، بالرغم من أن سقراط يمكن أن يكون قد قالها في الاعتذار «Apology» أكد أن الحياة غير المتفحصة لا تستحق أن نحياها ـ وقد ذكرها أفلاطون في الرسالة السابعة ـ والهام في ذلك أن أفلاطون قد ذكر وجهة النظر هذه في أماكن عدة وفي

كلمات ليست كثيرة وعلى سبيل المثال في برمتا غوراس (فيلسوف اغريقي قبل الميلاد Protagoras سفسطائي). حيث أظهر السامعون عدم موافقتهم عن رغبة بروتاغوراس في الاستمرار في الحديث مع سقراط.

ومثال آخر سلفالوس Celphalus في الكتاب الأول من الجمهورية حيث قال أن هناك عمل آخر عليه أن يفعله لذا فقد غادر. يبدو أن أفلاطون يقول هنا بشكل غير صريح أنه من المضلل للطبيعة الإنسانية العميقة أن نرفض الانضمام لأي سبب كان في البحث عن الحقيقة. ولكننا كما نوهنا لا يمكن هذا أن يقتبس كواحدة من أفكار أفلاطون، لأنها نادراً ما نوقشت بصراحة في أعماله.

يمكننا أن نجد مثالاً آخر في أرسطو، في المقام الأول فإنه من إلهام أن نميز في قراءة كتابات أرسطو، أن نناقش الأشياء التي قيلت في كتاباته الأخرى وهذا هو المبدأ الأساسي في المنطق الذي شُرح في الأرغانون وافترض في الفيزياء Physics. وفي المقام الثاني تعود إلى أن البحث ليس عملاً منتهياً من الأعمال الأدبية أو الفلسفية والمبادىء المتحكمة فيها لا توجد دائماً مع الرضى والوضوح. إن كتاب الأخلاق ينص على أشياء كثيرة مثل السعادة والعادة والسرور إلى آخر ذلك وقائمتها يمكن أن تكون طويلة، لكن التبصر الكامل يمكن أن يكون فقط للقارىء المتأني. هذا التبصر يشير أن السعادة هي خير كلي وليست هي أعلى الخير وإننا في تلك الحالة نكون فقط خير واحد بين أمور الخير الأخرى. وذلك لأننا نرى أن السعادة لا تشتمل على الكمال الذاتي، أو خير في تطوير الذات. وحتى في هذه الحالة فإن هذه تتسق في أعلاها بين الخير أو الخيرات الجزئية Pratical goods. إن السعادة كما يقول أرسطو هي نوعية الحياة الكلية ويقصد «بالكلية» ليس المعنى المؤقت بل أنها كل العوامل التي يمكن من خلالها النظر إلى الحياة. إن الشخص السعيد هو الذي يستطيع أن يضعها كلها مع بعض كما يمكن أن نقول في أيامنا الحالية ويحتفظ بها كذلك طيلة حياته. هذا التبصّر يؤثر تقريباً على كل الأفكار في علم الأخلاق لكنها لم توضع تقريباً بشكل صريح كما يجب أن تكون.

مثال آخر من خلال أفكار الفيلسوف «كانت» الناضجة والتي تعرف دائماً بالفلسفة النقدية، وهو نفسه الذي وضع النقد كعكس لللاغوماتية أو الجزمية Dogmatism والتي تنسب إلى فلاسفة عديدين أسبق منه. ولقد عني بجزمية التسليم بأن الفكر البشري يمكن أن يصل إلى أهم الحقائق من خلال التفكير المجرد، دون إمكانية معرفة حدوده الذاتية. والمطلب الأول حسب «كانت» هو التقصي النقدي وتقييم لقوى ومصادر الفكر. وهكذا فإن محدودية العقل هي المبدأ المتحكم عند «كانت» بطريقة ليست موجودة عند أي فيلسوف سبقه من حيث الزمن. وقد وصفت بشكل واضح وصريح في نقد الفكر المجرد Critique of pure peason. ومع أنها لم توضع في كتابه «نقد الحكمة Critique of judgement» لأنها كانت مفترضة أصلاً، وبالرغم من ذلك فهي متضمنة به أيضاً.

هذا كل ما يمكن أن نقوله عن إيجاد المبادىء التي تحكم الكتاب الفلسفي، لأننا لسنا متأكدين من أننا نستطيع أن نخبرك كيف يمكن أن تكتشفها. وإن ذلك قد يأخذ سنوات في بعض الأحيان وقراءات متعددة وإعادة القراءة أيضاً. ويجب أن تتذكر دائماً أن هذا ما يجب أن تحاول أن تفعله من أجل أن تفهم كاتبك، وبالرغم من صعوبة اكتشاف المبادىء المتحكمة فإننا لا ننصحك أن تختصر الطريق وتقرأ كتباً عن حياة وآراء الفلاسفة، فإن الاكتشاف الذي تحصل عليه بمجهودك الشخصي سوف يكون أكبر قيمة من آراء وأفكار الآخرين.

وعندما تجد المبادىء التي ينطلق منها الكاتب فإنك قد تقرر ما إذا كان يتقيد بها في كتابه أم لا. ومن سوء الحظ فإن الفلاسفة بل حتى أفضل الفلاسفة لا يفعلون ذلك. إن الاتساق كما قال امرسون «هو غول العقول الصغيرة». هذه عبارة خالية من الهم ولكن من المستحسن أن نتذكرها. ولا يوجد شك أيضاً أن عدم الاتساق بالنسبة للفيلسوف هو مشكلة حقيقية. وإذا كانت أفكار الفيلسوف غير متسقة فإنك يجب أن تقرر أي من الافتراضات هو يعنيها فعلاً. المجموعة الأولى كما بينها هو أو النتائج التي توصل إليها والتي تتبع المبادىء التي انطلق منها. أو يمكن أن تقرر أن لا هذه صالحة ولا تلك.

إن قراءة الأعمال الفلسفية لها مظاهر خاصة تتعلق بالفرق بين الفلسفة والعلوم. ونحن هنا نتحدث عن الأعمال النظرية في الفلسفة مثل البحوث الميتافيزيقية أو كتب عن فلسفة الطبيعة.

إن المشكلة الفلسفية هي شرح وليست وصف كما تفعل العلوم في طبيعة الأشياء. والفلسفة لا تسأل فقط عن الارتباط بين الظواهر. بل تهدف إلى التدخل في الأسباب النهائية والشروط التي تحتويها. ومثل هذه المشاكل تكتشف بشكل مرضٍ فقط عندما تكون الإجابة عليها مدعومة بمناقشات وتحليلات واضحة.

إن الجهد الأساسي للقارىء يجب أن يكون للمصطلحات والفرضيات التمهيدية وبالرغم من أن الفيلسوف مثل العالم لديه مفردات اصطلاحية فإن هذه المفردات التي تعبر عن اصطلاحاته مأخوذة من اللغة العادية لكنها تستعمل بمعنى خاص. وهذه تتطلب عناية خاصة من جانب القارىء، فإذا فكر أن يستعمل المفردات المألوفة بطرقها المألوفة فإنه على الغالب سوف يحصل على كلام خال من المعنى في الكتاب الذي يقرؤه.

إن الاصطلاحات الأساسية في المناقشات الفلسفية هي بالطبع مستخلصة، ولكن هذا هو الوضع أيضاً بالنسبة للعلوم. ولا يوجد معرفة عامة يمكن التعبير عنها دون العودة إلى الاصطلاحات المستخلصة. وليس هناك شيء له صعوبة خاصة في الاستخلاص. فنحن نستخدمه كل يوم في حياتنا وفي كل أنواع المناقشات. وعلى كل حال فإن كلمتي مستخلص ومتماسك يبدو أنهما تسببان اللبس لأشخاص كثيرين.

عندما تتكلم بشكل عام عن أي شيء فإنك تستخدم المصطلحات، وعندما تفهم من خلال المنطق الذي يحكمك فهو دائماً متماسك وخاص بك وما تفكر به من خلال عقلك هو دائماً مستخلص وعام. ولتفهم كلمة مستخلصة هي في أن تحصل على الفكرة التي تعبر عنها. وأن تأخذ فكرة هي طريقة أخرى لأن تقول أنك فهمت بعض المظاهر العامة لشيء اختبرته بشكل

متماسك. ولا يمكنك أن ترى أو تلمس أو حتى تتخيل المظهر العام الذي تشير إليه. وإذا استطعت فلن يكون هناك فرق بين المنطق والعقل. إن الأشخاص الذين يحاولون أن يتخيلوا إلى ما تشير يربكون أنفسهم وينتهون بانعدام الأمل نحو الشعور الذي يحاولون أن يستخلصوه.

ومثل المناقشات الاستقرائية التي يجب أن تكون موضع الاهتمام الأساسي لقارىء الكتب العلمية فإنه يجب عليك كقارىء للكتب الفلسفية أن تلقي عناية بمبادىء الفيلسوف. ويمكن أن تكون هذه المبادىء إما شيئاً يطلب منك أن نفترضها معه أو موضوعات يرى هو أنها بديهية. ولا يوجد معضلات حول الافتراضات، فهو يجعلك تتبعها حتى ولو كنت أنت تحمل الافتراضات السابقة المعارضة لها. وإن ذلك تدريب ذهني جيد في أن تتظاهر أنك تؤمن بشيء أنت في الحقيقة لا تؤمن به. وإذا كنت متأكداً فيما يتعلق بافتراضاتك أنت فإنك على الأرجح لن تسيء فهم افتراضات وضعت من قبل الآخرين.

هناك نوع آخر من المبادىء يمكن أن تسبب معضلات، حيث تفشل بعض الكتب الفلسفية القليلة في النص على بعض الافتراضات التي يعتبرها الكاتب بديهية، ومثل هذه الافتراضات تستخرج مباشرة من التجربة أكثر من أن تكون مثبته من خلال افتراضات أخرى.

والشيء الذي يجب تذكره أن التجربة التي استنتجت منها هذه الافتراضات ـ كما نوهنا أكثر من مرة ـ هي لا تشبه التجربة الخاصة للعالم والتجربة العامة للبشرية، فالفلاسفة لا يقومون بتجارب في المخابر ولا بأبحاث في الميدان، لهذا فلفهم واختبار المبادىء الفلسفية الرئيسية فإنك لن تحتاج أن تطلب معونة التجربة الخاصة المستخرجة من خلال التقصي المنهجي، لأن الفيلسوف يشير إلى المنطق العام والملاحظة اليومية للعالم الذي نعيش فيه.

وبكلمات أخرى فإن الطريقة التي يجب أن تقرأ من خلالها كتاباً فلسفياً هي مشابهة جداً للطريقة التي كتب من خلالها. إن الفيلسوف عندما يجابه

بمشكلة لا يمكنه أن يفعل شيئاً سوى التفكير بها. والقارىء الذي يجابه بكتاب فلسفي لا يمكنه أن يفعل شيئاً سوى أن يقرؤه. وذلك يعني ـ كما نعلم ـ أنه يفكر به ولا يوجد وسائل مساعدة سوى العقل نفسه.

لكن هذه الوحدة الأساسية بين القارىء والكتاب هي تماماً الشكل الذي تخيلناه في بداية نقاشنا الطويل عن قواعد القراءة التحليلية. وهكذا فإنك تستطيع أن تلمس لماذا قلنا أن قواعد القراءة ـ كما أوضحناها وشرحناها ـ تنطبق مباشرة على قراءة الكتب الفلسفية أكثر من قراءة أي نوع من الكتب الأخرى.

اتخاذك قرارك الشخصي

إن الأعمال الفلسفية النظرية متحررة من اللغة الخطابية والدعائية تماماً مثل البحوث العلمية الجيدة. وليس من المهم أن تُعنى كثيراً بشخصية الكاتب أو أن تتحرى عن خلفيته الاجتماعية والاقتصادية. وعلى كل حال هناك فائدة في قراءة كتابات الفلاسفة العظماء الآخرين الذين طرقوا نفس المشكلة التي عالجها كاتبك. إن الفلاسفة قد أداروا حوارات مطولة مع بعضهم في تاريخ الفكر، ومن الأفضل أن تستمع إليهم قبل أن تتخذ قرارك الشخصي عما يقوله كل منهم.

إن حقيقة الفلاسفة أنهم قد لا يتفقون يجب ألا تقلقك لسببين: الأول، إن حقيقة الخلاف إذا كانت ملّحة يمكن أن تشير إلى مشكلة غير محلولة وربما غير قابلة للحل، ومن المفيد أن تعلم أين السر في ذلك. والثاني، إن عدم الاتفاق مع الآخرين هو غير هام نسبياً، ومسؤوليتك تكمن فقط في اتخاذك لقرارك الشخصي في حضور الحوارات المطولة التي أدارها الفلاسفة من خلال كتبهم. ويجب أن تحكم بنفسك ما هو الصحيح وما هو الخطأ. وعندما تقرأ كتاباً فلسفياً بشكل جيد ـ وهذا يعني أن تقرأ ما كتبه الفلاسفة الآخرون عن نفس الموضوع أيضاً ـ فإنك تكون في موضع يمكنك أن تحكم من خلاله.

إنها في الحقيقة علامة مميزة للأسئلة الفلسفية التي يجب على كل فرد أن يجيب عليها لنفسه، وأخذ آراء الآخرين لا يحلها بل يتهرب منها. وإجابتك يجب أن تكون على أرضية ثابتة مع حجج تشملها جميعاً. وهذا يعني قبل كل شيء أنه لا يمكنك أن تعتمد على شهادة الخبراء كما يمكنك أن تفعل في حالة العلوم. والسبب في ذلك أن السؤال الذي يسأله الفلاسفة هو ببساطة أهم من أي أسئلة يسألها الآخرون فيما عدا الأطفال.

الفصل التاسع عشر

كيف تقرأ العلوم الإجتماعية

إن مفاهيم وتعابير العلوم الاجتماعية تنتشر في كل شيء نقرؤه في هذه الأيام. فالصحافة الحديثة مثلاً لا تحد نفسها في تقرير الحقائق إلا فيما يعتبر نوع من الملخصات «مَن، ماذا، لماذا، متى وأين» مثل قصص الأخبار التي على الصفحة الأولى من الصحيفة. فالصحافة تقع عادة في شرك التفسير والتعليق والتحليل للأخبار. هذه التفاسير والتعليقات تعتمد على مفاهيم وتعابير العلوم الاجتماعية. وهذه المفاهيم والتعابير تعكس أيضاً العدد الكبير من الكتب والمقالات الحالية التي يمكن أن تجمع معاً تحت عنوان النقد الاجتماعي. ونحن نواجه ـ بالتدفق المستمر ـ أدبيات عن موضوعات مثل المشاكل العرقية والجريمة وقوة القانون والبؤس والتعليم والرفاه والحرب والسلام والحكومات الجيدة والسيئة. وكثير من هذه الأدبيات تستعير ايدلوجيتها ولغتها من العلوم الاجتماعية.

إن أدبيات العلوم الاجتماعية لا تؤدي اللاخيالي non-fiction فإن هناك فئة كبيرة وهامة من الكتابات المعاصرة يمكن أن يعبر عنها بخيال العلوم الاجتماعية Social Science Fiction وهذا يهدف إلى إنشاء شكل خاص صنعي للمجتمع الذي يسمح لنا مثلاً باكتشاف النتائج الاجتماعية للابتكارات التكنولوجية. إن تنظيم القوى الاجتماعية ـ خصائص الملكية والتملك وتوزيع الثروة ـ قد وصفت أو مُجّدت في القصص والمسرحيات والروايات وفي السينما وعروض التلفزيون. وفيما يفعلون ذلك يمكن أن يقولوا أنها تحمل قيمة اجتماعية أو تشتمل رسالة ملائمة. وفي نفس الوقت إنهم يرسلون وينشرون عناصر للعلوم الاجتماعية.

والأكثر من ذلك فإنه بالكاد توجد مشكلة اجتماعية أو إقتصادية أو سياسية لم تعالج من قبل مختصين في هذه الحقول إما من قبلهم شخصياً أو بدعوة مسؤولين منخرطين في حل هذه المشاكل. إن المختصين في العلوم الاجتماعية يساعدون في تحديد المشاكل ويدعون للمساعدة في معالجتها.

وبعيداً عن العامل الأقل أهمية في نمو شمول العلوم الاجتماعية، مقدمتها التي تبدأ بالمدارس الثانوية وفي كليات المجتمع. ففي الحقيقة إن انخراط الطلبة في دروس العلوم الاجتماعية أكثر من انخراطهم في الآداب التقليدية ودروس اللغة. كما أن الانخراط في دروس العلوم الاجتماعية يسبق كثيراً انخراطهم في الدورات التي تعنى بالعلوم البحتة.

ما هي العلوم الاجتماعية

نحن نتحدث عن العلوم الاجتماعية كما لو أنها موضوع واحد. وهذه ليست الحقيقة. ما هي في الحقيقة العلوم الاجتماعية؟ هناك طريقة واحدة للإجابة على هذا السؤال وذلك من خلال النظر إلى الكليات والموضوعات التي تدرسّها الجامعات تحت هذا الاسم. إن أقسام العلوم الاجتماعية تشمل عادة الأنتربولوجيا Anthropology والاقتصاد والسياسة وعلم الاجتماع. لماذا لا تشتمل موضوعات الدراسة أيضاً كليات الحقوق والتربية وإدارة الأعمال والخدمات الاجتماعية والإدارة العامة من أجل رسم المفهوم والطرق لتطوير العلوم الاجتماعية؟

إن السبب المألوف الذي يعطى لمثل هذا الفصل بين الكليات من أقسام العلوم الاجتماعية هو الهدف الأساسي لمثل هذه الكليات حيث يتم تدريب الممتهنين للعمل خارج الجامعة في حين أن الأقسام المذكورة سابقاً مكرسة ومقتصرة فقط على احتراف المعرفة المنتظمة عن المجتمعات البشرية بشكل فعل يذهب عادة إلى أبعد من الجامعة.

وفي الوقت الحاضر هناك اتجاه في الجامعات نحو تأسيس مراكز ومعاهد

من أجل الدراسات ذات الموضوعات المتداخلة. وهذه المراكز تتقاطع ضمن أقسام العلوم الاجتماعية والكليات المتخصصة وتتضمن دراسات عن النظريات والطرق الإحصائية والسكانية وعلوم الانتخابات والاقتراع وصنع القرار وتعيين ورفع كفاءة الأفراد والإدارة العامة والبيئة الاجتماعية ودراسات عديدة أخرى. إن مثل هذه المراكز تنتج التقارير والدراسات التي تحتوي على ما توصلت إليه البحوث في العديد من هذه التخصصات. إن تعقيدات كثيرة تتطلب لإدراك التداخلات المتعددة لهذه الجهود ولتبين صلاحية النتائج.

ماذا عن علم النفس؟ إن علماء الاجتماع الذين يفسرون حقول عملهم ينحون إلى استبعاد علم النفس من الأرضية ذاتها التي تعنى بالأفراد ومميزات الشخصية حيث يكون همّ العلوم الاجتماعية التركيز على العوامل الثقافية والبيئية والمؤسساتية. وينادي العلماء الأقل تشدداً أن تُحتوى الدراسات الفيزيولوجية والنفسية في العلوم الاجتماعية، حيث يمسك علم النفس بكلا السلوكين السوي وغير السوي. كما ويجب أن تُشتمَل ضمن العلوم الاجتماعية على الأرضية غير المنفصلة للفرد مع بيئته.

إن علم النفس بالمناسبة هو مثال رئيسي في حقل العلوم الاجتماعية الذي يحظى بشعبية كبيرة بين الطلاب ومن الممكن أن يكون تسجيل الطلاب في فروع علم النفس أكبر من أي تسجيل في الموضوعات الأخرى. وأدبيات علم النفس على كل المستويات من أكثرها تقنية إلى أكثرها شعبية ذات أهمية.

وماذا عن علم السلوك؟ وأين هو موضعها ضمن صورة العلوم الاجتماعية؟

كما استعملت أصلاً عبارة علم السلوك فهي في علم الاجتماع والأنتروبولوجي والمظاهر السلوكية في البيولوجيا والاقتصاد والجغرافية والقانون وعلم النفس والعلوم السياسية. والكلام عن السلوك خدم التركيز على ملاحظة السلوك المُقاس والقابل للتقصي المنتظم ويعطي نتائج متغيرة. وفي الوقت

الحاضر فإن عبارة العلوم السلوكية تستعمل تقريباً كمرادف لعبارة العلوم الاجتماعية ولكن محترفين عديدين يعارضون هذا الاستعمال.

وأخيراً ماذا عن التاريخ؟ كما نوهنا أن العلوم الاجتماعية تعتمد على دراسة التاريخ من أجل البيانات والأمثلة بهدف تعميماتها. وعلى كل حال فبالرغم من أن التاريخ يراجع على أنه حسابات لحوادث أو أشخاص معنيين يمكن أن يكون علمياً بالحد الأدنى للمعنى من حيث أنه ينتج معرفة منتظمة على طرق أو قوانين السلوك وتطورها.

من الممكن الآن أن نعرف ماذا نعني بالعلوم الاجتماعية؟ نحن نظن وعلى الأقل من أجل أهداف هذا الفصل؟ أن فروعاً مثل الأنتروبولوجي Anthropology والاقتصاد والسياسة وعلم الاجتماع تحتوي على قطب مركزي للعلوم الاجتماعية. حيث يمكن أن يشملها كل علماء الاجتماع تقريباً في أي تعريف. وبالإضافة إلى ذلك نحن نظن أن من المسلّم به لدى كل علماء الاجتماع أن عدداً كبيراً وليس كل الأدبيات في فروع من القانون والتربية والإدارة العامة وبعض الأدبيات في فروع مثل التجارة والخدمة الاجتماعية معاً بالإضافة إلى قدر ملحوظ من الأدبيات النفسية تقع ضمن ذلك في التعريف المعقول. ونحن نفترض أن مثل هذا التعريف بالرغم من أننا نعترف بأنه غير دقيق هو واضح فيما سيتبع.

السهولة الواضحة في قراءة العلوم الاجتماعية

إن كمية كبيرة من الكتابات في العلوم الاجتماعية تبدو أنها من أسهل مواد القراءة. وغالباً ما تؤخذ البيانات من تجارب مألوفة للقارىء ـ وفي هذا الاعتبار إن العلوم الاجتماعية تشبه الشعر والفلسفة ـ والأسلوب الشرحي للعلوم الاجتماعية تشبه عادة القصة وهي أيضاً مألوفة للقارىء من خلال قراءته للأدب والتاريخ.

وبالإضافة إلى ذلك فنحن أصبحنا معتادين على مفردات العلوم

الاجتماعية وغالباً ما نستعمل هذه التعابير مثل الثقافة والانسلاب والحالة والمدخلات والمخرجات والفرقية والسلوك واتفاق الرأي والعديد مما شابهها حيث تنحو للظهور في كل المناقشات تقريباً وفي كل شيء نقرؤه أيضاً.

أنظر إلى كلمة مجتمع إنها كلمة متلونة مثل الحرباء وكم من صفة يمكن أن ترد قبلها ومن خلالها يمكن أن نوضح مفاهيم عريضة لأناس يعيشون معاً مجتمعين أكثر من كونهم معزولين.

نحن نسمع عن المجتمعات المنحرفة Aberrant Society والمجتمعات المخفقة Abortive Society والمجتمعات المذعنة Aequiescent والمجتمعات المكتسبة Acuisitive Society والمجتمعات الفنية Affluent Society ويمكننا أن نستمر من خلال الأبجدية إلى أن نصل إلى المجتمعات المختمرة Zymotic Society التي هي واحدة في حالة مستمرة من القلق والاهتياج لا تشبه مجتمعنا.

إن كلمة اجتماعي كصفة لها أيضاً معانٍ عديدة مألوفة فهناك القوة الاجتماعية والضغط الاجتماعي والبشائر الاجتماعية Social Promise وهناك بالطبع أيضاً المشاكل الاجتماعية الكلية Ubiquitous Social Problems والعبارة الأخيرة في الحقيقة هي مثال جيد للسهولة التي تشتمل عليها كلاً من القراءة والكتابة في أدبيات العلوم الاجتماعية. ونحن نرغب في المراهنة أنه في الأشهر القليلة الأخيرة إذا لم يكن في الأسابيع القليلة الأخيرة فإنك قد قرأت أو من الممكن أن تكون قد كتبت عبارة المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية ولكن ماذا يمكن أن تكون قد عنيت أو عني الكاتب بعبارة المشاكل الاجتماعية؟

إن تعابير واستعارات كثيرة من كتابات العلوم الاجتماعية مع الشعور العميق الذي غالباً ما يشبعها يجعلها سهلة القراءة بشكل مضلل. والسبب في ذلك أن الموضوعات مألوفة للقارىء، وفي الحقيقة هو يقرأ أو يسمع عنها كل يوم تقريباً. والأكثر من ذلك أن أراءه ومشاعره هي عادة متطورة بشكل أكيد.

إن الفلسفة أيضاً تعالج العالم الذي نعرفه ولكننا عادة لا نسأل الأسئلة الفلسفية. ولكن في الموضوعات التي تبحثها العلوم الاجتماعية فإن لنا على الأرجح آراؤنا الأكيدة.

صعوبة قراءة العلوم الاجتماعية

وبشكل مناقض فإن العوامل التي بحثناها، هذه العوامل التي تجعل العلوم الاجتماعية تبدو سهلة القراءة تجعلها أيضاً صعبة القراءة. أنظر إلى العامل الأخير الذي تطرقنا له مثلاً. إنك أنت كقارىء لديك على الأرجح بعض وجهات النظر عن القضايا التي يتطرق إليها الكاتب الذي تقرأ له. فإن قراءً عديدين يخافون أن يكون نوعا من عدم الولاء لأرائهم أن يقفوا منفصلين عنها ويسألون أنفسهم ماذا يقرؤون. بالرغم من أن ذلك مهماً عندما تقرأ قراءة تحليلية. ومثل هذه الحالة تطبق من خلال قواعد القراءة، وعلى الأقل في حالة التركيب الهيكلي والتفسير. وإذا كنت ستسأل الأسئلة الأولى التي يجب أن تسألها عند إقدامك على قراءة أي شيء، فإنه يجب عليك في البداية أن تتفحص رأيك أولاً، فلا يمكنك أن تتفهم كتاباً إذا كنت ترفض أن تسمع ماذا يقوله.

إن كون عبارات وافتراضات كتابات العلوم الاجتماعية مألوفة وغامضة أيضاً من حيث الفهم والعديد من علماء الاجتماع يلاحظون ذلك بأنفسهم. وهم يعترضون بقوة على استعمال العبارات التقنية والمفاهيم في الصحافة الشعبية والكتابات الأخرى. ومثال على مثل هذه المفاهيم عبارة الناتج المحلي الإجمالي GNP في الكتابات الاقتصادية الجادة حيث يستخدم هذا المفهوم في معنى محدد نسبياً. ولكن مراسلين عديدين وصحفيين يجعلون هذا المفهوم يقوم بأكثر من معناه المجرد. فهم يستخدمونه بشكل عريض بدون أن يعرفوا تماماً ماذا يعني. وواضح أنه إذا كان كاتب شيء تقرؤه أنت قد التبس عليه استعمال الكلمات الأساسي فإنك أنت كقارىء يمكن أن يلتبس عليك ذلك أيضاً.

دعنا نوضح هذه النقطة برسم حد للتمييز بين العلوم الاجتماعية من جهة وبين ما يسمى العلوم الصعبة من ناحية أخرى ـ الفيزياء والكيمياء... إلخ ـ فقد لاحظنا أن كاتب الكتب العلمية ـ تؤخذ العلمي بالمعنى الأخير ـ يضع وبشكل واضح ماذا يفترض وما يرغب في إثباته، وهو يتأكد من أن تعابيره وافتراضاته من الممكن تبينها. وحيث أن التفاهم على التعابير وإيجاد الافتراضات هو الجزء الهام في قراءة أي عمل تفسيري، فهذا يعني أن كثيراً من العمل قد أنجز لأجلك في مثل هذه الكتب. ولا يزال لديك صعوبة في التعبير الرياضي عن النص. وإذا لم يكن لديك انتباه للمناقشات والتجارب أو الملاحظات والتحيز في الوصول إلى النتائج، فإنك سوف تجد أنه من الصعب عليك أن تنقد الكتاب أو بمعنى آخر أن تجيب على الأسئلة. أليس ذلك صحيحاً؟ وماذا عن الكتاب؟ وبالرغم من ذلك فإن هنالك منطق هام يظهر من خلاله أن قراءة هذا النوع من الكتب العلمية هو أسهل من قراءة أي نوع من الكتب التفسيرية الأخرى.

طريقة أخرى لقول ما يفعله عالم العلوم الصعبة هو أنه يشترط استعمالاته، بمعنى أنه يعلمك ما هي الشروط الهامة في مناقشاته وكيف سيستعملها، مثل هذه الاشتراطات غالباً ما توجد في بداية الكتاب بشكل تعاريف واشتراطات وبديهيات... إلخ. وحيث أن اشتراطات الاستعمال هي صفة هذه الميادين فإنه يقال عنها أنها مثل الألعاب أو أن لديها هيكلية الألعاب. إن اشتراط الاستعمال هو مثل تأسيس قواعد لعبة ما. وبشكل مشابه فإنك لا تناقش اشتراطات عالم العلوم الصعبة في قراءة كتابه. إنك فقط تقبلها وتنطلق معها.

وعلى الأقل حتى في أيامنا الحالية فإن اشتراط الاستعمال لم يكن مألوفاً في العلوم الاجتماعية كما هو في العلوم الصعبة. وأحد الأسباب في ذلك أن الرياضيات لم تكن قد دخلت بها. وسبب آخر صعوبة استعمال اشتراط الاستعمال في العلوم الاجتماعية أو السلوكية. إنه شيء واحد أن تعرّف الدائرة

أو المثلث المتساوي الساقين لكنه شيء مختلف أن تعرّف كساداً اقتصادياً أو الصحة العقلية. وحتى إذا حاول العالم الاجتماعي تعريف هذه العبارات فإنَّ قارئه يميل إلى التساؤل حول استعماله. وينتج عن ذلك أن العالم الاجتماعي يجب أن يتابع كفاحه مع تعابيره من خلال كتابه وهذا الكفاح ينشىء مشاكلاً مع قارئه.

إن أهم مصادر الصعوبة في قراءة العلوم الاجتماعية تستنتج من حقيقة أن هذا الميدان من العلوم مختلف أكثر من كونه علماً صافياً في هذا النوع من الكتابات التفسيرية. وقد رأينا كيف أن التاريخ هو مزيج بين العلم والخيال، وكيف يجب أن نقرؤه وهذه الحقيقة ماثلة في أذهاننا. ونحن معتادون على هذا النوع من الاختلاط ولدينا تجربة طويلة فيه. لكن المسألة في العلوم الاجتماعية شيء مختلف، فالكثير من العلوم الاجتماعية هو خليط من العلم والفلسفة والتاريخ وغالباً مع شيء من الخيال تلقى من أجل المعايير الجيدة.

وإذا كانت العلوم الاجتماعية هي نفس النوع من الخليط الذي اعتدنا عليه كما فعلنا مع التاريخ. ولكن ليست هذه القضية فهذا الخليط يختلف من كتاب لآخر، ويواجه القارىء مهمة تحديد العناصر المختلفة لهذا الخليط الذي يوصله لمعرفة ما يقرأ. هذه العناصر يمكن أن تختلف في سياق الكتاب الواحد كما تختلف بين عدة كتب أيضاً. وليس من السهل أن نفصلها عن بعضها.

إنك سوف تذكر أن الخطوة الأولى التي يجب أن يقوم بها القارىء التحليلي هي أن يجيب على سؤال ما نوع الكتاب الذي يقرؤه؟ في حالة القراءة في الأدب فإن الجواب سهل نسبياً. وكذلك في حالة العلوم أو الفلسفة فالجواب أيضاً سهل نسبياً. وحتى في التاريخ إذا كان بشكله المختلط فإن القارىء عادة يعرف أنه يقرأ في التاريخ. لكن العناصر المختلفة التي تشكل العلوم الاجتماعية تتداخل أحياناً بحيث تصعب الإجابة على السؤال عندما نقرأ عملاً في أي ميدان تتضمنه. إن المشكلة معقدة بدرجة صعوبة وضع تعريف للعلوم الاجتماعية.

وبالرغم من ذلك فإن على القارىء قراءة تحليلية أن يحاول الإجابة على هذا السؤال وهذا ليس فقط هدفه الأول بل إنه الأهم أيضاً. وإذا كان قادراً على أن يجيب في أي عنصر من عناصر العلوم الاجتماعية الذي يشتمله الكتاب، فإنه سوف يخطو بشكل أفضل تجاه فهمه.

إن تبين عمل في العلوم الاجتماعية لا يطرح مشاكل خاصة، لكن التوصل إلى شروط مع الكاتب كما اقترحنا سابقاً يمكن أن يكون صعباً جداً باعتبار عدم القابلية النسبية للكاتب في وضع اشتراطه واستعماله. وبالرغم من ذلك فإن تفاهماً عاماً على التعابير الأساسية ممكن عادة. ومن التعابير ننطلق إلى الافتراضات والمناقشات وهنا أيضاً لا توجد مشاكل خاصة إذا كان الكتاب جيداً. لكن السؤال الأخير: ماذا عن الكتاب؟ إنه يتطلب تركيزاً ملحوظاً من جانب القارىء. فهنا تظهر الحالة التي وصفناها سابقاً وهي تكمن بقول القارىء «لا يمكن أن أُخطِّىء الكاتب على نتائجه لكني لا أتفق معها». وهذا يحدث بالطبع بسبب الحكم المسبق من قبل القارىء على الأرجح، فيما يتعلق بموقف الكاتب ونتائجه.

قراءة أدبيات العلوم الاجتماعية

في نطاق هذا الفصل أكثر من مرة استخدمنا عبارة «أدبيات العلوم الاجتماعية» عوضاً عن «كتاب في العلوم الاجتماعية». والسبب في ذلك أنه من المتعارف عليه في نطاق العلوم الاجتماعية أن تقرأ عدة كتب عن موضوع ما أكثر من أن تقرأ كتاباً واحداً حول ذلك الموضوع. وهذا لأن العلوم الاجتماعية ليست ميداناً جديداً له نصوص كلاسيكية قليلة. بل لأننا أيضاً عندما نقرأ في العلوم الاجتماعية غالباً ما يكون اهتمامنا في موضوع محدد أو مشكلة محددة أكثر من أن يكون اهتمامنا على كاتب محدد أو كتاب محدد. فإذا كان اهتمامنا مثلاً في إلزامية القانون فإننا نقرأ نصف دزينة من الكتب عن هذا الموضوع. أو إذا كان اهتمامنا ينصب على العلاقات العرقية أو التربية أو التشريعات الضريبية، أو مشكلة الحكومات المحلية. فلا يوجد نموذجياً كتاب جازم واحد عن أي

من هذه المواضيع وعندها فإن علينا أن نقرأ عدة كتب عن هذا الموضوع. وتأكيداً لما نقول فإن كتّاب العلوم الاجتماعية أنفسهم ومن أجل أن يبقوا متوافقين مع الزمن فإنه يجب عليهم أن يأتوا بالجديد دائماً ويراجعوا طبعات كتبهم. والأعمال الجديدة تنسخ القديمة وتتخلى عنها وتصبح الأعمال القديمة مهملة.

وتظهر حالة مشابهة إلى حد ما في قراءة الفلسفة كما نوهنا سابقاً. لأنك لكي تفهم فيلسوفاً ما بشكل كامل، فإنك يجب أن تقرأ أعمال الفلاسفة التي قرأها الكاتب نفسه والفلاسفة الذي تأثر بهم. وينطبق نفس الوضع على التاريخ، فإذا كنت تريد أن تكتشف حقائق الماضي فيجب عليك أن تقرأ عدة كتب عنه أكثر من أن تقرأ كتاباً واحداً. والأرجح في هذه الحالات أن تجد كتاباً واحداً جازماً هو الأفضل، وهذه الحالة ليست شائعة في العلوم الاجتماعية وقراءة عدة كتب أكثر من قراءة كتاب واحد هو الموضوع الأكثر ضرورة.

إن قواعد القراءة التحليلية لا تنطبق على قراءة عدة كتب عن موضوع واحد. إنها فقط تنطبق على كل كتاب يُقرأ بمفرده. وبالطبع إذا أردت أن تقرأ أياً من هذه الأعمال جيداً فإنك يجب أن تلاحظها، لكن ذلك يتطلب قواعد جديدة في القراءة عندما تمر من المستوى الثالث للقراءة ـ القراءة التحليلية ـ إلى المستوى الرابع ـ القراءة المرجعية ـ ونحن الآن مهيأون للبحث في المستوى الرابع من أجل أن نرى أن لقراءة العلوم الاجتماعية صفات تتطلبها.

وبالإشارة إلى العلوم الاجتماعية فقد أصبح واضحاً لماذا أجلّنا بحثها للفصل الأخير من القسم الثالث. ويجب أن يكون واضحاً لماذا نظمنا نقاشنا على الطريقة التي قمنا بها، فقد بدأنا في قراءة الكتب التطبيقية التي هي شكل مختلف عن كل الأشكال الأخرى بسبب الالتزامات التي تقع على عاتق القارىء في القيام بافعل إذا هو وافق وقبل ما يقرأ. ثم بحثنا في الأدب التخيلي والشعر التي لها مشاكلها الخاصة والتي لا تشبه الكتب التفسيرية. وأخيراً بحثنا في ثلاثة أنواع من الكتب النظرية والتفسيرية (العلوم والرياضيات والفلسفة والعلوم

الاجتماعية). وتأتي العلوم الاجتماعية في المرحلة الأخيرة للحاجة في قراءتها قراءة مرجعية. وهكذا فالفصل الحالي يمكن أن نعتبره آخر القسم الثالث ومقدمة للفصل الرابع.

القسم الرابع

المستوى الرابع: القراءات المتزامنة Syntopical Reading الموجهة لموضوع واحد
قراءة المراجع

حتى الآن لم نقل شيئاً محدداً عن قراءة كتابين أو أكثر في موضوع واحد. ولقد اقترحنا ذلك عندما بحثنا في موضوعات معينة حيث تكون قراءة أكثر من كتاب هي المناسبة ولقد ذكرنا أيضاً الميادين المختلفة، ومعرفة أن قراءة أكثر من كتاب هو الملائم لسؤال معين والمطلب الأول لأي مشروع قراءة مراجع. ومعرفة أي الكتب التي يجب أن تُقرأ هي بشكل عام المطلب الثاني. وهذا المطلب هو الأصعب من حيث إشباعه، من المطلب الأول.

والصعوبة تصبح ثابتة حالما نفحص عبارة «كتابين أو أكثر في موضوع واحد»، فماذا نعني بالموضوع الواحد؟ ربما يكون ذلك واضحاً عندما يكون الموضوع فترة أو حادثة تاريخية واحدة، ولكن ذلك صعب في أي ميدان آخر يجب أن يوجد الكثير من الوضوح. إن قصة «ذهب مع الريح» أو «الحرب والسلم» هما قصتان عن حروب كبيرة ويوجد في معظم أجزائها شبه كبير، وقصة ستاندال «بيت الرحمة في بارما» هي عن الصراع نفسه: الحروب النابليونية، حيث أن قصة تولستوي عن الحروب نفسها، ولكن بالطبع فإن كلتا القصتين هي عن الحرب أو في الحقيقة عن الحروب بشكل عام. إن الحرب تشكل السياق أو الخلفية لكلا القصتين كما تفعل ذلك بالنسبة للحياة الإنسانية، ولكنهما قصتان جذب الكاتبان انتباهنا إليهما من خلال الحرب، ونحن يمكن

أن نعلم شيئاً عن الحرب ـ وفي الحقيقة فإن تولستوي قال مرة أنه تعلم الكثير مما يعرفه عن المعارك من قصة ستاندال عن حرب واترلو ـ ولكننا لا نقرأ هاتين القصتين أو أي قصص أخرى إذا كانت نوايانا دراسة الحرب.

قد تظن أن هذه الحالة تحدث في حالة الأدب التخيلي، إنها متأصلة في الحقيقة في أن القاصّ لا يتواصل مع قرائه بالطريقة نفسها التي يتواصل بها كتاب الأعمال التفسيرية، ولكن هذه الحالة موجودة في الأعمال التفسرية أيضاً.

لنفترض على سبيل المثال أنك مهتم بالقراءة عن فكرة الحب، وحيث أن الأدبيات التي تبحث في الحب كبيرة فإنك سوف تواجه صعوبة صغيرة نسبياً في إنشاء بيبلوغرافيا عن الكتب المتوجب قراءتها. ولنفترض أنك قد صنَّفت هذه البيبلوغرافيا بسؤال أمناء المكتبات أو بالبحث من خلال بطاقات الفهارس لمكتبة جيدة، أو من خلال تفحص البيبلوغرافيات الجيدة والمنشورة عن الموضوع، ولنفترض أيضاً أنك حصرت بحثك في الأعمال التفسرية فقط في هذا الموضوع بالرغم من الاهتمام الأكيد لدى الأدباء والشعراء بالموضوع، ـ وسوف نشرح (لماذا من المفيد أن نفعل ذلك؟) فيما بعد ـ وأنك الآن بدأت في تفحص الكتب في البيبلوغرافيا التي صنفتها، ماذا ستجد؟

إن القراءة وإن تكن سريعة تكشف عن مدى واسع من المراجع، ونادراً ما يوجد تصرف إنساني واحد لا يقال عنه بطريقة أو بأخرى: هذا حب. وحتى لو اقتصر البحث على العالم الإنساني فقط. وإذا قطعت شوطاً كافياً في قراءتك فإنك سوف تجد أن الحب يشمل كل شيء في هذا الكون، وهذا يعني أن كل شيء يوجد يمكن أن يقول عنه عند شخص ما: هذا حب. أو: محبب. أو كليهما.

يقال عن الحجارة: إنها تحب مركز الأرض. والنيران المتصاعدة يقال عنها: إنها فعل الحب. وجذب المغناطيس للحديد يوصف بأنه تأثير الحب. وقطع الأرض كتب عنها: حب الحياة لوحيدات الخلية والحلزون والنمل، ولن

نقول أكثر عن معظم ما يدعى الحيوانات العليا، التي يقال عنها أنها تحب أسيادها بالإضافة لحبها لبعضها. وعندما نتحدث عن البشر نكتشف أن الكتّاب يتحدثون ويكتبون عن حبهم للرجال والنساء، والمرأة والرجل والأطفال، وعن حبهم لأنفسهم وللبشرية والنقود والفن والألفة العائلية والمبادىء والمهنة والمغامرة والأمان والأفكار وحياة الريف والحب نفسه والفطور. وفي دراسات معينة فإن حركة الأجسام الثقيلة يقال أنها ألهمت من خلال الحب، ومن ناحية أخرى فإن الملائكة والشياطين يفرق بينها بنوعية حبهم.

كيف يمكن أن نعيّن ما هو الموضوع الذي نستقصي عنه عندما نُجابه بهذا المدى الطويل من المراجع. هل نستطيع أن نكون متأكدين أنه موضوع واحد؟ عندما يقول شخص أنه يحب الجبنة، ويقول آخر أنه يحب كرة القدم، ويقلو ثالث أنه يحب البشرية، فهل يستعمل هؤلاء الثلاثة الكلمة في معنى شائع لها؟ وبعد كل ذلك فإن المرء يأكل الجبنة ولكنه لا يأكل كرة القدم ولا البشرية، والمرء يلعب كرة القدم ولا يلعب بالجبنة أو البشرية. ومهما كانت تعني عبارة حب البشرية فإن هذا المعنى لا يبدو أنه ينطبق على الجبنة أو على كرة القدم. وبالرغم من ذلك فإن هؤلاء الثلاثة يستعملون الكلمة نفسها، هل يوجد في الحقيقة سبب لذلك. إن السبب لا يبدو ظاهراً حالاً على السطح. وهل يمكن أن نكون قد حددنا الموضوع نفسه إذا لم نكن قد أجبنا على هذا السؤال الصعب؟

عندما نواجه مثل هذه الحالة المشوشة، فإنه يمكنك أن تحدد استعلامك إلى «الحب البشري» فقط أي الحب بين الكائنات البشرية، من نفس الحب أو بين جنسين مختلفين، من نفس العمر أو بين عمرين مختلفين وهكذا دواليك. وهذا يمكن أن يحكم القواعد الثلاثة التي بحثناها. ولكن يمكنك أن تجد ولو قرأت قسماً صغيراً من الكتب المتاحة عن الموضوع أن هناك مدى واسع من المراجع. ويمكنك أن تجد مثلاً أن الحب كما يقوله كاتب معين يتألف كلياً من رغبة التملك وهي عادة الرغبة الجنسية. أي أن الحب هو اسم للجاذبية

التي تشعر بها كل الحيوانات تجاه أعضاء الجنس الآخر. ولكن يمكن أن تجد كتّاباً آخرين يقولون أن الحب لا يحتوي على رغبة التملك بل يحتوي على النزعة الصافية لعمل الخير. وهل لرغبة التملك والنزعة للخير لديهما شيء مشترك باعتبار أن نزعة التملك تطبق على إرادة الخير لذات الشخص بينما النزعة للخير تعني الخير للشخص الآخر موضوع الحب؟

وعلى الأقل فإن رغبة التملك والنزعة للخير لديهما شيء مشترك وهو الميل، كالرغبة في معناها المجرد، ولكن استقصاءك في أدبيات الموضوع سوف لا يغطي الكتّاب الذي يرون أن جوهر الحب بكونه مدرك أكثر من كونه مُشتهى، يقول هؤلاء الكتّاب: إن الحب عبارة عن عمل فكري وليس عملاً عاطفياً. وبمعنى آخر: إن معرفة أن شخصاً آخر يعجبنا يسبق دائماً رغبتنا به أو بها. وذلك في كلا المعنيين للرغبة، ومثل هؤلاء الكتّاب لا ينكرون أن الرغبة تدخل في الصورة، ولكنهم ينكرون أن الرغبة تدعى حباً.

دعنا نفترض ـ وفي الحقيقة نحن نظن أننا يمكننا أن نفعل ذلك ـ أنك قادر على تحديد المعنى العام لهذه المفاهيم المختلفة عن الحب الإنساني، وحتى في هذه الحالة فإن مشكلتك لم تحل كلياً. انظر إلى الطرق التي يعبر بها الحب عن نفسه بين الكائنات البشرية، هل الحب الذي يحمله الرجل والمرأة لبعضهما عندما يكونان خاطبين يختلف عن الحب عندما يكونان متزوجين؟ وهل هو نفسه عندما يكونان في العشرينات من عمرهما ويصبحا في السبعينات؟ هل الحب الذي تحمله المرأة لزوجها هو نفسه الحب الذي تحمله المرأة لأطفالها؟ هل يتغيّر حب المرأة لأطفالها عندما يكبرون؟ هل حب الأخ لأخته هو نفسه كحبه لأبيه؟ هل حب الطفل لأبويه يتغير عندما يكبر أو تكبر؟ هل حب الرجل للمرأة سواءاً كانت زوجته أم واحدة أخرى هي كالصداقة التي يشعر بها الرجل تجاه رجل آخر؟ وهل يوجد اختلاف في العلاقة مع رجل آخر كالذي يذهب للعب البولينغ معه، أو الذي يعمل معه وبين الرجل الذي يسعد بصحبته الفكرية؟ هل الحقيقة أن الحب والصداقة هما كلمتان مختلفتان تعني

أن المشاعر التي تحملها مختلفة؟ هل يمكن أن يكون رجلان من عمرين مختلفين صديقين؟

وهل يمكنهما أن يكونا صديقين إذا كانا مختلفين في أمور أخرى مثل حيازة الثروة أو درجة الذكاء؟ هل يمكن للنساء أن يكنَّ صديقات؟ هل يمكن للأشقاء والشقيقات أن يكونوا أصدقاء أم الأخ لأخيه، والأخت لأختها؟ هل يمكن أن تحتفظ بصداقة لشخص أقرضته نقوداً أو استندت منه النقود؟ وإذا لم يمكن ذلك فلماذا؟ هل يستطيع الطالب أن يحب أستاذه؟ وهل يوجد فرق في ذلك بين كون الأستاذ ذكراً أم أنثى؟ إذا وجد الشخص الآلي هل يمكن للكائنات البشرية أن تحبه؟ إذا اكتشفنا كائنات ذكية على كوكب المريخ أو على الكواكب الأخرى هل يمكن أن نحبها؟ هل يمكن أن نحب شخصاً لم نقابله أبداً مثل نجوم السينما؟ وإذا كنا نشعر بكره شخص ما، فهل يكون ذلك تعبيراً عن الحب؟

هذه أسئلة قليلة يمكن أن تثار من خلال قراءتك لجزء من الأدبيات التفسيرية النموذجية عن الحب. ويوجد أسئلة عديدة أخرى يمكن أن تثار أيضاً. ونحن نعتقد على كل حال أننا توصلنا للمسألة، فهناك تناقض ظاهري في أي مشروع للقراءات الموجهة لموضوع واحد. على الرغم من تعريف هذا المستوى من القراءة بأنه قراءة كتابين أو أكثر حول نفس الموضوع، والذي يعني أن تحديد الموضوع يحدث قبل أن تبدأ القراءة، وبالعكس فإنه من الصحيح أيضاً أن تحديد الموضوع يجب أن يلي القراءة لا أن يسبقها. ففي حالة موضوع الحب فإنه يمكن أن تقرأ مجموعة كتب تصل إلى مئة كتاب قبل أن تقرر الموضوع الذي كنت تقرأ عنه. وعندما تفعل ذلك يجب أن تخرج بنتيجة أن نصف الكتب التي قرأتها لم تكن ضمن الموضوع إطلاقاً.

وظيفة القراءة التفحصية في القراءات الموجهة لموضوع واحد

لقد ذكرنا أكثر من مرة أن مستويات القراءة هي مستويات تراكمية، بمعنى

أن القراءة على المستوى الأعلى تشمل المستويات التي دونها أو التي تنضوي تحتها، وقد حان الوقت الآن لشرح ما نعنيه بذلك في حالة القراءات الموجهة لموضوع واحد. وسوف نتذكر في شرحنا للعلاقة بين القراءة التفحصية والقراءة التحليلية أننا أشرنا إلى خطوتين في القراءة التفحصية، الأولى هي التصفح، والثانية هي القراءة السطحية، مستبقين الخطوتين الأوليتين في القراءة التحليلية، فالتصفح يساعدك في التحضير للخطوة الأولى من القراءة التحليلية من خلال تحديدك الموضوع الذي تقرأ عنه محدداً نوع الكتاب متبيناً هيكله وتركيبه. أما القراءة السطحية مع أنها مساعدة في الخطوة الأولى من القراءة التحليلية، فهي موضوعة أساساً من أجل الخطوة الثانية من هذه القراءة حيث المطلوب تفسير محتويات الكتاب والاتفاق على التعابير مع الكاتب متبيناً افتراضاته ومتبعاً مناقشاته.

وبشكل مماثل إلى حد ما، فإن كلاً من القراءة التفحصية والقراءة التحليلية يمكن أن تعتبر تحضيراً للقراءات الموجهة لموضوع واحد. وفي الحقيقة تقع القراءة التفحصية كأداة رئيسية في يد القارىء.

دعنا نفترض مرة أخرى أن لديك بيبلوغرافيا لمائة عنوان أو نحو ذلك، يمكن أن تظهر أنها تبحث في موضوع الحب، فإذا قرأت كل هذه الكتب قراءة تحليلية فإنك سوف تنتهي إلى فكرة واضحة عن الموضوع الذي تبحث فيه موضوع مشروع القراءات الموجهة، لكنك أيضاً سوف تعرف أياً من الكتب التي قرأتها لا تبحث في الموضوع الذي تهتم فيه وهي غير ملائمة لاحتياجاتك، لكن قراءة مائة كتاب قراءة تحليلية سوف يأخذ منك عشر سنوات، وإذا كنت قادراً على تكريس وقتك كله لهذا المشروع فإن ذلك سوف يأخذ من وقتك عدة أشهر. لذا فإنه من الضروري أن يتخذ القارىء طريقاً أقصر في وجه التناقض الظاهري الذي ذكرناه والذي يعني بالقراءات الموجهة لموضوع واحد.

إن الطريق المختصر يقدم من خلال القراءة التفحصية، فالشيء الأول الذي عليك أن تفعله عندما ترى القائمة البيبلوغرافية هو أن تتفحص كل الكتب

في قائمتك، ويجب عليك ألا تقرأ قراءة تحليلية قبل أن تتفحصهم جميعهم. إن هذه القراءة التفحصية لن تعرفّك فقط على كل التعقيدات في موضوعك وعلى كل الرؤى التي يستطيع أن يقدمها كتابك، بل إنها سوف تقدم أيضاً وظيفتين رئيسيتين:

أولاً: إنها سوف تعطيك فكرة واضحة وكافية لموضوعك بحيث تجعل قراءتك التحليلية التالية لبعض الكتب في قائمتك قراءة منتجة.

ثانياً: إنها سوف تختصر القائمة الببيلوغرافية التي وضعتها إلى حجم طيّع معقول. ونحن لا نستطيع أن نفكر في إعطاء أي نصيحة أكثر فائدة للطلاب وعلى الأخص الطلاب الخريجون وطلاب الأبحاث، أكثر من هذه النصيحة إذا كانوا سيلتفتون إليها، ومن خلال تجربتنا فإن عدداً معيناً من الطلاب في المراحل المتقدمة من دراستهم لديهم القدرة على القراءة الفعالة والتحليلية، لكنهم يعرفون على الأقل كيف يحصلون على زبدة أي كتاب ليعطوا رأيهم عنه بشكل سليم ومبرر، وليلقوا عليه الضوء، أو يجعلوه ضمن موضوعهم، لكن جهدهم مبدد بشكل كبير لأنهم لا يفهمون كيف يقرؤون بعض الكتب أسرع من بعضها الآخر؛ فهم ينفقون نفس القدر من الوقت والجهد على كل كتاب أو مقالة يقرؤونها. وبالنتيجة فإنهم لا يقرؤون تلك الكتب التي تستحق قراءة جيدة كما ينبغي، وإنهم يضيعون وقتهم على أعمال تستحق انتباهاً أقل.

إن القارىء التفحصي الماهر يفعل شيئاً أكثر من تصنيف الكتاب في الفهرس الذهني الذي يصنعه وينجز أكثر من المعرفة السطحية لمحتواه، إنه يكتشف أيضاً وفي وقت قصير جداً يستغرقه في التفحص، إذا كان الكتاب يقول شيئاً مهماً عن الموضوع أو لا يقول، ويمكن ألا يكتشف القارىء هذا الشيء بشكل دقيق، فمن المحتمل أن ينتظر هذا الاكتشاف قراءة ثانية، لكن القارىء يكون قد عرف واحداً من شيئين: إما أن يرجع للكتاب ليستضيء من خلاله أكثر، أو أن الكتاب لا يعطي مثل هذه الإضاءة وبالتالي فليس من الضروري قراءته مرة ثانية وبغض النظر عن مدى كونه ممتعاً أو مدى معلوماته.

هناك سبب لعدم الالتفات إلى هذه النصيحة في أغلب الأحيان؛ ففي حالة القراءة التحليلية قلنا: إن القارىء الماهر يؤدي خطوات متزامنة يجب على المبتدئين أن يعاملوها كخطوات منفصلة، وبالمقابل يظهر أن هذا نوع من التحضيرات للقراءة الموجهة لموضوع واحد، أي تفحص كل الكتب في قائمتك قبل أن تبدأ القراءة التحليلية لأي منهم، وهذا يمكن أن يؤدى بشكل متزامن مع القراءة التحليلية، ولكننا لا نعتقد أن هذا يمكن أن يؤدى من قبل أي قارىء، بغض النظر عن مستوى مهارته، وهذه في الحقيقة الخطيئة التي يرتكبها الباحثون المبتدئون معتقدين أنهم يستطيعون أن يدمجوا هاتين الخطوتين في خطوة واحدة، وينتج عن ذلك أنهم يقرأون كل شيء بنفس المعدل، والذي يكون على الأغلب إما سريعاً جداً أو بطيئاً جداً لكتاب معين، وهذا على كل حال خطأ بالنسبة لأغلبية الكتب التي يقرؤونها. وعندما تحدد الكتب الملائمة لموضوع من خلال القراءة التفحصية يمكنك أن تبدأ بقراءتهم قراءة موجهة لموضوع واحد، لاحظ أننا في الجملة الأخيرة لم نقل تقرأها قراءة تحليلية كما يمكن أن تتوقع، بمعنى أنك يجب بالطبع أن تقرأ كل كتاب بمفرده والذي يشكل مع الكتب الأخرى أدبيات موضوعك وذلك من خلال المهارات التي اكتسبتها بتطبيق قواعد القراءة التحليلية، لكن يجب إلا يُنسى أن فن القراءة التحليلية لا يطبق على قراءة كتابة بمفرده، حيث يكون فهم هذا الكتاب هو الهدف الماثل في الذهن وكما سنرى فإن الهدف في القراءات الموجهة مختلف تماماً.

الخطوات الخمسة في القراءات الموجهة لموضوع واحد

نحن الآن مهيؤون لشرح كيفية القراءة الموجهة لموضوع واحد، وسوف نفترض أنه من خلال تفحص عدد من الكتب قد تكوِّن لديك فكرة جيدة عن الموضوع الذي تشمله على الأقل بعض من هذه الكتب، بل أكثر من ذلك أن ذلك الموضوع هو الذي تريد أن تستقصي عنه، ماذا ستفعل عندئذٍ؟

يوجد خمس خطوات للقراءة الموجهة لموضوع واحد، ولن ندعي أن

هذه الخطوات قواعد مع أننا نستطيع ذلك، وقد لا نأخذ أياً من هذه الخطوات، لأن القراءة الموجهة لموضع واحد تصبح أكثر صعوبة بل ربما مستحيلة، وسوف نبحث هذه الخطوات بالترتيب الذي تحدث من خلاله.

الخطوة الأولى في القراءات الموجهة لموضوع واحد: أوجد المقاطع الوثيقة الصلة بالموضوع حيث أننا بالطبع نفترض أنك تستطيع أن تقرأ قراءة تحليلية، فنحن نفترض أنك تستطيع أن تقرأ كلاً من الكتب الوثيقة الصلة بالموضوع من أولها إلى آخرها إن كنت تريد ذلك، ولكن هذا معناه أن تضع كل الكتب بمفردها أولاً حسب ترتيب احتياجاتك، وتأتي مشكلتك التي تحاول أن تحلها في الترتيب الثاني، وفي الحقيقة فإن الموضوع معكوس، ففي القراءة الموجهة لموضوع واحد، فإنك أنت واهتماماتك هي التي يجب أن تخدم أساساً وليست الكتب التي تقرؤها. وهكذا فإن الخطوة الأولى في هذا المستوى هي أن تقرأ قراءة تفحصية ثانية الكتب التي تحددها بأنها ذات صلة بموضوعك وهدفك في ذلك أن تجد الرابط الوثيق الصلة بالموضوع والأكثر ملائمة لاحتياجاتك، ومن غير المرجح أن يكون كل كتاب بمجمله من هذه الكتب ينطبق تماماً على الموضوع الذي اخترته أو الموضوع الذي يشغلك، وحتى إذا كانت الحالة كذلك، وهي حالة نادرة، فإنك يجب أن تقرأ الكتاب بسرعة. لأنك لا تريد أن تفقد رؤية الحقائق التي تقرؤها من أجل هدف خفي هو تحديداً: الأضواء التي تلقيها على مشكلتك وليس من أجل الكتاب بحد ذاته.

يبدو أن هذه الخطوة يمكن أن تنجز من خلال تفحص الكتاب الذي ذكر سابقاً حيث الهدف اكتشاف ما إذا كان الكتاب ملائماً لاهتماماتك، وفي حالات عديدة يكون هذا هو الوضع، ولكن من غير الحكمة اعتبار هذا الأمر ممكناً. وتذكّر أن أحد الأهداف في تفحص الكتاب للمرة الأولى هو تحديد موضوع مشروع قراءتك الموجهة لموضوع واحد. وقد قلنا أن الفهم المناسب للمشكلة لا يكون متاحاً دائماً حتى تتفحص كتباً عديدة في قائمتك الأصلية. ولذا فإن

محاولة تحديد الخط الملائم في الوقت نفسه الذي تحدد به الكتب الملائمة هو غالباً خطر، وحتى لو كنت ماهراً جداً أو متفهماً بشكل تام لموضوعك فإنه من الأفضل أن تعالج هاتين الخطوتين بشكل منفصل.

والمهم هنا التمييز بين الكتب الأولى التي قرأتها من خلال القراءات الموجهة لموضوع واحد، وبين الكتب التي عدت إليها بعد أن تكون قد قرأت كتباً أخرى عن الموضوع. وفي حالة الكتب التي عدت إليها فإنه على الأغلب يكون قد تولد لديك فكرة واضحة عن مشكلتك وفي هذه الحالة فإن هاتين الخطوتين يمكن أن تدمجا، ولكن في البدء يجب أن تكونا منفصلتين بشكل أكيد، وإلا فإنك على الأرجح سوف تقترف أخطاء أكيدة في تحديد الخطوات ذات الصلة بالموضوع، هذه الأخطاء سوف تقوى فيما بعد مع نتائجها في إضاعة الوقت والجهد.

وفوق كل شيء تذكر أن هدفك هو ليس إنجاز الفهم الكلي لكتاب معين بل في أن تجده مفيداً لك مع الأخذ بعين الاعتبار أنه يمكن أن تكون هذه الفائدة بعيدة جداً عن هدف الكاتب في كتابه، فالكاتب يمكن أن يساعدك في حل مشكلتك الخاصة دون أن يكون في نيته ذلك، وفي القراءة الموجهة لموضوع واحد، كما ذكرنا سابقاً، فإن الكتب التي قرأتها تخدمك وليس العكس، بمعنى أن القراءات الموجهة لموضوع واحد هي أكثر القراءات فعالية يمكنك أن تقوم بها، والقراءة التحليلية هي فعالة طبعاً ولكنك عندما تقرأ الكتاب قراءة تحليلية فإنك تضع نفسك في موضع التابع أو المريد للسيد أو الكاتب بينما في حالة القراءات الموجهة لموضوع واحد يجب أن تكون سيّد هذه الحالة. ولأن الحال هو كذلك فإنك يجب أن تقوم بمهمة الاتفاق على التعابير مع كتّابك بطريقة مختلفة عن ذي قبل.

الخطوة الثانية في القراءات المتزامنة الموجهة لموضوع واحد: وضع جميع الكتّاب ضمن مفاهيم وتعابير موحدة. في القراءة التفسيرية أي المرحلة الثانية من القراءة التحليلية تكون القاعدة الأولى المطلوبة منك أن تتفق مع

عبارات الكاتب ومفاهيمه، التي تعني تحديد كلماته الأساسية واكتشاف كيفية استعمالها. ولكننا الآن مواجهين بعدد من الكتّاب المختلفين ومن غير المحتمل أن يكونوا جميعهم قد استعملوا الكلمات نفسها أو حتى التعابير نفسها. وهكذا فإنك أنت الذي سينشىء هذه التعابير ويوجه كتابك إليها وليس العكس.

وهذه على الأغلب أصعب خطوة في القراءات المتزامنة الموجهة لموضوع واحد. وهذا في الحقيقة هو أن تجبر الكاتب على استعمال لغتك وليس أن تستعمل أنت لغته، وكل عادات قراءاتنا العادية تختلف عن ذلك. وكما أشرنا إلى ذلك مرات عديدة، فإننا نفترض أن الكاتب الذي نود القراءة له قراءة تحليلية هو كاتبنا الأفضل، وهذا شيء صحيح خصوصاً إذا كان الكتاب عظيماً، ومنحانا في ذلك أن نقبل تعابير الكاتب وطريقة تنظيمه لموضوعه، بغض النظر عن مدى فعاليتنا في محاولة فهمه. إننا سنضيع بسرعة في القراءات الموجهة لموضوع واحد إذا تبنينا تعابير أي من الكتّاب المدرجين بقائمتنا. لأننا في هذه الحالة يمكن أن نفهم تعابير كاتب واحد، ولكننا سوف نفشل في فهم تعابير الآخرين؛ وسوف نجد أننا لم نلق أضواء كثيرة على الموضوع الذي نهتم فيه. وليس علينا فقط أن نرفض قبول تعابير أي كاتب ولكن علينا أيضاً أن نكون راغبين في مواجهة احتمال أنه لا يوجد تعابير لأي كاتب يمكن أن تكون ذات فائدة لنا. وبكلمات أخرى، يجب أن نقبل الحقيقة في أن أي مصادفة في التعبير بيننا وبين أي من الكتّاب في قائمتنا وجدت بشكل مفاجىء. وغالباً ما تكون مثل هذه المصادفة غير ملائمة؛ لأننا إذا استعملنا تعبيراً أو مجموعة من التعابير لكاتب ما، فإننا ننحو لنستعمل تعابير الكتّاب الآخرين معه وهذا يمكن أن يعترض.

وباختصار فإن القراءات الموجهة لموضوع واحد هي إلى مدى واسع عملية تمرين على الترجمة. فنحن من غير المتوجب علينا أن نترجم من لغة طبيعية لأخرى كأن نترجم من الفرنسية إلى الانكليزية. ولكن علينا أن نفرض تعابير مشتركة لعدد من الكتّاب الذين ليسوا معنيين تحديداً بالمشكلة التي نحاول أن نحلها وذلك مهما كانت اللغة الطبيعية التي يشتركون بها بشكل عام

وبالتالي ليس لديهم التعابير النموذجية للخوض في مشكلتنا.

وهذا يعني أننا يجب أن نتقدم في مشروعنا للقراءات الموجهة لموضوع واحد في البدء في بناء مجموعة من التعابير التي تساعدنا أولاً على فهم كل كتّابنا وليس واحداً أو مجموعة منهم، وثانياً تساعدنا في حل مشكلتنا، وهذا ما يؤدي بنا إلى الخطوة الثالثة.

الخطوة الثالثة في القراءات الموجهة لموضوع واحد: وضوح الأسئلة. إن القاعدة الثانية من القراءة التفسيرية تتطلب منّا أن نجد الجمل الرئيسية للكاتب والأسئلة الموجهة له، ومن خلال هذه الأسئلة ننمي الفهم لافتراضاته. إن الافتراضات توضع من خلال عبارات. وبالطبع فإننا يجب أن نقوم بعمل مشابه في القراءات الموجهة لموضوع واحد. ولكن باعتبارنا نحن أنفسنا نضع تعابيرنا فإننا في هذه الحالة نواجه بمهمة إنشاء مجموعة من الافتراضات المحددة. وأفضل طريقة للقيام بهذا العمل أن نضع مجموعة من الأسئلة تلقي الضوء على المشكلة ويعطي كل واحد من كتّابنا أجوبة عليها.

وهذا أيضاً عمل صعب فالأسئلة يجب أن توضع بطريقة وتسلسل يساعدنا على حل المشكلة التي نتصدى لها، ولكن يجب أن توضع الأسئلة أيضاً بطريقة يمكن أن نفسر بها أن كل أو معظم كتّابنا يعطون الإجابة عليها. إن الصعوبة في الأسئلة التي نرغب في الإجابة عليها يمكن ألا تُرى كأسئلة لدى كتّابنا. ووجهة نظرهم عن الموضوع قد تكون مختلفة تماماً عن وجهة نظرنا.

وفي الحقيقة إننا في بعض الأحيان يجب أن نقبل الحقيقة في أن كاتباً معيناً لا يعطي إجابة على سؤال أو أكثر من أسئلتنا وفي هذه الحالة يجب أن نسجل للكاتب أنه صامت أو غير محدد في معرض إجابته على السؤال.

ولكن حتى لو أنه يبحث في السؤال بشكل صريح فإننا نجد في بعض الأحيان جواباً ضمنياً لسؤالنا في كتابه. إن الكاتب إذا درس السؤال فيمكننا أن نستنتج أنه أجاب على الأسئلة بهذه الطريقة أو تلك. والتقييد ضروري هنا،

فنحن لا نستطيع أن نضع أفكاراً في عقول كتّابنا ولا كلمات في أفواههم. ولكننا أيضاً لا نستطيع أن نعتمد كلياً على عباراتهم الصريحة حول المشكلة. فإننا إذا اعتمدنا على أي منهم بهذه الطريقة فإننا على الأغلب لن يكون لدينا مشكلة نحلها.

لقد قلنا: إن الأسئلة يجب أن توضع في تسلسل يساعدنا في تقصينا. وهذا التسلسل يعتمد على الموضوع بالطبع، ولكن بعض الخطوط العريضة يمكن أن تقترح في هذا السياق. إن السؤال الأول عادة يجب أن يبحث في وجود الظاهرة أو الفكرة أو صفتهما التي نستقصي عنها، فإذا كان الكاتب يقول بأن الظاهرة موجودة أو أن الفكرة لها صفة معينة فإننا عندها نستطيع أن نطرح أسئلة أخرى عن الكتاب. وهذه الأسئلة يجب أن تبحث في كيف عُرِّفت الظاهرة أو كيف تُعرِب الفكرة عن نفسها. والمجموعة الأخيرة من الأسئلة يجب أن تبحث في نتائج الإجابات للأسئلة السابقة.

يجب أن لا نتوقع أن يجيب كل كتّابنا على كل أسئلتنا بنفس الطريقة، وإذا فعلوا ذلك فإننا مرة ثانية لن يكون لدينا مشكلة لنحلّها لأنها تكون قد حُلت من خلال اتفاق آراء الكتّاب، وحيث أن الكتّاب سوف يختلفون فإننا نواجه اتخاذ الخطوة الثانية في القراءات الموجهة لموضوع واحد.

الخطوة الرابعة في القراءات الموجهة لموضوع واحد: تحديد المسألة. إذا كان السؤال واضحاً وإذا كنا متأكدين أن الكتّاب أجابوا عليه بطرق مختلفة ـ إما مع أو ضد ـ فإنها عند هذا الحد تكون المسألة قد تحددت. إنها المسألة التي هي بين الكتّاب الذين أجابوا على السؤال بطريقة واحدة، وبين الكتّاب الذين أجابوا عليه بطريقة معارضة.

وعندما يكون هناك إجابتين من قبل كل الكتّاب الذين تفحصناهم، فإن المسألة تكون بسيطة نسبياً، وغالباً ما يوجد أكثر من إجابتين بديلتين للسؤال، وفي هذه الحالة فإن الإجابة المعارضة يجب أن تُسلسل من خلال علاقتها ببعضها البعض كما أن الكتّاب الذين اختاروها يجب أن يصنفوا وفقاً لوجهات

نظرهم، إن المسألة تكون مندمجة تماماً عندما نجد أن كاتبين يفهمان السؤال بالطريقة نفسها ويجيبان عليه بشكل مناقض، ولكن هذا لا يحدث كما يرغب المرء. إن اختلاف الأجابات عادة يجب أن تنسب إلى مفاهيم مختلفة للسؤال وغالباً إلى اختلاف وجهات النظر للموضوع. إن هدف قارىء القراءات الموجهة هو في تحديد المسألة بطريقة يتأكد منها الكتّاب حال كونهم مجتمعين. وإن هذا يجعل القارىء في بعض الأحيان يضع السؤال بطريقة ليست مستخدمة بصراحة من قبل أي كاتب.

يمكن أن يكون هناك مسائل عديدة تتضمنها المشكلة التي نعالجها ولكن على الأرجح تقع هذه المسائل ضمن مجموعات. إن أسئلة عن ميزة فكرة موضع دراسة مثلاً يمكن أن تنشىء عدداً من المسائل المرتبطة مع بعضها البعض. إن عدداً من المسائل تدور حول مجموعة مرتبطة من الأسئلة يمكن أن تنص على الجدل القائم حول معالم الموضوع، ومثل هذا الجدل يمكن أن يكون معقداً جداً ومهمة قارىء القراءات الموجهة لموضوع واحد أن يصنفها بشكل متسلسل واضح حتى ولو لم يقم أي كاتب بهذا العمل. هذا التصنيف والترتيب للمجادلات بالإضافة إلى تشكيل المسائل يقودنا إلى الخطوة الأخيرة من القراءات الموجهة لموضوع واحد.

الخطوة الخامسة في القراءات الموجهة لموضوع واحد: تحليل المناقشات. لقد وجدنا حتى الآن الخط ذا الصلة بالموضوع في الأعمال التي تفحصناها وأوجدنا التعابير الموضوعية التي تنطبق على الكتّاب الذين قرأنا لهم أو معظمهم وحددنا ونظمنا مجموعة من الأسئلة التي من خلالها استطعنا تفسير الإجابات على ضوئها. وحددنا المسائل التي نتجت من اختلاف الإجابات للأسئلة المطروحة ورتبناها. ماذا بقي لنا أن نفعل؟

إن الخطوات الأربعة الأولى تتماشى مع المجموعتين من قواعد القراءة التحليلية، هذه القواعد عندما تطبق على أي كتاب تسمح لنا بالإجابة على الأسئلة، ماذا تقول هذه الإجابات؟ وكيف تقول ذلك؟ في مشروع القراءات

الموجهة لموضوع واحد نكون قادرين حتى هذا الحد على الإجابة على نفس الأسئلة عن المناقشات التي تتعلق بمشكلتنا. في حالة القراءة التحليلية لكتاب واحد فإنه يوجد سؤالين يجب الإجابة عليهما، وهما تحديداً: هل هذا صحيح؟ وماذا نستنتج من الكتاب؟ أما في حالة القراءات الموجهة لموضوع واحد فإننا الآن مستعدون لتوجيه أنفسنا لأسئلة مشابهة عن المناقشات.

دعنا نفترض أن المشكلة التي بدأنا بها لم تكن مشكلة سهلة، ولكنها بالأحرى من هذه المشاكل الخالدة التي عالجها المفكرون لقرون عديدة والتي اختلف الرجال الأخيار فيها واستمروا بالاختلاف. إننا يجب أن نميّز في هذا الافتراض أن هدفنا كقرّاء تحليليين ليس فقط الإجابة على الأسئلة بأنفسنا ـ هذه الأسئلة التي حددناها ورتبناها بعناية فائقة من أجل شرح كل من المشكلة والمناقشات التي أثيرت حولها. إن الحقيقة عن مشكلة من هذا النوع ليس من السهل إيجادها. وفي الحقيقة علينا أن نجرؤ ونتوقع أن الحقيقة يمكن أن توجد في أي مجموعة من الأجوبة لأسئلتنا، وأن الحقيقة يمكن أن توجد ـ إذا وجدت ـ في تصارع الإجابات المتعارضة التي بها العديد إن لم نقل كل الإثباتات المقنعة والأسباب المعللة لدعمها.

إن الحقيقة عند هذا الحد كما يمكن أن توجد ـ حل المشكلة متاح لنا حتى الآن ـ وتتألف من ترتيب المناقشات نفسها أكثر من أنها تتكون من مجموعة من الافتراضات والتأكيدات عنها. وهكذا فمن أجل عرض هذه الحقيقة لعقولنا ولعقول الآخرين يجب علينا أن نفعل أكثر من السؤال والإجابة فقط، يجب علينا أن نسألها في ترتيب معين وأن نكون قادرين عن الدفاع عن هذا الترتيب. يجب علينا أن نظهر كيف نجيب إجابات مختلفة على الأسئلة وأن نحاول أن نقول: لماذا هذه الإجابات؟ كما يجب علينا أن نكون قادرين على أن نشير إلى النصوص في الكتب التي تفحصناها والتي تدعم تصنيفنا للإجابات، إننا فقط عندما نفعل كل ذلك نستطيع أن نقول: إننا حلّلنا مناقشات مشكلتنا، وعندها فقط نستطيع أن نقول: إننا تفهمناها.

وفي الحقيقة يمكننا أن نفعل أكثر من ذلك، إن تحليلاً شاملاً لمناقشات المشكلة يمكن أن يقدم أرضية لعمل منتج آخر للمشكلة من قِبَل الآخرين، إنها يمكن أن توضح كل ما لا خير فيه وتهيء الطريق للمفكرين الجادين للتصدي له. والذي لم يكن ممكناً وملحوظاً بدون العمل التحليلي نتيجة لاتساع المشكلة.

الحاجة الموضوعية

إن التحليل الملائم لمناقشة مشكلة ما أو لموضوع يحدد ويقرر المسائل الرئيسية أو المعارضات الفكرية الرئيسية في تلك المناقشة. وهذا لا يعني أن عدم الاتفاق هو صفة كل مناقشة بل بالعكس فإن الاتفاق في معظم الحالات يقترن بحالات من عدم الاتفاق، وهذا يعني، أنه في معظم المسائل، أن الآراء ووجهات النظر التي تعرض الجوانب المتعارضة للمتجادلين تشترك بين عدة كتّاب وغالباً ما تعترض العديد منهم، ومن النادر أن نجد مؤيداً وحيداً للنقاط المثيرة للخلاف.

إن اتفاق البشر حول طبيعة الأشياء في أي حقل من الحقول ينشىء تسليماً لحقيقة الآراء التي يحملونها بشكل عام. لكن اختلاف الآراء بينهم ينشىء مسلمات متناقشة بمعنى أنه ليس أي من الآراء في الجدال سواء كانت مشتركة أم لا يمكن أن تكون صحيحة تماماً. إن المرء يمكن أن يكون على صواب بين الآراء المتعارضة والآخرين على خطأ، ولكن من الممكن أيضاً أن كل فرد يعبر عن بعض أقسام الحقيقة الكلية وباستثناء التناقض الصريح المنفرد (الذي هو نادر جداً في أي نقاش من نوع المشاكل التي نبحثها هنا) فإنه من الممكن أن تكون كل الآراء المتصارعة على خطأ تماماً كأن يمكن أن يكون ذلك الرأي المنفرد على خطأ في حين تكون كل الآراء الأخرى متفقة. إن بعض الآراء التي لم نتناولها يمكن أن تكون حقيقية أو قريبة منها.

هذه طريقة أخرى للقول أن هدف مشروع القراءات الموجهة لموضوع

واحد هو ليس الإجابة النهائية على الأسئلة التي ظهرت أثناء هذه القراءات، أو الحل النهائي للمشكلة التي بدأ بها مشروع القراءات هذا. إن ذلك صحيح بشكل خاص في التقرير الذي نحاول كتابته عن مثل هذه القراءات. إنه يمكن أن يكون جازماً وليس جدلياً إذا كان أي من المسائل الهامة التي تحددت وحُلِّلت والتي تأكدت أو حاولنا إثبات صحة أو خطأ أي وجهة نظر.

إذا حدث ذلك فإن التحليلات الموجهة تكف عن كونها موجهة، إنها يمكن أن تصبح ببساطة رأي آخر في المناقشات لأنها تفقد بذلك صفتها الاستقلالية والموضوعية. إن الموضوع ليس بكونه صوتاً آخر لا يحمل قيمة في حلبة مناقشات المسائل الهامة، بل بكونه نموذجاً مختلفاً بالمساهمة في مواصلة الفهم يمكن القيام به بل يجب ذلك. وهذه المساهمة تتألف من كونها أكيدة الموضوعية وغير متأثرة بالآراء الأخرى. إن النوعية الخاصة لتحليل القراءات الموجهة يحاول أن ينجز باختصار العبارة في كلمتين: الموضوعية الجدلية.

إن قارىء القراءات الموجهة لموضوع واحد وباختصار ينظر إلى كل جوانب المشكلة ولا يلتزم بأي جانب. وطبعاً سوف يفشل في إنجاز هذا الشيء المثالي فالموضوعية المطلقة غير ممكنة. ويمكن للقارىء أن ينجح في عدم التزام أي جانب ويعرض المسائل بدون تحيز لأي من الموالين لوجهات النظر المختلفة ويعامل الآراء المتعارضة بتجرد، ولكن من الأسهل أن لا تأخذ أي جانب من أن تنظر إلى كل الجوانب، وباعتبار هذه الفكرة الأخيرة فإن قارىء القراءات الموجهة لموضوع واحد سوف يفشل في ذلك بدون شك. فكل الجوانب الممكنة لأي مسألة لا يمكن تعدادها بشكل كامل، إن عدم الالتزام بأي جانب أسهل من النظر إلى كل الجوانب كما قلنا سابقاً، ولكنه بقي صعباً رغم كل ذلك. إن قارىء القراءات الموجهة يجب أن يقاوم إغراءات معينة وأن يتبين رأيه الذاتي. إن الموضوعية الجدلية لا تُضمن من خلال الأحكام الصريحة للحقيقة الكامنة في الآراء المتصارعة، فالتحيز يمكن أن

يتدخل من خلال طرق دقيقة ومتعددة من خلال الطريقة التي تلخص من خلالها المناقشات، ومن خلال التركيز على بعض النقاط وإهمال الأخرى، ومن خلال لهجة السؤال وألوان الملاحظات الواردة، ومن خلال التسلسل الذي تعرض من خلاله الأجوبة المختلفة للأسئلة الرئيسية.

ومن أجل تجنب هذه المخاطر فإن القارىء للقراءات الموجهة لموضوع واحد يمكن أن يلجأ إلى واحدة من الأدوات الواضحة ويستعملها إلى أبعد مدى يستطيعه. وذلك بأن يشير باستمرار إلى النصوص الفعلية لكتّابه وقراءة الخطوط الملائمة المرة تلو الأخرى. وبعرض نتائج عمله على جمهور أوسع، ويجب عليه أن يستشهد بآراء ومناقشات الكاتب بلغة الكاتب وتعابيره نفسها ومع أنه يظهر أنه يفعل ذلك، وأن هذا لا يتعارض مع ما قلناه سابقاً عن ضرورة إيجاد تعابير محايدة من قبل القارىء يحلل المشكلة من خلالها. فإن هذه الضرورة تبقى. وعندما تعرض ملخصات مناقشة الكاتب فإنها يجب أن تعرض بتلك اللغة المحايدة وليس بلغة الكاتب، ولكن يجب أن يستشهد بكلمات الكاتب نفسها وبعناية كي لا تحرَّف من سياقها، ويجب أن تقترن بالملخص لكي يحكم القارىء بنفسه ما إذا كان تفسير كلام الكاتب صحيحاً.

إن الانتباه الصارم لقارىء القراءات الموجهة لموضوع واحد بتجنب الأخطار الذي ذكرناها سابقاً هي فقط ما يمكن الاعتماد عليه لتجنب أنواع الابتعاد الأخرى عن الموضوعية الجدلية. تلك هي المتطلبات المثالية والجهد المتأني لموازنة السؤال ضد السؤال لتبين أي تعليق يمكن أن يكون مجحفاً، وللتدقيق في أي منحى نحو المغالاة في التأكيد أو الانتقاص منه.

وفي التحليل الأخير مع أن القارىء هو الحكم في مدى تأثير التقرير المكتوب للعرض الجدلي، فإن كاتب التقرير فقط ـ أي قارىء القراءات الموجهة لموضوع واحد ـ يستطيع أن يعرف ما إذا كان قد استوفى هذه المتطلبات.

مثال على تمرين في القراءات الموجهة لموضوع واحد: فكرة التقدم

إن مثالاً يمكن أن يساعد في شرح القراءات الموجهة لموضوع واحد. دعنا ندرس الفكرة عن التقدم ولا نريد أن نأخذ هذا الموضوع بشكل عشوائي[1] وقد قمنا ببحوث مكثفة عليه وقد يكون المثال غير ذي نفع لك.

إن التقصي عن هذه الفكرة التاريخية والفلسفية الهامة قد شغلنا لعدة سنوات، وقد كان الهدف إنتاج قائمة للأعمال المتوجب تفحصها لإيجاد القاسم المشترك والمقاطع ذات الصلة بالموضوع بجمع البيبلوغرافيا عن الموضوع (وقد كان نتاج ذلك جمع أكثر من 450 مادة في هذا الموضوع) وقد أنجز الهدف من خلال سلسلة من القراءات التفحصية للعديد من الكتب والمقالات ومن خلال قراءات عديدة، ومن المهم أن نشير هنا، أنه في حالة «الفكرة عن التقدم» فإن العديد من المواد صُنِّفت على أنها وثيقة الصلة بالموضوع، كما هي الحالة في معظم الأفكار الهامة الأخرى. وقد وجد أن العديد من المواد التي قررنا أخيراً أنها ملائمة للموضوع قد وجدناها بدرجة أكبر أو أقل بطريق الصدفة، أو من خلال التخمينات الحدسية. لقد كان يوجد أماكن واضحة للبداية والعديد من الكتب الحالية تحتوي على كلمة تقدم في عناوينها، لكن الكتب الأخرى لا تحتوي هذه الكلمة، ومعظم الكتب القديمة كانت وثيقة الصلة بالموضوع إلا أنها تنص على كلمة «تقدم» حرفياً.

لقد تمت قراءة بعض الأعمال الأدبية والشعرية، ولكن تم القرار بالتركيز على الأعمال الشرحية التفسيرية، وقد لاحظنا على كل حال أننا بتضمين الروايات والمسرحيات والقصائد الشعرية في مشروع القراءات الموجهة لموضوع واحد هو صعب وذلك لأسباب عديدة.

---

(1) إن نتائج هذه الأبحاث قد نشرت بعنوان «فكرة عن التقدم» في نيويورك: برايجر، 1967. وقد تم هذا العمل برعاية معهد البحوث الفلسفية الذي كان كاتبا هذا الكتاب مديره ومساعد المدير على التوالي.

فقبل كل شيء إن العمود الفقري أو جوهر الرواية يكمن في حبكتها وليس في عرضها للمسألة. وثانياً حتى في أكثر الشخصيات تحدثاً في القصة فإنها نادراً ما تأخذ مواقف واضحة من المسألة ـ إنهم ينحون للتحدث في القصة عن موضوعات أخرى وهي بمعظمها عن العلاقات العاطفية. وثالثاً فحتى لو لم تقم الشخصية بمثل هذا الحديث ـ وكمثال لذلك ما فعله ستمبريني Settembrini في قصة توماس مان «الجبل السحري» ـ فإننا لا نستطيع أبداً أن نكون متأكدين أن هذا هو عرض لوجهة نظر الكاتب. ولكن هل كان الكاتب يسخر عندما سمح لشخصية قصته في بحث الموضوع؟ هل كان في نية الكاتب أن يريك بلاهة الموقف بدلاً من حكمته؟ وبشكل عام فإن جهداً مكثفاً يتطلب في تركيب التفاسير قبل أن يوضح العمل الأدبي مع هذا الجانب أو ذاك من المسألة. لقد كان الجهد كبيراً جداً، والنتائج مشكوك بها أساساً، لذا كان من الحكمة استبعادها.

إن مناقشة التقدم في العديد من الأعمال التي بقيت من أجل تفحصها كانت، كما هي الحالة عادة، مشوشة ظاهرياً. وبمواجهة هذه الحقيقة، فإن الهدف كما أشرنا إليه هو تطوير تعابير محايدة. وهذا كان عملاً معقداً ولكن مثالاً واحداً يمكن أن يساعد في شرح ما تم عمله.

إن كلمة «التقدم» ذاتها قد استعملت من قبل الكتّاب بطرق مختلفة. ومعظم هذه الطرق لا تعكس أكثر من ظلال على المعنى، ويمكنها أن تعالج في التحليل. لكن الكلمة قد استعملت من قبل بعض الكتّاب لتشير إلى نوع معين من الحركة نحو الأمام في التاريخ الذي هو ليس تحسناً. وحيث أن معظم الكتّاب قد استعملوا الكلمة للإشارة إلى التغيرات التاريخية في الشروط الإنسانية والتي هي من أجل الأحسن، وحيث أن التحسن هو جوهر المفهوم فإن الكلمة نفسها يمكن أن تطبق في كلا المنظورين.

وفي هذه الحالة فإن الأغلبية قد حظيت بالمفهوم وزمرة الأقلية يجب أن يشار إليها لكتّاب يؤكدون «تقدم دون تحسن» في التاريخ. والفكرة في ذلك

عندما نناقش وجهات النظر لزمرة الأقلية فإننا لا نستطيع استخدام كلمة «تقدم» حتى لو كان الكتّاب المعنيون قد استخدموها بأنفسهم.

إن الخطوة الثالثة من القراءات الموجهة لموضوع واحد هي كما أشرنا سابقاً وضع الأسئلة بوضوح. وحدسنا عن السؤال الأساسي في حالة التقدم قد توجه ليكون صحيحاً من خلال التفحص. إن السؤال الذي يجب أن يسأل، السؤال الذي فُسِّر من خلاله أن الكتّاب يمكن أن يعطوا أجوبة مختلفة هو: هل حصل التقدم في التاريخ؟ هل صحيح أن الفعل العام للتغيرات التاريخية هو باتجاه تحسن الشروط الإنسانية؟ يوجد ثلاثة أجوبة مختلفة أساساً لهذا السؤال وضعت بشكل متصاعد في أدبيات الموضوع: (1) نعم (2) لا (3) لا نعرف. وعلى كل حال يوجد عدد من الطرق المختلفة لقول نعم، وعدد من الطرق المختلة لقول لا. وعلى الأقل ثلاثة طرق مختلفة لقولنا: نحن لا نستطيع أن نعرف عما إذا كان التقدم الإنساني قد حصل أم لا.

إن الأجوبة المتداخلة والمتعددة تتألف مما قررنا أن ندعوه الاختلاف العام عن التقدم. إنه عام بمعنى كل كاتب درسناه ولديه شيء هام يقوله عن الموضوع يأخذ جوانباً من المسائل المختلفة التي يمكن أن تتحد من خلالها. لكن هناك أيضاً اختلاف خاص عن التقدم الذي وضع من خلال مسائل هي مجتمعة فقط بكتّاب التقدم. الكتّاب الذين يؤكدون أن التقدم قد حصل. هذه المسائل تتناول طبيعة التقدم وخواصه، التقدم الذين كلهم من خلال كونهم كتّاباً عن التقدم يؤكدون بأنه يكون حقيقة التاريخ. ويوجد هنا ثلاثة مسائل فقط، بالرغم من أن نقاش كل منهم هو معقد. وبالمستطاع وضعهم كأسئلة.

(1) هل التقدم ضروري أم أنه متوقف على حوادث أخرى؟

(2) هل سيستمر التقدم إلى ما لا نهاية أم أنه سيصل إلى نهاية في آخر الأمر (مرحلة استقرار).

(3) هل يوجد تقدم بالطبيعة الإنسانية بالإضافة إلى المؤسسات الإنسانية؟

أي بالإنسان ذاته باعتباره حيواناً ناطقاً، أم على الأغلب في الشروط الخارجية للحياة الإنسانية؟

وأخيراً هناك مجموعة من المسائل الثانوية كما ندعوها، ومرة أخرى بين كتّاب التقدم فقط، وهذه المسائل تبحث في الاعتبارات التي يحدث من خلالها التقدم. وقد حددنا ستة حلول يحدث من خلالها التقدم كما قال بعض الكتّاب، بالرغم من أن كتّاباً آخرين ينكرون حدوث التقدم في واحد أو أكثر من هذه الحقول. بالرغم أيضاً من أنهم ليسوا جميعهم (حيث أنهم ومن خلال التعريف هم الكتّاب الذين أكدّوا بعض أنواع من التقدم). إن هذه الحقول الستة هي:

1) التقدم المعرفة.

2) التقدم التقني.

3) التقدم الاقتصادي.

4) التقدم السياسي.

5) التقدم الأخلاقي.

6) التقدم في الفنون الجميلة.

إن مناقشة الحقل السادس - التقدم في الفنون الجميلة - يظهر مشاكل خاصة حيث أنه لا يوجد كاتب أكّد بصدق أن مثل هذا التقدم الفني قد حصل بالرغم من أن عدداً من الكتّاب قد أنكروا أن التقدم قد حصل في هذا الاعتبار.

إن تركيب تحليل التقدم الذي وصفناه يضرب مثلاً على جهدنا في تعريف المسائل ضمن مناقشات هذا الموضوع وتحليل المناقشات ذاتها. وبتعبير آخر أن نأخذ الخطوات الرابعة والخامسة في القراءات الموجهة لموضوع واحد وأشياء مشابهة لذلك يجب أن تنجز من خلال قارىء القراءات الموجهة لموضوع واحد، بالرغم من أنه طبعاً غير ملزم دائماً أن يكتب كتاباً مطولاً يظهر فيه نتيجة أبحاثه.

إذا قرأت هذا الفصل بتمعن فسوف تلاحظ أنه بالرغم من أننا صرفنا وقتاً من الزمن في مناقشته فإننا لم نحل تماماً ما دعوناه التناقضات الظاهرية في القراءات المتزامنة الموجهة لموضوع واحد. هذا التناقض يمكن أن يوضع كالتالي: إذا لم تكن تعرف ما هي الكتب التي يجب أن تقرأها، فإنك لن تستطيع أن تقرأ القراءة المتزامنة لموضوع واحد، ولكن أيضاً إذا لم يكن باستطعاتك القيام بالقراءات المتزامنة للموضوع الواحد فإنك لا تعرف ماذا تقرأ. وبتعبير آخر يأتي من خلال ما دعوناه المشكلة الأساسية في القراءات المتزامنة الموجهة لموضوع واحد، وهي تحديداً: إذا لم تكن تعرف من أين تبدأ فإنك لا تستطيع القراءة في هذا المستوى، وحتى لو كان لديك فكرة أولية من أين تبدأ، فإن الوقت المتطلب لإيجاد الكتب الملائمة والخطوط المشتركة في هذه الكتب يمكن أن يتجاوز الوقت المطلوب لاتخاذ كل الخطوات الأخرى المشتركة.

طبعاً يوجد على الأقل حل نظري لهذا التناقض وحل للمشكلة. نظرياً أنت تعرف الأدبيات الرئيسية في تراثنا بشكل عام، ويمكنك من خلال هذه المعرفة أن يكون لديك مفهوم عملي أين نوقشت كل فكرة في هذا التراث، ولكنك إذا كنت هذا الشخص فإنك لن تكون بحاجة لمساعدة من أي شخص ونحن لا نستطيع أن نخبرك أي شيء لا تعرفه عن القراءات المتزامنة لموضوع واحد.

وبالمقابل حتى ولو كنت لا تملك هذه المعرفة بنفسك، فإنك يمكن أن تكون قادراً على الاتجاه لشخص آخر يملك تلك المعرفة. ولكن يجب أن تميز أنك إذا طلبتها من مثل هذا الشخص، فإن نصيحته يمكن أن تنقلب لتكون على الأغلب عائقة بقدر ما هي مساعدة. فإذا كان الموضوع واحداً من الموضوعات التي قام بأبحاث خاصة بها، فإنه يكون من الصعب عليه على الأغلب أن يخبرك عن الخطوط الملائمة لتقرأها بدون أن يخبرك كيف تقرأها. وهذا ما يمكن أن يعترض طريقك.

ولكن إذا لم يكن قد قام بأبحاث خاصة عن الموضوع، فمن المحتمل أنه لا يعرف شيئاً أكثر منك. بالرغم من أنه يمكن أن يبدو كذلك بالنسبة له ولك.

إن ما نحتاج إليه هو كتاب مرجعي يخبرنا أين نذهب ونجد الخطوط الملائمة لعدد كبير من الموضوعات ذات الاهتمام دون أن يخبرنا بنفس الوقت كيف يجب أن تقرأ هذه المقاطع. وبدون الحكم المسبق على معناها وأهميتها. إن «السينتوبكون» مثل عن مثل هذا العمل. وقد أنتج في الأربعينات من هذا القرن. إنه فهرس موضوعات لمجموعة من الكتب التي تقع تحت عنوان «الكتب العظيمة للعالم الغربي» وتحت هذا العنوان يقع كل من الثلاثة آلاف موضوع تقريباً التي أدرجت إحالات مرجعية لصفحات ضمن المجموعة حيث نوقش ذلك الموضوع. إن بعض هذه المراجع هي لمقاطع تغطي صفحات عديدة والأخرى هي للفقرات الرئيسية أو حتى لأجزاء من هذه الفقرات. ولا يأخذ ذلك وقتاً لتجدها أكثر مما تحتاج لأن تذهب وتختار الجزء المشار إليه وتقلّب صفحاته.

إن «السينتوبيكون» لديه عيب رئيسي واحد بالطبع، إنه فهرس لمجموعة واحدة من الكتب (وإن تكن مجموعة كبيرة) ويعطي فقط اتجاهات أولية جداً حول مكان وجود خطوط الموضوع في الكتب الأخرى التي هي غير مشمولة في المجموعة. وبالرغم من ذلك فإنها تقدم لك دائماً وعلى الأقل مكاناً تبدأ منه في أي مشروع للقراءات المتزامنة لموضوع واحد. وإنه صحيح أيضاً أن الكتب المشمولة في المجموعة هي التي ترغب دائماً بقراءتها كلها تقريباً في معرض مشروع كهذا. وهكذا فإن «السينتوبيكون» يوفر على الطالب الناضج والقارىء الذي يبدأ بحثه في مشكلة معينة كثيراً من العمل التمهيدي في البحث ويتقدم به سريعاً إلى النقطة حيث يستطيع البدء بالتفكير المستقل عنه لأنه يعرف ما هو العمل الفكري الذي أنجز في هذا الموضوع.

إن «السينتوبيكون» مفيد لذلك النوع من القراء، وهو أكثر فائدة

للمبتدئين؛ لأنه يستطيع مساعدة مثل هؤلاء القراء من خلال ثلاثة طرق: تمهيدياً وترغيبياً وتعليمياً.

إنه يعمل تمهيدياً من خلال تذليل الصعوبات الابتدائية التي يواجهها أي فرد عندما يجابه بالكتب الكلاسيكية في تراثنا، وهذه الأعمال على شيء من الصعوبة ونتمنى لو كنا قرأناها ولكننا على الأغلب لا نفعل ذلك، ونجد أنفسنا أننا قد نُصحنا من قبل الكثيرين أن نقرأها، وكثيراً ما نعطي برامج قرائة مبتدئة بالكتب الأكثر سهولة ويتدرج حتى نصل إلى الكتب الأكثر صعوبة. لكن كل هذه البرامج تتطلب قراءة الكتب كلها أو على الأقل قراءات متكاملة لأجزاء كثيرة منها. وإنه مصنوع من خلال الخبرة العامة وإن مثل هذا النوع من الحل نادراً ما يؤتي النتيجة المتوخاة. إن القراءات الموجهة لمثل هذه الأعمال الأساسية ومن خلال مساعدة «السينتوبيكون» يقدم حلاً ذا اختلاف جذري. «فالسينتوبيكون» يمهد لقراءة الكتب العظيمة من خلال تمكين الأفراد من قراءة كتب معينة عن الموضوعات التي يهتمون بها، وأن يقرؤوا المقاطع القصيرة نسبياً عن هذه الموضوعات ولعدد كبير من الكتاب، إنه يساعد في قراءة مضمون هذه الكتب العظيمة قبل قراءتها كلها.

إن القراءة الموجهة للكتب العظيمة بمساعدة «السينتوبيكون» يمكن أن تقوم بدور ترغيبي لقراءة هذه الكتب من قبل مبتدىء مع اهتمام القارىء بموضوع معين ويمكن أن ينشىء اهتماماً آخراً بموضوعات ذات علاقة بموضوعه الأصلي. وعندما تبدأ بكاتب فإنه لن يكون صعباً أن تكتشف بيئة الموضوع. وسوف تكون قد قرأت جزءاً كبيراً من الكتاب دون أن تدري.

وأخيراً فإن القراءات الموجهة الموضوع وبمساعدة «السينتوبيكون» يعمل بشكل تعليمي وذلك بثلاثة طرق مختلفة. وهذه في الحقيقة واحدة من الفوائد الأساسية في هذا المستوى من القراءة.

أولاً: إن الموضوع من خلال ارتباطه بخطوطه الأساسية يخدم في أن

يعطي اتجاهاً للقارىء في تبين وتفسير هذه الخطوط، ولكنها لا تقول له ماذا تعني هذه الخطوط. حيث أن هذه الخطوط يمكن أن تكون ملائمة للموضوع من خلال العديد من الطرق المختلفة. وحيث أن القارىء مدعو لاكتشاف الخيوط ذات الصلة بالموضوع والتي تربطه بدقة، وكي يتعلم كيف يفعل ذلك عليه أن يكتسب المهارات الرئيسية في فن القراءة.

ثانياً: إن جمع عدد من النقاط عن الموضوع نفسه من كتب مختلفة ولكتّاب مختلفين يخدم في تعزيز قدرة القارىء على تحديد الخيوط الأساسية فيما قرأ. وأحياناً عندما تقرأ النقاط الرئيسية لكتاب ما في تسلسل وسياق معينين فإن كلاً من هذه النقاط تصبح أوضح. وفي بعض الأحيان فإن معنى كل سلسلة من النقاط المتعارضة أو المتصارعة للكتب المختلفة تؤكد عندما تُقرأ كل فكرة وتقابل بنقيضها. وأحياناً أخرى عندما توضع الخيوط الأساسية لكاتب ما في درس أو تعليق من قبل كاتب آخر فإن ذلك يساعد بشكل أساسي في فهم الكاتب الثاني.

ثالثاً: إن القراءات الموجهة عندما تنجز لعدد من الموضوعات المختلفة فإنه في الحقيقة غالباً ما توجد نفس النقاط مذكورةً في «السينتوبيكون» تحت موضوعين أو أكثر ويكون له تأثير تعليمي. ويكون لهذه الخيوط معنى واسع سوف يدركه القارىء عندما يفسرها بشكل مختلف إلى حد ما في علاقاتها بالموضوعات المختلفة. إن هذا التفسير المتعدد ليس في تمرين أساسي في فن القراءة لكنه أيضاً ينمو لتمرين الذهن ليكون متيقظاً للأصول المتعددة للمعنى والتي تحتويها أية نقطة غنية أو معقدة في الكتاب. ولأننا نعتقد أن «السينتوبيكون» يمكن أن يكون مفيداً لأي قارىء يرغب في القراءة بالطريقة التي وصفناها في هذا الفصل وليكن هذا القارىء مبتدئاً أو طالباً متقدماً أو باحثاً فقد أخذنا حرية اختيار اسمه لهذا المستوى من القراءة. ونأمل أن يعذرنا القارىء فيما يبدو اتباعاً قليلاً لأهوائنا في ذلك. وهذه المعذرة بالمقابل سوف نشير إلى حقيقة هامة وهي أنه يوجد فارق كبير بين الموجهة (syntopical

(Syntopical reading) مع ملاحظة أن حرف «s» هو حرف صغير وبين (Syntopical reading) مع ملاحظة أن حرف «S» هو حرف كبير، حيث تشير الكلمة الأخيرة إلى قراءة الكتب العظيمة بمساعدة «السينتوبيكون». إن القراءة الموجهة الموضوع بالمعنى الأخير «S كبيرة» تتألف كجزء من أي مشروع قراءات موجهة حيث تستعمل العبارة بمعناها الأسبق (s صغيرة) وربما يكون من الحكمة أن تبدأ القراءة على هذا النحو. لكن القراءات الموجهة (s صغيرة) هي عبارة لتطبيقات أوسع من القراءات الموجهة (S كبيرة) ـ أي بعدم مساعدة «السينتوبيكون».

حول المبادىء التي تشكل القراءات موجهة الموضوع

هناك من يقول أن القراءات موجهة الموضوع، بمعناها الواسع الذي ذكرناه هي قراءة مستحيلة. وإنه لمن الخطأ ـ كما يقولون ـ أن نشكل تعابيرنا حتى ولو كانت محايدة عن كاتب ما حتى لو وجد شيء من هذا القبيل ويقولون: إن تعابير الكاتب يجب أن تعامل وكأنها مقدسة، لأن الكتب يجب ألاّ تقرأ خارج سياقها ولا أن تحمل أكثر من معناها. وبالإضافة إلى ذلك فإن الترجمة من مجموعة من التعابير إلى مجموعة أخرى هو خطر دائماً لأن الكلمات لا يمكن ضبطها مثل الرموز الرياضية. ويقول المعترضون أيضاً: أن القراءات الموجهة الموضوع تشمل كتّاباً منفصلين بشكل واسع من حيث الزمان والمكان ويختلفون أيضاً في الأسلوب وطريقة تناول الموضوع، كما لو أنهم أعضاء في نفس عالم الفكر ويتحدثون لبعضهم البعض، وهذا ما يشوّه حقائق القضية، إن كل كاتب هو عالم قائم بذاته، بالرغم من أنه يمكن أن يوجد ترابط لكتب مختلفة كتبت من قبل نفس الكاتب في أوقات مختلفة. ويحذرون من خطر هذا أيضاً، فإنه لا يوجد ترابط واضح يجمع كاتب ما بكاتب آخر، وأخيراً يقولون أيضاً بأن الموضوعات التي يبحثها الكتّاب هي ليست بأهمية الطرق التي يناقشون من خلالها. إنهم يقولون: إن الأسلوب هو الأساس، وإذا تجاهلت كيف يقول الكاتب شيئاً ما من خلال عملية اكتشاف ما يقوله فإننا سنفقد كلاً من نوعي الفهم.

إننا يجب أن نكون واضحين في أننا لا نتفق مع هذه المآخذ، وبالتالي فإنه يوجد جواب لكل منها، دعنا نتناول هذه المآخذ واحدة تلو الأخرى:

أولاً: المسألة التي تبحث في انفصال الكتاب وفرديته. وأن تقول بأن أرسطو على سبيل المثال يسير في مكاتبنا ويرتدي أثوابه بدون شك، ويرافقه مترجم يعرف كلاً من اللغة الإنكليزية الحديثة واللغة اليونانية القديمة، فإننا لن نكون قادرين على فهمه أو أنه لن يكون قادراً على فهمنا، ونحن ببساطة لا نصدق ذلك، وسوف يدهش أرسطو دون شك في بعض الأشياء التي يراها ولكننا واثقون تماماً أنا في خلال عشرة دقائق نستطيع إذا أردنا أن ننخرط في مناقشات فلسفية للمسائل التي نشترك بها. ومن الممكن أن توجد صعوبات متكررة على مفاهيم معينة، ولكن حالما نلحظها فإننا نستطيع أن نحلها.

إذا كان ذلك ممكناً، ونحن لا نعتقد في الحقيقة أنه يوجد من ينكر ذلك، فإنه من غير المستحيل أن «يخاطب» كتاب كتاباً آخر من خلال وسيلة التفسير والترجمة، وبالتحديد أنت يا قارىء القراءات الموجهة الموضوع. إن التأني مطلوب بالطبع وعلينا أن نعرف كلتا اللغتين، أي كلا الكتابين، إلى أقصى ما نستطيع، لكن المسألة ليست من النوع الذي لا يقهر وببساطة: إنه من السخف أن نظن أنها كذلك.

وأخيراً حول مسألة الطريقة أو الأسلوب:

ونحن نظن أن هذه مساوية لأن نقول بأنه لا يوجد اتصال منطقي بين البشر وأن كل الاتصالات بين البشر هي على المستوى العاطفي الذي هو على نفس المستوى الذي يحدث من خلاله الاتصال مع حيوان أليف. إذا قلت: «أحبك» لكلبك بنبرة وصوت غاضب، فإن الكلب سوف يجثم خائفاً، ولكنه سوف لا يفهمك. هل يستطيع أي فرد أن يؤكد جاداً أنه لا يوجد شيء غير نبرة الصوت أو إيماءاته في الاتصال الصوتي بين اثنين من البشر؟

إن نبرة الصوت شيء هام وخاصة عندما تكون العلاقات العاطفية هي المحتوى الأساسي في هذا الاتصال. ونسيج اللغة على الأغلب لديه أشياء

يخبرنا عنها إذا أصغينا، ولكن يوجد شيء آخر أيضاً في الاتصالات الإنسانية. فإذا سألنا شخصاً كيف نصل إلى الباب؟ وأخبرنا أننا يجب أن نتبع الممشى (ب) فلا تهمنا نبرة الصوت التي يستخدمها، إنه إما على صواب أو على خطأ، إنه إما يكذب أو يخبرنا الحقيقة. والمسألة في ذلك أننا سوف نكتشف ذلك بسرعة إذا سرنا في الممشى (ب)، إنك فهمت ما قاله هذا الشخص بالإضافة إلى رد فعلك تجاه ذلك ولا يوجد شكوك في كل أنواع الطرق التي قالها هذا الشخص.

وعند هذا الحد نحن نعتقد أن الترجمة ممكنة (لأنها تجري دائماً) وأن الكتب يمكن أن «تتحدث» فيما بينها (لأن البشر يفعلون ذلك) وأنه يوجد محتوى منطقي وموضوعي في الاتصالات بين الكائنات البشرية عند محاولتها أن تكون منطقية، لأننا نتعلم ونستطيع أن نتعلم من الآخرين، إذاً نحن نؤمن بأن القراءات الموجهة الموضوع شيء ممكن.

ملخص القراءات موجهة الموضوع

لقد أكملنا الآن مناقشاتنا عن القراءات موجهة الموضوع؛ لذا دعنا نعرض الخطوات المختلفة التي يجب أن تتبع في هذا المستوى من القراءة بشكل مختصر:

كما رأينا هناك مرحلتين رئيسيتين في القراءات الموجهة: الأولى تحضيرية، والأخرى القراءات الموجهة بحد ذاتها، ودعنا نكتب كل هذه الخطوات للمراجعة.

I تقصي حقل المعرفة تمهيداً للقراءات الموجهة

1 ـ أنشىء قائمة بيبلوغرافية مؤقتة عن موضوعك من خلال الاستعانة بكشافات المكتبة وأمناء المكتبات والكتب البيبلوغرافية.

2 ـ تفحّص كل الكتب الموجودة بقائمتك البيبلوغرافية المؤقتة للتأكد من أنها

وثيقة الصلة بموضوعك وللحصول أيضاً على فكرة أوضح عن الموضوع.

ملاحظة: إن هاتين الخطوتين ليستا منفصلتين زمنياً بشكل جازم، بمعنى أن هاتين الخطوتين لديهما تأثير على بعضهما البعض، والخطوة الثانية بشكل خاص تخدم في تعديل الخطوة الأولى.

II القراءات الموجهة الموضوع

من خلال القائمة البيبلوغرافية التي نتجت عن المرحلة الأولى

1 ـ تفحص الكتب التي حددتها مناسبة لموضوعك في المرحلة الأولى من أجل إيجاد الخطوط الوثيقة الصلة بالموضوع.

2 ـ حدد مصطلحات كتّابك من خلال إنشاء مصطلحات محايدة عن الموضوع يمكن أن يفسّر فيها كل الكتّاب أو الغالبية العظمى منهم مستخدمين لها سواء استعملوا هذه الكلمات فعلياً أم لا.

3 ـ أنشىء مجموعة من الافتراضات المحايدة لكل الكتّاب من خلال وضع إطار لمجموعة من الأسئلة التي يفسر من خلالها كل الكتّاب أو معظمهم على أنهم قد أعطوا إجابات لها سواء عالج الكتاب هذه الأسئلة بشكل صريح أم لا.

4 ـ عرّف كلاً من المسائل الرئيسية والثانوية من خلال الإجابات المتعارضة للكتاب سواء كانت في هذا الجانب من المسألة أم في ذلك الجانب. ويجب أن تتذكر أن المسألة لا توجد دائماً بشكل صريح بين الكتاب ولكن قد تنشأ أحياناً من خلال تفسير وجهة نظر الكاتب للموضوع الذي قد لا يكون موضوع عنايته الأساسية.

5 ـ حلل المناقشات من خلال ترتيب الأسئلة والمسائل بطريقة تلقي أكبر قدر من الضوء على الموضوع. إن المسائل الأكثر عمومية يجب أن تسبق تلك

التي أقل منها رتبة من حيث العمومية. كما أن العلاقة بين المسائل يجب أن يشار إليها بوضوح.

ملاحظة: إن التجرد الجدلي والموضوعية يجب المحافظة عليهما خلال هذا العمل على النحو الأمثل، والطريقة الوحيدة للتأكد من ذلك هي إرفاق وجهات نظر الكاتب وتفسيراته عن المسألة من خلال الاقتباس الفعلي لنصوصه.

الفصل الحادي والعشرون

القراءة والنمو العقلي

لقد أكملنا الآن الهدف الذي وضعناه في بداية هذا الكتاب. لقد أظهرنا أن النشاط هو جوهر القراءة الجيدة، وأن القراءة الأكثر فعالية هي القراءة الأفضل لقد عرّفنا القراءة الفعالة من خلال أسئلة، وقد أشرنا أن الأسئلة يجب أن تسأل لأي كتاب، وكيف يجب أن يُجاب عليها بطرق مختلفة تبعاً للأنواع المختلفة من الكتب.

لقد حددنا وناقشنا أربعة مستويات للقراءة، وأظهرنا كيف أن هذه المستويات الأربعة تراكمية، فالمستويات الأولى أو الأخفض متضمنة في المستويات الثانية أو الأعلى. ونتيجة لقصدنا الذي أوضحناه، فقد أعطينا أهمية أكبر للمستويات التالية أو الأعلى للقراءة بالنسبة للقراءة في المستويات الأدنى أو الأخفض. ولذا فقد ركزنا على القراءة التحليلية أكثر من القراءات في المستويات الأدنى. وحيث أن القراءة التحليلية هي على الأغلب نوع غير مألوف لمعظم القراء فقد ناقشناها باستفاضة أكبر من أي من المستويات الأخرى، لقد ذكرنا قواعدها وشرحناها بالترتيب الذي يجب أن يتبع. ولكن كل ما قلناه تقريباً عن القراءة التحليلية يمكن أن يطبق أيضاً مع تكييفات معينة ذكرناها في الفصل الأخير على القراءات الموجهة الموضوع أيضاً.

لقد أكملنا هدفنا، ولكن يمكن أن لا تكون أنت قد أكملت هدفك، ونحن لا نحتاج أن نذكر أن هذا الكتاب كتاب تطبيقي ولأن قارىء الكتاب التطبيقي لديه التزامات خاصة في هذا الخصوص، وإذا قلنا أن قارىء الكتب التطبيقية يقبل بالنتائج المتوخاة ويوافق على الوسائل الموصى بها بأنها هي

الملائمة والفعالة فإنه يجب أن يتصرف وفقاً للطرق المذكورة. ويمكن أن لا تقبل الهدف الأساسي الذي اقترحناه، وهو تحديداً أنَّك يجب أن تكون قادراً على القراءة لأقصى مدى ممكن، ولا على الوسائل التي اقترحناها للوصول إلى هذه الغاية، وهي تحديداً قواعد القراءة التفحصية والتحليلية والقراءات الموجهة الموضوع. (في هذه الحالة فإنك على الأرجح لن تصل لقراءة هذه الصفحة إن كنت لا تُقر بهذه القواعد). ولكن إذا كنت تقبل ذلك الهدف وتوافق بأن الوسائل المقترحة هي الملائمة لتحقيق ذلك الهدف فإنك عند ذلك يجب أن تقوم بجهد للقراءة هو غالباً لم تقم به سابقاً.

هذا هو هدفك والتزامك. هل نستطيع أن نساعدك بأية طريقة؟

نحن نعتقد بأننا نستطيع ذلك. والهدف يقع أساساً على عاتقك - إنك أنت من الآن فصاعداً الذي يجب أن تقوم بكل العمل (وأن تحصل على كل فائده). ولكن بقي أن نقول بضعة أشياء عن النتائج والوسائل. دعنا نبحث أولاً ماذا يمكن أن تقدمه لنا الكتب الجيدة؟

إن كلمة «الوسائل» يمكن أن تفسر بطريقتين، ففي الفقرة السابقة فسَّرنا العبارة من خلال الإشارة إلى قواعد القراءة أي «بالطرق» التي من خلالها نصبح قارئين جيدين، ولكن كلمة «الوسائل» يمكن أن تفسر بالإشارة إلى الأشياء التي تقرؤها. والحصول على الطرق دون الحصول على المواد التي يمكن أن تطبق عليها هذه الطرق هو عديم الفائدة تماماً كالحصول على المواد دون الحصول عل الطرق التي تطبق على هذه المواد.

وبالمعنى الأخير للعبارة فإن الوسائل التي سوف تخدمك في تحسين قراءتك هي الكتب التي سوف تقرؤها. وقد قلنا: إن هذه الطرق تطبق على أي شيء تقرؤه، وهذا صحيح إذا فهمت من خلال العبارة «أي نوع من الكتب» وما إذا كانت خيالية Fiction أو غير خالية Nonfiction، تخيلية Imaginative. أو تفسيرية Expository، تطبيقية Pratical أو نظرية THeoritical. ولكن في الواقع

فإن الطرق على الأقل كما ذكرنا في مناقشاتنا للقراءة التحليلية أو القراءات الموجهة الموضوع، إن هذه الطرق لا تطبق على أي كتاب والسبب في ذلك أن بعض الكتب لا تحتاج إلى ذلك.

ولقد أشرنا إلى هذه النقطة من قبل، ونود أن نشير إليها هنا أيضاً، لأنها وثيقة الصلة بالهدف الملقى على عاتقك. فإذا كنت تقرأ لتصبح قارئاً جيداً فإنك لا تستطيع أن تقرأ أي كتاب أو مقالة لأنك لن تتحسن كقارىء إذا كان كل ما تقرؤه هو كتب تقع ضمن طاقتك، إنك يجب أن تعالج الكتب التي فوق طاقتك أو كما قلنا، الكتب التي هي أعلى من مستواك الذهني.

إن كتباً من هذا النوع فقط يمكنها أن توسّع ذهنك، وإذا لم يتسع ذهنك فإنك لن تتعلم، وهكذا فإنه يصبح من الضروري وبشكل حاسم بالنسبة لك، ليس فقط أن تكون قادراً على القراءة بشكل جيد ولكن أيضاً أن تكون قادراً على التعرف على هذه الكتب التي تتطلب جهداً منك والتي يحتاجها التحسن في قابلية القراءة. إن الكتاب الذي لا يفعل أكثر من أن يسليك تحويل لطيف لساعات الكسل، ولكن يجب أن لا تتوقع أن تحصل منه على أي شيء سوى التسلية، ونحن لسنا ضد التسلية بحد ذاتها، ولكننا نريد أن نؤكد أن التحسن في مهارات القراءة لا يصاحبها، والشي نفسه من فهمك لهذه الحقائق. إن القراءة من أجل المعلومات لا يوسع ذهنك أكثر من القراءة بهدف التسلية. وبالرغم من أنه يبدو أن هذا النوع من القراءة يتوسع بذهن القارىء، لكن ذلك فقط بسبب أن ذهنك قد امتلأ بالحقائق التي لم تكن موجودة قبل قراءة الكتاب، وعلى كل حال فإن ذهنك ظل أساساً بالشروط نفسها التي كان عليها من قبل، لقد حدث تغير كمي وليس تحسناً في مهاراتك.

لقد قلنا مرات عديدة: إن القارىء الجيد هو الذي يقوم بنفسه بمجهودات عندما يقرأ، فهو يقرأ بمجهود وفعالية. والآن نريد أن نقول شيئاً آخر: إن الكتب التي تريد أن تمارس من خلالها القراءة وبشكل خاص القراءة التحليلية يجب أن تلقي عليك متطلبات أيضاً. إنها تبدو أبعد من طاقتك، ويجب أن

لا تخشى أنها هي كذلك في الحقيقة، لأنه لا يوجد كتاب خارج سيطرتك تماماً إذا طبّقت عليه قواعد القراءة التي وصفناها. وهذا لا يعني بالطبع أن هذه القواعد سوف تنجز معجزات آنية لك. يوجد هناك بعض الكتب المعينة التي سوف تستمر بإجهادك بغض النظر عن مدى كونك قارئاً جيداً. وفعلياً فهذه هي الكتب التي يجب أن تبحث عنها لأنها هي الكتب التي تستطيع أن تقدم أفضل مساعدة لك لتصبح قارئاً ماهراً أكثر من أي وقت مضى.

إن بعض القراء يخطئون عندما يفترضون أن مثل هذه الكتب ـ الكتب التي تقدم تحديات مستمرة ولا نهائية لمهاراتهم ـ هي دائماً التي تبحث في الميادين غير المألوفة نسبياً. وفي الواقع فإنه يُعتقد، في حالة معظم القراء، على الكتب العلمية فقط وربما الكتب الفلسفية تقع ضمن هذا المعيار، لكن هذه ليست هي الحالة، لقد نوهنا سابقاً أن الكتب العلمية العظيمة بأحوال عديدة هي أسهل للقراءة من الكتب غير العلمية، نظراً للعناية التي يوليها كتّابها لمساعدتك في التفاهم معهم بتحديد الافتراضات الأساسية وإبراز المناقشات الرئيسية. إن هذه المساعدات غائبة من الأعمال الشعرية وإنها على المدى الطويل، تنحو لأن تكون على الأرجح الأصعب والأكثر إجهاداً من حيث القراءة. إن قراءة هوميروس مثلاً هي أصعب بأحوال عديدة من قراءة نيوتن مع أنك يمكن أن تنتج أكثر في قراءة هوميروس للمرة الأولى، والسبب في ذلك أن هوميروس يبحث في موضوعات من الصعب الكتابة عنها.

إن الصعوبات التي نتكلم عنها هنا مختلفة كلياً عن الصعوبات التي تعرض في كتاب سيء. وإنه لمن الصعب أن تقرأ كتاباً سيئاً لأنه يتحدى جهودك في تحليله، إنه ينساب من بين أصابعك عندما تظن أنك أمسكت به، وفي الحقيقة لا يوجد ما تمسك به في حالة الكتاب السيء، ولا يستحق جهد المحاولة أيضاً، ولن تحصل على مكافأة لجهودك.

إن الكتاب الجيد يكافئك في محاولة قراءته، والكتب الجيدة تكافئك أكثر من أي شيء، والمكافأة على نوعين: أولاً يوجد تحسن في مهارات قراءتك

والتي تحدث عندما تعالج بنجاح عملاً جيداً وصعباً. ثانياً ـ وهذه على المدى الطويل هي أكثر أهمية ـ إن الكتاب الجيد يُعلمك عن العالم وعن نفسك. أنت تتعلم أكثر من كيفية القراءة بشكل أفضل لأنك تتعلم أكثر عن الحياة وتصبح حكيماً وليس فقط حسن الاطلاع. إن الكتب التي لا تعطي شيئاً غير المعلومات تستطيع أن تعطي هذه النتيجة. ولكن أن تكون حكيماً يعني أنك أصبحت عارفاً بشكل أعمق الحقائق العظيمة والثابتة في حياة البشر.

هناك بعض المشاكل الإنسانية هي رغم كل شيء ليس لها حلول، وهناك بعض العلاقات بين البشر وأيضاً بين الكائنات البشرية والعالم غير البشري، ولا يوجد أحد لديه الكلمة الفصل في هذا الموضوع. وهذا شيء صحيح ليس فقط في ميادين مثل العلوم والفلسفة حيث من الواضح أن الفهم الأخير عن الطبيعة وقوانينها وعما هو كائن وما سيكون، إن هذه الموضوعات المألوفة واليومية مثل العلاقة بين الرجال والنساء والآباء والأبناء وبين الإنسان وربه، هذه الموضوعات التي لا تستطيع أن تفكر بها كثيراً أو بشكل جيد. والكتب الأعظم هي التي تستطيع أن تساعدك في التفكير بشكل أفضل عنها لأنها كتبت من قبل رجال ونساء فكروا بشكل أفضل من بقية الناس في هذه الموضوعات.

أهرام من الكتب

إن الغالبية العظمى لعدة ملايين كتاب التي كتبت في التراث الغربي فقط ـ أكثر من 99 بالمئة منهم ـ لن تتطلب جهداً كبيراً من قبلك لتحسين مهاراتك في القراءة وهذه تبدو حقيقة مؤلمة، وهذه النسبة تبدو وكأنه مغالى بها ولكن من الواضح ومع الأخذ بالاعتبار الرقم المعني فإن هذا حقيقي. توجد كتب تقرؤها فقط إما من أجل التسلية أو من أجل المعلومات. إن التسلية يمكن أن تكون على أنواع كما أن المعلومات ممتعة في كل الأحوال. ولكن يجب أن تتوقع أنك لن تتعلم أي شيء ذا أهمية من هذه الكتب. وفي الواقع لا يتوجب عليك أن تقرأها قراءة تحليلية على الإطلاق. إن تصفحها كافٍ.

وهناك نوع ثانٍ من الكتب التي يمكنك أن تتعلم من خلالها ـ تتعلم كيف تقرأ وكيف تحيا. إن أقل من واحد في كل مائة كتاب ينتمي لهذا النوع ـ بل على الأغلب واحداً في كل ألف كتاب، بل حتى واحداً في كل عشرة آلاف كتاب يشملها هذا النوع من الكتب. إن هذه كتب جيدة كتبت بتأنٍ من قبل كتّابها، إنها كتب توضح لقرائها رؤيا هامة عن الموضوعات ذات الأهمية الثابتة للكائنات البشرية. ويوجد من هذه الكتب على الأغلب ليس أكثر من بضعة آلاف كتاب. وتتطلب جهداً صارماً من قبل قرائها. وهذه الكتب تستحق قراءة تحليلية. وإذا كنت قارئاً ماهراً فإنك لن تكون قادراً على استخراج كل ما فيها. والذي يمكن أن تعطيه هذه الكتب من خلال عملية قراءة واحدة وجيدة هو شيء كثير. إنها نوع من الكتب تقرؤها لمرة واحدة ثم تضعها على رف المكتبة. إنك تعلم لن تقرأها مرة ثانية، بالرغم من أنك قد تعود إليها لتستقصي نقاطاً معينة أو لتُنعش ذاكرتك بأفكار معينة أو بحلقات معينة. (وفي حالة هذه الكتب فإن الملاحظات التي تضعها على الهامش أو في أي مكان آخر من الجزء تكون ذات قيمة خاصة).

كيف تعلم أنك لن تقرأ أبداً مثل هذه الكتب مرة ثانية؟ أنت تعلم ذلك من خلال رد فعلك الذهني تجاه تجربة قراءتها. فهي توسّع مداركك وتزيد من فهمك. ولكن حيث أن مداركك قد توسعت وفهمك قد ازداد، فإنك تدرك من خلال هذه العملية، وبقدر كبير أو صغير من الحيرة والإبهام، أنك لن تتغير في المستقبل من خلال هذه الكتب أكثر مما تغيرت بالقراءة الأولى لهذا الكتاب. إنك تدرك أنك قد استوعبت الكتاب بكليته. وقد استخرجت كل الحليب منه. إنك تشعر بالامتنان لما أعطاك ولكنك تعلم أيضاً أنه لم يبق شيء في الكتاب يمكنه أن يعطيك إياه.

من هذه بضعة آلاف كتاب يوجد رقم أصغر، وهنا هذا الرقم أقل من مائة كتاب على الأغلب، هذه الكتب لا يمكن أن تستنفذ بأفضل مهارات القراءة التي تُتبع. وكيف تتبيّن ذلك؟ ومرة أخرى يكون هذا الشيء لغزاً، ولكن عندما

تغلق الكتاب بعد قراءته قراءة تحليلية بأفضل قدر ممكن من قابليتك، وبعد أن تضعه على رف المكتبة، فإنه تنتابك شكوك خفية أنه يوجد في ذلك الكتاب أكثر مما أخذته منه. نقول «شكوك» لأن هذا كل ما يمكن أن يقال في هذه المرحلة. وإذا كنت تعرف ماذا قد أضعت من هذا الكتاب فإن واجبك، كقارىء تحليلي، يرجعك إلى الكتاب مباشرة لتبحث عما أضعت. وفي الحقيقة لا يمكنك أن تشير بأصبعك على هذا الشيء، ولكنك تعلم أنه موجود ضمن الكتاب. إنك تشعر بأنك لا تستطيع أن تنسى الكتاب، وأنك تستمر في التفكير فيه وتبرر فعلك تجاهه، وأخيراً فإنك تعود إليه، وعندها يحدث شيء غير عادي.

إذا كان الكتاب يندرج في فئة النوع الثاني من الكتب التي أشرنا إليها سابقاً، فإنك سوف تجد عندما تعود إلى الكتاب أنه يوجد به أقل مما يمكن أن يعطيه. والسبب في ذلك طبعاً أنك قد نَمَوْت في نفس الوقت الذي قرأته فيه وقد امتلأ فكرك وعظم فهمك. إن الكتاب لم يتغير ولكنك تغيرت. إن مثل هذه العودة للكتاب مخيبة للآمال حتماً.

ولكن إذا كان الكتاب ينتمي إلى الفئة الأعلى ـ عدد صغير جداً من الكتب التي لا ينضب محتواها ـ فإنك تكتشف عندما تعود للكتاب بأن الكتاب يبدو وكأنه قد نما معك. وأنك ترى أشياء جديدة به ـ مجموعات كاملة من الأشياء الجديدة ـ لم تكن تراها سابقاً. إن فهمك السابق للكتاب لم يكن ضعيفاً مفترضين أنك قرأته قراءة جيدة في المرة الأولى، وهذا شيء صحيح تماماً كما كان دائماً، وبالطرق نفسها التي كانت صحيحة فيما سبق. ولكن هذا صحيح الآن من خلال طرق أخرى أيضاً.

كيف يستطيع الكتاب أن ينمو كما تنمو أنت؟ إن هذا شيء مستحيل بالطبع، إن الكتاب عندما يكتب ثم ينشر فإنه لا يتغير. ولكنك الآن تدرك أن الكتاب كان أعلى من مستواك بكثير عندما قرأته وقد بقي أعلى من مستواك بعد قراءته ومن المحتمل أن يبقى كذلك دائماً حيث أنه في الحقيقة كتاب جيد ـ

كتاب عظيم كما يمكن أن نقول ـ إنه بالمتناول على مستويات مختلفة. إن انطباعك عن فهمك المتزايد له في قراءتك السابقة ليس انطباعاً خاطئاً، لقد رقى بك الكتاب عند تلك القراءة. ولكن الآن وبالرغم من أنك قد أصبحت حكيماً أكثر وذا سعة اطلاع أكبر فإن الكتاب يستطيع أن يرقى بك مرة ثانية وسوف يستمر بفعل ذلك حتى الممات.

ومن الواضح أنه لا توجد كتب عديدة يمكن أن تفعل ذلك لأي منا. وتقديراتنا أن مثل هذه الكتب هي أقل بكثير من مائة كتاب. ولكن الرقم أصغر من ذلك لأي قارىء معين. إن البشر يختلفون عن بعضهم بأشياء عديدة عدا عن قوة عقولهم. لديهم أذواق مختلفة. وأشياء مختلفة تغري شخصاً أكثر من سواه. إنك لا تشعر تجاه نيوتن بالشعور نفسه الذي تشعره تجاه شكسبير، إما لأنك قادر أن تقرأ لنيوتن بشكل جيد لدرجة أنك لا تريد أن تقرأ كتبه مرة ثانية أو لأن الأنظمة الرياضية للعالم ليس لها كل هذه الإغراءات لك. أو إذا كان لديك مثل هذه الإغراءات، فإن لنيوتن حفنة من الكتب العظيمة جداً لك وليس شكسبير (ينطبق مثل هذا القول على داروين أيضاً).

نحن لا نريد أن نضع بشكل جازم أي كتاب معين أو مجموعة من الكتب بأنها هي الكتب الجيدة لك، بالرغم من أننا قد وضعنا الملحق الأول الذي يحوي هذه الكتب التي أظهرت التجربة بأنها قادرة على احتواء هذه القيمة لقراء عديدين. إن الفكرة عوضاً عن ذلك هي أنك يجب أن تبحث بنفسك عن هذه الكتب القليلة التي لها مثل هذه القيمة لك. إنها الكتب التي سوف تعلمك أكثر عن كل من القراءة والحياة إنها الكتب التي تود العودة إليها المرة تلو الأخرى. إنها الكتب التي سوف تساعدك في النمو.

الحياة والنمو الفكري

يوجد اختبار قديم كان شائعاً في الجيل السابق، وقد صمم هذا الاختبار ليخبرك أي الكتب هي من ذلك النوع التي لا تمل قراءتها. يقول الاختبار:

إنك أُلقيت في جزيرة صحراوية تعيش فيها بقية حياتك، أو على الأقل لفترة طويلة منها. ولنفترض أنه لديك الوقت للتهيئة من أجل هذه التجربة، وأنه يوجد هناك مقالات معينة عملية ومفيدة أنت مقتنع من اصطحابك لها. وقد سمح لك أيضاً باصطحاب عشرة كتب. ما هي الكتب التي ستختارها؟

إن محاولة القرار سوف يكون من خلال قائمة كتب لتوجيهك ليس فقط من أجل مساعدتك في تحديد الكتب التي ترغب على الأغلب في قراءتها وإعادة قراءتها. وهذا في الحقيقة ذو أهمية صغرى لك بالمقارنة فيما يمكن أن تتعلمه عن نفسك عندما تتخيل ما ستكون عليه الحياة إذا انقطعت عنك كل مصادر التسلية والمعلومات والفهم الذي يحيط بك عادة. وتذكر أنه لن يوجد راديو أو تلفزيون في تلك الجزيرة ولا مكتبة يمكنك أن تستعير الكتب منها. ولن يكون هناك سوى أنت وهذه الكتب العشرة. إن هذا الظرف الخيالي يبدو غريباً وغير حقيقي عندما نفكر فيه. ولكن هل هو غير حقيقي فعلاً؟ نحن لا نظن ذلك، نحن كلنا مُلْقَون إلى حد ما في جزيرة صحراوية. ونحن كلنا مواجهون بالتحديات نفسها التي يمكن أن تواجهنا إذا ما وجدنا فعلاً على تلك الجزيرة وهذه التحديات لإيجاد المصادر الكامنة في ذواتنا كي نعيش حياة إنسانية لائقة.

هناك حقيقة غريبة عن العقل البشري. هذه الحقيقة التي تجعل العقل مختلفاً جداً عن الجسد. إن الجسد محدود بأشياء كثيرة بينما العقل غير محدود وعلامة ذلك أن الجسد لا يستمر في النمو إلى ما لا نهاية من حيث القوة وتنمية المهارات والجمال. وعندما يصل معظم الناس إلى الثلاثين من أعمارهم فإن أجسادهم تكون جيدة كما لم تكن من قبل، وفي الحقيقة فإن أجساد أشخاص عديدين تبدأ في التراجع في ذلك العمر، ولكن لا يوجد حدود لمقدار النمو والتطور الذي يستطيع أن يحرزه العقل. إن العقل لا يتوقف عن النمو في أي عمر معين، وفقط عندما يفقد الدماغ قوته في الشيخوخة يفقد العقل قواه في ازدياد المهارات والفهم.